

یحيیٰ

يحيى (رواية)

سميحة خريس (أدبية أردنية)

الطبعة العربية الثانية 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.



الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري (87)، ط.2.

هاتف: 797162720، 65620722 (+962)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

لوحة الغلاف: الفنانة رنا حتاملة / الأردن

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-428-3

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2021/12/6730)

813.03

خريس، سميحة علي

يحيى / سميحة علي خريس. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

ص (446)

ر.إ: 2021/12/6730

الواصفات: الروايات العربية // الأدب العربي // العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

سمیحة خریس

یحیی

983 - 1018 هجرية

الموافق، 1575 - 1610 ميلادية

رواية

إلى قلعة الحرية
وبابها؛ بكل قطرة دم يُدّك

الفصل الأول

جلجول

983 - 999 هجرية / 1575 - 1591 ميلادية

صاح الرجال وزعقت النسوة، ونبحت الكلاب بلا انقطاع كما لو كانت ذئاباً ضارية أنهكها الجوع فراحت تعوي في البرية، صار الأفق أحمر مغبراً، ارتبك الرجال وهم يشهدون انطفاء نار الحطب الذي أودعوه الخندق حول خربة «جلجول»، توجسوا من اجتياح الموت الأسود خيامهم؛ مثلما عاث موتاً في القرى المتناثرة حول الكرك، زاد في رعبهم سماعهم صرخات العويل القادمة من وراء أسوار القرية الكبيرة، كان الطاعون مدججاً بالخوف أكثر ممّا يوقعه من ضرر في الناس، قال واحد من رجال قرية «القصر» القريبة: إن الطاعون مر في الديار أكثر عنفاً وخبثاً قبل مئة عام، وإن ما يحدث في زمانهم هذا من العام تسعمائة وثلاثة وثمانين هجرية، مقارنة بما وصفه له جده عن جده، ليس إلا تذكارات صغيرة، وخزات عابرة من فعل أهل الأرض؛ أعدائنا من الجن والحن* الكفرة، وذهب به الأمر إلى القول إنهم (ويقصد تلك المخلوقات النارية) صاروا أكثر رافة بالبشر الذين خسروا أحباءهم، وعدوهم شهداء غضبوا من الاستهانة بأوجاعهم.

هجمت الرياح من الجهات الأربع مصفرة عاوية، واجتاحت الفيافي سعيراً مصحوباً بماء غاضب، تشقق وجه السماء برقاً ورعداً، وقال العجوز نفسه برعونة لا يمكن تصديقها: «إن المرض يولي».

* فئة من الجن.

لم يتصوروا أن بلية الطاعون التي حصدت الأرواح، وأصابت الناس بخواء وفزع، تتراجع أمام الريح والمطر، توهموا أنها باقية حتى تحصد آخر روح على الأرض.

تعثرت الدواب والأنعام والأنام متراكضين بحثاً عن مأوى وملاذ، اعتلى الصغار وأمهاتهم النجود مُحْتَمِينَ بالكهوف، مصطحبين بعض القرفة والزنجبيل للتداوي بها، مع حزم من الحطب؛ خوف لحاق غضبة الجان بهم إلى الصخور العالية، قدّر بعضهم أن الرجل العجوز قد يكون على حق، فالمطر كليل بالبراغيث التي تنقل «الطاعوش»^{*}، مع ذلك؛ واصلوا صياحهم والهروب، ولكن جمعاً من رجال خربة جلعول واجهوا عنف الطبيعة بجلد، هرعوا بين المضارب التي تقتلع وتتهاوى، وقفوا يشدون أزر الطحان الذي حالت ظروفه دون صعود الجبال بأسرته الصغيرة، سحبوا سحف خيمته، وأسندوا عمودها الخشبي الثقيل بأكتافهم؛ متجاهلين الصخب النسوي في الشق الصغير المجاور الذي انكشف للريح والسماء.

اختلط هرج الناس بأصداء الطبيعة الغاضبة؛ فلم يسمع أحد همسات «نفل» في أذني زوجها عيسى أبو بكر الطحان، همسات متقطعة لاهثة خفيضة، هو نفسه لم يتبين الكلمات، وبسبب من خشية وقرت قلبه، ظن لطرفة عين أنها تلغنه، وتدعو ربها ليخلصها منه، ثم استغفر وتعوذ بالله، متذكراً أنها امرأة طيبة ضعيفة.

مسح رأسها المتعركة بخرقه مبللة وهي تصارع أوجاعها والحمى، لم تدرك النسوة ما إذا كانت المرأة تعاني من الطاعون، أم أنها مجرد أعراض لمخاض الولادة، وتحت وقع نظراتهن الوجلى، أسبل الطحان جفنيه، وثنى عنقه منصرفاً

* التعبير الشعبي عن مرض الطاعون.

معني الكتفين، تظاهر بمساعدة الرجال في إسناد عمود البيت؛ وجسده الجهم
يميد فاقداً توازنه، أفزعه احتمال لحاق الطاعون به وبزوجته وابنته، فقد صلى
صلاة الجنازة صباحاً على جسدين يافعين قوين لم يعتقهما الوباء، واراها
التراب، وأحرق وصحبه مقتنياتها القليلة من لباس وفراش، كما رافق الحلاق إلى
خيمة في سفح الوادي، وأسقى الصغار مزيج الزنجبيل والقرفة والكيما، قبل أن
تقضى عليه ابنته بخبر مدهامة الطلق لأمها.

- سامحك الله يا نفل، هذا وقته؟

ظلت عيناه معلقتين بشق البيت الصوفي الصغير الذي أودع فيه امرأته لتلد،
ربما للمرة العاشرة، لا يذكر، لكن نتاج المرة الأولى، تقف قبالة لحمًا ودمًا،
بعينين مستديرتين كأنهما طبقًا عسل مقعران.

ابنته البكر مريم، الأولى والأخيرة، حتى تلك اللحظة، بكره التي حملها منذ
سنوات عشر أو تزيد قليلاً، تفصح بناظرها عما همست به أمها، كأنهما تجتمعان
على إدانته بما تعانيه نفل من ألم!

لم يتبين ما همست به المرأة، لعلها طالبت بالرحمة، الرحمة مطلب كل عبد؛
فالرجال الذين يسندون عمود البيت كانوا يجأرون في طلب الرحمة، والسماء التي
صارت بيرقاً أحمر، لم تتوقف عن صب رحمتها بقسوة فوق الوهاد والشجر
والجبال وبيوت الشعر.

اندست كتفاه تحت عمود البيت، واحدودب ظهره، همس في سره معاهداً ربه:

- ورافع البيت.. ربي المعبود.. ونبيه محمد.. ومولاه علي.. وكل أنبياء
الدنيا.. وملائكة الآخرة.. والأولياء المباركين.. أكف عن نزوات الجسد
ورغباته الملعونة، لا أقرب امرأتي.. أتوقف عن زرع أولادي الموتى في
رحمها، أتركها تعيش لا بتبها، لا أرهقها في جر أشولة الطحين، ورفع جرار

الماء، ولا حتى أطلبها بحلب الماعز ونياق الشيوخ، أو شد الصوف
وغزله.. سأحررها، وأرحمها، هكذا، الله.. سأفعل خيراً.. فقد فنت المرأة
أمام عيني وأنا أزرعها واستولدها ولا يعيش لي صبي.. لعلها مشيئة الله!!
بأي حق أنا العبد الفقير؟ عيسى الطحان، بأي حق؟ بأي خلق أستخدم هذا
الجسد الواهن وأُميته كل عام؟ كفاهارُصَّعاً تحملهم إلى المقبرة
وتودعهم التراب، وأجنته تبكي وراءهم في نفاس مضنى.. وكفاني عنداً
وبأساً.. لا أريد الصبي.. لا أريده.. يجيء مع الطاعون والعواصف، ينذر
بالوبال، لا أريده، سأكتفي بعيون صغيرتي مريم العاتبة.. قد أزوجه إذا
بلغت، فتأتي لي بالأحفاد الذكور.. وإن لم تتمكن، إن ضعف جسدها كما
أمها؛ لن أسمح لرجل بتعذيبها بحثاً عن ذرية من ذكور يُخلدون اسمه...
سأعيدها إلى بيتي.. سأعزها في خيمتي التي تعاند الريح، ولن أنزوج
بأخرى غير نفل لتنجب صبيانا، سأكتفي بمريم.

بكى عيسى الطحان، ثم تذكر أن يضيف لابتهاالاته تشفعاً للمسلمين
والمساكين لينحسر عنهم الطاعون الذي لم يفرق بين صغيرهم وكبيرهم.

لم يلمح الرجال دموع الطحان، وواصلوا دفعهم للعمود الخشبي، في حين أن
مريم المتلفعة بفروة الخروف رأت خيط الدمع يشق وجنة والدها، وأمسكت
دموعها بعناد، لم ترتعد خوفاً من الرياح والمطر والمرض الذي يخنق الصغار بعد
محاصرتهم بالحمى والهذيان، وبدخلهم في غيبوبة لا يفيقون بعدها، ولا فكرت
بمصير بيتهم المصنوع من وبر الماشية، لكن صياح أمها وهذرات النسوة في
الداخل ترعبها، ردت جدليتها وعلقتهم ببعضهما البعض؛ وهي تشاغل الوقت
إلى حين سماع صيحة الميلاد، وقبل أن تداهمها صيحات البكاء الأليمة المعتادة
التي ترافق دفن صبيان أمها واحداً تلو الآخر.

تذكرت أنات أمها وهي تنظر إليها جادة تحت ضوء القمر في الليلة المنصرمة
وتقول:

- مريم، وداعتك الولد.

هزت رأسها موافقة، إلا أنها كانت تستعد لدفن الحمل الذي صورته أمها
يولد، ويعيش، ويكون ذكراً.

صاحت الداية، وانطلقت أصوات تبشير خجلى في معمعة الريح والمطر، قبل
سماع كركرة رضيع خافتة لا تشبه البكاء. لقد وُلد؛ جاء شقيقها الجديد.

رفع عيسى الطحان الوليد العاري بكفيه، فتناثرت نتف من دم وخلاص حول
أطرافه الصغيرة الحمراء، كَبَّرَ في أذنيه وناح مترنماً: «الله أكبر... لا إله إلا الله...
محمد رسول الله.. الله أكبر».

استودعه حزنه، أوصاه بإهداء السلام لصف الملائكة الذين ارتحلوا قبله
وذهبوا بالأمنيات؛ لم يعتقد ولو لوهلة أن للوليد حقاً في العيش؛ بينما كثرة من بدو
الكرك وفلاحيها وزطها دفنوا أبناءهم وذويهم، لكنه قام بالطقس كما ينتظر منه.

وقفت مريم ترقب الطقوس برهبة، وقد خفت صوت الريح، ولم يبقَ في
الفضاء إلا رشق محتمل لمطر يتتابع، مسحت النسوة جسد الوليد بالملح والماء،
وكحلن العيون المغمضات بخط الإثمد من مروود عريض، وغمست الداية سبابتها
بتراب المكان الذي صار طيناً، ثم دسّت إصبعها في حنك الصغير مبسمة، كركر
كأنه يختنق؛ وهي تدير السبابة المعمدة بالطين في تجويف فم الرضيع الصغير،
وتتمتم:

- من التراب خلقت؛ وإلى التراب تعود.

صممت النسوة يتذكرن مَنْ دُفِن من الأطفال في سنة «الصخونة»* تلك، لم تفلح مخاليط الزنجبيل والثوم والعسل مع ضعافهم، وتركت الأقوياء صرعى في خيامهم ويوتهم المتواضعة، كانت أقدام صغارهم ترتجف وهم يشكون أوجاعاً مفاجئة، وأجسادهم تلتهب بالحمى، ويدخلون في غثيان مصحوب بهلوسات، فإذا ما تورمت أعناقهم واختنقت أنفاسهم، ماتوا في أيام، وتبعهم بعض ذويهم، يلمُّ الحيُّ منهم متاعَ الراحل، وتُضَرَم النيران فيه، ويبكون حول الرزق والمتاع أكثر مما يكون وهم يوارون الأجساد المتخشبة الثرى، يدفنون الآباء والأبناء والأمهات تباعاً؛ كما لو كانوا أنعاماً.

كان أفق الخبرة ملبداً بحمرة غامضة وكثير من الأسى، وإيمان عميق بأن العدالة لن تفسح لابن الطحان كي يحيا، فالرجل موعود بفقد الأولاد دون أوبئة، فكيف في هذا البلاء؟!

شمرت الداية ساعديها وهي لا تتوقف عن نهر المرأة التي ما زالت تتأوه؛ رغم أنها أنجزت مهمتها وولدت الصبي، ثم بكفين خشتين نفرت عروقهما لفت الداية الوليد بإحكام في قماط من البفت الأبيض، لم تسمع صوته كما يجب، ولم يقلقها الأمر، أكملت مهمتها ببرود وهي تنهياً مثل الجميع لفقد الوليد، وضعته في حضن أمه، تحت ثديها المترهل مباشرة، بكى عندما ضغطت الداية على خديه؛ تشق شفثيه عنوة، وتدس الحلمة الجافة بينهما.

لم تتمكن الأم المتعبة من رفع جسدها على نحو ملائم، حاولت الداية إجلاسها وهي تكيل لها الشتائم واللوم لضعفها واستسلامها، ثم تُرَبَّت في صفعات خفيفة متوالية وجه الرضيع كي يحرك شذقيه، عندها؛ هجمت مريم غاضبة على

* تعبير شعبي يدل على الوباء.

المرأة فقبضت زندها، أبعدت ساعدها ولوحت به بعيداً عن وجه شقيقها، ثم نظرت بأسى إلى العلامات الصفراء التي تركها الكف على الوجه الأحمر الصغير، وبكت محتضنة رأس أمها.

من موقعه في الخيمة التي غادرها الرجال وقد كفت السماء مطرها وريحها، سمع أبو بكر الطحان بكاءً ونهات، لم يتبين ما إذا كانت تعود لمريم أم لأمها، أم للرضيع الصغير.

قال له صاحب الطاحون الشيخ صايل:

- سَمِّ الولد.. لو كان له نصيب ليعيش؛ سيكون له اسم.. ولو أخذ الله وداعته؛ سيُقبّر مسلماً.. سَمِّ..

دارت عينا عيسى أبو بكر الطحان في محجريهما.. ما هي الأسماء التي لم يُسمِّها بعد؟ لا يجدر به تكرار الاسم حتى لا يضيع ملائكته الصغار، ولا يختلط عليه أمرهم يوم الحساب، ولا يضيعوه لحظة الشفاعة.. رغم أنه في تلك اللحظة بالذات؛ نسيهم واحداً واحداً.. لا يتذكر كيف كانت ملائحتهم، ولا ما إذا كانوا قد بكوا، وهل وُلدوا موتى أم ارتحلوا بعد ساعات أم أيام؟

همس باستسلام:

- أَسْمِيهِ يحيى.

هز الشيخ رأسه متشككاً متردداً، ثم غلب إيمانه، واستجمع كلماته، وقال مستبشراً:

- يحيى!! آه.. الله العالم.. من يدري!! يحيى؛ ليحيا...

تأمل حفار القبور التراب حوله يجف إثر ريح لم تعد تسفع مطراً، وأطلعت حشائش يانعة بين الحجارة والأتربة، راودته نفسه مراراً بحفر مضطجع للوليد

الذي سمع أن الطحان رُزق به مؤخراً، أسند ظهره إلى جذع الشجرة الكبيرة عند طرف الوادي وفكر؛ إن أبناء الطحان، وعلى ضآلة ما يحتله أحدهم من حيز، باتوا يشغلون مربعاً كبيراً نسبياً.

هذا الصباح، لو جاء الخبر؛ لن يتردد بدفن الصغير فوق إخوته، فمرضى الطاعون وإن تراجعت أعدادهم بعد دفن المئات منهم، ما زالوا متوقعين، انحسار المرض لا يعني للحفار انتهاء الموت؛ إذ لا يعقل أن يكفوا في جلعول والخرب المتناثرة والقرى المجاورة عن الموت في يوم واحد. حتى لو كانت السماء سخية بالماء، واعدة بغسل المعمورة، والانتفاء من الحمى القاتلة، إلا أن خبث الوباء لن يستجيب بسرعة للابتهالات التي يسمع صداها قادمًا من خربة جلعول، أو قرية القصر، أو قرية الكرك.

مع ذلك؛ منعه خجل طفيف من حفر قبر الوليد قبل وصول الخبر اليقين، رفع حفار القبور إبريقه فوق الحطب المشتعل، أرجحه في الهواء وأماله، راقب شلال الميرمية* الأخضر ينسكب في انهماك طويل إلى كأسه النحاسي محدثاً هديرًا ناعمًا، دعا في أعماقه قائلاً:

- الله يجبرك يا جلعول، الله يجبرك يا طحان...

بكت مريم قائلة:

- الله يجبرك يا أبي.

لا تحب مريم الطريقة التي يرايض فيها والدها عند فتحة الشق الصوفي الذي ينسدل ستاراً بينه وبين أمها المتأوهة التي اعترتها حمى مفاجئة، قالت الداية أن لا علاقة لما يعترى نفل بالوباء الذي ينقشع تدريجياً، ومع ذلك سقتها ماءً كثيراً،

* عشبة بريّة.

وحليباً مغلياً، وأطعمتها مزيجاً من حبة البركة والعسل والقرنفل، ومسحت جسدها بالورس والكينا، فعلت كل ما تخيلته لوقاية الجسد الواهن، وجلبت كل ما أشار به الحكيم الشلبي، ولم تتوقف كركرة الصغير المتواصلة؛ كأنها حشرة الموت، ولا موت، تمت مريم لو لم يكن المكان مثقلاً بكآبة المرض الذي لم يره الناس منذ مئة عام، لو كانت الحياة رخية هنية كما اعتادت، فيخرج والدها إلى الطاحون في قلب وادي الكرك، حيث تغدق مياه الينابيع في قرية القصر، يسعى وراء رزقه، ويرحمها من قرفصائه المخيفة مثل شجرة جوز ناشفة، ورأسه بين كفيه، وثوبه مشدود حول مؤخرته، بالكاد ترى عينيه مهما طال النهار، وبالكاد ينظر إلى طبق القش ورغيف الطابون، ومرق الشنينة الحامض الذي تضعه أمامه، فكل العائلة لا تأكل، والناس الذين تفاعلوا قليلاً بمولد يحيى؛ إذ لم تقع وفاة بأعراض الوباء بعد ميلاده، جاؤوهم بالفطير وأقراص الملة* المغموسة بالسمن الصافي إلى خيمتهم، فإذا قرص الجوع معدة الصبية تناولت كسرة صغيرة، واكتفت، لم تستحسن إشغال فكيتها بازدراد الطعام بينما أمها منشغلة بالآهات، ووالدها يقعي مثل كلب الحراسة عند المدخل، والوليد الصغير لا يرخي فكيه، وإن أعملت بهما القسوة التي علمتها إياها الداية، يغيظها أن تقضي ساعة تستحلب الأتان خلف الشق الصوفي المتواضع، وتوقد الحطب الذي كومتته بين أثافٍ ثلاث، فتغلي ما عصرته من الضرع النحيل، ثم تغط قطعة الصوف المضغوطة بعناية على هيئة كره صغيرة في السائل، وتنقّط قطرات متوالية بين الشفتين المغلقتين، تغتنم ثواني الكركرة الغامضة لتعصر صوفها، فينز الحليب منها إلى فم الرضيع، لم تتمكن نفل من إرضاع وليدها، ولم ترتضِ أي من أمهات الخبرة الاقتراب من رضيع مائت لا

* نوع من الخبز.

محالة، خفن أن تصاب حلماتهن بلعنة أو نحس خفي؛ فيتقل مصيره إلى أبنائهن، كن حائرات بين الشاؤم من وليد الطحان، والتفاؤل بالهدوء الذي عم الديرة، وهبط على النفوس بمقدمه، كأنه يفصل بين ارتباك الطبيعة وجنون المرض وبينهم، ويهيئهم لمعاودة مهام الحياة المكرورة.

تستسلم الأتان أحياناً لقبضة مريم وهي تططب فوق ظهرها كي تفيض ببعض الحنان على الصغير، وتعقطها أحياناً أخرى؛ إذا ما لمحت حمارها يكر حولها، ترتمي مريم أرضاً تحت أقدام الحمار؛ رافعة أردانها عن ذراع نحيلة عصبها قوي، تبعد الكر الرضيع عنوة، وتحاول الإمساك بالضرع تحلبه، لا تكف عن المحاولة وإن تمرغت في طين الأرض، لا تريد لشقيقتها الرحيل عن الدنيا ظامئاً جائعاً، كما لم تتهاون بشأن همهمات أمها، وغيبوتها التي باتت جزءاً من نفاس عسير، ظنت أن حديث الداية حول منع النسوة الحوائض من ولوج الخيمة على النساء كفيل بحمايتها من شرور الولادة، كما أوهمها صدر أمها الذي بات متحجراً صلباً بعد ترهل، توقعت أن يدر الحليب يوماً؛ فيكفيها أمر ملاحقة الأتان، أو أن ينتهي ذلك الدوار اليومي، والترقب المر، بحمل الصغير كما اعتادوا إلى المقبرة في سفح الوادي.

رفعت السماء مقتها عن وجه الأرض، تراجعت الريح بالطاعون تماماً، ولم يبق من الأمطار إلا هداياها، نبت أخضر يشق الأتربة وينمو متغاوياً، واسترجع أهالي الخبرة بعض أمنهم بتقدم الأيام دون خسائر في الأرواح؛ كف حفار القبور عن بحش التراب دون طلب لاسم بعينه، وعاد الناس على حذر إلى طبائعهم، تخلصوا من كل ثوب أو وعاء أو غرض لامس مريضاً في زمان الوباء، حفروا حفرة كبيرة في أبعد بقعة عن القرى، وأنشؤا النيران بالأشياء، حتى بعض الخيام العتيقة الثمينة عند مالكيها، التي لفوا فيها أجساد الراحلين.

صارت بكائياتهم الليلية أشبه بأحاديث عن عالم لم يكونوا فيه يوماً، مثلما يسرد أحدهم قصة للسمر والتسلي؛ يتحدثون كابحين أي بادرة لانفعال عاطفي، لكن الصبايا اليافعات وحدهن كن صادقات بنسيان المرض، والإقبال على الحياة.

أورقت الأشجار بعد تخشب طويل بأزهار وردية، واعدة بموسم لوزيات وحمضيات جيد، وقُطفت الخبيزة ريانة طرية، وأُعدت للطعام، فالناس استعادوا شهيتهم بعد حزن، كانت مريم تقطف نبتة الدريز المعطرة من الوادي، ولا تجرؤ على دسها في جديلتها أو بين نهدين لم يتكورا بعد كما تفعل البنات المتغاويات، لكنها تحتفظ بها تحت وسادتها، تشمها إذا أودعت رأسها النوم، فتسنيها هبوب الحطب، وعبق الحليب الزفر، وريح الأتان، أما صاحببتها بنت الحلاق الشلبي، فقد تواقحت إلى حد التغنج علناً بجزرة من نبتة «الاخضرا» التي يفوح عطرها بصورة فجأة، شذى حسي عبق؛ يذكّرها بفحولة غابت عن والدها المقعي في أرضه.

نظرت هفوف ابنة الشلبي متعاطفة إلى الرضيع الذي اجتاز نفق الموت الجماعي وقدر أولاد الطحان الخاص، وهو يستجيب للمسات ناعمة من يد أخته على نقرة ذقنه، فيتراقص بؤبؤاً عينيه، وينفرج فوه متحسناً قطرات الحليب التي تنز من لفة الصوف، بينما أمه منكشمة على آهاتها وأوجاعها دون تحسن يذكر، همست هفوف كأنها اكتشفت أمراً مهماً:

- مريم... أمك تعبانة... هل زارتها نساء حوائض؟
- كيف لي أن أعرف؟ النساء اللئيمات لن يخبرنني إذا ما كن كذلك، جئن بالعشرات يواسين أمي، ويلتقين نظرة على يحيى.
- ألقت هفوف نظرة فاحصة، وهمست:

- مريم.. هل تريد أن يعيش يحياك هذا؟
كان السؤال فجأً، كأن هناك أي احتمال لجواب بعيد عن المنطق.
- طبعاً، إنه أخي يا بلهاء.. أخي الذي أطعمه من حليب حمامرتنا.
ذهبت الفتاتان إلى الداية تسألان عن مشخص* تستعيرانه، ضحكت تلك،
وبانت بروزات وفراغات فكها مثل مشعب الحقل:
- مشخص!! أتعرفين كم يساوي المشخص يا بنت؟ قطعتين من الذهب..
قطعتين من الذهب، وإن كان مجرد قطعة، الحصول عليه مستحيل، ولا في
الأحلام.. من أين يكون لي مشخص؟ كيف تفكرين بحياسة أو استعارة
مشخص ترمينه في مغلي الماء لتسقي به شقيقك! اذهبي واطلي أمك
بالورس.. الخوف على المرأة المتعبة، لا على الرضيع الذي يُخطّ قدره
مستقبلاً، يرحمه ربه.
- فكرت الصبيتان، أين يمكن العثور على مشخص في خربة فقيرة نائية مثل هذه!
عندما قطعت هفوف المسافة من بيتها غربي الوادي إلى جلعول في سفح
الهضبة، مرت بالأرض المنبسطة التي يتوسطها بيت أوطه* باشا العثماني، لم تفعل
ذلك مسرعة كما هي عادة فلاحي الكرك وبدوانها، تباطأت؛ وتعمدت استراق
النظر إلى النوافذ الحجرية المزخرفة، والستائر المخملية المسدلة وراء درفة
الخشب الثقيلة المضلعة بالأرايسك المجلوب، لا بد أن الباشا العثماني يمتلك
مشخصاً أو أكثر؛ لكنه يترك الأطفال يموتون دون تدخل.

* عملة ذهبية أثرية يُعتقد بإمكانيات سحرية لها.

* رتبة عسكرية عثمانية تعادل رتبة الملازم.

خلعت هفوف خلخالها الفضي، كذلك فعلت مريم، وفكت إيزيمًا ذهبيًا رفيعًا معلقًا في غضروف أنف أمها المريضة، وأفرغ عيسى الطحان كؤارة العام المنصرم من القمح، وجر حماره والأتان، وماعزين جبليين، تحرك جمع غفير أولهم المرأة النفساء، وابتتها، ومن رافقهم من جيران وحريم، وقفوا بباب الباشا الذي كان فلاحو الناحية يطلقون عليه اسم «الرومي»؛ كونه هبط أرضهم من شمال المعمورة، لكنه لم يظهر، فقط، زوجته الخانم نظرت من وراء الخمار عبر النافذة المجللة بالستار الثقيل، توقعت أنهم نفر يتسولون ما يقيم أودهم بعد انحسار المرض، وفقدانهم حاجياتهم القليلة الوضيعة، وعندما تيقنت أن معظم المتربصات عند الباب من الإناث، رفعت ستارتها، وأرخت طبقة من خمارها أسفل ذقنها، وتحدثت بلكنة معوجة، وصوت حاد:

- مشخص!! ماذا ينفعكم هذا المشخص إذا رضيت بأخذ الأتان؟ ألا تطعمون الصغير من حليبها؟

هتفت هفوف:

- لا تحملي همًا، نعيمهم أتاننا.

نفث صوتًا ساخرًا من نخريها؛ نفى أن يكون همهم ما يشغلها، قالت بتعال:

- الأتان، والخلاخيل، والحمار، كلها مجتمعة لا تفي المشخص ثمنه.

- إذن خدوا أتاننا أيضًا.

لكزت هفوف صاحبته هامسة:

- سندبر أتانًا أو ماعزًا لسقاية الولد.. ربك كريم، لا يموت «ابن آدم» من جوع، لو نطعمه من ريقنا، لا تترددي.

لم تكن مريم على نية التردد، ولا حتى خطر ببالها الاستعانة بمشورة والدها كي يقرر ما إذا كان عرض المرأة ملائماً، أو كان الشخص يستحق كل هذه التضحيات، لكنها فجعت حين قالت الخانم زوجة الأوطه الرومي:

- آخذ كل ما ذكرت، اضافة إلى دادا... خادم للبيت.

تراجعت الصبيتان خطوة إلى الوراء، وبرزت نفل متداعية، تحاول إخفاء إعيائها بالاستقامة في السير، اقتربت من الشباك المزخرف وهمست:

- هاتي الشخص، وأنا أخدمك.

أوشك عيسى على الانفلات صارخاً، لكن كف زوجته أبقتة متمسراً مشلولاً، لم تتبه زوجة الأوطه إلى الجسد المنحني، والصوت الواهن، والضعف الذي يعتري المرأة، طمعت بكسب خادمة، فأدخلت الدواب إلى حظيرة العسكري العثماني، صاحب رتبة الأوطه ولقب الرومي، ورُصت الأشولة في كورة بيته، وولجت نفل إلى حريمه؛ متحاملة على الحمى التي تنهش بدنها.

أمسكت مريم بالمشخص الذهبي الثقيل، وتأملته، قلبت قطعة النقد المدورة، فلم تتعرف على وجه الملك قسطنطين والملكة هيلانة المصوّرين واقفين بوقار على وجه من وجوه العملة، لكنها عرفت مريم العذراء على الوجه الآخر وهي تقلّبه، وهمست مرتعشة:

- هاي مريم... سميتي.. سموني على اسمها.. بركاتك يا مريم.

متحت مريم ماء صافياً نقياً من البئر، مستخدمة دلوّاً جديداً لم ينزل البئر سابقاً، ولم تتوان عن استعارة طشت عمّاد من راهبة الكنيسة، عبّأته حتى لامس الماء الصليب المحفور في أعلاه، وجلبت من المولى في الكرك قماشاً، خط فوقه بحبر الهباب آيات من القرآن، قال إن الكلام هو للمعوذتين الحاميتين بإذن الله وحده، نقت القماش في ماء الطشت، وتأكدت أن الكلمات ذابت كلها.

الذين شاهدوا مريم تنتقل بهمة، وتعد لطقوس المشخص دون أن تسأل عما حل بأمها في بيت التركي، أيقنوا انصراف البنت إلى تحدٍّ يلزمها بتغيير قدر أخيها، ولكنهم لم يكونوا واثقين من قدرتها على تحقيق ما تسعى إليه، وقد طلبت من الجميع مغادرة خيمتها وهي تغطس المشخص بماء الطشت، فإذا ما ارتطم بقاعه، عرت جسد الوليد الضعيف، وغسلت أعضائه عضواً عضواً بكفيها ورذاذ الماء السخي.

تخلّى عيسى أبو بكر الطحان عن جلسته الشهيرة عند فتحة الخيمة، صار يرى ملهوفاً، رائحاً غادياً في الزرع الممتد وراء بيت العثماني، آملاً لمح طيف زوجته، وعندما فتح الباب الثقيل، ونادى أهل البيت على الفلاحين المجاورين؛ عرف أي جسد يحملون، فسبقهم إلى المقبرة.

وارى عيسى جسد زوجته نفل التراب دون بكاء، ولم تعول النساء وراءها، كبرت مريم على حين غرة، ولم تفلح في ذرف الدموع حتى ظن أنها تنفجر كمدأ، وظل عيسى ممسكاً صدره لساعات طويلة، متلقيماً كلمات العزاء والمواساة، مخاطباً ربه:

- رحمتك، راحت نفل، برحمتك يا رب، ارحمنا، برحمتك.

ظهرت الفتاتان اليافعتان لوقت قصير في عزاء نفل المستعجل، فارقتا كآبة العزاء سريعاً، ولم تفرقا على تباعد أماكن إقامتهما، تهبط هفوف من بيتها فجراً، فاتنة داهمها بروز نهديها قبل صاحبتهما، تجتاز المزارع، وتبيل بسحب الضباب العابرة بين فروع الأشجار، ولا يُرْجَفُ فؤادها صوت الحيوانات الصغيرة المتحركة بين الشجر في عتمة الفجر، توافي صاحبتهما؛ وتقوم بمهام بديلة عنها؛ مقدرة ما حاق بالأسرة من وجيعة، تهرع بين البيوت تستجدي الحليب والسمن لإطعام الرضيع. أما مريم، فلم تفارق الوليد بتاتاً، وبانقضاء عزاء أمها، كان البيت

خاويًا من الطعام إلا ما وجود به المطهر الشلبي وعائلته من إدام ومرق الدجاج وخبز الكرديوش المصنوع من الذرة على صاج الطابون، لم تشعر مريم بالجوع ولا العطش، كان لا بد من تذكيرها بين الحين والآخر أنها لم تأكل، وأنها بدن يقوى إذا تناول كسرة خبز أو حبات بلح، بدت مريم متماسكة، رغم فقد أمها، وربما على شيء من فرح؛ فقد نجحت في تغيير مصير الرضيع، وصارت أمًا لشقيقها قبل الأوان، هي أول من سمع مكافاته، وأول من نظرها، وتحرك بؤبؤا عينيه وراءها، حين رفع الوليد كفه للمرة الأولى تمكن من إمساك سبابتها بإحكام يفوق قدرة بدنه الغض، بكت؛ وأدركت أن الوليد سيعيش، فقد اجتازت به قضاء محققًا.

يداهمها الحنين في منتصف الليل، تفتقد لمسات الأم التي تجيد تضفير جدائلها ومسحها بالزيت، تتكور مريم حول جسد الرضيع، وتترنم:

- يا حادي العيس مثل العين داريهم، يا حادي العيس خذ روحي وخليهم...
كانوا سلاطين نزلوا عن كراسيهم، صاروا دراويش ربي ما قطع فيهم...
يا حادي العيس سلّم لي على أمي، هي حنونة ولا بد تسألك عني...
يا جامع الشمل تجمعني أنا وأمّي، لحكي لها قصتي وأشكي لها همي...
يا حادي العيس سلّم لي على الكانو، وقل لهم يرجعوا المطرح الكانو...
وإن أبعدوا اصعبوا وإن أقربوا هانو، في جيرة الله الحبايب وين ما كانوا*.

يتظاهر الأب بالنوم العميق حد الشخير المصطنع، يرتعش في فراش الشيخ، ويكي، ثم يستسلم متعجبًا، بل يظن أن حظه وافاه! يشعر بسخرية طفيفة جراء فقره التام الذي لن يمكن المحصّلين العسكر من استيفاء حصة الباب العالي،

* من الغناء الشعبي الكركي.

ويقبل وجه كفه وباطنها؛ إذ متّعه فقره بالولد وإن ضيّع الوليفة، وأبعد الجبابة عن دربه، يسلم عيسى قلبه لإيمان يتوافق مع الرضا باختبارات الصبر، والإعجاب بابتته الحزينة اليافة التي اجترحت معجزة الإبقاء على حياة شقيقها، يقول في سره:

- سبحان رب العباد، سيعيش، نعم، أما سمّيته يحيى! سيحيا، سيحيا.

شغل الناس بالربيع؛ تحولوا إلى مجاميع ماعز جبلي أرعن، رعاة وبذارين وحصادين، انتظموا في نوبات عمل وفزعات جماعية، فقراء خربة جلعول انضموا إلى ملائكة الأراضي في الكرك؛ يمدون يد العون لقاء أجور عينية في معظمها، وانهمك أهالي قرية القصر بإعداد الطواحين للموسم، اهتزازات الطرق، ودوران المحاجر في المطاحن، وخرير تدفق المياه في الينابيع وشلالات الوادي الصغيرة التي تتناثر بين مسافة وأخرى إلى أن يلتقي الوادي بوادي الهيدان، أصداء منحت المكان حيوية مذهلة، فاستحال إلى فردوس يفيض بالنعم، يحصل الأهالي على القليل من هباته وسخائه، فينتظر الملاك حزيان كل عام بقيضه؛ مستطلعين قدوم خيل الجبابة والمحصلين، كما يرصدون خاوة الغزاة من القبائل البدوية التي تدفع بانتظام لقاء الحماية والتعفف عن النهب. رغم كل هذه الويلات المرتقبة، عكس الهناء على الوجوه أماناً نسبياً معقولاً، بل وأتاح لطالبي الخضرة والماء التمتع بنهارات سعيدة يغنون فيها إذا ما حصدوا أو زرعوا أو قطفوا الثمار، ويتعللون في أماسٍ ينيرها القمر أو حفيرة الموقد، يسمرون وهم يتحدثون بإيجاز عن رعب سنة الصخونة متعوذين، ويتنقلون سريعاً لحكايا أبي زيد الهلالي، وعنثرة العبسي، استشعرت النسوة رفاهية الموسم وحلاوته ونعيمه، يخرجن إلى المزارع يقطفن الثمار، ويعدن بسلال التين والعنب والرمان، والنبت الأخضر بكل أسمائه وأشكاله، تمر النساء والشيب والشبان بالبنات الشجاعة مريم، صاحبة البأس

والجراة والإصرار، يحيونها بإعجاب، ويسألون عن الطفل يحيى وصحته، وقد تعتذر النسوة خجالات؛ كونهن لم يقمن بالواجب في إرضاع اليتيم، لكنهن جميعاً، يتفادون ذكر نفل.

سمى الشيخ صايل طاحونه «الذراع»؛ كون المكان يشكل زيادة جغرافية ممتدة على أطراف قرية القصر، ورغم صغر العين التي يقوم عليها، فإنه يظل الأول في سلسلة الطواحين التي يمر بها الذاهبون إلى الوادي، قدّر أنها ستكون الأهم، إذ يقتنص موقعها أول النازلين المتعجلين، أو الذين لا طاقة لهم بنقل حمولتهم الثقيلة إلى قلب الوادي حيث الطواحين الأكبر التي يملكها شيوخ الكرك وأعيانها، فإذا ما استوفت طاقتها، هبط البقية إلى طواحين الشيوخ فما ظنوه يقتنص بعض رزقهم.

يهيئ عامل الطاحون عيسى المكان بحجراته الطينية المتسعة، وسقفها المغطى بقبة مستديرة غير قويمة، لاستقبال الموسم الموعود، ويراقب زراع القمح يرعون زرعهم في السهول استعداداً للحصاد، ويساعدون في قص حجر الرحي الجديد، في غمرة انشغاله؛ ينط قلبه فجأة بين أضلعه، إذا عنت نفل على البال، يتصورها وقد فشخت فخذيتها حول موقد الطابون، وردّت ردينها إلى الخلف رابطة إياهما بشريط كاشفة عن ساعديها، وراحت تقلب العجين بالطشت، ثم تفرك ما لصق في كفيها، قبل أن تقلب كردوش الشعير فوق صاج الطابون، تعجبه ساعداها الملوحتان بكلف جراء قسوة الشمس، ويتفكر ما عساه يكون السبب المدهش الذي جعلها بيضاء مثل حبة الراحة العابقة بالمسك، في حين يتبقع ساعداها بدكنة غاوية!! يتذكر التماعة سنّ الذهب والإبريم على الأنف الدقيق، والابتسامة التي تميل إلى غباء محبب، وبساطة رقيقة متواضعة، يتشي فرحاً كأنها إلى جواره، ثم ينكص حزناً، ويجدد عهده أن لا يقرب النساء بعدها، مهما قال أنداده من الرجال

عن صعوبة العيش وحيداً، لا أثنى تدفئ فراشه، عنيد كما صخرة الرحي، أما إذا تعلق الأمر برعاية يحيى، أو مهام عجن القمح والشعير وخبزهما، أو تحطيب الشجر، أو رفع البيت فوق عمدانه، فإن مريم تبدي براعة وشدة تفوقان سنوات عمرها، وإذا قُدِّر للصغيرة أن تكبر ويكون لها حليلها وبيتها؛ فإنه لا يريد من الزمان خبزاً ولا حطباً، كل ما كان عيسى يتمناه، أن يكف الجيران والصحاب والأقارب عن مقترحاتهم حول تزويجه، فيتركوه للذكرى الشفيفة المؤلمة، ويتوقفوا عن مزاحهم الثقيل حول فقدانه لرجولته، وحده يعادل عشرة رجال من الخمسين الذين استعان بهم الشيخ صايل صاحب الطاحون لدرجة حجر الطاحون الجديد ورفع على قاعدته فوق عين الماء، ما زال ساعده قوياً وعافيته كما ثور، لكن روحاً متوجعة تقطن أعماقه، كلما التفّ دربه وراء الحقل المنبسط الذي تتغاوى فيه سنابل القمح في عام، ثم محاصيل الخضروات في العام التالي؛ يراقب بيت العسكري العثماني، الأوطى، وقد ميزته الحجارة وأبواب الخشب ونوافذه، يتلح ريقه مرأ؛ كأنه يرى ظهرها في خطواتها الأخيرة، ويشهد اختفاءها الغريب خلف البوابة الخشبية، حين غابت، وعلق ذيل ثوبها الأسود المتآكل منحشراً في زاوية البوابة قبل انفتاح الدرفة الضخمة، وانسحاب الذيل إلى الداخل إلى الأبد، كيف تمكنت تلك المرأة الضعيفة من دخول باب الخشب المزخرف، الذي يزقق عالياً بفعل تحرك مفصلات المعديّة الكبيرة، وما رف جفنها أو التفت لثانية تنظره واقفاً وابتها مفزوعين! يسمع صوت الرتاج الخشبي يغلق الباب بصورة محكمة كأن الأمر يحدث للتو، من أين جاءت الوادعة الطيبة بكل ذلك الجبروت، لاختيار موت غريب؛ تعلم أنه رابض لها، متربص بها، داخل حرمك العسكري العثماني، وفي إهاب جسدها المريض المتهاوي؟!

عسيرٌ على الطحان اقتطاع تلك اللحظة المهولة من وجدانه، لم يكن مضطراً أساساً للمرور من تلك الناحية وهو يعود من القصر إلى الخبرة، لكنه يتجاوز مضارب الفقراء في الخبرة، ويقترّب كثيراً من قرية الكرك الكبيرة، يتخطى سورها المملوكي القديم، ويترك لعينيه رؤية ما زرعه الأوطة كل موسم، ينمي غضب روحه ووجيعة فؤاده، في ساعات العمل يجهد بصدق لنسيانها؛ يندفع بحماسة كبيرة في إعداد الطاحون لموسمه الجديد المرتقب، لكن رحلة المشي اليومية تعيدها إليه بقوة، طيف مؤخرة المرأة الهزيل ينسحب داخل البيت؛ لا يتركه للنوم ببساطة، يؤرقه كل ليلة، يحمله وزر ما حدث، يناديه ويغويه، حابساً عواطفه وهواه عن امرأة سواها، امرأة راحلة. مع كل ذلك الألم الدفين، لم يخفِ الطحان فرحته واعترازه بالوليد الذي يقارع مصيره، ويكتسب عافيته تدريجياً.

الشيخ صايل العائد قبل اثني عشر عاماً من حرب خاسرة في طرف من أصقاع المعمورة، ظل متشككاً باحتمال أن تُكتب للولد الحياة، وأن يعيش لمخدومه عيسى وليدٌ ذكر، قال وهو يحصي عدد الأشولة المحتمل دخولها طاحونه هذا الموسم:

- ثلاثمائة شوال.. يجب أن نجد مساعداً للطحان، أحدهما يساعد الفلاحين على جلب القمح إلى المزارب ونقله للدلو، والثاني يقف على حجر الرحي يرقب ضغط الماء، أنا سأكون عند تعبئة الدقيق جاهزاً للوزن والمبايعة، الشغل كثير بحمد الله، هذا موسم خير والعبء كبير، وعيسى، الله يجبره؛ مثل مريم منشغل بالولد، الله يجبر خاطرهم، ولكن لا أعرف، قد يكون هذا كله ضياع وقت، الولد عليل، وكأن عيسى وابنته مثل العثمانين؛ راحوا يقيمون الدين بمالطا، وما نفعت معهم.

يرد الحلاق الشلبي:

- أنت تقيس على خسارات الكوادة* التي عشتها مع الروم في مالطا وقبرص، هنا يختلف الأمر، رحمة ربك وسعت كل شيء، والحق أراه، الولد مبروك، وال بنت قادرة، لم تترك عسلاً ولا سمنًا ولا حليبًا إلا أحضرته للولد، الجميع يقاسمون ما لديهم، إذا عاش الولد، فإنه ليس ابنها وحدها، هذا اليتيم ابن جلعول والكرك كلها.

يهز الشيخ رأسه، ثم ينادي على ولده الشاب مفتول الساعدين متعب، لإحضار دلة القهوة الكبيرة التي تتعق وتكتشف مرارةً فوق حفرة الحطب والنار، وعندما يصب الشاب القهوة في الفناجين الكبيرة المخروطية، يتناول القوم أول شَفَّة تتبعها هَفَّة، يتهدج صوت الشيخ ويتحدث على مهله عن سنوات غيابه القاسية في مالطا، عندما كان عسكريًا في جيش الدولة العثمانية التي تعارف الكل على تسمية عسكرها «الروم»، فاصلين بينهم وبين المماليك الأتراك الذين اضمحلت دولتهم، يحكي صايل ويزيد، يقطع ويوصل، ينسى ثم يغير الحكاية، لكنه يتذكر دائماً بعد أن يلمح الوسن في عيون جلسائه أن يتنهد بعمق مختمماً سرده:

- إيسيه... أيام.. الله لا يعيدها.

لم يتعامل أهالي جلعول والقصر بيدوهم وفلاحهم، أحرارهم وعبدهم، مع قصص الشيخ صايل بالجدية التامة، تسلّوا بها، وحفظوها، وضجروا منها، أضافوها إلى رصيد حكايات الحصاد، وقصص الغولة، ومغامرات المهلهل، وإن كان الشيخ يحمل دليلاً حياً على مروره بها، جرحاً يشق ريلة قدمه طويلاً، شقه سيفٌ في هجمة قديمة للقراصنة على السفينة التي تقله، في ذلك الأوان حشا صايل جرحه تبنًا كي يكف عن النزيف، فظل الجلد حوله منفرجاً يكشف عظمة

* الحرب.

الساق، طال أمد شفاء الجرح حتى فُقد منه الأمل، وظل تذكراً يستشهد صايل به كلما تحدث عن فتح قبرص وضمها للإمبراطورية العثمانية، حيناً يقول إنها معركة مع القراصنة ومرة أخرى يدعي أنهم القبارصة، لكن المؤكد أن الجرح العميق أعاده إلى الكرك، بعدما استحال استمراره جندياً، وبعد أن ظنت زوجته أنه ميت، ترك أنجاله صغاراً، وعاد ليجدهم رجالاً، لم يهتموا به كثيراً في البداية، كأنهم نسوه في الغياب، لولا تسببه في تغير وانقلاب كبير لحياتهم، عوّضهم عن قهر الفقر، وقفز بهم في طرفة عين إلى مصاف الشيوخ والأعيان، فالقطع الذهبية والفضية التي سرقها من خزانة الدفتردار* التركي على ظهر باخرة كانت تمخر عباب المتوسط إلى الشواطئ الإيطالية بقيادة العلي؛ غيرت حياته ومكانته، سامح صايل نفسه على النهية التي حظي بها، عُدّها حقّه وجزاءه عن غربته وإصابته، لم يخجل من الإفصاح عن مصدر ثرائه، ثم أقام الطاحون بالذهب دون شراكة، على صعوبة الأمر لسواه من ملائكة الطواحين على عيون الماء، الذين يتشاركون جماعة في ملكية الطواحين، فهرع إليه الجميع يطحنون غلالهم، مكتته حصيلة ما خبأه في حزامه من ذهب وفضة وبارات ومتاليق نحاسية؛ من إقامة الطاحون في ذراع الوادي حيث لا منافس، عدا عن تشييد الحجرات الحجرية السكنية الجميلة المقابلة لمبنى القلعة في قلب قرية الكرك، حيث يقيم شيوخ العشائر والعائلات الثرية والقبائل ذات الشكيمة، جعلته أمواله شيخاً بلا قبيل، وجاءت له بالشيوخ يتعاملون معه، فلم ينسِه هذا التحول موقعه، يكاد أن يكون الوحيد الذي لا يتذمر من مكوس وضرائب العثمانيين الروم، إذ إنه في أعماقه يعتقد أنه يدفع ضريبة ما

* المحاسب.

نهب من خزائنهم، كان يحسب بدقة ضريبة الويركو*، وضريبة التمتع* على الطاحون، فيحملها عبثاً إضافياً على زبائنه ممن أرادوا طحن قمحهم، كما أجاد اقتطاع ما يتوقع إجباره على دفعه للأوطة، وما يتوجب عليه تقديمه للطحان ومعاونيه، واستراح من ضريبة الطابو* بدفعها مقدماً ودون نقصان لدى نائب عجلون الشرعي حتى لا تثقل كاهله في زمن يعجز فيه عن السداد، يدفع الشيخ صايل استحقاقات مشيخته التي صنعها بساعده، ولا يتبرم، أما جرح قدمه الذي شوه عرقوبه وربلة الساق، فقد احتسبه عند الله، جاعلاً ما ضاع من سنوات عمره زاداً للحكايات المسائية في ليل القرية الطويل، ونياشين يعلقها أبناءه الثلاثة الذين يتمخرون بين الناس في الأسواق كما لو كانوا يتممون إلى عشيرة قوية، إذ يلين والدهم أمام طلباتهم وإن بالغوا فيها؛ تدليلاً وتعويضاً عن أبوة حرموا منها طويلاً، ابتاعوا سيوفاً علقوها في خواصرهم، وخناجر طليت أغمارها بالفضة دسوها في أحزمة جلدية، وتجاسروا قليلاً على إلقاء كلمات القصيد والغزل في أذان الصبايا عند مياه نبع وادي سارة، والناس الذين كانوا يقيمون وزناً للشيخ صايل وقد تعودوا حكاياته واحتاجوا خدماته، وشيخوه في موقع سكنه في الكرك، أو مسقط رأسه في قرية القصر، أو لدى الفقراء في خربة جلجول، هم أنفسهم من حذروا بناتهم وأوصوهن بالحرص والابتعاد إذا مر أحد أبناء صايل المدللين المترفين المفسدين بعيونهم الكحيلة الوقحة.

* ضريبة دورية على ملكية وزراعة الأرض «المسقفات».

* أقرب إلى ضريبة المبيعات.

* ضريبة تسجيل الملكية.

العلاقة المبهمة الملتبسة بين الأهالي والشيخ لم تكن سواء فيما يختص بعيسى الطحان، ربما لأن للطحان صبراً وطاقه خرافية على الاستماع إلى ما لا نهاية لحكايات الشيخ دون تسلل الوسن إلى أجفانه، أو لأنه ساعده الأيمن ومساعدته الأمين في الطاحون، يشتري ويبيع ويزن ويكيل ويراقب؛ دون اضطراب الشيخ إلى الحيلة والحذر، أو للسينين معاً، أحدهما سبق الآخر، لكنهما أضحيا سببين جوهريين لنمو ما يشبه الصداقة بين المالك وعامله، لا يتحدث الطحان كثيراً حول امتنانه للشيخ صايل، ولكنه ممتن، لا ينسى أيام كان راعياً، وكيف اختاره الشيخ في عام نفقت فيه الغنم، ولم يعد له ما يعتاش منه أو يرعاه، في ذلك العام عاد صايل من الحرب البعيدة، وابتنى طاحونته، واختاره ساعداً أيمن له، فمكث من الزواج، ثم بعدها ولسنوات عشر ظل يواسيه في فقد أولاده الذكور، ويزيد في حصته من الدقيق في سنوات المحل، ولا ينسى الجحش الأبلق الذي قدمه له ليضيفه إلى ثمن المشخص الذي اشتراه من الخانم العثمانية.

للشيخ أياد بيض، وعندما يشكو عمال المطاحن من جبروت أصحاب العمل، لا يستطيع عيسى أن يفعل المثل، لا لقلّة العمل، أو عدالة التوزيع؛ يتعلق الأمر بالامتنان الصامت، واحتمال جثته للمشقة والتعب، وروحه للخسارات، وقدرتها على المسامحة واحتساب كل شر على وجهه الأجل، وقد يكون السبب الرئيس لتلك العلاقة النادرة بين إقطاعي مثل الشيخ وأجير مثل عيسى أبو بكر، هي مريم، لأنها من دون بنات الكرك كانت تنادي الشبان الثلاثة بأسمائهم بنديّة عالية، لا ترهب مشيتهم، ولا تصدق ادعاءاتهم، ولا تبدي خجلاً عند الغزل، ترافقهم دون حرج إلى سوق الكرك معلقة يحيى في خرج مربوط في جيدها ملاصقاً لصدرها، وقد يغفو على نبض قلبها الرتيب، تتجاز معهم المدخل الحجري في السور، وهي تتغنى بمتعة الفي وبرودة الجدران وشذى الأزهار على الطريق، وتتفحص وإياهم

الغلال والدواب في السوق العامر بالطيبات والباعة والمشتريين، فيتركونها تملي عليهم ما تراه مناسباً، وتدلهم على احتياجات البيت، وتفاضل بين المشتريات وتمنعهم عن بعضها، وإن صغرهم عمراً، وإن لم يعملوا بمشورتها تماماً، لكنهم يجدون في الصبية أختهم التي لم يحظوا بها، حتى وإن تصرفت كالنساء المتعطفات فرمت الخلخال المعدني في وجوههم مستنكرة أن يتاعوا لها ما لم تطلبه، رغم المشاحنات الصبائية فإنها تضمّر في قلبها اعزازاً كبيراً لأولاد الشيخ صايل، فقد شاهدتهم يواسون والدها في محنته، ولم تجد في تغزلهم بها أو اعتراضهم الصبايا المارات غضاضة، وضحكت أكثر من مرة وإحداهن ترد الغزل بالشتائم أو حجارة الطريق، مالت إلى جانب الشبان العابثين على حساب الصبايا وخفرهن، لهذا اقترحت أن تغني هفوف في زفاف متعب الابن البكر للشيخ وكأنه زفاف شقيقها. كانت تحتضن يحيى الذي حبا، تمنعه من توسيخ جسده وثوبه بين الأتربة والحصى، تمسد شعره وتسد أذنيه بين الحين والآخر بكفيها حين تعلو زغاريد النساء، قالت:

- حلفتكم بالله.. خزقنوا أذانه، اصمتوا قليلاً واسمعوا هفوف، صوتها يبري العليل.

رأى الجميع خدي هفوف يتضر جان حمرة وكفيها تتعاصران، وسمعوا صوتها واثقاً لا يرتعش:

- وأنا طايح البرية، وأدور على الغزلان، لاقتني ع دربي صبية، تشبه مطرق الرياحان، يا سحره كحل عينيها، يا زين الشعر والغرة.. يا ويلك يا قلبي عليها، وين تروح بنار الحسرة؟*

* من الغناء الشعبي.

هتف أشقاء العريس معاً :

- الله..الله..

ثم كرر الناس الهتاف:

- الله..الله...

شدت أم هفوف، زوجة الحلاق الشلبي، شحمة أذن بنتها لتسكتها وتخفف من اندفاعها وحماستها، لوت الصبية شفيتها ونظرت نحو الجمع مستنقدة، فأغاثوها؛ وبخوا أمها، وأصروا على سماعها مراراً وسط حلقات الدحية والهيجيني*، تجلى صوت هفوف مثل ماء عذب سلسيل.

نقص أولاد الشيخ صايل في مسيرتهم الاستعراضية اليومية واحداً، حيث التزم العريس الجديد بيته وعروسه، ولم يعد يتسكع مع أخويه مبرزاً خنجره الفضي، حام الآخرين حول مريم، يسمعون أخبار هفوف، ويتحنون الفرص مع صاحبها الفاتنة بنت الحلاق، صاحبة الصوت الشجي والنهدين الصغيرين كحقي عطر، تسلت مريم بالأخوين المفتونين لفترة، ثم أحست أنها في طور الصبا؛ يستحسن أن تجد لها وليفاً، قالت لابن صايل الأصغر:

- ولديا مصعب، ألق عنيك بأصابعي إذا نظرت إلى صديقتي، أنت حصتي.

كأنها مازحة، إلا أن مصعب انتشى، وتوهم حول فحولته ما يجعل البنت الصغيرة تعرض قلبها عليه قبل أن نضج القلب، هكذا كف مصعب عن التحويم حول هفوف، متبهاً للتغيرات التي تطرأ على رفيقتهم القديمة، فأخلى الدرب طواحيه لشقيقه منصور ليكون العاشق والمرشح الوحيد لترضى عنه بنت الشلبي،

* أنواع من الغناء والرقص الشعبي.

لم يكن منصور يمانع في حمل يحيى فوق كتفيه والسير وراء مريم إذا ما قالت له باستغلال مكشوف وهي ترم ذيل جديلتها فوق سبابتها:

- أحب أزورها، ولكن يحيى صار سميناً، ما شاء الله، حملة ثقيل، ما شاء الله، ولم أصنع له حذاء بعد، انتظر حتى تشتد قدماه، سنة، اثنين، لا، لا لن أذهب، بيت هفوف بعيد، ستتكرس ساعدي من حملة.

يرفع منصور يحيى متبرعاً فوق كتفيه، ويثبت كتفيه فوق عقاله، فيزيح الصغير الحطة ويعبث بشعر الشاب وينكشه ضاحكاً، يسبقها الشاب خطوتين:

- سيري.. وأنا أحمل لك يحيى.. نخدك، ويحيى باشا، وهفوف خانم بعيوننا.

تضاحك مريم وقد أوقعت بالفتى، إذا وصلت حجرتي الطين التي يسكنها الشلبي وأسرته، تلقفت يحيى وهو يرمى بجسده بين ذراعيها قائلة:

- مشكور يا أخي.. نشمي ما تقصر.

تلتقط منه جسد يحيى بهمة ونشاط، وتختفي به وراء باب المطهر الحلاق، ومنصور على وقفته لم يحظ إلا بهنيهة قصيرة لاح فيها طيف هفوف وهي تستقبل صاحبها، قبل أن تتوارى خلف جدار الطين، يقسم أنه يسمع قهقهات البنتين تضحكان منه وعليه، لكنه لا يتزحزح؛ منتظراً الملعونة مريم.

تتسار البتان بحبور حول العاشق المرقوم قرب حائط البيت منتظراً، تقول

مريم:

- غداً تتزوجين منصور، وبعدها أصير سلفتك، أتزوج مصعب.

تتدلل هفوف:

- لو دفع ألف ومية.. أمني لن تزوجني مثل باقي البنات، أبوي يقول: ليس

سليماً أن يعبث بي رجل قبل البلوغ.

تضحكان.

- يا مخبولة.. ألم تبلغني بعد!! لماذا إذن تكور نهذاك مثل امرأة؟

ترتمي هفوف على ظهرها ضحكاً:

- لأغيط بهما الحساد.

تقهقهان بمجون والصبي الصغير يحيى ينظر سعيداً ثم ينفرط مشاركاً إياهما الضحك، ويتململ منصور في الخارج شوقاً وغيظاً، وإذا ما شاهد المطهر الشلبي عائداً إلى بيته؛ تحرك بعيداً وقد أيقن إن مريم ستتركه طويلاً عند الباب وهي تسمع للشلبي يحدثها عن أعشابه وأدويته.

تقوم مريم بمهام امرأة البيت كاملة، لم تشاهد دون شقيقها أبداً، ترعاه وقد وجب أن يرعاها، لكن فارق العمر واليتم جعلاه ولدها الذي لم تلده، تربطه بخريطة تعلقها في عنقها، وتذهب لأداء مهامها، والفتى الذي يحب رائحة عرقها وشذى وفوح نبات «الديرد» الذي باتت تخبئه في كيس ملفوف بإحكام ومخاط في ثنية ثوبها، يتململ، ينتهز فرصة جلوسها للانفلات وتدريب قدميه.

انتبه عيسى لتلك العلاقة الوثيقة، واكتفى بالهمس برزانة:

- يا بنت، اتركي الولد في حاله، لا تسخطي رجولته، دعيه يشدد، ويصير رجلاً، بعد عام أو عامين أو ثلاثة، سأرسله إلى المولى ليتعلم في الكتاب، ها.. أنظنين أن يحيى سيكون مثل آخرين!! لا، لن يكون مثل أولاد الرعيان، بل مثل أولاد الشيوخ، سيكون مختلفاً، سيتعلم القراءة والكتابة، ويحفظ كتاب الله، سيصير له شأن كبير.. لهذا أكرمنا الله به.. اتركيه، لا تخنقيه بمحبتك.

تفرع مريم لدى أي انتقاد يؤشر إلى خطأ ترتكبه في حق الصبي، لو كان الأمر راجعاً إلى عواطفها لما تركته يفارق صدرها، لكنه يكبر، هي نفسها تكبر،

وتتعرض إلى مزيد من نظرات مصعب الفاحصة الولهى، الذي صير المزاح جداً، كما أن الدم الذي فاجأ صاحبها هفوف، نبهها إلى أن دورها قادم، وأن دربها سيتغير، وقد يُعجّل بأوان انفصالها عن يحيى، وإذا كانت ستترك الصغير ينمو دون عوائق محبتها ومخاوفها، فإن لها انفعالات لا تخفيها، فقد شهقت مثل مذبوحة حين وقع يحيى وهي تفلت يده في يومه الأول لدى الكتاب.

تشد ذراعه وتقترب به من شجرة البطم الضخمة التي تميزت في مدخل قرية الكرك، وجلس في فيئها المولى الشيخ أمين والصغار متحلّقين حوله، وقد حملوا عيدان القصب، ومددوا أمامهم قطعاً من ورق الكدش الخشن وأقمشة البفت، وبعضهم جاء بقطع معدنية صغيرة قدت من تنكات الزيت التي يرسل بها الأتراك لموظفيهم في القلعة والحجرة العسكرية، بدا منظر الصغار جميلاً وهم يغطون عيدانهم في الهباب الممزوج بالزيت، ويخطون أحرفهم الملتوية فوق التنك والكدش، لكنها لم تطمئن، وقفت على بعد خطوات وهمست:

- ها يحيى؟ تريد مشاركتهم؟

سحب كفه من قبضتها، وتقدم خطوات صامتاً، ألقى قرب آخر ولد في صف الكتاب، وغمس أصابع يمينه في الحق المملوء سائلاً أسود، متمهلاً، ثم أخرجها، ونظر متعجباً وأنامله تقطر بالسائل الداكن اللزج.

ضحك الصغار، فأسكتهم الشيخ أمين بصوت أجش:

- هـش.. هـشششش، يا بنت، هل أحضرت ثمن التحاق شقيقك بنا؟

رفعت مريم رأسها مستفسرة وهي تمسح أنامل يحيى بطرف ثوبها متضايقه:

- اليوم!!

- غداً.. هاتي اللي يقدركو الله عليه، وارجعي بالولد باكر، رغيف، كمشة

طحين، بيضة، اللي يقدركو الله عليه.

تنفست الصعداء؛ إذ لم تكن مضطرة لترك شقيقها تحت رحمة أستاذ الكتاب ورفقة الأولاد الذين تباينت أعمارهم، وضحكوا من صغيرها بأصوات ساخرة، لفرط عجلتها في الانصراف، تعثرت بحجر في طريقها، ثم توازنت، لم تقع، لكن كفها سحبت الصغير؛ فانزلق أرضاً، تمدد يحيى على بطنه بالكامل، وصاحت مريم صيحة أفرغت التلاميذ والمولى، ثم هرع الجميع إلى الولد الذي وقف ينفض التراب عن ثوبه الجديد، وأخته تتفقد ساعديه وقدميه وصدره ورأسه متلهوجة.

تذكر أهل الوادي الصخب الذي أحدثته الصبية يوم كانت تبحث عن المشخص، مارست نفس الفزع والانخراط الكامل وهي تعزم شقيقها في المكان الذي وقع فيه.. ولم يفلح الشيخ أمين مولى الكتاب في ثنيها عن طقوسها، حتى وهو يقول لها إن آيات قليلة من القرآن تقرأ فوق رأس الصبي، كفيلة بحمايته، لكنها وقد سمعت من فم الداية مخاطر غضبة الأشرار من أهل الأرض، وكبار الجان، وتربصهم بكل من يجروء على سحق أرواحهم التي تسبح فوق الأرض مباشرة؛ فقد فزعت، وناجت ربها ليلة كاملة:

- ربي ورب كل العباد.. كله ولا يحيى.. لا تفجعني به، لا تدبح أبي بسكين، منذ سنوات أربع، وأنا أداريه مثل ذبالة سراج.. ربي، لا تمكن سكان التحتى الأشرار منه.

وفق ما علمتها الداية، نصبت مريم قصاصة من ثوبها على عود في ذات البقعة التي سقط فيها الصبي، فردتها مثل خيمة، وأشعلت سبع ذبالات حول نصبها، وأحضرت كل ما في البيت من مؤونة، وأضافت ما منحتة هفوف وما قدمه بيت الشيخ صايل.

وضعت بقجاً من الدقيق والشعير والعدس، وجراراً من الماء واللبن الخاثر، وحزماً من البخور والطيب والحناء، وسلاً من العنب والتين العسلي، أجلس تحت الشجرة وقد هجرها التلامذة وأستاذهم مؤقتاً ريثما تنتهي مريم من فعالها.

حملت جرة الماء ودارت سبع مرات حول الصبي ونموذج الخيمة التي أقامتها؛ تبتهل:

- يا سامعين الصوت، صلوا على النبي... أولكو محمد، وثانيكو علي، وثالثكو فاطمة بنت النبي.

تجرح صوتها بالبكاء، وتبلل وجهها دمعاً، وهي تجوح:

- يا هند الهنود، يا سمر العلود*.. الغائب احضروه، والنائم اقعده، ودخيل ع المال والعيال.. خذوا هديتكو، وفكوا شكتينا... فكوا يحيى ابن نفل وعيسى أبو بكر.. فكوا حبيب أخته مريم بجاه مريم والمسيح، خذوا علف لخيلكو، ملح لزدكو، حنه لاولادكو، بخور لعجامكو، دخيل ع المال والعيال. لا تقربوا شقيقي بسوء، والحاضر يعلم الغائب.

تدور مريم ملتاعة وترش ماء جرتها على الأرض وجذع الشجرة، ورأس الصبي، ينظر يحيى مذهولاً إلى أخته وثوبها يطير مع دورانها، فعلت مريم فعلتها بذات الشجن ثلاث ليال متوالية، قبل أن تنصرف إلى صباغة قطعة من جلد البقر نعتها في وعاء نحاسي بالماء والسماق، ونشفتها في الشمس أياماً وحاکتها حذاءً لقدمي شقيقها الذي لا بد سيوافي الطلبة تحت الشجرة يوماً.

* تعابير في مخاطبة الجن.

صار لازماً أن يفارق الطفل هوايته الغريبة في تتبع مساقط الضوء المنسكب من فجوات قماش الخيمة الصوفية، وملاعبة الشعاع المارق في قلب العتمة، أو تدوير مخروط البلبل الخشبي في دوامة يظل يرقبها مفتوناً، مندهشاً للسر الذي يجعل البلبل يدور بسرعة حتى تكاد لا تراه، ثم يتباطأ ويترنح ويقع.

سخط عيسى لإفراغ الدار من الغلال، إلا أنه لم يجرؤ على الاعتراض، قال للشيخ صايل:

- هذه البنت تجوعنا لأجل عيونه، ربي يرحمنا من الخطأ.. ماذا لو كانت الداية على حق! وأغضب الولد عفاريت الأرض! الله يرحمنا.

فيجيبه صاحب الطاحون:

- حق!! أنا أساهم بما تطلبه البنت لأنني أريدها حليمة لولدي مصعب، أعاملها على قدر عقلاها، لكن هذا جنان نسوان، جن وعفاريت!! كيف تصدق يا رجل؟ الذي راح مثلي إلى مالطا وقبرص، وشاف الهول، وركب سفينة العليج إلى ساحل إيطاليا، ودار بالبحر أشهراً وسنوات، لا تركب هذه الحكايات في عقله.

يتأفف الطحان ضاحكاً:

- يوهوه.. أنت بارع في إيجاد مدخل يجعلك تحكي عن قبرص ومالطا وسفينة البحر... ها!! ماذا تذكرت؟

يترك الطحان الحبل للغارب للشيخ صايل ليتحدث عن مغامراته حين ركب السفينة برفقة الفلسطينيين ويهود نابلس والجليل، الصناع المهرة والتجار الحذقين، الذين أمر الباب العالي العثماني بترحيلهم ليعمروا أسواق الأرض الجديدة التي دخلها العثمانيون، قبرص، الفقيرة الخالية من التجارة والصناعة، يفتح عيسى عينيه موهماً معلمه باهتمامه بالتفاصيل؛ فينسيه سيرة زواج مصعب

ومريم، إذ اكتشف على حين غرة أن البنت راحلة إذا ما بلغت سن الزواج، ولم يكن أكيداً ما إذا كانت بلغت سن الزواج، على الرغم من أن أمها كانت أصغر منها حين اتخذها زوجة، لكنه يتذكر انتظاره لعامين قبل السماح له بمقاربة امرأته، تقض الأفكار مضجعه ليلاً، وينكرها نهائياً، لهذا فغرفاه بتعجب واستنكار والشلبي يقول له:

- لنزوح البنتين معاً.

ربما كانت هفوف جاهزة لحياة جديدة، تبدو امرأة كاملة الأنوثة، تسبق عجيزتها إذا سارت، ويشني خصرها، وتفوح أردانها عطرًا مثل النساء، أما مريم!! ينكر الطحان على صغيرته مغادرة داره، من للصغير؟ من للعجين والتحطيب؟ يتذكر نصائح الأصحاب حول ضرورة وجود أنثى تعينه على الدهر، لقد عوضه الدهر عن أنثاه بابنة عمرت بيته؛ يحتفظ بمخاوفه لنفسه وهو ينظر إلى الفتاة التي صارت امرأة في غفلة، تقود شقيقتها إلى الكتاب منتعلاً حذاءه الجديد خلافاً للصبيّة الحفاة، لا يتصور ابتعادها عن خيمته.

لم يتمكن الطحان من رفض هدية الخطبة التي قدمها شيخه صايل، لأول مرة يشعر بثقل أن يكون الشيخ صايل رب عمله، لم يكن مضطراً لمثل هذه الهدية القيمة، لو قدم دجاجاتٍ أو خروفاً على أحسن الأحوال لرفع عنه الحرج، لكن رب العمل ينفخ صدره ويقول متبجحاً إن مصاهريه سيحظون بخير كثير، وبحبوحة لم يحلموا بها، وما هذه إلا هدية متواضعة للخطبة، أمسك عيسى بالريبيان*، مددها بين ذراعيه، فخشخششت الريالات الفضية في طرفها، قال ببرود دون اهتمام:

* جديلة من الصوف مشنثلة بالفضة أو الذهب تستخدم في رأس العروس.

- البنت بتتكم.. وما تهذونه من غالٍ أو رخيص، هو مهر لواحدة ستكون في بيتكم.. كله يرجع لكم..

ابتلع الشيخ صايل صدمته في استهانة صاحبه الذي لا ييدي فرحاً ولا ابتهاجاً بالهدية كما فعل الشلبي... ونظر بشك إلى صاحبه يتململ ويخترع أسباباً للتأخير:

- اصبروا علينا إلى أن نطهر الولد.

لم يكن ختان يحيى مجرد احتفال عابر، فمريم وإن كانت أساءت التدبير فأضاعت مؤونة العام بطرد الجان واسترحامهم، إلا أنها تمكنت مجدداً من جمع طعام كثير، بل وابتاعت من دواج بدوي دفاً له خشاخش رقيقة بقصد إحياء ليلة الختان، جهزت لحفل طهور مختلف، طلبت من مصعب ذبح خاروف ابتاعته من سوق الكرك، عجنّت خبز القمح بكرم كبير، وأذابت قطع الجميد المتحجرة في الماء، ومرست الحجارة الحليبية لساعات، تحكها حتى يتخثر الماء باللبن.. رائحة اللحم المغلي على أثافي الحطب، والجميد والثريد كانت بمثابة دعوة لكل محب لحضور الاحتفال بختان يحيى الذي بدا جميلاً وقد عقص شعره، وتطيب، وارتدى حلة بيضاء جديدة، علّق في ياقته حرز قماشى فيه قطعة من الشب*، وآية قرآنية خطها معلم الكتاب على رقعة من الكدش، وخاط فوقها خرزة زرقاء جلبتها مريم من شق في الصخور الفيروزية* غرب الكرك، قالت نساء الخبرة:

- البنت شايقة الضو طالع من طيزو.

* حجر أبيض يعتقد ببركته.

* حجر يوضع لمعالجة الحسد.

زغردت النسوة والحلاق المطهر الشلبي يقص بعناية شعر الطفل الذي طال حتى كتفيه مبقياً زغلة بنية ناعمة الملمس في منتصف رأسه، وتوشوشت النسوة متسائلات حول الربيبات التي تلبسها كل من هفوف ومريم يتغاوين بها محدثات صليلاً وهن يتحركن بين النسوة يقدمن الزبيب والقلية في كمشات سخية، إلا أنهن أطلقن زغاريد بهيجة وقد انتهى المطهر من حلاقة الرأس، وعندما أُجلس الفتى على فرشة عالية وأحاط به أبوه وأولاد الشيخ صايل، تنحت النسوة قليلاً وهن يواصلن الزغاريد، وغطت مريم عينيها الدامعتين بكفها، وأشاحت بوجهها حين رفع المطهر ثوب الصغير عن عضوه، ارتعش فؤادها فرقاً، فاحتضنتها هفوف هامة:

- إيش قلة العقل؟ كل الأولاد يتطهرون، شفرة أبي حنونة.

هلل الرجال ثلاثاً قبل أن تغني النسوة :

- يا يحيى في يوم الوعيد لا ترمش عينك... إيبسه... قلبك خله حديد،
والمعلم قله هات زيد... إيبسه... اقرب لي لا تجلس بعيد... والشفرة منها
لا تحيد... إيبسه.

بكت مريم بحرقة حين سمعت صيحة الصغير وقد ختن، ولكنها لم تنسَ واجباتها، تركت شقيقها للمطهر والداية، وتشاغت بجلب السدور النحاسية المعرمة بالثريد واللبن المطبوخ واللحم، وأعمل الرجال أيديهم في الهفيت* الذي تسبح السمينة على سطحه، ورغم توقف بكاء الصغير الذي هذه الفرع والتعب، وميله إلى إغفاء؛ وقد سُقي زهور المليسة المخدرة لتخفيف ألمه، فإن مريم ظلت

* طعام شعبي من الثريد واللحم واللبن المطبوخ.

تتلفت متفقدة بعينها مطرحه، بعض النسوة قدرن خوفها على شقيقها، وأخريات حملن الأمر على محاولات البنت لفت الانتباه للريبة التي تنتهي بدوائر فضية تخرخش كلما تحرك رأسها، تمسك بها هفوف من الخلف تمازحها وتستعرض ربيبها:

- يسعد ذيل الفرس الأصيلة، ارفعي الأكل حتى أغني شوي.

رفعت الأسمطة من حضرة المحتفلين، وتراقصت شعلة النار فوق الحطب الذي يحترق ببطء في المنقل تحت دلال القهوة، وما إن خمدت الشعلة ولون وهج النار الوجوه الراضية المستبشرة، ورقت نسائم الهواء حتى أطلقت هفوف صوتها دون خشية أو خفر، بدت أكثر ثقة مع انبعاث صوتها يهيجن شجياً:

- البارحة العين مسهرها... عند اللي قرونها اردافي..

ياخوك.. يوم تذكرها... افر من مرقده دافي..

اوصفك لا تنكرها... بيضا هذب رمشها ضافي..

والعين ياخوك ماكبرها... يشداك جم البحر صافي*..

فغرت النسوة أفواههن، ومالت رؤوس الرجال وانحسبت أنفاسهم، وتعلقت عيون منصور وجف ريقه، وتحرك يحيى في مرقده دائخاً، ضربت الفتنة المحتفلين بختان الصغير وهم يعجبون لطلاوة الصوت، وأعمتهم عن رؤية الظلال التي وقفت قبالة الشق، كما لم يتنبهوا لإيقاع سنايك الخيل التي توقفت، ولا للرؤوس التي تطامنت دهشة فوق الأحصنة المطهمة، لهذا حين التفت متعب وفر كالملدوغ من مقعده، انقطع القوم عن شغفهم الذي أذهلهم وهم يسمعون الشدو الجميل، وبُتر صدى الصوت الحريري الذي تردد في فضاء الليل، قاموا

* شعر شعبي.

تباعاً ينظرون إلى الضيوف الواقفين بباب الشق الذين استرقوا السمع للغناء الشجي، بعض الجالسين هلّلوا.. الله أكبر؛ فالخيل بدت فاتنة في ضوء القمر، والرجال الذين اعتلوا صهواتها ارتدوا ما يبرق ويلمع، هرع كبار القعدة للترحيب بالضيوف.

ظل عيسى مقرفصاً إلى جوار ولده، والتمتع الشرر في عينيه، لم يبتهج؛ فقد ميز الجمع في لحظة وقوفه، عثمانيون خارج خيمته يتمتعون بطقوس ختان ولده! تجاهل حراك الرجال غيظه وجلسه المستنكرة، وغلب عليهم أصول لقاء الغريب والترحيب به، الوحيد الذي عرفوه بين الراكين، أوطه باشا العسكري ساكن السرايا جامع الجباية، الذي تضاعف ظله فجأة؛ وقد جاوره على حصان فحل رجل جهم مثقل بثوب من جوخ الصايا المبهرج والمطرز بخيوط ذهبية، التمعت خيوط ثيابه المغايرة على وهج نار المنقل، وظلال القمر المطل على المشهد، تهامس أوطه والضيف الجهم، ثم تحدث مع الجماهرة المحتفلة؛ ينقل رسالة الضيف الغريب:

- مبروك احتفالات.. جميل.. ضيفنا... عمدة الأماجد والأكارم الفخام عزتلو، القائمقام كارتال، يقول: مبروك، احتفالات جميل.. وصوت جميل.

توارت هفوف خلف كتف أمها، ولم يلحظ أحد تلك القسوة التي اعترت ملامح مريم وهي تنظر بحقد إلى الوفد الهائل الذي لم يستجب لدعوات الكرم التي أطلقها البعض على حذر، لكن لفوا أعناق جيادهم ومضوا مبتعدين.

كان مرور القائمقام غريباً، فهو لا يعمل في تلك النواحي، وقلما يمر مسؤول إداري رفيع المستوى على هذا النحو من المكان، وإن حدث وجاء كبير من الباب العالي؛ فإن رؤية طلعتة البهية تكون حكراً على شيوخ القبائل في القلعة، تذكر

الرجال بعض الشائعات، وচারوا في صحة ما قد يكون سبباً لوجود مثل هذا الوجه في المكان، إذ سمعوا برغبة العثمانيين في جعل قرية الكرك ونواحيها لواء أسوة بالمدن الكبرى، لأنهم وإن كانوا على درب الحجاج، فقد شهدوا مرور النساء الخوانم رائحات غاديات إلى مكة، أما الرجال العثمانيون من الحجاج فقلما كان يمرّون من المكان؛ لهذا توجسوا، قال أحد الرجال، إن عليهم إرسال مبعوث إلى بيت أوطه باشا يستطلع أسباب تشريف القائمقام نواحيهم، انفجر عيسى مغضباً:

- بيت الباشا!!

صمتوا؛ تظاهروا كأن شيئاً لم يقطع بهجة حفل الختان، اصطفوا الرقصة الدحية، ولم تعد مريم إلى سابق نشاطها، كأنها قنديل ينوس ضياؤه. تعافى يحيى سريعاً منشغلاً باللعب مع حزم الضوء التي تدخل إليه في مرقد، ذلك شعاع خفيف وذاك ساطع، ذاك خفي وذاك ظاهر، وذاك ساخن وسواه بارد، بينما تجعله دوامة البلبل الخشبي الذي ابتاعته له مريم من دواج* عابر، يراقب المدة الزمنية لدوران الخشب فوق الحجر الأملس قبل تطوحيه وتوقفه واقعاً على الأرض، ويكتشف طول مدة الدوران كلما زاد التفاف أصابعه حول المخروط قبل إطلاقه لحركته السريعة.

انصرف عيسى إلى شؤون تتعلق بالطاحون، أما رجال القرية فقد اجتمعوا مرات وتفاكروا وتعجبوا وتحدثوا بتفاصيل كثيرة، استبعد الشيخ صايل أن يكون الضيف العالي الجنب في بيت أوطه باشا قادماً لجمع الرجال للخدمة العسكرية، فقد أطل المكوث، وبدا مديناً يسوح في المكان على دعة، كما لا يمكن أن يكون

* بائع متجول.

مسؤولاً عن جمع الجباية، فرجال المحصلجية من الجند يقومون بالعملية بطرائقهم الفظة في حزيران وأوقات متفرقة إذا عنّ لهم، والباب العالي لا يرسل عادة رجلاً له كل هذا البهاء النبيل والأبهة ليقوم بمهمة خسيصة.

أحدث مرور الرجل بالديار ارتباكاً، واسترقت النسوة النظر إليه يتمشى في حوض الفول وراء بيت الأوطة حاملاً شمسية أنيقة، أنسى الجميع ما كانوا يتأهبون له فرحين من احتفالات بزفاف ابني الشيخ صايل الذي انشغل بالغريب أيضاً ولم يقدم على خطوة تالية بعد إهدائه الكريم للريبات الفضية، ولأن الرجل تأخر؛ وانشغل بتحركات غامضة، وسمعت مريم وشايات النسوة عن زيارات متعب بن الشيخ البكر المتكررة لبيت الباشا، فإنها بعثت وصمت تام خلعت الريبة، وأودعتها صندوقها، وقلبها يقول إنها ستعيدها إلى صاحبها ولن يكون زفاف.

تظاهر متعب بالتردد والخجل وهو يرافق والده لشرح موقفه لعيسى الطحان، في أعماقه كان منزعجاً؛ لماذا عليه نيل مباركة أجير الطاحون عندما يتعلق الأمر بمستقبله وحياته!! لكنه طأوع والده، وتظاهر بالتواضع الجرم شارحاً أهمية السعي لدى القائمقام لتنصيبه في موقع المختار.

تمتم عيسى:

- المختار!

- المختار يا عمي.. قيمة ووجاهة سيحسدنا عليها أبناء العشائر، القائمقام مكلف باختيار مختار من أبناء الناس الذين يعرفون بعضهم بالناحية، يريدون من يكتب ويقرأ، لأن الكرك ستبعت ثمد البلقاء، الأمور ستتغير، هذا أمر مليح يا عمي، لا تنزعج إذا قعدنا بدار الأوطة، القائمقام يريد ذلك، تعرف ماذا يعني المختار؟ صحيح وجع رأس وتعب، ولكن فيه فائدة، أقبض كل أربعاء راتبني مع العسكر، أي والله، بانتظام يا عمي، لا أنتظر

موسم، ولا زبائن فقراء يستدينون ويسددون على الحصاد، في النهاية،
الخبرة تستفيد عندما يكون مختارها منها، أليس كذلك؟
كأنه يسأل الموافقة، ظلت عينا عيسى محنطين محايدتين، ولم يعكس وجهه
ضيقةً ولا ارتياحاً، وواصل متعب تبريره:
- المختار يساعد في تحصيل الجباية؛ نستطيع أن نقيم المبالغ دون جور
الأوطة، والمختار يجلب المطلوبين، ويخبر عنهم، يعطي المعلومات،
ويساعد في ضبط أمور العباد، وكف الزعران عن الخبرة.
وقف عيسى، وجر عصاه خلفه فرسم في التراب خطاً مستقيماً عميقاً وهو
يمضي هامساً:

- ربك اللي يختار، المختار.

اعتبر متعب الكلمة موافقة وتوافقاً ضمناً، ما دامت لا تحمل رفضاً معلناً،
قد يكون هناك بعض العتب الذي يمكن تجاوزه، كما أن صايل تكتم على الهدايا
التي رشى بها الأوطة لتسهيل اختيار ولده، تضامن كلاهما على سرية تحركاتهما
ريثما تنقضي حاجتهما.

بعد زيارات قصيرة لبيت الأوطة، باشر متعب عمله في تسجيل الأملاك
والنفوس والديون بجدية كاملة، قام باستخدام حبر خاص أسود شديد اللمعان
منحه إياه الأوطة، وانشغل في بناء حجرتين قرب بيت والده، إذ لا بد للمختار من
بيت مستقل، وراحت زوجته تشتري المزيد من الثياب والعصبات الحريرية
الدمشقية التي يأتي بها الباعة إلى سوق الكرك، كما كلفت النسوة بتطريز عدد من
الثياب مثل نساء الشيوخ، لأن ما حل بحياتها كزوجة موظف عمومي؛ أهم بكثير
من زفافها وحملها بورث لمتعب.

تعافى يحيى من أوجاع ختانه سريعاً، وفي اليوم الأول الذي عاد فيه إلى الكتاب، شاهد المولى أمين المعلم يقف صائحاً مندداً في وجه متعب الذي يسترضيه ويحاول التخفيف من غضبه، لم يفهم يحيى ما يدور، وإن سمع اسم هفوف يتكرر، ولكن مريم فهمت وغضبت، شتلت ذراع شقيقها بقسوة ناكصة في دربها، مشت بغیظ وداست فوق حبات البندورة المزروعة في طريقها، وكسرت أغصان الرمان المتشابكة، ولم تلتفت ويحيى يصيح جراء عود خدش وجتته، التقطت أنفاسها وتوقفت عند باب الشلبي.

وجدت هفوف وأمها يبكين بحرقة، فخمد غضبها، لو هلة شكت أن صديقتها تتواطأ مع متعب على تنفيذ طلبه، ولكن دموع الأم والبنت بينت أنهما مغلوبتان على أمرهما، لم يكن الشلبي بالبيت، وازداد عويل النسوة، لطمت الأم وجهها وهي تشرح بوجيعة كيف جاءها متعب برغبة الأوطه والقائمقام اللذين أرادا هفوف لتحیی أمسية من أماسيهما في حجرة السلامك الخاصة بالبيت المحرم على الفلاحين، تمت هفوف لو كانت صماء بكماء، لو انشقت الأرض وابتلعتها، لو قطع لسانها أو ماتت في عداد من ماتوا سنة الصخونة، ولم يجرؤ متعب على هذا الطلب الذي يدعي إنه الزامي، دونه غضبة الأوطه والتنكيل بها وبأهلها، لم تعرف لماذا توجب عليها الغناء في بيت ذاك الشيطان؛ وأعولت مريم معهن، وفكت هفوف ربيبتها وألقت بها أرضاً شاتمة الشيخ صايل وأولاده، نائحة.

لم تنم القرية ليلتها، طأطأ الشلبي رأسه خجلاً وهو يتلقى ملامات الجالسين صامتاً، في حين راح متعب يوضح خطورة الامتناع والرفض لطلب القائمقام، ويهون من أمر ليلة تغني فيها الصبية في بيت الباشا، بكى الشلبي، وعاهد الجمع على الرحيل من القرية بزوجه وعياله جعفر وزيد وهفوف إذا بزغ صباحه.

تبعث النسوة متعب الذي قاد الفتاة، رجمنه بالحجارة ثم توقفن خوف إصابة
كفني البنت المنحيتين ترتجفان، وبصق الرجال أرضاً وهم يصرخون بالشيخ
صايل قائلين:

- هذه أول مهام المختار الجديد يا ديوث؟ تشغل بناتنا للتسري!!

ارتضى الشيخ صايل متوجعاً قرب المنقل المنطفيء وصاح:

- خافوا الله.. الولد خرج عن طوعي، وهو ملزوم، أهيل السكن على راسي

ولا يدخل بيتي، لا ولدي ولا أعرفه، عساكم راضين!!

دب الشيخ صايل كفيه في رماد السكن الدافئ في قلب المنقل، عباً كفيه بالرماد،
ومرغ به رأسه ووجهه بهستيرية وهياج، فانتشلت ذراع عيسى القوية من وسط عفار
الغمامة التي أحاطت به، وجعلته يسعل مختنقاً، أسلمه إلى ابنه الخجلين، وصاح
بصوت قوي:

- وحد الله.. كل شاة معلقة بعرقوبها.. وانت أخونا أبداً الدهر.

نامت الديرة على وجع؛ التمت النسوة حول أم هفوف مواسيات مهونات من
نتائج تلك الليلة المشؤومة، قلن: هي ليلة وتنقضي، تضيق في الزمان، شتمت الداية
الأوطة وضيغه، كما صبت لعناتها على متعب، في حين ظلت مريم صامئة مكفهرة
الوجه، حتى إنها لم تنبه إلى تسلل يحيى مع الصبية خارج بيت المطهر الحزين.

يحفظ الصغار الدرب ليلاً حتى في غياب الهالة القمرية التي تلف المزارع،
يمكنهم تتبع ضياء الفانوس الشحيح الذي يلوح من شباك بيت الباشا، كما يمكنهم
التحرك بخفة دون إثارة ضوضاء تكشف مسيرهم، لم يتوقف أي منهم لإرجاع
أصغرهم؛ فيحیی الوحيد الذي يرتدي حذاءً، وليس من المرجح أن يشكو أو
يحدث صوتاً يكشف تحرّكهم، كما أن ضالة جسده ساعدتهم على رفعه فوق

أكتافهم حتى تمكن من الإمساك بدرفة النافذة العريضة، وعاین المشهد بوضوح داخل إيوان السلامك المضاء بالقنادیل فی بیت الباشا.

ألحوا علیه:

- ها؟ ماذا ترى؟

همس مصاباً بنفس النشوة الغامضة التي شعرها مرة موعوعاً يوم ختانه، وعادوته ناعمة بلا ووع تلك اللحظة، بل مجرد ديب خفيف رشيق يسري في الروح:.

- تغني.. هفوف تغني.

أصعوا السمع؛ وتمكنوا من التقاط الصدى الرقيق الصافي لصوتها، أما يحيى فقد رأى بوضوح جسدها ينفرء، ووجهها يأتلق وهي تقف قبالة القائمقام الجالس وحوه جمع الرجال، لمحت الوجه الصغير المءور من شق النافذة؛ فعرفه، ابتهجت عينها وصدح صوتها؛ كأنها تغني له وحده:

- خاتم حبيبي وقع بالبير.. له رنة..

واللي سمع رنته.. مرهونة له الجنة.

يا من لقي محرمة بالسوق.. مرمية.

فنجان يا اللي انكسر.. رنت فناجينه*.

لم ترجع هفوف من بيت الباشا صباحاً، وجهه متعب وهو يشرح للجميع رغبة القائمقام باصطحابها إلى إستانبول في مهمة تجعلها مطربة ذات شأن وشهرة ومال، زين ما وراء ذلك من منافع لذويها لا تقدر ولا تحصى، تفجر غضب

* غناء شعبي.

الرجال، ودارت الرؤوس ريبة، وحلف عيسى بتراب أبويه وزوجه، أنه سيذهب إلى الكرك ويعود مصطحباً شيوخها لوقف هذا الإذلال، وتظاهر متعب مجدداً باسترضاء والده، الذي لم يرض، بل هددته ومنعه من دخول البيت حتى يعيد البنت، ويرجع شقيقه منصور الذي هج ليلاً غاضباً، وصاحت أم هفوف:

- والله.. ونبيه محمد.. وعيسى، وعلي وجعفر، ما تصل هفوف بيت الشيخ صايل عروس لولدهم؛ لو أموت، ما أصدقهم، هاي أدوار يقومون بها، ويلعبون علينا معاً.

أمنت مريم على كلمات الأم المحزونة، وعنت نفسها، أحست أن تلك أيضاً مشيئة نفل الغائبة، تفت قلبها حزناً على ضياع الهوى الذي التقطته في عيني مصعب، وساهرته أمسيات طويلة على وسادها، واستيقظت من وهمه مكلومة، في تلك اللحظة لم يغفر أحد لأولاد صايل شراكتهم بالدم مع مختارهم الجديد الذي بدأ عهده بمساندة الجور وتضييع الشرف، وإن صدقوا وقوع الشيخ صايل في محنة تجاوزت قدراته.

جاحت الخبرة عن بكرة أبيها والمختار يقول وهو واقف محتمياً بين عشرة رجال من الجندرمة* الأشداء المسلحين بالبندق والسيوف، إنه وحفاظاً على الشرف؛ وضمناً لشرعية ما يحدث، فقد وقع في الليلة الماضية على عقد قران البنت إلى الرجل العثماني الغريب، القائم مقام كارتال، فصارت زوجته برضاها وتوكيله شخصياً.

* رجال الشرطة العثمانيون.

رفع الأولاد رايات سود قرب بيت متعب الذي ما زال في طور التشييد، وتوافق الكبار على رفع راية بيضاء فوق حجرات الحلاق والد هفوف لمنعه من مغادرة الديار مكلوماً مشرداً عائلته، أحنى رأسه وهم يواسونه، متمتماً:

- أُرث بقلبي ستة آلاف شعبان دفاقة للسم دفق السحاب

لم تصل هفوف إلى بيت صايل كنة، ولم تعد إلى بيتها ابنة، ولا تمكن أحد من بسطاء الخبرة من التواصل مع شيوخ القبائل؛ ورفع شكواهم إلى كبير، كما لم يخطر ببال بسطاء الخبرة أن المختار وقع بحرف ملتو من اسمه على صك بيع هفوف جارية للرجل الذي طار صوابه لدى سماع صوتها، لا زوجة شرعية على سنة الله ونبيه، خبأ المختار الثمن الذي قبضه؛ وادعى أن الصبية شاركته الخيار طواعية، ولم تجرؤ على لقاء والديها.

تسارعت الأمور؛ فإذا بالقائمقام يسرج خيوله ويستعد للرحيل مصطحباً هفوف، وقد طرحها البكاء المتواصل ضعيفة خائفة، وتدافع الناس خائفين باكين على قمة التل المشرف على وادي الكرك؛ يرقبون مسيرها ممتطية ناقة مسرلة ببساط مطرز يحجبها عنهم، سار ركبها محوطاً بطابور من الجندمة والعسكر الخيالة الذين لا يعرف أهالي القرية كيف تجمعوا، ومتى، وكيف أحاطو بالركب المسرع في قلب الوادي متخفين بالشجر، لم يتحرك أحد، وأمسك يحيى بشليل شقيقته التي تشقت بأسى، وعندما تبددت الأصوات ولم يعد هناك إلا رجع أصداء دفق المياه في الوادي، هيجنت مريم:

- يا عين هلي الدمع سرواً على سور.. الحوض يرشّف والساقية تدور...

يا رايدين الهفوف تعالّن نودعها... حنا نودعها وهي تسكب مدامعها...

جمل الهفوف الغالية بالوادي.. حنينه ينوح ويقطع فؤادي*..
بكي المجتمعون وناحت النساء، ونام المكان على قهره زمنًا غير يسير، عدوا
ابتهتهم خطفت عنوة وجوراً، فما عُرِفَتْ بعدها أراضي هفوف ولا مصيرها، ولا
رجع منصور، ولا تراجع متعب.

لم تعد الحياة كما كانت، على الأقل بالنسبة لمريم، وحده يحيى يدرك أن تغيراً
انقلابياً أصاب شقيقته؛ فقدت رقتها وحنوها، لم تعد تجدل شعرها في ضفيرتين
تلقيهما فوق حمائم صدرها، ولم تعد تغني أو تهيجن وهي تحلب الماعز، ولا
تهرع لحمل كيس والدها مما يجيء به من قمح أو فاكهة أو شيء من الزيت
والزيتون وهو عائد من المناحل التي انتقل للعمل بها عوضاً عن الطاحون، كما لم
تعد تخرج به إلى الكتاب، أو تسأله عما تعلمه في يومه، وتطالبه بإسماعها ما حفظ
من آيات وأحاديث، ونسيت التسلل إلى الحرش القريب للقاء مصعب، ولم
تشارك في فرجة تصويل القمح قبل نشره وتجفيفه ودفعه للطاحون، ولا عاودت
جمع نباتات الدريز المعطرة من سفح الوادي ودسها في ثوبها وتحت وسادها، وما
عادت تنقع مناديلها بمحلول النيلة لتصير زرقاء، ولا تمصمص حبات العنب
مصدرة تلمظ المستمتعة قائلة إن في قلب تلك الحبة سرّاً عسلي المذاق، تغيرت
مريم؛ كأن وجهها قُدَّ من ملامح صارمة تتحرك بمقدار. يتذكر يحيى أن عضلة
خدها ارتجفت حين سرق خاتمها، عثرت به يدي نصف جسده في قلب البير وقد
رفع غطاءه الحجري بدفعه بمجمل جسده، كان يمدد نصفه السفلي أرضاً، ويدلى
نصفه العلوي في فوهة البئر، وقد ربط خاتمها النحاسي بخيط صوفي رفيع ورمى به

* غناء شعبي يقال في شجن في وداع العروس.

إلى عمق البئر ممسكاً بطرف الخيط، وراح يحركه يمنة وشمالاً، أفقيّاً ثم دائريّاً، ثم يسحبه ويتفحص بفضول الفطريات والحشائش الدقيقة التي علقّت بالخاتم، ويعاود رميه وأرجحته مجدداً، مستمعاً بانتباه إلى تفاوت نغمة الرنة حين يرتطم الخاتم بجوف البئر أو جداره، شدته مريم فزعة، واستنكرت بجفاء فعلته، قال لها:

- ما هي هذه الأشياء التي خرجت من باطن البئر، ولا نراها في الماء؟ هل سمعت رنة الخاتم على جدار البئر وصوت ارتطامه؟ هفوف غنت إن للخاتم رنة، أنا سمعتها في بيت الباشا.. كلامها صحيح، هناك رنة وصدى لمن يسمع جيداً.

انزعّت مريم الخاتم من يد شقيقها، رمقته بقسوة كأنها تؤنبه، ومضت، رأى ارتجاف خديها، يومها علم أن عليه الامتناع عن ذكر هفوف بتاتاً، كما تعلّم كيف يقرأ مريم من خديها؛ يشحبان ويبهت لونهما وينخسفان إذا مر مصعب، ويتحولان إلى قعر حين توشك على البكاء، لكن دموعها لا تعرف طريقاً إلى محجر عينيها، في خديها لغة وافية لم يعرف أسرارها سواه.

جاء انفصال عيسى الطحان، الذي لم يعد طحاناً، عن رب عمله تدريجياً، دون عتاب أو نقاش، لم يعد عيسى يتردد على المطحنة، فتركه الشيخ صايل على أمل أن تشفى جراح نفسه، وإذ شعر عيسى بالخجل لموقف شيخه الطيب تجاهه حين أجزل له في العطاء، بل وأرسل رجلين يعمرّان غرفة طينية مسنودة بالقش، وفي زاوية منها كؤارة* جيدة السعة للقمح وأخرى لاستخدام البيت، كان هذا الكرم خليقاً ببقاء الرجل في خدمة صاحبه، والمضي في مشروع المصاهرة، لكن الأسى الذي غمر وجه ابنته جعله يردد مرات إنه على استعداد للسير على الأقدام يومياً

* مخزن القمح.

إلى الأغوار، والخدمة في غرف استخلاص السكر، على أن يعود للطاحون القريب، واستجمعت مريم شجاعته ذات نهار، وفتحت صندوقها فأخرجت الرابية، لفتها بخيش قديم وأرسلتها إلى بيت الشيخ.

انصرفت بعدها إلى شؤون البيت الطيني الجديد، غير عابئة بما يروجه الشيخ صايل حول قبولهم بسكنى البيت الجديد الذي قدمه مهرًا لها، ثم نقضهم العهد، قالت إنها لم تعاهد أحداً، وإن البيت أجر يستحقه والدها على خدمته الطويلة في الطاحون، وقد حاول الشيخ صايل تناسي دور عيسى، لكنه مني بخسائر كثيرة، كان العاملون في الطاحون يخونون؛ يضيفون الحمص إلى القمح فيفسدون الطحن، كما يرفعون الوزن لصالحهم ودون أن ينال حصته من ذلك الغش المكشوف، وصار أصحاب الأحمال يتجاوزون طاحونه إلى قعر الوادي بحثًا عن خدمة أكثر صدقًا وأمانًا، كما لم يعد أحد يحفل بقصة جرحه الذي عبأه تبنًا، وبطولاته عند أسوار مالطا وعلى رمال قبرص، ويقظته حين كان البحارة يفقدون الوعي على ظهر سفينة العلج علي المتجهة إلى السواحل الإيطالية، شعر أنه اشترى موقعًا وراتبًا لولده، وباع مكتسباته الخاصة، لهذا تضامن مع عشق مصعب الذي لم يعد خافيًا، قال لمتعب:

- البنت أكلت نافوخه، لا بد أن نزوجه مريم، ليس بكيفها، لقد قبضوا المهر على الأقل..

أراد متعب الانتهاء من تلك القضايا العابرة والتفاصيل المحبطة؛ فسعى لهذا الزواج، وحدها العروس المنشودة تتمتع على ما فيها من شوق، ورغم ما يطرأها من ملاحظة مصعب لمشيتها كيفما سارت؛ استبد بها هوس في تخليص حقها وحق صاحبها.

في صباح ندي خاتل الجميع بجماله ونسائمه العطرة، سمعت المولى يناقش رجلاً حول تعليمات عثمانية جديدة، قال إن على الناس الانضمام إلى حركة المولى يونس العيثاوي الدمشقي في رفض اليسق*.

انتشر خبر فرض اليسق ضريبة على كل زواج يعقد، ولضمان وصول تلك الجزية من الناس في كل مكان، أُسقط أي نكاح يتم خارج المحاكم الشرعية للعثمانيين، أو على أقل تقدير في بيوت الحكام الإداريين منذ العام 1579، وعد كل لقاء بين رجل وامرأة دون تلك الوثيقة وطناً غير شرعي.

قلبت مريم أقراص الجلة* المعجونة بالتبن والروث خلف الشق، وهي تستمع بانتباه شديد إلى حديث الرجال:

- هؤلاء لا يخافون الله، هل يعني هذا، لأننا لم نسجل لديهم وندفع يسقهم، أن أولادنا كلهم أولاد زنا؟ أعوذ بالله.

- لا يكفيهم ضريبة الوير كولا لأراضي والتجارة والغلال، لاحقين شرع الله يحلبونه!!

- عشرة قروش!! من أين يأتي أي راعي أو فلاح أو شاب بعشرة قروش؟ القرش أربعين بارة نحاس، كأننا نائمون على كتر سليمان.

- هذا لا يناسبنا، طوط الروم لا يخوفنا، نحن بأخر ما عمر الله، دمشق تحت عيونهم، نحن بعيدون، كيف للروم العثمانيين أن يعلموا أننا زوجنا بناتنا؟

- الأوطة يخبرهم، المختار، مختارنا يحفظه الله، يخبرهم، لا يجرؤ المختار على مخالفة الأوامر، إنه شخصيلة في أيديهم.

* ضريبة الزواج.

* وقود يعد من روث البقر.

- أقطع يدي إذا ما كان هذا القانون لأجل ضبط النفوس وعد الذكور وجر الرجال إلى الحرب مجدداً.

- هذا العيثاوي من أي مكان في الدنيا قرعة أبوه، دمشق وإلا عجلون وإلا الكرك، معه حق أن يثور ويرفض.

أرادت مريم الانضمام إلى حركة التمرد البعيدة تلك على طريقتهما، وجدت منفذاً تخرج فيه متعب وتصغر شأنه، فأعلنت على رؤوس الأشهاد أنها وافقت على الارتباط بمصعب، وفق شروطها، جاء الشيخ صايل بأولاده إلا منصور الذي انقطع عن الديرة، اصطحب الشيخ زوجه، والمولى أمين، وشيوخ العشائر الذين أوداوا رد جمائله، جر خاروفين، وقفصاً لسبع دجاجات وديك، ولما وضع فنيجان القهوة أرضاً قال:

- نريد نشرب قهوتكم، ونزوج ولدنا مصعب بابتكم مريم.

لم تمنح مريم والدها فرصة ليرد، وتقدمت بثقة قائلة:

- موافقة؛ بشرط.

- اشروطي يا بنت الكرام.

- أتزوج علناً بحضور الكبير والصغير، يعقد المولى عقدي بشرع الله، دون

شرع الروم، دون يسق، والمختار يزفني حتى بيته، ويمر بي في طريق بيت

الرومي والأوطة يتفرج.

بهت الشيخ وأولاده، همس صايل:

- لم نشك قيمة اليسق يا ابتي، الغالي يرخص لك، اليسق قدرتنا، ليس

كثيراً علينا.

لمعت عيناها:

- ليس كثيراً ولكن صعب عليكم؛ الامتناع عن دفعه صعب عليكم.

تلفت الرجال وزموا جباههم وقطبوا أجفانهم يحاولون فهم رسالة البنت،
متعب أول من فهم الرسالة:

- هو تعجز يا بنت؟ تصغرينا أمام الأوطه بمخالفة القانون العثماني!! أنا
المختار، أحكم على الناس بالقانون، لا أخالف القانون، هذا تعجز!!
ردت بثبات:

- اللي يعجزك، ما أنت بقدره، اتركه لسواك.

علم مصعب أن لا سبيل إلى الحبيبة التي تتفنن في اختلاق أسباب الفراق، وأن
شقيقه لن يجرؤ على تحدى الأوطه بمثل هذا التصرف؛ وإلا عد متعاطفاً
ومتورطاً مع ثورة يجرى إخماد إوارها بقسوة في دمشق وحتى جبال عجلون، ترك
الخطاب القهوة تبرد في فناجينها، جمعوا إبلهم وهداياهم وخرجوا، قام يحيى ابن
الخامسة يلم الفناجين ويغطسها في طشت الماء، والأب في إقعاءته الشهيرة بالباب
يتصور كيف ستكون عليه الحياة مع ابنة لها بأس الرجال.

صارت مريم حديث الخبرة، وطارت أخبارها إلى الكرك، حتى حين أعلن
الشيخ صايل أن ولده مصعب سيتزوج وفق الأصول من ابنة أحد ملاكي
الطواحين في القصر، كانت سيرة مريم تسبق كل حديث، ويلهج متعب بغيط كبير:

- ريتها تموت عانساً شمطاء، بنت كاسرة.

بهتت أخبار الفتیان المدعين أبناء الشيخ صايل، قال الناس إن مصعب تزوج
وبات يساعد والده في الطاحون، ورزق أطفالاً كثيرين تشاهدهم الخبرة يتنقلون مع
أبناء المختار الصغار، وإن منصور تزوج في سهل حوران امرأة صهباء طاعنة في
السن، سلمته أرضها ومالها، ولم تمنحه ابناً.

تعززت مريم على كل خاطب حتى زهد الطامعون، ولكنها صارت أختاً
للجميع، باتت تكثف زياراتها لبيت الحلاق المطهر الذي تسميه الحكيم، تتعلم

منه أسرار النباتات، وتساعد أم هفوف على مهامها وقد ثقلت بحمل جديد، ترعى ولديها جعفر وزيد وهما يلاعبان شقيقها، تعد مسحوق حبة البركة وتخلطه بالعسل الصافي وتغذي الحبل، التي ما إن شعرت بأوجاع الطلق حتى استدعت مريم قبل طلب الداية، تظاهرت مريم وهي تغلي نبتة الولادات «كف مريم» أن ذاكرتها محت لحظات مولد يحيى؛ وانتظرت مع العائلة صوت المولود الجديد، راعها انهمار دموع الحلاق مع ولادة ابنة أنثى، غص بالذكرى، وأجهشت الأم رافعة كل حرج عن تقلب الذكرى ونكأ الجراح، قالت:

- أسمىها هفوف.

شهقت الداية وتعوذت من الشيطان الرجيم، قالت:

- لا تفاولي بالشر على الرضعة، لا تسمىها باسمها وكأنها ماتت.

بكت أم هفوف بحرقة، ومريم تمسح دمعها وتشاركها العويل والاهتزاز، والرجال يصيحون في الخارج:

- وخذوا الله.. هذه ليست جنازة.

قالت أم هفوف:

- أسمىها نفل إذن.

تحنو الجراح على المكلمين أحياناً، أن تحمل مريم رضعة على اسم أمها؛ يمنحها أملاً غريبة، لسبب غامض نذرت ذاتها أمّاً للصغيرة، ترعاها كما رعت يحيى وتهيئها لتصير زوجة له دون البوح بأحلامها إلى أحدهم.

صبرت سبع قمحات في صرة صغيرة، ونذرت سبعة ندور توزع فيها السمن والزيت والعسل، تصرف عن وسع فهي ومنذ أن تمكنت من جمع خير كثير بعاء الناس والأحباب؛ لم تعد تخشى محلاً ولا ضيقاً، كانت تقول:

- لا يجيء الغد إذا لم تنته من تصريف اليوم.

حفظت مريم غيباً بعض ما كان يحيى يردده، ولكنها لم تتعلم خط الحروف على ورق الكدش.

بعد سنوات خمس وعندما بشرها المولى أن يحيى بات يقرأ جيداً، وأنه بز أترابه في فك الخط، وفهم الكلمات والجمل، بل أنه قد يكون خليفته تحت الشجرة إذا شاء الله، زغردت لأول مرة، ودمعت عينها، ونذرت زيارة مقام جعفر الطيار إذا صار يحياها مولى.

عاودت مريم الاهتمام التام بشقيقتها، لا تتمهل في إظهار شفقتها واهتمامها إلا إذا زجرتها عينا والدها، أو ابتسم يحيى هازاً رأسه متقبلاً عطاءها بحنو كبير؛ يكفيه منها أنها تتركه يقوم بجولات المشي الطويلة في الغابات، فيسوح بين الجداول والعيون يتأمل ويعيد رفع حجارة السناسل التي وقعت، أو تثبت النبات الذي اقتلعه الصغار، ورفع العصافير والفراشات والحشرات المرمية على الدروب مصابة أو جريحة إلى مواقع آمنة عليها تشفى وتطير، أو الجلوس متربعاً لساعات تحت شلال الضوء القادم من نافذة الحجرة الطينية التي يسكنون، يعقد مقارنات ومقاربات بين غمر الضوء وخيطانه التي يتذكرها في طفولة مبكرة في الخيمة، وانهمار النور من النافذة، ورغم شح ما يناله عيسى النحال، من عمله، فإنه لم يطلب من ولده مساعدته، كان ينتظر بشغف انتهاء الفتى من حفظ القرآن وإعلانه أستاذاً مرافقاً للمولى أمين.

ما زال يحيى على سلوكه الغريب في دس أنامله في حُق الحبر الأسود، لا يعنيه أن شقيقته تتأفف لهذا الهباب الذي لون أنامله، ولا يوقفه تذمر أستاذه وانتقاده الدائم، يفعل ذات الحركة الطفولية البريئة، ودائماً تصيبه الدهشة وهو يتأمل سقوط القطرات اللزجة من أنامله أرضاً، يقول يحيى كلمات ينوء بها عمره ولا يفهمها من حوله:

- الحبر سر الكلام، روح اللغة، ما الذي يصنع الحرف؟ وكيف تنبت المعاني في دم الحبر!!

بعض الصغار حفظوا كتاب الله قبله، أولاد الشلبي انهوا كتابهم سريعاً وفارقوا الكتاب يساعدون والدهم، الكبير جعفر يرافق والده مساعداً، والأصغر زيد يتضمن مزرعة داخل سور الكرك، بينما ما زال يحيى يتلقى التعليم، أزعج هذا التأخير عيسى، ظنه تراجعاً في قدرات ولده، ابتسم المولى أمين بفرح قائلاً:

- يحيى يتأخر بالحفظ، لأنه مولع بالفهم، يسأل كثيراً عن كل صغيرة وكبيرة، وينشف الدم في عروقي وهو يجادل، ويشهد الله أنه ينير لي ما لا أراه، اصبروا عليه ما زال فتياً، وسيحفظ.

لم يمر على الكتاب فتى مثل يحيى، يجلس متربعا صامتا فإذا ما ظن المولى إنه أنهى نهاره في التحفيظ والتفسير، بسمل الفتى ورمى بسؤال بسيط في كلماته ومعناه؛ يجعل المولى يتلثم، ويطول الحوار حتى ينصرف الصبية ويهبط المساء، ولا يتوقف جدل المولى والتلميذ، إذ يجره يحيى منذ أول آية في كتاب الله إلى آخر آية، يخلط نهاره بالليل، يقينه بالشك، ويضع خبرته اللغوية على محك يجعله يتواضع للفتى الذي يفك رموز اللغة، فيقول المولى أمين بعد نقاش عاصف:

- لولا أني عجوز مل الحياة؛ ما تركتك تنال مني يا ولد، لقلت لك كما أقول لسواك، لا تسأل عن ما خفي.

يبتسم يحيى بود قائلاً:

- ما ضير أن نبحث عما خفي معاً.

لم يجرو المولى على القول بأن كثيراً مما يقوله الفتى عصي على فهمه، وأن الجدل المتواصل حول كل حرف وكلمة يدفع به في دروب يصير فيها المتلقي لا المرسل، ولكنه كان صادقاً حين عزا ليوثته إلى تقدمه في العمر، وشعوره أن

الكتاب تحت الشجرة لن يستمر بعد رحيله إلا إذا هياً له تلميذاً شقيماً بفكره مثل ابن النحال، ولم يفرغه إعلانه أن يحيى ختم القرآن ببلوغه ثلاثة عشر عاماً من عمره.

بعض طقوس احتفال مريم بحفل ختمه القرآن أعادت إلى الأذهان أمسية الختان المخيفة، لكن، كثير من الطقوس أيضاً غابت، استعاضت مريم عن الهفيت بمغلي البحتة من الأرز المطحون والحليب والعسل والسمن، وقد أبقت النسوة لقيمات البحتة الطرية المتر حلقه في أفواههن يستطعن مذاق الأرز الغريب الذي دخل أسواق الكرك غلة باهظة الثمن، والذي طبخته البنت عوضاً عن طحين القمح لتثير إعجاب من حولها، وتؤثر على أهمية مناسبتها ورفعة شأن شقيقها، حرصت على ابتاع ثوب أبيض، وعباءة عسليه، وحطة قطنية وعقال من لفنتين سوداوين غليظتين، أرادت أن يبدو شقيقها أميراً؛ وعلمت أن وسامته التي باتت واضحة في ملامح وجهه الأسمر الرائق الجميل وعينه الواسعتين الكحيلتين سيكون لها أثرها، وستجعل من أمر تقبله أستاذاً جديداً أمراً سهلاً ومطلوباً لدى أهالي الخبرة، غاب الغناء عن طقوس الاحتفال، فقد نظرت مريم بحدة إلى النسوة اللواتي هتفن:

- بيض الله والخضر وجهه.

ثم تأهبن للغناء بتصفيق أكفهن وضرب الدبكة الفخارية، تراجعت حماستهن وصمتن حين قالت مريم بحدة حاسمة:

- يحرم الغناء على أهالي خبرة جلعول، ليس في بيتي على الأقل، ثم إن هذه مناسبة دينية.

وافقن معها على ما ذهبت إليه، وتركن أمر القراءة من دعاء ختم القرآن للمولى الذي قرأ بشجن وصوت مرتعش:

- اللهم أنت أحق من ذكر، وأحق من عبد، وأنصر من ابتغي، وأرأف من ملك، وأجود من سُئِل، وأوسع من أعطى، أنت الملك لا شريك لك، والفرد لا ند لك، كل شيء هالك إلا وجهك، لن تطاع إلا بإذنك، ولن تعصى إلا بعلمك، اللهم حضرنا ختم كتابك، اللهم مرغنا خدودنا على أعتاب بابك، اللهم إنا نرجو رحمتك، ونخاف عذابك، اللهم لا تردنا يا ذا الجلال والإكرام! اللهم إن طردتنا فمن يؤوينا؟! اللهم إن باعدتنا فمن يقربنا؟! اللهم إن عذبتنا فمن ينصرنا؟! ليس لنا إله غيرك.

اللهم أرحمني بالقرآن واجعله لى إماماً ونوراً وهدي ورحمة، اللهم ذكرني منه ما نسيت، وعلمني منه ما جهلت، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وأجعل لى حجة يارب العالمين، اللهم أجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه*.

زغردت النسوة وبكين، وتنفس الرجال الصعداء وهم يعلمون أن هناك وريثاً حقيقياً للمولى، ما دام أعلن هذا التوريث وشهدهم عليه، وإن ربط الأمر برحيله إلى رحمة ربه، وتهاون في قسمة تلامذته قسمين، يتولى هو الكبار منهم، ويحيل أمر الصغار إلى يحيى.

بعد الاحتفال الذي هياً يحيى لدوره الجديد، قر قرار مريم التبرك بمقام الشهداء في مؤتة كما نذرت، حملتها النسوة بالتمائم وأقمطة الصغار، رجونها حمل دموعهن إلى المقام والتبرك نيابة عنهن بابن عم النبي، شدت مريم وشقيقها الرحال على ناقة استأجراها من الكرك، قطعت بهما فراسخ معلومة، مرت شرقاً ببركة القطرانة في قلب الوادي فنوخت، شربا، وغسلا وجهيهما، وبللت مريم

* دعاء ختم القرآن.

جدائلها مخففة من سياط الشمس الحارة، ثم ركبا وانعطفا برحلهما جنوباً إلى قرية مؤتة.

ترجلت مريم بتقديس أمام الحجرة الطينية المقببة، كأن الفضاء ردد أصداء معركة مؤتة، راحت تتمم بما حفظته منذ أيام لحاقها بشقيقها في الكتاب من قصار السور القرآنية، وتقدم الفتى حاسر الرأس هيماناً، دخلا حجرة طينية مستطيلة مبنية من الحجارة والطين والدبش، سقفها على شكل خيمة وأرضها مبلطة، سارت حافية فوق بلاطها الحجري مقتربة من قبور الصحابة جعفر الطيار، وعبد الله بن رواحة، وزيد بن حارثة، تحسس يحيى بأصابعه لوحة رخامية ارتكزت على أطراف المقام، دقق بالخط الكوفي الجميل الذي زين اللوحة وقرأ: «هذا قبر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه».

ثم انتقل إلى لوحة تقابلها أكثر وضوحاً لآية قرآنية تعرف عليها «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون»*.

واصل يحيى قراءة ما خط على لوحات الرخام المتناثرة، حادساً أنه سيظل عمره كله يفتش عما خط على بلاط الأضرحة، وما خفي من حقائق حول رجال مروا ثم غابوا، في حين بكت مريم وارتفعت نهنهاتها.

قرأ يحيى: «بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذه التربة المباركة العبد الفقير إلى رحمة القدير؛ رجاء لرحمة القدير ورضوانه؛ مستشفعاً عنده بجيرانه -بهادر البدري الملكي- الناصري نائب السلطة المعظمة بالكرك والشوبك المحروستين، في ثاني ذي الحجة عام سبعة وعشرين وسبعمئة هجري. تجدد في أيام الملك الصالح، صلاح الدنيا والدين، الملك الناصر محمد في نيابة المقر

* القرآن الكريم - سورة آل عمران 169.

العالي السيفي نائب السلطنة الفقير إلى الله شمس الدين الهاروني في اثنين وخمسين وسبعمائة».

همست مريم:

- ماذا كتبوا؟

أجاب:

- كتبوا أسماءهم.

لم يسارع أهالي خربة جلعول والقصر والربة والكرك وكثريا وكثيرون غيرهم إلى مناداة يحيى بالمولى، فلحية المولى أمين الذي يعرفون زمناً صارت بيضاء لا يخالطها الغبش الرمادي، ولا صريح السواد، والفتى ما زال غضاً وإن خط شعر خفيف فوق شاربه، يرونه يسير برفقة الشيخ الجليل سانداً ذراعه بساعده، حاملاً ما وهبه الصغار من طعام وشراب لقاء تدريسهم، ممتنعاً عن الكلام إذا ما تحدث، على كثرة ما يجادله على انفراد تحت الشجرة، أهالي تلك القرى الذين تعاملو مع أساتذة مختلفين في قراهم ومطارحم ومضارب خيامهم وتحت أشجارهم، سمعوا بسيرة الفتى ابن النحال ونبوغه، وأنه يسأل تلامذته أكثر مما كان يمنح من أجوبة على أسئلتهم الحذرة المرتجفة.

الراعي مقبل وحده يناديه المولى علناً، دون وجل ولا اعتبار للمولى الشيخ الذي طرده مراراً، ومنعه من المرور بقطيع الأغنام التي يرعاها لواحد من شيوخ الكرك، كان مرور الراعي يشتت انتباه الطلبة، وصوت مزماره يقطع استرسالهم في قراءة الآيات، فيتلعثمون، ويتوقفون عن القراءة متشاغلين بأغنامه، يكررون بصعوبة ما يتلون، يزجر المولى الراعي ويأمره بالابتعاد، في حين يهش يحيى لسماع صدى الناي القصبي، يستدعيه، ويترك الأغنام والخراف السمينة تتجول

بين الطلبة الذين يلعبون قليلاً ضاحكين، يلحقون بالكباش المرياع وأجراسه وخلاخيله متصلصل، ويسمعون مزممار الراعي لحظات، ثم ينصتون جميعاً مع الراعي لقراءة يحيى وصوته الخاشع؛ فيخشعون.

يفز مقبل مسرعاً وراء قطيعه، ويتسم يحيى:

- لن تتعلم على هذه الصورة يا مقبل.

- يا مولى، لا أريد إلا أن أكتب اسمي، لا يلزمني أن تعلمني كتاباً مفصلاً.

- إن تعلمت الكتاب ستكتب اسمك، ولكن إن تعلمت كتابة اسمك فقط، لن تقرأ الكتاب.

- لا يلزمني، ورائي الشيخ يقطع رأسي إذا تأخرت بالغنم حتى العشاء.

يهرع مقبل وراء أغنامه بقدميه الحافيتين؛ معتلياً الجرد المقابل، مختصراً الطريق إلى بوابة الكرك.

لم يعد عيسى محور اهتمام الفلاحين والبدو العابرين والرعاة لذاته أو لما يوجد به، فعمله في المنحلة أبعد عن استرضاء المساكين بحففات من بقايا القمح والدقيق، بات أكثر التصاقاً بصفة الأجير، يراقب مالك المنحلة بصبر تعرف أجيره على عالمه الجديد وفنونه وأسراره، ويطور عيسى في نفسه رجلاً صامتاً متأملاً لحياة النحل، مكسبه من المنحلة يسير، يغطي طلبات بيته من طعام وشراب، وما كان لدى أسرته الصغيرة أرض يفلحون ولا ماشية يرعون، لهذا تنطحت مريم لظروفها؛ مثلما فعلت دائماً.

طار صيت مريم مجدداً، فهي وقد فرغت من مهام رعاية شقيقها، وغاب والدها نهاره بطوله، وما عاد لها صحبة ولا أقارب، ولا زوج ترعاه، ولا صديقة تزجي الوقت برفقتها، أو وليد تعنى به؛ انصرفت لمهمتين تمارسهما بالتبادل وفق العرض والطلب، تُعد الأدوية من النباتات البرية، وتنسج صوف الخيام والحصر،

برعت مريم في الصناعتين، مما جعل أهالي الخبرة يتعجبون حال رجل ولد راعياً فقير الحال لا يستند إلى عشيرة، ولا يتمتع بالثراء، لكنه ينجب مداوية لبيبة، نساجة ماهرة، وأستاذاً مهيباً حافظاً لكتاب الله.

تنصرف مريم إلى النسيج، تتوهج لتصير والبساط الذي تحيكه كوناً بذاته، لا يجرؤ أحد على مقاطعتها كأنها تقوم بعبادة خاصة، تحيك الصوف على نولها الخاص، تقلب خيط الصوف بين أصبعين متفحصة، تشده وترخيه؛ مكتشفة جودته ومتانته، ثم تكمل المهمة برفقة نفل الصغيرة، وثلاث فتيات من الخبرة قامت باكتراء جهودهن، يحملن شلل الصوف المغزول؛ يغسلنه في البرك الصغيرة المتناثرة حول عين سارة بعناية قبل أن تبدأ مريم بمزج الألوان، قلة من النسوة النساجات كن يرهقن أنفسهن بإضافة الألوان إلى حواشي البساط، عدا عن إضافة خطوط طولية وعرضية فيه وتنويع درجات الألوان، أطلقوا عليها في تلك الفترة اسم النحلة الزنانة، يشاهدون في ذهابهم وإيابهم النحلة مريم تغلي الماء في الأواني النحاسية، منتجة اللون الأحمر بدرجات عديدة وأطياف متباينة؛ تكثف مغلي نبات الفوه أو تخففه، لتحصل على أصفر جميل نقي بكمية تدرسها جيداً وهي تضيف مسحوق الكركم على مهلها، ثم بجرأة تمزج اللونين لتحصل على أزرق غريب بدرجاته، عدا عن أسود كامد أصيل تتحصل عليه بنقيع نبات السماق، ألوان البسط التي تنسجها النحلة بنت النحال، غريبة مختلفة وجميلة؛ الأهم أنها ألوان ثابتة، عالجتها بقشر الرمان فباتت لا تتحلل ولا تتداخل إذا ابتل البساط شتاءً، ولا يزحف لون على لون، فإذا ما رضيت عن الألوان؛ راحت تصمم ما ينسجم ويتوافق من خطوط وأشكال تزين بها البساط، ثم أعدت آلة الحياكة التي تحرص عليها مثلما تحرص على عينيها، تثبت أو تادأ أربعة محددة حجم البساط، وتصل قضيين حديدين بوتدين يصنعان ضلعين للمستطيل الذي شده النول، تجلس

البنات النساجات على أطراف المستطيل، وتقف مريم حاملة كرة الصوف التي صبغتها وأعدتها، تناول طرف الخيط للبت عند رأس النول، ثم تهرع بشبات مع امتداد الخيط فتصل به للبت الأخرى، تهرول مثل النحلة بين الفتاتين بهمة مصدرة أوامرها وتوجيهاتها، وهي ترقبهن يولجن الأوتاد مع انحناء الخيوط تبعاً، ومريم تبدل كرات الصوف والألوان، وتنحني برهة أثناء جريها؛ تشد ما ارتخى من عقد على الطرفين، في المساحة المربعة للبساط تصنع مريم عالماً من الأزهار والغزلان البرية والنجوم والأشجار، كل هذا جعل من صناعتها منتجاً غالياً تبيعه في أسواق الكرك بثقة، كل بساط يبارتين؛ لا تستطيع النسوة النساجات في كل جبال الديرة مجاراتها في دقة الإنجاز وسرعته وجماله، يقول لها يحيى:

- أنت تبحين عن نتائج سريعة، لو تأنيت لكان إنجازك أجمل.

تضحك بود:

- دعك في كتابك، لو تأنيت يا شاطر؛ لأعدت العمل دون توقف، ولما انتهيت إلى الجمال الذي ترى، إنما الجمال يأتي خبطة واحدة سريعة ماهرة.

يسلم الفتى لشقيقته الماهرة، ويروح في اكتشاف جمال ذلك الامتزاج المذهل الذي تصنعه بألوانها.

تقطع مريم وفتياتها الطرقات على ظهر بغل صغير وقد احترقت وجناتهن لفرط ما قضين من ساعات يعالجن بسطن تحت ضرب أشعة الشمس الحارقة، يبعن ما أنجزت أيديهن في الأسواق، وتبالغ مريم في الأسعار عندما يكون المشتري غريباً تراه في سوق الكرك للمرة الأولى، تعود وفتياتها وقد ابتعن بعض القلائد من الأحجار اللامعة، وحبالاً من أعواد القرنفل المجففة، يزين بها أعناقهن، يتحمنن في مساقط المياه على الطريق، وقد خلعن بعض ثيابهن الخارجية دون أن يجرو

امرؤ على اعتراضهن، إذا عَنَّ على بال الصبايا اليانعات اللواتي بلغن بالكاد أن
يغنين، فإن مريم لم تعد تمنع، تجلس فوق صخرة تراقب باسمه وهن يرددن:

- يا ام شعير أشقر يا بنت يا ام شعير أشقر.. يا هيه..
من بنات الحوش يا بنت من بنات الحوش.. يا هيه..
ما تطيق الغوش حيه ما تطيق الغوش... يا هيه*..

لم يعد الغناء يثقل قلب مريم؛ فمنذ سنوات ارتحل الأوطه الذي فجع صباها
يوماً، وحرمت من أجله الغناء، وجيء إلى الخبرة بأوطه جديد يعود أصله إلى
جراكس المماليك، لم تعرف الرجل يوماً، خاصة أنه ارتحل بعائلته إلى القلعة
محولاً داره القديمة التي شهدت مأساته، ثكنة لبعض العسكر العثمانيين الذين
يكثر في حزيان طالبين حق الدولة في مال وقوت أطفال القرية، ترقب مريم
البنات العابثات الجميلات، وتتفحصهن بدقة عل واحدة منهن تكون من نصيب
يحيى، كانت نفل خيارها الأول، لكن ابن عم لها سماها على اسمه وحجزها
صغيرة غرة، وتعاقب جيلان من البنات على مريم سريعاً، إذ إن بنات مريم كما
صرن يُسمين في الخبرة، بتن مطمحاً للخطاب لمهارتهن في النسيج، ومعرفتهن
ببعض فنون الطبابة التي تبرع فيها معلمتهن، حين ينصرفن عند الغروب من بيتهن
متمشيات على مهل ضاحكات، يتقاطعن مع درب يحيى عائداً من الكتاب،
يغضضن البصر ويكبحن رغبتهن في تأمل شاربه الصغير، ويراقبن بحرص
خطواتهن المتأنية الراقصة، ويلعبن جدائلهن وهو يلقي السلام وقد غض بصره؛
فلم يتسن له تفحص إياهن أكثر ملاحظة مثلما ترجموه أخته، فقط تأتي أصواتهن وهن

* غناء شعبي كركي.

يرددن سلامه بمثله، همهمات مبهمه مثل زقزقة جمع عصافير، لا يمكن تفسير ما تداخل فيها من موسيقى ورفيف أجنحة غامض.

يرتفع العبء عن ظهر مريم بانتهاء موسم غسيل الصوف وصباغته ونسجه، فتروح إلى الاهتمام بجولاتها الصباحية، تخرج فجراً، تلف جسدها بغطاء سميك، تفلته إذا كان الصيف حاراً بما يكفي للتغلب على نداوة الصباح وبرده الذي يتسلل إلى العظام، تسمع صوت الديكة من بعض بيوت القرية، ونباح كلاب، وهديل حمام، وعندما تبدو الدنيا مضاءة بنور شفيف رائق تتمكن مريم من التقاط شذى النباتات البرية المتجانسة والمختلفة المتنوعة، تنحني بحنو كما لو كانت تتعامل مع رضيع، تلمس أعواد النباتات وتتحسس أوراقها، تقرّبها إلى أنفها وتشم أكثر من مرة، تتذوق بطرف لسانها، ثم تلوك النبات على حذر، لتقرر ما كان منه حامضاً وما كان مرّاً، وفي المواسم التي تشغل فيها النسوة بأعداد كرات الجميد فيخلصن الحليب من الزبدة ويغلينه مستخلصات المصل الأصفر، وعاجنات ما تبقى بالملح لتجفيفه زاداً جميلاً إذا ما ولى موسم الحلب، تترك مريم للنسوة براعة مهمتهن، وتختار مهمة أكثر دقة، تنافس فيها الحكيم وولده جعفر بمباركتهما ورضاهما، تجمع نبتة الجعدة المرة العطرية، تنشفها وتسحقها أو تغليها لتجهز من أوراقها التي يتصارع فيها بياض وزرقة دواءً للبطون الممغوصة، كما تعتنى بالبابونج الحلو اللذيذ؛ فتشفه لعلاج السعال، وتجهز الكمون بكميات كبيرة مسحوقة؛ لطرد الغازات المؤلمة من الأمعاء أو صبغ خيطانها الصوفية، تعالج مريم العطس والأنوف السائلة بمغلي أزهار اليلسان العطر، وتجمع حبات العافية حبة حبة، تنظفها وتودعها جرة صغيرة؛ كي تعالج بها بطناً أمسكت وخنقت صاحبها بإحداث إسهال متواصل يخلص الجسد من سموم الطعام، ولا تستغني عن الشيح؛ تمنع به انتفاخ البطون وتحوله إلى مسحوق يقوي الجروح من

الالتهابات، ولمريم أنامل عبقرية في وزن ما يحتاجه المريض، واستخلاص الزيت من الخروج لدهن شعور النسوة، لم تترد حين تجتاح الحمى الصفراء الربوع بالتنقل بين الكهوف والبيوت مقدمة إرشادات النظافة والنباتات السمية التي تمزجها بحرفية ودقة؛ لتقتل الداء وتنقذ المصاب، وكثيراً ما سقت من سُدد حالبه وتعسر بوله قدراً من مغلي الخلة، وراقبت تلك الحالات كنطاسي خبير، بل بدت في عيون أهالي خربة جلعول وما جاورها من الخرب والقرى انتهاءً بالكرك، عبقرية مباركة، مُنحت أسرار الشفاء دون الآخرين.

يأتيها سكان الخربة على ظهور الدواب إذا ما غابت الشمس، يتباركون بوجود الأستاذ الذي يقرأ القرآن في حين تمنح شقيقته أسرار عطارتها وأعشابها وتركيباتها المدهشة، ويتداولون الحديث سرّاً حول بركة وجود الفتى في المنزل وتكفلها بشفاء المريض، ولا يجروون على الإفصاح عن تفاؤلهم بعد أن نهاهم الأستاذ بنفسه، واستنكر منهم اعتقادهم.

يستقبل عيسى الناس، يأتون تبعاً إلى البيت مساءً لطلب المداوة؛ أو بحثاً عن بساط مغاير جميل، أو للجلوس إلى الأستاذ اليافع وسماع أسئلته واجتهاداته، وتناول ما تعده مريم من الرشوف الحامض المعالج بالكمون، فيمضي لإعداد دلال القهوة فوق نقرة النار، وقلبه يصدق:

- يا دنيا قومي هلي بالمقبلين اثنين

يحیی مهجة القلب ومريم نور العين.

يغلبه النعاس والناس يواصلون نهارهم بسهر وسمر وحكايات على باب بيته؛ يتثاقل معتذراً بتعب ظهره وكبر سنه، يهمس لمريم وهي تطمئن على رقاذه على الفراش الصوفي الجديد:

- مساوين البيت قبلة ومحج! خلي هالناس تروح دورها؛ وننفس.

تبتسم مريم دون تعليق، تعلم في أعماقها أي رضا يجعل والدها متشياً سعيداً بما عوضته الدنيا في ولديه.

رغم هذا الرضا؛ إلا أن عيسى النحال لم يتوان عن تجويد مهاراته في فهم طبيعة المنحلة، ما كان يريد أن يتحدث الناس عن حرفة ابنه وبراعتهما مقابل خيبته، فهو الطحان الأفضل في الماضي، وإذا عاد أدراجه إلى طفولته فإنه الراعي الأكثر عناية بعمله، لهذا كان يفتح عينيه مراقباً باهتمام شروح معلمه، يتعلم منه أهمية فتح المنحلة في كل اتجاه إلا الشمال، عكس هبوب الريح، وبعيداً عن جنوبها الشتوي، وأهمية قرب المنحلة من الأراضي المزروعة بما يزهر ويشمر، نائية عن البيوت وأماكن تواجد الصغار والنساء على الغدران، كما يمنع اقتراب الأغنام والأنعام؛ وإزعاجها النحل بروائحها ومخلفاتها.

لا يمل عيسى من مراقبة دورة حياة النحلات النشاطات، يكشف بدقة كيف يتنادين عبر هزات أشبه بالرقص، عندما تعود النحلة التي انطلقت لاستكشاف موقع الغذاء، يستطيع سماع ما تحدث به صويحباتها داخل الخلية الخشبية بعيداً عن الضوء، تخفق أجنحتها مفتعلة دوراناً داخل فضاء الخلية؛ تعلمهن بما تذوقت من رحيق الزهر القريب، أو تؤدي إيقاعاً اهتزازياً سريعاً إذا بعدت المسافة، فيرى عيسى أسراباً تطن طنيناً خافتاً، تخرج من الخلية متجهة مباشرة إلى حيث تمتص رحيق النبات.

يحمي عيسى صديقاته النحلات النشاطات من هجوم الدبابير التي تقطن دوالي العنب، وتفتك بعاملات النحل الضعيفات أمام مدخل الخلية وتطير بها إلى خلية الدبابير تغذي يرقاتها، ينشط عيسى في قتل ملكات الدبور طوال الربيع، وتخريب أعشاش طائر الوروار الزاهي الألوان البارح في التهام النحلات بمنقاره الأسود

الطويل، وإبعاد النمل الزاحف إلى قاع الخلية بالتنظيف، ورفع الخلية على أعصاب عالية متعامدة.

صار عيسى صديقاً للنحل، يعرف كيف ستكون كثافة وألوان العسل الذي يجنيه من موسم الربيع؛ عسل أشقر خفيف يختلط حلوه بحموضة لذيدة، إذا كثرت نباتات الزيزفون والحمضيات والزعر في الجبال؛ وإذا أينعت نباتات العجرم والحلاب واليانسون وحبّة البركة، كان العسل أسمرَ قانيًا ثخين السيلان، تشتري مريم مثل كل طبيب مداوٍ ما يلزمها منه لعلاج القروح والدمامل والتعفنات الجلدية، كما سيكون لها نصيب في العسل الأشقر الذي تبيعه للأمهات الولادات، وتلقمه للرضع لتزيد أوزانهم وتحمر وجناتهم، ولا يفوتها السبب وراء إقبال الرجال شبيهاً وشباناً على العسل الأسود؛ فتبيعه بسعر أعلى، معتبرة أن الذكور وهم يلاحقون فحولتهم؛ يبحثون عن متع غير أساسية في الحياة، فكلما أراد المرء تجاوز الضرورات إلى متعه أو زهوه، كان عليه تقديم باهظ الثمن.

دللت ابنة النحال والدها، فصنعت له قفازين جلدتين يمتدان حتى الرسغين، دبغتهما في منقوع الرمان طويلاً؛ ليصيرا قاسيين عصيين على اختراق إبر النحل ولسعها، وخاطت حذاءً مشابهاً، كما أفرزت له ثياباً سميكّة نقعتها بنشاء الذرة؛ كي تصير سداً أمام الإبر المسنونة، إذا لم يفلح تدخين والدها حول النحلات بابعادهن، وهو يتفقد الخلية أسبوعياً، أو يجني عسل الأزهار المثمرة واليانسون في مطلع تموز من كل عام، أو العسل الجبلي الذي تغذت نحلاته على الأشجار الحرجية في تشرين الأول، كاشطاً طبقة لزجة ممزوجة بغبار الطلع وشمع العسل بمشط حديدي، مغطياً وجهه بناموسية من شاش قطني خاص ابتاعه له صاحب المنحلة، الذي لا ينقطع عن التذكير بضرورة الحفاظ على بعض العسل في الخلية؛ مؤونة الشتاء للنحلات النشيطات.

كانت مهمة النحال شاقة ومليئة بالتفاصيل، لكنها جعلت لحياة عيسى طعمًا حلواً كما العسل، أسقط الرجل وراء ظهره حملاً من التعب والوجع والخسارات، حين يرقب السائل الذهبي الحلو يتقطر عبر فتحات المنخل إلى وعاء الحفظ يعمر الآمان قلبه، ويستشعر المتعة، مستغفراً ربه لذكرى أيام الطحين وهبابه، وما كان عيسى يضيق بتكليف صاحب العمل له بحمل أوعية العسل إلى السوق، فقد باتت رحلات التسويق والتسويق التي تقوم بها مريم عوناً حقيقياً له، وحين أفصحت عن رغبتها بتوسيع سوقها إلى القدس، لم يتردد عيسى في مساندتها، دفعا حمارهما في مخاضة زُغر* بحيرة الملح؛ محملاً بالبسط وجرار العسل وبقيح الدواء حتى لم يترك فسحة لامطائه، وكشفت مريم عن ساقها مرتدية السروال الأثوي الوحيد في القرية، الذي استعارته من الداية، فغسلته ثلاثاً، وارتدته فرحة معتلية ظهر والدها، وقدميه الثابتين تقودناها عبر المخاضة إلى القدس، صار لها والدها شأن هام؛ تحكي عجائب سوق القدس العامرة، وتصف قبة الصخرة البديعة كأنها تسرد حلمًا، أشار إليهما أهل الخبرة كتاجرین عاملین نشطين؛ يثيران الإعجاب والحسد.

انخرطت العائلة في عمل متواصل، تشققت أيديهم، واسمرت جلودهم، فلم يترك يحيى والده وحيداً في مواسم القطف، وإن غاب عليه مهاجمة أوكار الوروار الأزرق الفاتن، مشيراً إلى أن الطبيعة تتعامل بالعدل مع مخلوقات الله، وإن تدخل الإنسان إفساد وجور.

تعود الأب من ولده مثل هذه الملاحظات، يرد عليه بتساهل:

* البحر الميت نسبة إلى زغر زوجة لوط.

- أنت في ملكوت، والعالم في آخر، علينا أن نفكر بالعسل، والبارات التي سنحزرها لشراء الطحين والقمح والزيت، ولإسناد الكوارة التي خزقت في متصفهها، وتربية بعض الدجاجات، للحياة مطالب لا علاقة لها بريش الوروار الملون الذي تعطف عليه، أو عدل الطبيعة وجورها.

يأخذ يحيى كلمات والده بذات المنطق المهذب الرقيق الذي يتعامل فيه مع أستاذه، وينصرف وشقيقته إلى تهيئة مزيد من ورق الكدش البني للطلبة الذين جاؤوا مؤخراً من قرى مجاورة طالين العلم، اصطحبهم أولياء أمورهم بحثاً عن معادلات الطرح والجمع والقسمة التي باتت في صف الأستاذ يحيى من أولويات المعارف التي يلقنها، في تلك الأمسيات بالتحديد، تبدأ مريم في الزن المنتظم في أدنى يحيى.

- لا بد لك من زوجة.

يكتفي الفتى الذي بالكاد يدخل مرحلة الشباب بالابتسام، وهو يخطط أطراف الورق بدقة ليكون لكل طالب دفتر أنيق.

يصعد يحيى إلى الكرك لتتبع ما يجيء به التجار من أدوات للكتابة، أو ساعات رملية، أو مزاول لقياس الوقت، لكنه في ذلك النهار كان يجلس وحيداً وقد مالت الشمس إلى غروب، حين اندفع مقبل إليه متحمساً:

- يا مولى.. تعلمني اكتب اسمي، وأعطيك كنز.

- ها!! لقيت لقياً مثل الحفارين على كنوز الممالك؟

- تصحك مني يا مولى! إذا لم تعلمني أكتب اسمي، لن أعطيك الكتاب الذي وجدته حين انهار مدخل باب الكرك الجنوبي بالأمس.

رجف قلبه، لم يصدق يحيى حواسه والراعي يصف له كيف انهار الممر المملوكي القديم، وانحشر الغنم، وتمكن مقبل من جر الأغنام الصغيرة والهزيلة،

في حين أن السمينة انحبست إلى أن وصل عون رجال أراحوا الأنقاض القديمة، وتقاسموا ما وجدوا فيها من خبايا وجرار وصحون، أما هو؛ فقد ارتطم بكتاب على نوعين من الورق، أو ربما هما كتابان ملتصقان بفعل بلبل قديم، أحدهما مكتوب بخط أنيق، والآخر بحروف متقطعة، كلا الكتابين مهترئ، غابت الجمل وتقطعت الكلمات، لكن صفحات منهما ظلت واضحة بينة، ارتعشت كفا يحيى وهو يمسك بالأوراق بحذر؛ خشية أن يزيد حالتها سوءاً.

علم يحيى مقبل كيف يخط اسمه في ذات الليلة، ثم رفع سراجاً بفيتيل عريض مبلل بالزيت، أشعله؛ ودخل عالماً جديداً قديماً.



انصرف إلى كنزه، تتحرك أنامله بدقة ولطف رافعاً الصفحة الأولى عن عبارة بالكاد وضحت لناظره، بين رسم تبدت معالمه، وأحرف غابت، تمكن يحيى من قراءة جملة صريحة، «هذا كتابي أنا الفقير إلى الله، طالب المعرفة من غافر الزلات العبد.. الخسرو شاهي، أستاذ العلوم النظرية والحكمية...».

ثم؛ حدث قطع، توثب فؤاد الفتى يحيى، أيقن إنه إذا سحب الصفحة الملتصقة قد يذهب بالكتابين، هرع إلى مريم، فتفحصت الورق الغريب الصقيل بين يديها، ثم جاءت بسكين دهنته زيت الخروج، وفي ثغرة صغيرة بين الورقتين دست سن السكين وتقدمت به رويداً إلى أن انفتح الورق على صفحة جديدة، وانفصل تماماً عن الكتاب الآخر الذي خُط بعناية.

تمكن يحيى من قراءة عبارتين اثنتين في الورقة المكشوفة، بين عدد من كلمات قضى عليها العث وتأكلت، قرأ كما لو أنه يدخل كهفاً غامضاً، «فارقت دمشق بسبب ما جرى من خبر في بيت المقدس... طلعت إلى الكرك وأقمت عند الناصر... وكنت أتردد على القدس ونابلس.. إلى سنة 633 هجرية...».

قرأ مرتعشاً في صفحة أخرى، «كان الناصر تلميذاً فوق ما هو سلطان، يافعاً يسهل أن تلج إلى عقله ومنطقه، فدرس معي كتاب الشيخ العليم ابن سينا.. «عيون الحكمة» وفهمه.

لم تعرف مريم لماذا جافى النوم شقيقها، وما الذي أبكاه في مخطوط قديم أكلته الحشرات ورمد العفن أطرافه، ولماذا بحلق مطولاً بالكتاب التالي كأنه ينظر كنزاً كتب على واجهته: «عيون الحكمة».. للعلامة الطيب، الشيخ الرئيس، حجة الحق، الحكم الوزير، أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسين بن سينا، المولود عام ثلاثمائة وسبعين، والمتوفى برحمة الله عام أربعمائة وثمانية وعشرين.

كلمات شقت خمسمائة عام ووصلته، قدر يحيى إن الورق يرجع للزمن المملوكي إبان كان السلطان الناصر يعيش طريداً في قلعة الكرك، ويدرس على يد أستاذ اسمه الخسرو شاهي، كنز لا يمكن لمقبل أن يعي قدره وقيمته، لكنه يُبكي رجلاً تواقاً إلى المزيد من أسرار الكتاب العتيق المكتشف.

قال الناس في خبرة جلعول إن الأستاذ انقطع عن التدريس وعافه، وانصرف عنه مهووساً بأوراق عثر عليها بين حجارة السور المملوكي، وقالوا إنه فقد صوابه لفرط ما يعمل عقله فوق طاقة البشر، لكن يحيى ظل منصرفاً في أغلب وقته إلى فتح الصفحات المغلقة في كتاب العيون، فإذا ما خاف السكين المدهونة بالخروج التي باتت تشكل خطراً على أوراق الكتاب، عرضه للندي الصباحي، ثم وضعه مندياً تحت شمس تسطع بقوة، فتجاوب الكتاب مع العشق الغريب الذي عمر قلب الفتى، انفتح صفحة صفحة، أودع يحيى الصفحات الظل ومسحتها مريم بطبقة شمعية شفافة تخفي الحبر ولكن تحفظ الورق أن يتفتت، تيسر له فك أوراق الكتاب، جلب صمغ الأشجار صانعاً قاعدة من جريد النخل المقوى، ملصقاً الأوراق مجدداً عند أطرافها، مستعيداً كتاب «عيون الحكمة» بأكمله.

هنا التلاميذ بعضهم تحت الشجرة بعودة الأستاذ، نظر نحوهم بحب عميق
وقال:

- لدينا الآن كتاب جديد قديم؛ ندرسه.

وجد التلاميذ صعوبة في الكتاب الجديد، عانوا تلك الصعوبة حين يتوقف
الأستاذ شارحاً آيات القرآن، ولكنهم في نهاية المطاف يتعاملون مع الكتاب
المقدس ككلمات لها قدسية تستوجب الحفظ وإرجاء الفهم، وقد علموا من
الذين تجاوزوهم سناً عرفوا المولى الشيخ، أن علومه أكثر يسراً، فالمعلم
الشاب يرهقهم بالأسئلة، ولا أجوبة لديه، وإن بدأ في توجيههم لكتابة عبارة ابن
سينا على مفتاح دفاترهم: «ترددت إلى المسجد وصليت وابتهلت إلى مبدع
الكل، حتى فُتح لي المغلق، وتيسر المعسر»، طالبهم بعد الكتابة بالتفكير في العبارة
لأيام، باتوا يحلمون بابن سينا المنبعث من التراب؛ باحشاً عن المغلق، متصدياً
للمعسر.

ارتباك التلاميذ لا يقاس بما يعانيه يحيى، ولولا ثقة خفية في قلب شقيقته لظنت
أن الكتاب لحس عقله؛ يعود من تحت الشجرة مهرولاً إلى كتابه يفتح الصفحة
الواحدة من منتصف النهار حتى غياب الشمس، وقد يغالي بإشعال السراج ليتأمل
ذات الصفحة، يقرأ بصوت عال، ثم يعيد في سره، ثم يرجع بالقراءة إلى السطر
الأول، يحرك رأسه متعجباً، يزفر وينحبس نفسه، ينسى أمر الطعام والشراب،
وينكفي نائماً فوق الورقة بعد أن أضناه فهمها، يتحدث أحياناً بحماسة مفاجئة،
يقول لمريم:

- اسمعي يا حكيمة، لا بد لكل حكيم أن يسمع.

ويروح في القراءة:

- «إن كل جسم طبيعي فهو متقوم الذات من جزئين: أحدهما يقوم فيه مقام الخشب من السرير، ويقال له هيولى، ومادة، والآخر يقوم مقام صورة السرير من السرير، ويسمى صورة، وكل جسم، حادث أو متغير، فيفتقر من حيث هو كذلك، إلى عدم سبقه، لولاه لكان أزلي الوجود».

تقطب جبينها وتعلق ضاحكة:

- تعلمني؛ إذا فهمت كلمة..

يواصل يحيى تفكيك الكلمات الساحرة أمامه دون أن ينبس بشفة.

«الحركات المستديرة ظاهرة الوجود، فالأبعاد غير المتناهية ممتعة الوجود، فإذا كانت الأبعاد محدودة، والجهات محدودة؛ فالعالم متناه. فليس للعالم خارج. فاذا لم يكن له خارج؛ لم يكن له شيء من خارج. والباري تعالى، والروحانيون من الملائكة، وجودهم عالٍ عن المكان، وعن أن يكونوا في داخل أو خارج».

سارت حياة ولدي النحال على نحو ممتع؛ لا يجدان فسحة لفرغ أو ملل أو شكوى، والصبيان الذين أحاطو بالأستاذ، لم يعد يعجبهم تسميته المولى، ربما استنبط بعضهم تعبيراً أرفع شأنًا، فأسموه المعلم، يتنازل له المولى أمين طواعية عن بعض أيام في تدريس الكبار إذا ما شعر توعكًا، خاصة أن الشاب يضع بين يدي أستاذه كل ما جاد به الطلبة من بيض وطحين وأطعمة دون نقصان، ولا يقاسمه أو يشاركه الغلة بتاتًا، لكن ما وقع بعدها أنذر بانقلاب في حياة الخربة الهائلة.

مات الشيخ صايل بعد شتاء ماطر، ومع هبوب هواء حار قادم من الجنوب عبر صحراء نجد والحجاز، فضربت خيام العزاء على امتداد جبلي مسطح قليلًا مقابل بيت المختار، وتوافد الناس، ولم يتأخر عيسى.

سامح عيسى ماضيه على كل ما فقدته أو أخذ منه، أو جافاه، ألقى متذكراً التفاتات الشيخ صايل الحانية، وحكاياته وهو يرفع ثوبه كاشفاً عظام ساقه متذكراً دوار البحر أو جوع الليالي الباردة على أعتاب مالطا، حن لرفيقه الذي عظمت الهوة بينهما فقادتتهما إلى فراق، تذكره داخلاً بيته جالباً وراءه المختار معتذراً مبرراً فعله، ولجوءه إلى الأوطه عدو عيسى الأبدى، غفر له بعد فوات الأوان، ظن أن كل ما حدث كان يمكن تعديل مساره لو أن الرجلين صبرا على صداقتهما، وأعمالا قليبهما برهة، لكن العند وقسوة الملامح في وجوه الأولاد ردت قلوبهما، وفرقتهما إلى أن مات الشيخ صايل؛ وما تجالسا وتكاذبا وتساورا، أمسك عيسى دمعته في ظلام الليل، وقال لنفسه:

- أولاد صايل أجلاف، وجوههم لا تبشر بخير.

علم الرغم من نفور اللقيا؛ لم يفكر النحال طويلاً بما عليه فعله، أعلن أمام الملاء أن خمسة عشر عاماً من الخصام تهاوت، ولم يعد يذكر أسبابها، وأنه يحفظ في ذاكرته مساندة الشيخ الصديق له وقت عوزته وحاجته، هلل الرجال وكبروا، وأمن بعض الشيوخ الوافدين من الكرك على أصالة الرجل وطيب منبته، بصورة غامضة، تحول العزاء إلى مجلس يتداولون فيه مناقب عيسى ورجولته، ويعرجون على ألمعية ولده الذي التحق بالمعزّين في اليوم التالي، ولا يوفرون تميز مريم وأهميتها في محيطها الذي يتعالج بدوائها، ويجلس على بسطها الجميلة.

تبادل مصعب ومتعب النظرات، كذلك منصور القادم من حوران للعزاء، واصلوا صب مرق الجميد على مناسف العزاء السخية، ولحظوا انسحاب عيسى مع دخول الأوطه العثماني خيمة العزاء، وانتبهوا إلى تورد وجه الفتى يحيى وإفساح الجالسين صدر المجلس له، وتشاغل الناس عنهم بمحادثته والنقاش معه حول أهمية العلوم التي يدعو إلى تعميمها مثل حفظ القرآن وجدال التفسير، وقد

تفحص متعب دفتر ولده صباحاً ليميز الأرقام التي تتراقص إلى جوار الأحرف،
وشعر بغصة، إذا ما تمكن هذا الجمع من الأطفال من فك الحرف وفهمه، ثم
راحوا يحسبون ويحصون، فلا بد أن الحياة قادمة بريح غريب جديد؛ ريح قد
يقتلعه من موقعه، ويذروه في الفراغ.

لا يحتاج مصعب إلى إذكاء النار تحت الجمر، ففي قلبه منطقة معتمدة حالكة
السواد وفي لسانه طعم مرير، حين تكلم الجمع عن مريم في عزاء أبيه، اكتسح موج
الذكريات روحه بذات الغيظ والوجيع، لم يجد أبناء صايل ما يدفعهم للامتنان
لعيسى النحال وولده في المشاركة بعزاء أبيهم، فإذا ما انقضت أيام العزاء، وتفرق
الناس، شاهد أهالي الكرك رجالاً ثلاثة يصعدون الدرب المؤدي إلى باب القلعة
الثرية، ويدقون باب الأوطة العثماني الجديد.

للرجال الثلاثة مصالح مشتركة كثيرة مع كل أوطة تركي يحل بالمكان، من
المحتمل أنهم كانوا يقومون بواجب الشكر والتقدير على ما بذله الرجل من مشقة؛
وعلى تعفير حذاء قدميه في المجيء إلى خيمة العزاء، ومن المحتمل أنهم يعرفونه
بشقيقتهم منصور الذي لم يلقه الأوطة سابقاً، أو يعقدون صفقات تجارية بين
الكرك وحوران، ذلك أن زيارتهم لم تكن في نهار أربعاء؛ الموعد المعتاد لقبض
راتب المختار الاسبوعي، كل الأسباب قد تكون ممكنة، ولا يمكن لأحد ممن
رأى الرجال الثلاثة ينتظرون متحملين سياط الشمس عند سور القلعة، التشكك أو
التعجب، أو ربط تلك الزيارة، ولو لوهلة، بأستاذ خربة جلجول الشاب.

لم يكن الأوطة الجديد أحققاً متهوراً، هز كتفه استهانة بعلوم الحساب التي
يتلقاها أولاد القرية، وأبدى اعتراضاً بسيطاً على التوسع في تفسير القرآن ومناقشة
آيات الواحد العليم، قال إن هذا الأمر تجاوز قد لا يكون له شخصياً سلطة
مناقشته، فالأستاذ أدرى بحاله وعلمه.

لم يقتنع الأوطة أن بعض الحساب، جمعاً وطرحاً، يمكن أن يتسبب في ضرر ما، لكن منصور وقد زاده الترحال خبثاً ودراية، أشار في ثنايا وشاياته إلى أن تصرف الأستاذ ينم عن استهائته بأسياده، وعدم التزام بما جاء في كتاب الله من علم يكفي البشرية، تنبه العثماني؛ وطلب لقاء المولى أمين للتباحث في ما قاله أولاد الشيخ صايل..

تأخرت زيارة المولى للأوطة، لا لأن الرجل يتخذ موقفاً، فهو قد أعد للقاء ثوباً جديداً، وعصى معقوفة أنيقة، وعمامة زاهية اشتراها خصيصاً، لكنه في الصباح الذي ألغى فيه درسه كي يلحق بيت الأوطة في قلعة الكرك، سمع صيحات الاستغاثة تتردد أصداؤها فرعة في جنبات الجبال، صاح الفلاحون والرعاة، وتراكم الصغار، وأطلت النسوة من بيوتهن وخيام الشعر والكهوف مترقيات خائفات، قفز الراعي فوق نول مريم المنسوب في الخلاء، وصاح بكلمة واحدة اختصرت الفرع قائلاً:

- الجراد.

رد الجراد المولى أمين عن زيارته، والأطفال عن الكتاب، وبنات مريم عن صباح النسج، والباعة عن حوانيتهم الصغيرة في سوق الكرك، وشوهد الناس ينحدرون من الجبال إلى الوديان والمزارع؛ يسابقون الخطر القادم، يشعلون الحطب والقش والأعواد اليابسة من أغصان الشجر في حفر بعيدة عن الجذوع والقرامي، ويلطخون بعض العسل على الأغصان الصغيرة؛ عل طائر السمسر الصغير أكال الجراد يهاجم مزارعهم بحثاً عن فريسته المفضلة، لكنهم وهم يقومون بجهودهم يدركون إنها جهود ضائعة، إذ سرعان ما خيم إعتام أحمر فوق المزارع، كما لو أن معجزة شريفة حلت بالزرع والثمر، وانتشرت ملايين الجرارات ملتهمة في دقائق قليلة الأخضر واليابس، ولم تبعد الحرائق إلا أسراباً قليلة منها،

منذ ساعات الصباح الأولى وحتى غياب الشمس، على مدى ساعات ونهار كامل، تغطت الأشجار الخضراء بغلالة لامعة متحركة تميل إلى احمرار، ماجت مثل قباب ملونة على ايقاع بطيء، سرعان ما أفلح سرب الجراد الأحمر ملتصعاً تحت وهج الشمس؛ تاركاً الشجر أعواداً جرداء، حلق يتساقط بعضه ميتاً عند الجذوع الخشبية العتيقة في المزارع والغابات الحشرية، مصدراً أصواتاً أشبه بسقوط حبات البرد على الأرض، وطارد الصغار الجراد قرب جدران المنازل، ناصبين له الفخاخ الصغيرة، في ساعات قليلة؛ ضاع جهد عام من الزرع والرعاية والعناية.

أقسم كبار السن أن مثل هذا الهجوم المريع على أخضرهم ونتاج شقائهم لم يحدث منذ ثلاثين عاماً أو يزيد، راقبوا النسوة تغلي ما جمعه الصبية من جرادات وتهيئها لتؤكل، اقترح البعض تقديم كشف بالخسائر إلى الأوطى؛ عل الخبرة وما جاورها من القرى تنجو من زيارة المحصلين في هذا العام الكئيب.

جلس الناس متجمعين في مساء الخبرة الحزين، لم يختاروا بيت النحال على وجه التعيين؛ استجلبتهم رائحة القرفة التي غلتها مريم وحلتها بالعسل، زجر الرجال بعض النسوة الباقيات، قائلين:

- هذا الخد تعود على اللطم.

تحت إضاءة القمر الذي تسيد سماءً صافية، شاهد الناس انكفاءهم وحزنهم في أعين بعضهم بعضاً.

تقاسم الأهالي أحزانهم متذكرين حزنهم السنوي في دفع الضرائب، أو سنوات غرق البيوت والمال والحلال بهجمة شتاء قديم، أو محل الأراضي في صيف جاف قاس، سيل من الكلام لم ينقطع، وأباريق القرفة تتابع، والرجال والنساء يصبون نصيبهم في الفناجين متلمظين بالسائل الدافئ، قال أحدهم على سبيل المجاملة:

- أنت شيخ يا عيسى، أي والله، خلف الله عليك خيراً في إصافتنا هذا المساء الثقيل.

انتقلت الكلمات مثل النار في الهشيم، حتى وصلت إلى سمع متعب، الثقل الذي أحدثه الحدث لم يسعف المختار في تصرف سريع، تحادث وإخوته، سخروا قليلاً من تعبيرات البسطاء الذين شيوخوا النحال، وترحموا على زمن كانوا فيه ملء العين في دروب الخبرة والقرى المجاورة، وكان الشيخ النحال مجرد أجير وضيع في طاحونهم، وتذكروا أن المولى لم يذهب إلى الأوطاة ليستجوب، وقد أفصح منصور عن دهائه حين قدر أن هذا التأخير كان جيداً؛ إذ يمنحهم الفرصة لتلقين أمين ما يجب قوله، بحذر وخفة دون أن يخطر بباله أنه صار طوع إرادتهم.

ما فعله يحيى بعد كارثة الجراد؛ مهد لهم، ومكنهم من رسم خطة مكيئة، فالمعلم طوف بالبيوت الحزينة مطمئناً على ما فيها من زاد ومؤونة بعد خراب الجراد، وراح يدعو الصغار إلى الالتحاق بالكتاب، ويهون على أولى الأمر بتخليه طوعاً عن حصته في طحينهم وبيضهم وخبزهم وعدسهم، قال:

- أرسلوا الأولاد للكتاب، ولا تحملوا هم أجرتي، مصابكم مصابي، وهمكم همي.

لم يفسر المولى أمين الأمر على محمل الشك والريبة، لولا زيارات أولاد الشيخ صايل المكوكية له، تنبه العجوز فجأة إلى أن اقتراحات تلميذه الذي حظي بلقب المعلم دونه، قد تطيح بنظام تعليمي أفاد منه عمره كله، وقد تتركه في أواخر سنوات عمره محتاجاً ضعيفاً لا سلطان له، عدا عن أن تنازل الشاب عن أجره، مزادة علنية عليه، فكثيراً ما مرت ظروف الجذب والفقر على الخبرة، ولم يهتد المولى إلى مثل هذا الحل الذي يقربه من الناس، ولو مؤقتاً.

لم يمنعه وسواس الأشقاء الثلاثة من التحدث مع تلميذه؛ بعض من حسن التصرف، وعلو همة تلميذه، ومعرفته العميقة أن الفتى لا يضمّر سوءاً، ما أراد المولى الوقوع في شر انتقام مكشوف، قال لتلميذه المتربع قبالة بوجهه المليح وعينه الضاحكتين:

- ما فعلته يطمع الناس بالكتاب، إذا كان الجراد أكل زرعهم، فإنهم لا يخلون من خبث، يخبئون الكثير، لديهم مؤونة تكفي المحصلين والبدو والكتاب، ينامون على ذهب، ونحن لا نملك إلا علمنا نقتات به.

تمهل يحيى قبل أن يرد تأدباً، ثم رسم بسبابه خطوطاً متقاطعة فوق التراب، ومحاهها، وعاود رسم سواها، والمولى الذي اعتاد تأني تلميذه عندما تكون الأمور جادة، توجس خيفة، ماذا لدى الأستاذ مما يفسر فيه استغناؤه عن حقه! قال المولى:

- فيم تفكر؟ الاستغناء عن الحق، مقابل إسقاط حق، ليس حالاً عادلاً، من حَقَّ أن تَؤْجر على علمك وعملك.

رفع يحيى ناظريه، وحدث بالمولى ملياً، ثم سأل كأنه لا ينتظر إجابة:

- من الذي أعطاني هذا الحق؟

تحامل العجوز على نفسه، علم أن تلميذه سيبدأ طريقته الملحة بإلحاق السؤال بالسؤال، خاف ضياع هدفه في منع الأستاذ عن صنيعه، أو جعله مؤقتاً لمرة واحدة على الأقل، قال:

- منذ بدء الخليقة هذا حقنا من الناس، يأخذون العلوم لتغيير حياتهم، وليس لدينا مورد سوى ما علمنا الله، هذا عرفنا، وإذا داخلتنا شفقة على الناس، فليس هناك من يرفض الرحمة، ولكن بمقدار، لا تطلم نفسك لإنصاف الفقير.

تحدث يحيى:

- لم أفكر بإنصاف الفقير يا شيخى، لم تداخلى الشفقة، ولكنى لست متأكدًا من أن ما نتقاضاه حق لنا.

صفق المولى كفيه ضيقًا، وعلا صوته:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، فى كل بلاد المسلمين، منذ ارتفع أذان أن لا اله إلا الله، وهذا عرفنا، كيف تقول بعكس ذلك؟ المسألة لا تتعلق بك وحدك، ستخرب الكتب الغربية عقلك، إذا تعود الفلاحون على كرمنا، مدوا أيديهم فى جيوبنا.

رد يحيى متمهلاً:

- لا تغضب يا مولاي، قلت لك ليست مسألة شفقة ما دفعنى إلى فعلى، ربما جاء الجراد معه بما أنار بصيرتى.

دمدم المولى:

- وماذا قالت بصيرتك؟

عاود الرسم بسبابته أرضاً، هذه المرة خطأ طويلاً مستقيماً واحداً، وقال:

- خمس هبات من الله، لا يجوز أن يبدل المرء من أجلها قوتاً ولا مالاً، هى حق لكل إنسان، لا ينازعه فيها أخوه الإنسان، ولا ينكرها، ولا يضيق عليه بها، الماء، والهواء، والكأ، والنار، والمعرفة.

كأنما هبط الجراد مجدداً يقتات القلوب، كأنما سيل عرم انهمر من أعلى جبال الكرك إلى قعر الأغوار السحيق، أحدثت كلمات يحيى قلقاً، فكل ما ذكر قابل أن يكون سلعةً تنتفع الناس بمداولتها، نشب صراع الكلمات بين الناس فى الحقول التى جفت، وفى الجلسات المسائية التى طالت، سمى البعض ما قاله يحيى ذكاءً فى الحوار ورهبانية لا أصل لها على الواقع، وقال آخرون إنه أفصح عن قلب ذهبي

يقبع في صدره تجاه أهله وفقراء ديرته، وقال البعض إن الكلام على هذا النحو؛ فتوى، قلب هذا التفسير تحديداً مجريات الأمور، صاح المولى أمين بين جمع قليل من الرجال:

- فتوى!! بأي حق؟ ليس إلا ولداً لم يكتمل شاربته بعد، يأتي بهلوساته من كتاب مسحور، ماذا عن كل مولى في الديار؟ ماذا يقول شيخ العلماء في عجلون؟

العسس الذين كانوا يأتون بأخبار اجتماعات الناس ووجهات نظرهم حول ما حدث، يزدون في الكلام ويطنبون تأكيداً على قيامهم بمهمتهم على أحسن وجه، تردد الأشقاء الثلاثة مراراً إلى القلعة، تمنى الأوطه العثماني لو كفاه الرجال الاهتمام بهذا التفصيل الغريب، قال للرجال:

- يا بشر افهموا، لا وقت لنضيعه على الرعاع، الباب العالي في حرب مع نمسا، ومطلوب مؤن كثير، والناس في كرك ملاعين، دوخونا، اخفوا ما لديهم من خير، شغل كثير في عنقي، وسيرة هذا اليحيى مزعجة، لا وقت لدي.

قال منصور:

- سيدي، رفع الله مقامه، ما دتم في حرب، لماذا لا تجمعون هؤلاء الشباب أصحاب القلوب الحامية، والألسنة الطويلة، وترسلونهم للحرب يدافعون عن الدين والباب العالي، بدل أن يضحكوا على عقول أولاد الناس؟

حيكت المؤامرة بعناية، ناقش الأوطه والمختار إمكانية إرسال الأستاذ جندياً في عسكر الإمبراطورية العظيمة، لكن تمتعه بحق الوحيد في عائلته منعهم من المضي في هذا، ولم يذهب بحيلتهم هباء، فأدرج اسم يحيى وحده دون سواه على خارطة التجنيد؛ لا كعسكري محارب، لكن أستاذاً يعلم الجند آيات القرآن،

وأرسل الأوطه رجلاً ينقل للأستاذ نبأ تكريمه، وانتقاه دون سواه لخدمة مولاه أمير المؤمنين في إستانبول، في تعليم عسكره كتاب الله، لم يرصد الناس حينها ردود فعل يحيى الهادئة، ولكن تحدثوا عن فجيعة مريم عند الغروب.

كان عيسى يرقب حمرة السماء الصافية بعيداً عن بيته، ويلم حزناً ما نفق من نحللات في قلب المناحل وقد انقرض غذاء النحل من المكان، ومريم تنتهي من إعداد بعض الخمائر من طحين قديم، ويحيى يقرأ في «عيون الحكمة» آخر ما أتاح الضوء الغائب كشفه، حين هبط مقبل مسرعاً لاهثاً إلى البيت وصاح:

- عمة مريم، عمة، جندرمة مثل الجراد قادمون إليكم، يقولون يأخذون المولى إلى إستانبول.

شقت ثوبها بكفيها من فتحة صدرها، ونفلت شعرها، وصاحت صيحة أفرغت الصبايا الحائكات:

- أأأأأأوو... يا سامعين الصوت... أأأأأأوو... يحرم على يحيى خدمة ذباحين أمه نفل، يتموه وحرموه ديد أمه صغير، يشكلون قليبي ع كبر! خيي لا يروح من الديرة ولا يوافيهم.

تحرك الفضوليون خلف العسكر المنحدرين إلى بيت النحال، وأفسح الخائفون أمام الخيل التي أثارت الأغبرة وهي تتقدم، والجندرمة بلباسهم العسكري الذي لا يرى إلا في مواسم التحصيل، وعباءة المختار ترفرف وراءه وقد ربط رأسه بحطة شدها فوق منخرية منعاً لتشق الأتربة.

رغم صراخ مريم والصخب الذي أحدثته فزعها، إلا أن يحيى لم يحرك ساكناً، قرأ بشغف والظلال تمنع تجلي الحروف والكلمات:

- «الجهة، كل جهة، فهي نهاية غاية، ويستحيل أن تذهب الجهة في غير النهاية، إذ لا بعد غير متناه. وإذن، لو لم يكن إليها إشارة، لما كان لها

وجود، وإذا كان إليها إشارة، فهي حد ليست وراء ذلك، فلو كان حد، ما أمنت إليه الجهة لم يحصل، لم تكن الجهة موجودة لشيء، لا تتم أفعالها إلا بالأجسام».

شعر أن جهته تناديه، وأنه ماض نحو غاية عبر إشارة، وأن جسده سيحمله بلا عناء، دس كتاب «عيون الحكمة» تحت الفراش وأمسك بنسخة من كتاب الله؛ ضمه إلى صدره متأرجحاً.

محا المساء بعتمته بقايا النور حول البيت الصغير، حين تنحى مقبل قلقاً معلناً وقوف العسكر وترجلهم، والتقطت مريم شرفها ورمته فوق شقيقها، فانسدل مثل ستار خفيف، وقفت عند الباب ووضعت كفيها في خصرها وعيناها تفيضان غضباً، قال العسكري وهو يحرك عصاه أفقيّاً:

- أين أخوك؟

تهكمت وهي تنظر إلى المختار في عينيه مباشرة:

- ماذا يقول الرومي؟

أجاب وقد أرجفه الضوء المنبعث من بؤبي عينيها:

- يسأل عن أخيك، يطلبونه بإستانبول.

سدت الباب بجسدها، مرتكزة بأعلى صدرها وكتفها إلى اليمين وبردتها إلى اليسار، وقالت:

- كيف يدخل علينا ونحن حريم؟ شيء لا ترتضيه يا مختار، أنا لا إخوة

ذكور لدي.. الرومي وأهم...

قطب متعب جبينه وقال:

- لا تلعب معنا يا بنت، أنا أعرف، لا تلعبين بالعسكر، أراه من هنا، إذا لم

يكن لك إخوة؛ فمن يكون القابع هناك؟

كلام أشبه بالجنون، تعرف أنها لا تخدع أحداً، وأن متعب يدري بوجود شقيقتها ويعلم، ولكن تجمع الأهالي حول سرية الجندرمة أغراها باستكمال اللعبة، تلوت مغيرة نقاط ارتكازها على الباب بين يمين وشمال، وهي تلاحظ فعل الجندرمة في مد رؤوسهم عليهم يشاهدون القابع في الداخل، قالت ساخرة:

- يا عيب الشوم، المختار يدخل جندرمة الروم بيت حريم!! لا تفعلها، وأنت حامي شرف البنات! ألا تعرف من في الداخل؟ هذه أختي.. أنت المختار، تعرفها، أختي.

تبادل العسكر النظرات، وزمجر متعب وقد غاظه مماطلة الفتاة:

- أختك!! حفظها الله، ما اسمها؟

صمت المجتمععون عن الهمهمة، وتعلقت أنفاسهم بشفاه مريم التي تمهلت برهة، ثم قالت ببساطة مخيفة:

- أختي.. هفوف.. تعرفها.. هفوف.

ذهب الليل بكل ضوء في المكان، لم يشاهد الناس الجزع الذي أصفر وجه متعب، ولا ظنوا أن لعبة النساجة في استخدامها لاسم الهفوف، قد أورتث في قرارة نفسه مرارة لا تُحتمل، حين لوى الجمع أعناق جيادهم مغادرين، التقوا بعيسى قادماً فوق ظهر حماره، ولم يعرف النحال لماذا صاح فيه متعب من بين الجند:

- سيكون حسابكم عسيراً، لن تتمكنوا من إخفائه، سنجده، سنأخذه من بين تلاميذه، خبئوه كالنساء، أو دسوه في كواردة الطحين، سنمسك به عاجلاً أو أجلاً، سنرمي به في بلاد الواق الواق، ولن تراه عينك حتى تموت.

لم تنم الخبرة ليلتها، حاصرها الجندرمة العثمانيون بخيلهم ومشاتهم وسيوفهم الصقيلة، خرج الصبية يتفرجون، فرقوهم بتشويح السياط والصراخ، لكن الأمر أفلت من أيديهم، فقد اختفى يحيى متخفياً في ثياب امرأة.

دهنت مريم صفحة وجهها بهباب أسود مموهة ما تبقى من ملاحه وأنوثة فيها،
دست جسدها بالكامل تحت فرشاة الصوف، وأخرجت شيئاً ملفوفاً بقطعة من
الخشيش، ربطت خبيثتها إلى خصرها بحبل صوفي، وأسدلت ثيابها، وفعل يحيى
فعلها، فربط كتاب العيون في خصرته أسفل ثوبه، خرجا كما لو كانا امرأتين،
عجوز وشابة، برفقة مقبل الذي ما فاته أن يستعرض تفوقه في التعرف ليلاً ودون
ضيء على مسارب الخبرة ودروب الجبال، لم يكن أي منهما متأكداً من وجهة
سيره، لكنهم ابتعدوا عن بوابات الكرك مقدرين أن الحرس لا يفارقونها ليلاً،
وتوغلوا جنوباً متفادين حراك الجندرمة المحتمل، اجتازوا الوادي إلى حرش
شوكي. ما إن انتصف الليل بلا قمر، حتى التقط سمع مريم هسيس نار موقدة في
مكان قريب، تتبعوا الصوت بين الشجر الحرشي العاري من أوراقه، تقدموا على
حذر، ثم كشفوا أنفسهم لصاحب الناقة المنوخة مثل صخرة فوق تراب الحرش
المأكول.

غابت مريم ويحيى ومقبل ليلة ونهاراً كاملاً، وتعرض عيسى إلى استجواب
قاس مهين، إلا أنه ظل يردد:

- لا علم لي، البنت شورها براسها، والولد صار رجلاً، ربما ذهبت إلى
الكرك تباع أبسطتها ودواءها، وربما نام يحيى تحت الشجرة في الكتاب.

استنكر عيسى أن يكون له بنت تدعى الهفوف.

اشتعل متعب غيظاً وخنقاً؛ موقناً أن الفتاة لعبت به وأوجعته بدهاء مكشوف
لم يملك الرد عليه، وجعلته سخرية صغار الخبرة، أخافته باسم جاء من الماضي
السحيق، ولم يتمكن من اقتحام بيتها خوف صياحها وتلطيح موقعه إلى الأبد بعار
وهمي، اختفت وشقيقتها مع مطلع النهار، لم يترك موقعاً إلا وجعل الأوطة
يحاصره ويمشطه بجنده، بحثوا بجلد لأيام في كوارات المنازل، وبين بيوت

الشعر، في الكهوف أعالي الجبال، والغابات حول الكرك، وعند مساقط المياه في الموجب، وفي بقايا الهشير النابت بين السبخات عند بحيرة الملح الميتة، وأعلنوا عبر مناد طوف بالخراب والقرى: إن يحيى فر من الخدمة لدى الباب العالي، وإن على من يعرف عنه شيئاً التخبير في الحال وإلا وقع الوبال، وكان حسابه عسيراً، مع ذلك؛ فإن أحداً لم يسعفهم بخبر، بدا كما لو أن يحيى رُفع من الوجود.

عادت مريم وحدها، لم تحدث أحداً حول اختفائها ليوم وليلة على كثرة ما سألت، حين أفلح الناس عن التحلق حول والدها، واكتفوا بتخيلاهم للاختفاء المفاجئ، وهلوسات يزيدون عليها ويغيرون في وقائعها كل مساء، وفارقت بيت النحال ظلال خيل العسكر المحومة حوله، بكت مريم مجهشة؛ ونياط قلبها تتقطع، ولسانها يتلعثم؛ واصفة لوالدها ما جرى من أمرها وشقيقتها.

كيف التقت بالدواج الذاهب إلى سيناء، فساومها لاصطحاب شقيقها متكبراً وطامعاً، مؤكداً أنه لا يحتاج إلى أستاذ في رحلته، وأن مثل هذا الحمل عبء على رحلته في الخلاء المكشوف، كما أن تشبث مقبل بمرافقة صاحبه، يضاعف العبء؛ مما يستلزم مضاعفة الأجر، فكت مريم خبئة الخيش، ورأى الدواج المشخص الذهبي يلتمع، فلان ووافق على إرداف المسافرين الفارين ناقتة، أمر المرافقين بخلع ثيابهما الخيشية، وضمها إلى بقعته مانحاً إياهما ثياباً مختلفة، ارتديا جلابيب بدوية وحطات خفيفة، تلاصقا وراء الدواج والناقة تستقيم واقفة، وشد صالح الدواج الرسن، وضرب عنق الناقة بكفه، وخب بهما إلى سيناء.

الفصل الثاني

التيه

999 – 1001 هجرية / 1591 – 1593 ميلادية

خلفوا وراءهم صفير الريح وأغصان الشجر متخشبة عارية، خبّت الناقة تحمل راكبيها الثلاثة بعيداً عن جريان الوديان؛ متفادين السير في الدرب المحاذي لبحيرة الملح زغر، فاجتازوا العريش والسهول المنبسطة المكشوفة، منحدرين مع بداية الصدع الإفريقي على امتداد الأرض الخفيضة. عندما صارت العريش وراءهم، مد صالح الدواج ذراعه مشيراً إلى نقطة لا ترى، وقال:

– بأمر الله ومشيتّه، ندخل التيه.

تقلبت عينا يحيى، واستدارت كتفاه، متلفتاً في كل صوب؛ ذاهلاً لمتوجات بحر الرمل، يسيطر عليه شعور بأنه مجرد نقطة حائرة ضائعة في فراغ مهيب. خففت الشمس غلواءها عند المغيب، ترجل صالح يقود الناقة المثقلة بسلال البضائع وأكياس الخيش المعبأة، أمدهما بحبات من بلح جاف، محذرا من الإفراط في الطعام أو الشراب، لم يعجبه افتتاح الأستاذ بالكون الرملي العجيب، وتجوّاله بعيداً عن مسير «ريا» ناقتة الحبيبة مثلما الولد، هدهد إذا ما فقد حرصه وصاحبه، وابتعدا يتجولان ويتسليان؛ فإن التيه سيبتلعهما، وهو لن يتنظرهما فيعطل سيره، أو يرتد للبحث عنهما في أراضي صيادي الصقور الشجعان وعشاق النوارس.

تقلب ليل ونهار لأيام كثيرة، وتباهى البدوي بشبريته المعلقة على حزام الجلد في خاصرته تحسباً لقطاع الطرق والمعتدين، تحدث عن رحلاته المكوكية بين مصر والشام، واستيطانه سيناء، ثم أطلق صوتاً أجشاً مترنماً؛ فتأرجح رأس الناقة، وداخ المسافرين والجمع يقطع صحراء التيه متوغلاً في سيناء، انبعث الحداء المغنى شفيفاً مغيراً للهجة صالح العدوانية الحادة، وجاس في صدريهما شجياً.

- سابق عليك الله.. ما تبوّحي... يا مفرحة الصغار.. يومن ترّوحي..

هز مقبل رأسه متعجباً وقد اعتراه شك في ما إذا كان راعي الناقة يحدث بهيمته أم طيفاً في ذلك السديم الرملي العجيب، فإذا ما وصلت ريا براكييها إلى حدود امتزج فيها الرمل والصخر الجرانيتي الأسود، مط صالح صوته، وترنحت كلماته وناقته وعمامته:

- ابسيه.. يا من يحدرها على شط العرب.

ظن يحيى لوهلة أن البدوي يحكي عن شط مائي يتجهون إليه، ولكن صالح قادهم صوب دياره في جنوب سيناء مبتعداً عن البحر؛ جف الهواء واشتدت سياط الشمس قسوة، فجففت جلود أكفهم، وسفعت وجناتهم بحمرة اسودت مع هياج الرمل، وتغضنت جباههم وهم يزمون جفونهم يتقون حدة الضوء في العيون، لم يملك الرجلان اللذان شاركا صالح رحلته الاعتراض؛ وهو يعلن أنه لن يقودهما إلى مصر كما وعد الصبية الملهوفة في أحراش الكرك عندما تقاضى ثمن تهريبهما من قبضة الجندرمة المسعورة، تحدث وكأن الأمر مفروغ منه؛ فالدرب طويل، وديرته تقع على الطريق، وهو لم يزر أهله منذ عام، انزعج مقبل، أما يحيى فقد صارت الدروب لديه سيان، يكتشف في كل خطوة تبدل ملامح الطبيعة من حوله؛ لم يعترض، بل استبد به شوق خفي لمشاهدة العالم الخيالي الذي حكى عنه البدوي طويلاً كأنه يسرد ذكرياته لناقته دون الرجلين.

هَمَّت الناقة مهرولة براكييها وراغت كأنها تعرفت على المكان مثل صاحبها، وأُفِلت صالح رسنها، فتشبث مقبل بخاصرة صاحبه خوف أن يطير جسده من فوق الناقة الحمقاء المندفعة، وعلى بعد، لاحت الديار، بيوت شعر خيمت متفرقة في بطن واد وادع بين جبليْن، وعرائش من فروع الشجر وجريد النخيل، وضياء نار يتراقص مع ظلال تشبه الليل، وصل إليهم نباح كلب بعيد، فصاح صالح جذلاً مستبشراً:

هرعت زوالات رجال ونساء صوب الناقة، وقفز صالح دون تمهل من فوق السنام العالي، تاركاً رفيقه يرقبان استقباله الحميم مبسمين وقد اكتشفا أنهما رافقا رجلاً من لحم ودم، له أهل وأحبة، لا مجرد دواج بعينين طامعتين بمشخص مريم.

94

وانكفأت مقدمتها مقعية مستريحة على بقعة الرمل المجاورة للعرائش المصنوعة من جريد النخل، وترجل مقبل قافزاً، في حين انزلق يحيى أرضاً متمهلاً، وقف على قدميه مبتسماً كأنه يولد من جديد في مساء الواحة الصحراوية الندي.



نهاراً، طوف يحيى بناظريه بين العرائش والخيام المتواضعة المتناثرة حوله، ثغاء الأغنام وصلصة أجراس الجديان الصغيرة، وهدير الكلاب المتحائمة؛ أعادا مقبل لحميمه حياة الرعاة التي يعرفها، وإن بدا له القفر مخيفاً وسط جبال رمادية قدت من صوان، كانت عينا الراعي تتبعان مسير الغنم، ويحيى يتأمل الأشكال المخروطية والمدببة للجبال التي تلتقي مع السماء المكشوفة، لام نفسه قليلاً على هذا الرضا الذي يغمره؛ كأنه لم يفر إثر مصيبة ولم يترك أهلاً ملتاعين لفراقه، تحسس الكتاب المشدود إلى خاصرته فانتشى، وتقلب بين رضا وملام، لكنه ابتسم سعيداً وراعي الناقة يقبل نحوهما حاملاً رغيماً مدوراً كبيراً من الملة، تتبعه فتاة الأمس وقد رفعت زكوة*، صغيرة وضمتها إلى صدرها تتوازن مع ثقل القربة، وهمس مقبل:

- الجندب جاءت معه...

بدا صالح شخصاً مختلفاً؛ شيخاً يحسن وفادة ضيوفه، اعتذر عن تجويعهما في الرحلة الطويلة، مؤكداً إن الزاد عزيز شحيح في السفر، لا يجوز تبذيره، ولكنه تقاسمه معهما على قدر ما استطاع، وضع الرغيف على طبق قشي، كأنه يفرط في كرمه، تحدث يأمر البنت أولاً ثم قدمها لضييفه:

- صبي اللبن يا بنت.. هذه/بنتي شهوي.

* وعاء من جلد الخروف.

ضحكت شهاوي عن سن ذهبية كاشفة لثة لحمية عريضة داكنة، وتراقص حاجباها وهي ترحب بالضيفين، وتصب الحليب الطازج من زكوتها فوق الخبز؛ صانعة إفطاراً شهياً لرجلين جائعين.

اندفاع فكيتها وعريض ضحكتها والأسنان الصغيرة المتعاقبة؛ دفعت مقبل لتسميتها بالسنجاب، بينما قفزها وضوضاؤها منحاحا عنده اسم الجندب، مخفياً سخريته واستهجانته الذي أثاره اسمها الغريب، نهائياً يحى عن التعليق بنظرة تأنيب جانبية، وانصرف كلاهما إلى الطعام، فأكل يحيى القليل، وأجهز مقبل على ما تبقى؛ مؤكداً أن كل طعام هذه الديار الفقيرة لا يعدل ما حصل عليه الدواج البدوي حين دس المشخص في ثنايا ثوبه.

قضى الضيفان نهارهما الأول في الواحة الصحراوية التي يسميها أهلها «نخيلة» لقصر نخلاتها، ظلوا في العريش الصغير يتمتعون بكرم الضيافة وضحكات والذي صالح الهرمين اللذين يقومان بمهمات وهمية حول العريش، ولكنهما في النهارات التي توالى بعد ذلك، شاركا في الحياة اليومية كأنهما مواطنان في المكان.

ينقل مقبل الإبل من القصيلة* المخصصة لها، ويرافق الرعيان الذكور رحلتهم الصباحية في الفيافي المحيطة، وقد يلتقي بشهاوي وهي ترمح وراء أغنامها، وتهش بعصاها حول السخال الفارة، فتأتيه وصحبه ببعض الماء واللبن والخبز الذي اشتم رائحته فجراً تبعث من الصباح*. نفخ مقبل في قصبة الناي، فسمعوا شجوه، وردوا

* حظيرة مسورة.

* مسطح معدني يحدودب قليلاً يستخدم لشواء الخبز.

عليه بنفخاتهم على المقرون* الذي يصلصل في السكون المحيط، في حين رافق يحيى الدواج برحلات قصيرة متفرقة إلى حيث يبيع بعض ما جلبه في رحلته الأخيرة من بضائع سورية كالأقمشة والحلي والأواني، وما يحمل من ملح وأعشاب عطرية ومصنوعات نحاسية صغيرة، لكنه أبداً لم يجازف بعرض أثمن ما يملك على المشتريين، وما باح بسر اقتنائه المشخص لصديق أو رفيق، ولو بغرض التباهي.

في الصباحات الندية، حين يخرج يحيى مبتعداً عن الواحة مسافات طويلة، لا يتوجس صالح، فكل من يتجولون في نواحي الواحة يعرفون خبر الراعي والأستاذ اللذين جاء بهما الدواج، وما كان أحدهما يمثل مطعماً للعربان وقطاع الطرق الذين يسطون على المارين على طريق الحج شمال الواحة، ولسبب غريب، لم يخش صالح ضياع الأستاذ في التيه، وثق بقدرة الفتى على معرفة دربه دون إرشاد، بل وخلال أيام قليلة، أدرك أنه يسير ببساطة إلى حيث يقصد بلا هلع أو تردد، كأنما يعرف الدرب مسبقاً، فإذا مر به في ظهيرة ساخنة؛ ألقى له خرقة مبللة يضعها فوق رأسه العارية، ومضى.

شوهده يحيى مراراً في الخلاء، يُخرج ورقاً مضموماً إلى وسطه، ومربوطاً بإحكام، يفرده فوق صخرة ملساء؛ يحرص على استوائها الأملس كي لا تفسد من أمر أوراقه ما أفسده مرور الدهر، يقرأ بخشوع، ويبدو مثل نملة ضالة، يقرأ الصفحة ويعيد، يتوقف، ويتنهد ويعيد، ثم يروح إلى تأمل طويل. يحار مقبل لقدرة الأستاذ على تسريح ناظريه في الأفق والورق تناوباً نهائياً بطوله، في أعماقه؛ يخشى على

* آلة موسيقية تشبه الناي يستخدمها بدو سيناء.

صاحبه الجنون، ويرد بصلافة على العربان الذين استنكروا توحد الرجل وانفراداه بكتاب، يقول لهم:

- كيف لأمثالكم فهم الأستاذ؟ إنه يفوقكم فيما يحمله رأسه من مخ، بينما تحملون بطيخاً.

يتقبل البدو روح مقبل المرحه، يتعودون مرافعته التي تسبق هجومهم، كأنه واقف بالمرصاد لمن تسول له نفسه انتقاد الأستاذ، يعيّرهم؛ إذ لم يحظوا بأستاذ مسبقاً، فيفكرون في إمكانية الإفادة من نزول الرجل في أرضهم، الأمر الذي لم يرق للدواج، فما كان يظن إن إقامة الفتى قد تطول ليتمكن صبية الواحة الصحراوية من القراءة أو الكتابة أو حتى حفظ قصار السور القرآنية، كما أنه اكتشف كنزاً جديداً يمكنه استثماره؛ ما دام الفتى خليّ المسؤوليات، في غصون أيام؛ صير مقبل راعياً للإبل يؤجره كما لو كان عبده، وتمكن من بيع خدمات وقدرات الأستاذ في الاستدلال على الطريق.

بدأ الأمر صدفة، كان يحيى منشغلاً كعادته بكتابه العجيب، يقرأ ويتأمل ما خط في عرض الصفحة بالخط الرقيق، والأحرف التي بهت حبرها:

- «وإذا قيل واحد، يعنى به موجود لا نظير له، أو موجود لا جزء له، فهذه التسمية تقع عليه من حيث اعتبار السلب.

وإذا قيل: حق، عنى أن وجوده لا يزول، وأن وجوده هو على ما يعتقد فيه. وإذا قيل: حي، عنى أنه موجود لا يفسد، وهو مع ذلك على الإضافة التي للعالم العاقل.

وإذا قيل: خير محض، يعنى به أنه كامل الوجود، بريء عن القوة والنقص، فإن شر كل شيء نقصه الخاص.

ويقال له خير، لأنه يؤتي كل شيء خيريته، فإنه ينفع بالذات والوصال، ويضر بالعرض والانفصال، أعني بالمواصلة؛ وصول تأثيره، وأعني بالانفصال؛ احتباس تأثيره».

كأن برقاً اجتاح الفتى، صار ذهنه وعاءً مفرغاً لعبارات بدت جوفاء تتأهب للامتلاء، راح يستعيد ما حفظ من القرآن، ويجعل الكلام في مصفوفات محاولاً تثبيتها في بقعة من الفراغ الواسع في الجسد والروح، سأل نفسه مرات: ماذا يريد هذا الـ«ابن سينا» أن يقول في عيون حكمته؟

تنبه إلى أن الرجل لم يكن يقول؛ بقدر ما انطوى كلامه على السؤال، فكبر سؤال يحيى، هل يعالج الفيلسوف سمات الخالق؟ الواحد الحق الحي الخير! أم يقول قولاً عميماً حول الكون وصفاته؟ وقع يحيى في الحيرة، واستوى مندهشاً سعيداً، قال:

- ما دامت الحيرة تقودني؛ فلن أتوه.

مر به جمع رهبان متسربلين بعباءات من جلد الماعز، وقلنسوات طُرز أعلاها بصليب أزرق صغير؛ تقي رؤوسهم الحليقة أشعة الشمس، سألوه كأنه عارف باتجاه الدير.

يقسم صالح أنه لم يتحدث عن الدير، وما وصف مكانه ودربه على مسمع من يحيى سابقاً، وإن كان عارفاً بطريق دير القديسة كاترينا، إلا أنه لم يكن موضوعاً للحديث بين الرجلين.

عندما توقف الرهبان أمام يحيى سائلين عن الاتجاه، لم يتردد، ولا تمهل وهو يمد يده غرباً ويشير إلى الفضاء الخالي، قائلاً:

- هناك.. تسيرون على بعد مغيب واحد لا حقين قرص الشمس وهو ينحدر في السماء، تصلون بإذن الله.

تهامس الرهبان فوق ظهور بهائمهم متسارّين وقد تراقصت عكازاتهم على جنبات المطايا، وتدلّت أرجلهم بصنادلها الجلدية، واغتنم صالح اللحظة، سأل بجدية عارضاً مساندة معقولة:

- كم تدفعون؟ ويرافقكم الأستاذ دليلاً، تراه مثلكم يقرأ ويكتب..

هكذا صار الأستاذ دليلاً في صحراء لم تطأها قدماء من قبل، واعترف به الدواج أستاذاً، استخدم اللقب المهيب رغم اعتراضه على فكرة تعليم الصبيان في الواحة؛ وتركهم مصالح آبائهم دون متابعة ورعاية، مما قد يضيع الأنعام، ويشتت الجهود، ويسوّف الوقت، ويدفع بسطاء الرعاة والزط إلى التساوي مع شيوخهم وأولياء النعم، قال:

- لا لزوم لقراءة الكتب، فالحياة معلم كل إنسان.

نظر يحيى مبتسماً بود أثار غيظه، بسمل وجود قارئاً:

- «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون»*.

هز صالح كتفيه متظاهراً باللامبالاة، ثم زم شفّتيه وشخر صوتاً خفيفاً وقال:

- تظن اني لا أعرف!! هذا من القرآن... أعرف والله.. تقوى الله بقلوبنا،

لا حاجة لمعلم يعلمك أن الله حق، هذا نتعلمه مع رؤية الرمال وفي غياب

كل شمس مسلمين دون علوم تضيع أوقاتنا، نؤمن بالله ونبيه، ونحج

ونصوم ونتشهد، لا ينقصنا شيء.

وافقه يحيى بنظرة ودود قائلاً:

* القرآن الكريم سورة آل عمران 104 .

- لم تفارق الصواب؛ الإسلام هو الظاهر الذي عليه الناس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام شهر رمضان*.

لا يجادل يحيى الرجل وقد خبر نزقه وعناده، لكنه تمكن من استمالة قلبه، فراحا يقضيان أوقاتهما معاً، ويترافقان في حديث مطول لا يصل إلى التقاء فكري ولا فراق إنساني، رغم أن الأستاذ يعلم علم اليقين باستغلال الدواج لمواهبه التي فطر عليها، يقول بكل ثقة ورضا لمقبل:

- أنا أعلم منه، وأجزيه عن خطواتي في بوابة الدنيا الجديدة التي فتحها أمامي، إنه يتفضل عليّ.

بات العابرون والحجاج المسيحيون إلى دير سانت كاترين يبحثون عن الدواج وعامله الشاب الذي خط شارب وجهه دقيقاً، والذي يقودهم دون خطأ في الدرب، ويقف بهم عند سفح الجبل مؤشراً على موقع الدير، ثم يتركهم مبهجين بالوصول، كما أن حجاج مكة المسلمين القادمين من مصر، الذين يعبرون سيناء ميممين شرقاً، سمعوا عن الأستاذ؛ قصده ليقتود خطاهم في صحراء مطوقة بالبحر من جوانبها الثلاثة، وإذا مرت أيام دون أن يطل باحثون عن درب، أو تائهون على درب؛ فإن الدواج يتبرم، ويثرثر منتقداً الفتى العاكف على قراءة الكتب، قائلاً:

- قم نجد العابرين في الدروب، لا تضيع الوقت مع كتبك الممزقة، مثلها كثير في خزانة الدير.

* حديث شريف.

كانت الإشارة كافية لبعث شوق جديد في فؤاد الأستاذ للورق، وكلمات حبرها أحدهم على قرطاس، وأفكار نشبت في عقل خبر الحياة فتلقفها روح ظامئ، تريث يحبى لا يبدي شوقه؛ ولا يثير حفيظة صاحبه، ريثما يمر مسافر يصطحبه معه. أما مقبل، فقد صار لحياته لون جديد وهو يقفز برفقة الأغنام، ويتجول على سنام الإبل، ويخص الناقة ريابود وتدلليل ورعاية، وتخصه برغاء يضحك السمار في ليل الواحة حول النار الموقدة، وهم يلعبون السيجة ويصفون أعوادهم الخشبية الصغيرة مراهنين على لقيمات من خبز أو قليل من سمن، ثم متحلقين حول العجوز، منشد الواحة، والد صالح، الذي صار كمشاً من عظم ناتئ، يمرر ربابته فوق النار المشتعلة، يسخن جلدها، ثم يشد أوتارها شادياً بسيرة الهاللي:

- يقول الهاللي.. والهلالي سلامه

شوف الفجوج الخاليات تروع

يقول الهاللي.. والهلالي سلامه

بيغي الطمع وهو وراه طموع

لا بد عقب الوقت.. من لا يح الحيا

من بارقن يوصي سنه لموع.

ترتخي أوصال الناس مع نغم الربابة الحزين وهسيس النار في الحطب، ويتأمل يحبى في مواويل الهاللي الباحثة في إنسانية الإنسان، يفسر الحروف ويبعث عن المعنى، قبل أن يعلق صالح ساخراً:

- ها!! سمعت!! هذا علم لم يقرأه أبي في كتاب، لكنه يحفظه.

يناكف المنشد ابنه الدواج حول احترام الأستاذ والكف عن إزعاجه، يضحك رجال السامر، ثم ينصرفون إلى لعبة السيجة صافين أعوادهم الخشبية ومراهنين على كوب من السمن، في انشغال الناس؛ يتبادل مقبل وشهاوي نظرات مختلصة،

ترتجف قدميه وهو يرى حمرة الانفعال والشغف تلتطخ وجهها الأسمر تحت شعاع ولهيب نار السممر، عندها فقط لا تعود الراعية الصغيرة سنجاباً ولا جندباً، ولكن امرأة تُعشِّقُ، وجسداً يُشتهي، وروحاً تنادي روحه، وتشف ريقه، يتمكن منه الغرام ويصرعه، يتمدد على صفا في خالي البیداء؛ يرقب الكون المعلق في قبة السماء نجومًا متلائة، وشهبًا تتساقط تباعاً، وأنواراً وبروقاً تتعالق، ويصيح نشواناً:

- يا الله، لو أحلنا يطير، لو كان لنا أجنحة عوضاً عن القدمين، فنحلق ومن نحب إلى نجمة بعيدة.

يهمس يحيى الدائخ في سحر الليل:

- للقلب خفق كما جناح عصفور، يطير أبعد من النجمات التي ترى، إلا أن العيون تسور الرؤى وتحدها.

ليست شهاوي من فائنات واحة نخيلة، بجسدها الضامر وفكها البارز وأسنانها المتنفرة، ولكن هواها عصف بقلبين في آن واحد، مقبل الغريب الذي صُرع وبات مسحوراً على حين غرة، يغافل رعيان الإبل مبتعداً بين التلال الرملية المعشوشبة، باحثاً عن راعية الغنم التي تنفلت ضاحكة بمجرد رؤيته، ونهام، قريبها الذي عاش عمره يتهياً لتصير زوجته يوماً، فمع غياب أولاد العم المباشرين، كان نهام أقرب المرشحين للاقتران بالفتاة، وما ظن أن لسواه إن له فرصة للاقتراب من بنت الدواج الوحيدة الأثيرة مدللة جديها، التي فقدت أمها إثر ملاريا اجتاحت الصحراء قبل أعوام مع فلول الناموس القادم من البحر البعيد.

لم يحاول القلبان الأهوجان إخفاء تعلقهما السريع، شوهدا مراراً يتراكضان مثل جديين يافعين؛ يتفافزان فوق الصخور العالية لجبل موسى، فشبت نار الغيرة حارقة مؤلمة في فؤاد نهام؛ خطأ نفسه على التأخر في حزم أمره، والإقبال على

الزواج من ابنة العم المحبوسة على اسمه منذ أن رأت عيناها النور، وغازه رؤيتها سعيدة متهلة فوق ما يحتمل كأنها تطير، حمل أمه وخالاته والعمات طبقاً من الحناء والملح والسكر إلى بيت الدواج؛ ليقيم بالواجب والأصول لخطبة الراعية.

زعت شهاوي، وحلفت بتراب أمها أنها لا تحل لنهام؛ ولو أغضبت قبيلها ورجالات الواحة، ولو كان الموت دون ذلك، لم يغب عن الجدة البسيطة دافع البنت في إعلان العصيان على قرار رسم لها مع ولادتها، حاولت توجيه النصائح التي قد تفيد في إعفاء ولدها من مواجهة ابنته، لكنها لم تكن صارمة جادة، بدت العجوز مناصرة للهوى، وأبعد ما ذهبت إليه أن ظلت تردد:

- إنه غريب، تنزوجين غريب!

ردت شهاوي دون وجل:

- لو غريب! لو من بلاد الواق الواق.. من أرض الجن، أهواه.. أعشقه... ولا أرضى عنه بديلاً.

ذعر مقبل مما جرى، ما كان يظن أن عليه الدخول في خصومات ومعارك وهو غريب في الجماعة، رغم ضحكات الجدة، وتطمينات يحيى ومباركته الهوى الذي جعل الحياة تدب في الواحة المسالمة، إلا أن مقبل ظل خائفاً من ابن العم الغاضب، شاهد الشرر ينبعث من عينيه وهو يمر به في المرعى، وارتد يومها إلى حيث الأستاذ مستمعاً إلى كلماته المطمئنة، في حين هرع نهام إلى الدواج مستكراً، طالباً طرد الغريب الذي تجرأ على الشرف.

مثلما تسقط صخرة من أعلى الجبل مفتتة على أرض صوانية، فعلت كلماته فعلها في الواحة، أمسك الدواج بثوب نهام وشده موبخاً؛ خاصة وهو يتناول مسألة الشرف في جمع، تراجع نهام حانقاً إلى الوراء، لكنه صاح بأعلى حسه:

- لا أتبلى، الراعي الغريب لا يعرف حرمة الشرف.
تذكر أهل الواحة الشابين يتقافزان مثل ماعز فوق الصخور، وضحكات
شهاوي تفرقع تكشف لحم شديقتها، وصوت مقبل يغني وينفخ في مزماره، وقالوا:
- لولا أن ابن العم شهد ما يشين العرض؛ لما تحدث عن الشرف.
ناحت الجدة العجوز، وغفرت وجهها بالتراب مقسمة بالله ومحمد وعيسى أن
البت ناصعة البياض طاهرة، لكن أعين الرجال والنساء المتجمعين على صيحات
العاشق المرفوض، لم تصدق ببساطة، قال الجد المنشد موبخاً:
- لا تكذب يا ولد.

ورد نهام:

- لا أكذب.. رأيتك بعيني هاتين، يركبها.
بطح صالح قريه أرضاً مسعوراً، مزق ثوبه شداً، وخدش وجهه وعض كتفه،
تفرط نهام تحتة كذبيحة، والرجال يحاولون فصل الجسدين.
قارب يحيى بين اجتياح الريح للصحراء، والعويل الخفي الذي جعل أفراد
الواحة يعقدون مجلسهم المسائي، أمسك بكف مقبل غير واثق ما إذا كان
الاجتماع سيسفر عن خراب يحيق بهما، قرر قراره مشاركة الراعي المصير؛ كما
شاركه الفرار من وجه الروم في حالك الليل، لكنه لم يتخل عن دوره كأستاذ، قال
لصاحبه مطمئناً:

- لا عليك.. أسوأ ما سيكون، أو يقع للمرأة؛ يكون أفضل دروس الحياة
عادة.

بكى مقبل مشوحاً بكفيه، وما أطفأت كلمات الأستاذ مخاوفه، ولا ظنّها تغير
مصيراً غامضاً بانتظاره، تحفظ أهل الدواج على إقامة مقبل في عريش المنشد إلى
حين صدور الحكم، فمر الزمن الفاصل بين الانتظار والقرار كأنه دهر.

بات بدو الواحة على قلقهم، وأغمض يحيى عينيه في سبات قطع عنه نهنيات
مقبل الخائف الوجل، فرأى، فيما يرى النائم، جسده يدور عارياً في بيداء واسعة،
يتطاير حوله بشر وهائم وجمال وشجيرات قصيرة، لكنه لا ينظرها، بل يعلق عينيه
في الأعالي، يرى نوراً عظيماً يعجزه عن التحديق، يواصل بلهفة تفحص الفضاء،
ويشتهي أن يطير، استيقظ يحيى على بكاء مقبل، متعجباً من منامه الذي بدا شديد
الوضوح، أقرب إلى المنطق من لحظة الصحو.

لم يتم إخراج الرجلين من العريش في الصبيحة التالية، وأرسلت لهما الجدة
بجره فخارية من الماء، فلم يشعرا جوعاً يذكر، ولكن ترقباً دائماً، وكف يحيى
عن مواساة صاحبه الذي لا تفلح المواساة في تخفيف بكائه، ومضى إلى مواساة
رغبته التي تتمنى زيارة دير كاترين وقلعة سينا قبل أن يتخذ القوم قراراً بترحيلهم،
تسلل أحد الرعاة المتعاطفين مع العاشق ظهراً إلى العريش، هامساً بما حدث في
السقيفة، أخبرهم بإصرار صالح على حقه في تأكيد عفة ابنته، وعقاب من افترى،
مطالباً بإخضاع ابن العم إلى البشعة* كي يتبين ادعاؤه، ولما أسقط في يد نهم
العاشق، وافق على التجربة؛ واثقاً من قدرته على خداع المبعشع*، أو آملاً بتدخل
الرجال لمنع الإجراء الرهيب، لكنهم أقروا بالاتفاق، وساروا عند الفجر شمالاً،
حيث يقطن المبعشع العليم.

هلع مقبل للتفاصيل وما آلت إليه الأمور، وطأطأ يحيى رأسه على ألم.

* طقس كي اللسان بالنار لإثبات الصدق.

* الرجل الذي يوقع عقاب البشعة.

صلى الرجال في ساحة الواحة صلاة الفجر على عجل، ثم اعتلوا مطاياهم، ووقفت ناقة نهام على بعد من ريا، التي رفعت فوق سنامها هودجاً صغيراً مسدل السجف، ضم شهاوي والجدة ونسوة أخريات، قاصدين المبعش في ديار بلي*.

تجمعوا حول المبعش البلوي بعيون فضولية؛ ملتهبي المشاعر، راجفي الأفتدة، بانتظار اختبار البشعة الرهيب الذي سيحدد مصير البنت شهاوي بين براءة أو عار أبدي.

وجف قلب الأب الذي طالب بالإجراء؛ ماذا لو أن احتمالاً ضئيلاً لثيماً ذهب بكرامته، وحوله إلى مسخ، وفضح ابنته؟ فكر سريعاً بإجراء دموي، لو بطش بالصبي واستراح! صرف ذلك الخاطر الشيطاني متعوذاً، متوسلاً إلى الله أن لا يفضحه بين أهله، بينما راهن نهام في سره على تورط البنت بعلاقة مشبوهة، فالهوى قد جرفها؛ ولا بد أن رغبات العاشقين تغلبت على الحرص والحذر، نجاته ستفضحها، وإلا فإن رضابه الغزير لن يخونه في منع آثار مرور النار السريع على لسانه.

وقفوا في ساحة مضارب بلي، ولم يتراجع نهام عن روايته أمام جمع المشاهدين، كرر صالح مطالبة بحقه في اختبار البشعة، سحب المبعش الذي ورث مهنته عن جده، قضيباً معدنياً من النار المتقدمة في الوسط، وأمسك رجلين بنهام يثبتانه، ضغطاً حكنه ليمد لسانه، وتفرج الحاضرون مقترين، وقد اعترت أطرافهم رجفة خفية، أعلنوا أن اللسان جاهز لإظهار الحق، وقال كبيرهم:

- /بشع.

مرر المبعش الحديد الساخن على زنديه العاريين ثلاثاً، مزهواً بجسد طاهر

* منطقة في سيناء.

بريء لا تمسه النار، ثم وازى بين القضيبي ورأس نهام الذي انحنى مستهيناً، ولكنه لحظة مد لسانه، علم إن الرضاب لن يسعفه وقد جففه خوف عميق، وإن النار طالت سطح لسانه وهم يرغمونه على لحس الحديد مرات ثلاث متعجلة، انتظر وقوع معجزة ترأف بحاله، تشتت لبه، وجحظت عيناه ودمعتا وهو يرفع رأسه يجوح من الألم، وزغردت الجدة والقوم ينظرون اللسان التي تركت فيها النار خطوطاً حمراً غائرة، وفاحت رائحة الشواء، سرعان ما بقبق اللسان في دوائر بيضاء متفخة، انهار نهام بين الرجلين عاجزاً عن إغلاق فكيه، وصاح الرجال :

- موعوف*.. موعوف.. والبنت بريئة.. بريئة طاهرة.

تواصلت زغاريد الجدة ودموع شهاوي وزعيقها المبهج، وبكى صالح متلقياً تهاني الرجال، لم يلتفت إلى ابن العم الذي أخذ يمزق ثوبه ويتوسل الغفران، وكلما سقي ماء ليترد، بصقه فاقداً قدرته على التحكم بحركات فيه.

قال المبعثع بعد انتهاء هرج الرجال وانخفاض إجهاش نهام:

- أجزتنا على الطرفين، وأمر الكذوب متروك للدواج.

اكتفى صالح براءة ابنته، ولم يجد في تاريخه ما يدفعه للانتقام من نهام، قال بتسامح وترفع كبيرين:

- لا نريد شيئاً منه، ليكننا شره ويفارقنا، يهج؛ فلا أرى وجهه في الديرة بعد اليوم أبداً.

عاقبه بالنفي في مجهول الصحراء بعيداً عن الواحة، ومهما تمرغ نهام في تراب ساحة المبعثع، فإن أحداً لم يلتفت إليه، وسمع الرجال العائدون بالهودج بشرى الدواج الذي أقسم على تزويج ابنته من الراعي الغريب نكابة بالكذوب قاذف

* محترق بلهجة بدو سينا.

المحصنات، وأطلق الجدل المغني صوته قوياً أجش واثقاً في حذاء طربت معه ريا،
ورافقته الجدة بدندنة خفيضة محتضنة رأس شهاوي السعيدة وراء سجدف
الهودج.

عاد الذين ارتحلوا للبعشة يحملون رقعاً قماشية بيضاء؛ معلنين نصر الدواج
وأهله، سمعوا صدى صوت المغني يعمر الفراغ:

- لا برقن إلا في حجا*مستهله..

ولا طريقي* إلا من وراه نجوع...

ولا ضحك إلا البكا مردفن له..

ولا شبعة إلا مقتنيها جوع...

ولا يبدن إلا يد الله فوقها...

ولا طائرات إلا وهن وقوع*..

وصل الحجاج المصريون أطراف التيه منهكين قاصدين قرية نخل البعيدة من
نخيلة، أكبر التجمعات البشرية في صحراء سيناء، عليهم يتفيئون لأيام في قلعتها
الخان قبل معاودة سيرهم صوب مكة، سار بهم يحيى مبتسماً ابتسامته الواثقة على
تواضع، والدواج يمهلهم متظاهراً بالاهمية ليظل صاحب الشأن:

- هل أنت أكيد من معرفة الطريق؟ لا يمكنني مرافقتك، علي تجهيز هودج
البنيت ويزرتها*.. إذا لم تكن أكيداً لا تذهب.. الدرب وعمر..

* عقول.

* صقر.

* من القصيد البدوي السيناوي.

* جهاز العرس.

همس يحيى:

- لا صعوبة في إيجاد القلعة.

قال الدواج في سره: هذا الذي لم يعرض شارباه بعد، ولا اشتد ساعده، يعرف الكثير.

أخرج من حزامه الجلدي سيفه القصير المحلى بالفضة، وناول له الأستاذ الذي تمنع أولاً، ثم استجاب للإلحاح:

- لا تشاطر، الطريق طويلة والبواقين* يقيمون في كهوفها، لا تقطع الفيافي أعزك دون سلاح، أعيرك العجمية*، فتردها وتجلب معها شباري* جديدة من سوق نخل، واحدة لي، وواحدة لك.

سارت البغال مثقلة بصرار الحجاج المحرمين وهم يغطون أجسادهم المكشوفة بفرواات الخراف، عبروا الدرب الوعر مجتازين جبال خشم الطرف، ووادي العرمين، على طريق الحج الشهير، إلى قلعة نخل الكبيرة.

تمايل الرجال يمنة ويسرة، وماد جسد يحيى تماماً، ولكن رأسه المغطى بالعمامة ظل ثابتاً، وعينه تحديقان في صفحة من كتاب العيون، يحاول تجاهل أسئلتهم عما يقرأ، ولكنه يضطر إلى شروح موجزة، إذ إنه بالكاد قادر على فك التباس المعاني.

«كل مكمل مدرك، يلتذ به المدرك، وهذا هو اللذة: وهو إدراك الملائم، والملائم هو الفاضل بالقياس إلى الشيء، كالحلو عند الذوق، والنور عند البصر،

* الحرامية.

* الخنجر.

* تعبير آخر يعني خناجر.

والغلبة عند الغضب، والرخاء عند الوهم، والذكر عند الحفظ، وهذه كلها ناقصة الإدراك، والنفس الناطقة فاضلة الإدراك، ومدرجات هذه نواقص الوجود، فإدراك النفس الناطقة للحق الأول، الذي هو المكمل لكل وجود، بل المبتدئ، وهو الذي هو الخير المحض، ألذ شيء، وإذا لم تلتذ أنفسنا بذلك، أو التذت لذة يسيرة، فذلك للشواغل البدنية التي هي كالأمرض، ولبعد المناسبة، لغرق النفس في الطبيعة، مثل المرضى الذين لا يلتذون بالحلو، أو يتأذون، وإذا زال العائق تمت اللذة بالحلو، وظهر التألم بالمر، وهذا أيضا كالخدر الذي لا يحس بألم ولا لذة، وكالذي به الجوع المسمى بوليموس، فإنه جائع ولا يحس بألم الجوع، فإذا زال العائق يشند به إحساسه، فكذلك فقد النفس الناطقة بملاحظة كماله من مؤلمات جوهره، لأن فقد كل قوة فعلها الخاص بها من المؤلمات إذا كانت تدرك».

التقط يحيى أنفاسه وهو يعاود القراءة باحثاً عن دلالات العبارات، ولوهلة، شعر بالحياء كونه لم يكن أهلاً لفهم كلمات كتبها فيلسوف قبل قرون، ما قيمة قرن ينقضي ولا يجعل العقل الذي يحبو يسير؟!

لا يتنبه يحيى من غيبته عما يحيط به إلا والرجال يسألون بإلحاح ما إذا كان دليلهم متأكداً من سلامة الدرب الذي اختاروه، ينظر كمن عشت الشمس عينيه، ثم يقول :

- نعم.. نسير في الدرب الصحيح.. أرى ظل القلعة أمامي.

لا يرى المرافقون الظل، فالقلعة أبعد من أن ينبجلي ظلها أمامهم، يتبعونه حتى انقضاء النهار، ويخطر بباله، أنه ذات عجيبة تقطع الدرب، ما هي إلا ظل، ولكن، أين الغيمة التي هو ظلها!

عندما عبروا قرية نخل العامرة بالعرائش والبيوت الطينية والأسواق، لاحت الهضبة العالية وأبراج القلعة الخمسة تتوجهها، فدبت الحماسة بين الحجاج،

وتناسوا تعبهم وعري أكتافهم، وهرعوا صوب القلعة التي أنشئت على ترييع واسع من الحجر المنحوت، ركضوا صعوداً وأقدامهم تغفر الرمل الناعم، وتبعهم يحيى على مهل وهو يقرأ عند البوابة الخشبية العريضة نحت وضع عند ترميم القلعة، حيث خط برسم رديء عبارة «مولانا السلطان مراد خان عز نصره».

استراح يحيى في فيء القلعة لساعات، فانجلت له فجأة لذة القراءة بالمعرفة، عندما يغمس كسرة خبزه في إدام الحرف؛ يصل إلى فاضل الإدراك، يمسك بالفكرة مثل فراشة، يداريها وهي تقترب من سراحه المتوهم، يقرأ في كتاب الله، ويستكين قبل انتهاء اقامته بالارتواء من بئر القلعة، وتأمل لوحة المملوك قنصوة الغوري بانيها، الذي صور راكباً حصانه على الجدار، سالكا طريق الحج.

هبط يحيى إلى نخل، فابتاع من سوقها شباري صالح، ولم ينس إحضار ما ألحت شهاوي في طلبه ووصفه، صرة من الخرز الملون الزاهي.

بدأت البنت في الاستعداد لزفافها، أخرجت الجدة ثوبين أسودين حالكين كانت قد خبأتها من مقتنيات الدواج التي جاء بها من دمشق، وجلست النسوة يطرزن حواشي الثوب باللون الأحمر، معلنات انتقال صاحبتة من طفولة الأزرق الذي يطرز ثياب العذراى، إلى فحش الأحمر الذي يعلن صراحة بدء قطف فاكهة الجسد، وشمّن بالإبر والأحبار شفتها السفلى بسيالة قطعها نصفين، ونقطن فكها بست نقاط تقابل ثلاثاً، وزين كفيتها ومعصميتها إلى الكوعين بخطوط وأزهار وأطيّار، ثم أعددن كشكاشة* تنتهي إلى امتداد ترفده العروس خلفها مشنشل بالعملة الفضية، نقبن وجهها ببرقع محلى بالقطع النقدية الصغيرة، فتوارى بروز فكيتها وانكشاف أسنانها في حين برز سحر عينيها.

* جدائل شعر من الصوف.

لبست شهاوي أشنافاً* فضية فاخرة في ثقب أنفها، معلنة تميزها كابنة وحيدة لدواج غمر الديرة بالحلي، وافترشت صدرها قلادة كهрман فاخرة ممزوجة بحجارة المرجان، يتدلى منها قرص فضي وأشكال هلالية، وقطع معدنية لنقود تشي بالثراء.

جدلت العروس صفائرها بشماريخ* عقدتها بالخرز الملون، وغطت رأسها بالخرجة، فاحتجبت وهي تعتلي هودجها الصغير المزين المرفوع فوق سنام ريا، ودخلت خيمة البرزة* التي أفردت للعريس وسط تكبير وتهليل الرجال وزغاريد النسوة، علا صوت الأهازيج:

- يا بنت ياللي هاله باللثام، يلي تخطي ع الحنك حبر ووشام..

ياللي تقولوا وصفنا مطر شاتى.. حب البرد بيض الثنايا ولو قام...

مسهي برمش العين رقد الحمام.. وتقول موجوعاً على نعاس لونا م*.

غمر أهالي نخيلة برزة العروسين بالهدايا والنقود، قدروا غربة مقبل، وما لحقه من إذلال باتهامه؛ فأكرموه، وذبحوا الأغنام، وأولموا الحمأ وعدساً كثيراً يشترى به رضا الدواج، واصطفوا للسامر نسوة ورجالاً متقابلين يغنون مصفيين، والبداع يقف بينهم، يسلمهم بيت القصيد، فيردون وراءه مبتهجين:

- نزرع رزايح من قلبي وأنا قاعد... تكله كرامات للي لابس الجاعد... يا ريح

سلم كثر ماهيت... وأكثر سلامي على قاعدة في البيت*.

* أقرط للأنف.

* خيطان.

* خيمة العرس.

* من أغاني العرس السيناوية.

* من أغاني العرس السيناوية.

- فإذا ما طلع نجم الصباح على القوم المحتفلين حملوا العروسين على ربا التي قادتهما إلى خلاء بعيد، فلا تلمحهما عين لعشرة أيام متوالية، وحتى يوافيهما يحيى ويعيدهما إلى سكنهما الجديد الذي أعد من جريد النخل إلى جوار عريش الدواج، عادا رجلاً وامراً توهجت وجناتهما، فقد صارا زوجين حليين.

يوم أولم صالح لابنته وزوجها خروف الزرب*، أخرج غرضاً ملتغاً في قماش خيشي، وضع حرزه في كف شهاوي قائلاً:
- هذا كنز ثمين، احرصي عليه يا بنت.

هوى قلب مقبل وهي تفتح الحرز، والتمتع المشخص على وجهي الملك قسطنطين وأمه الملكة هيلانة، تذكر الراعي رحلة الفرار، وغابات الكرك، ومزارع الكرمة، وبساتين الفاكهة، وعيني مريم الباكتين؛ تدلى رأسه على حزن صامتاً. ظل أمر انتقال حيازة المشخص إلى العروس سراً لا يبوح به مقبل لصاحبه خشية نبش جرح التأم، فقد بدا يحيى متحمساً للمرة الأولى منذ أن قدما الواحة الصحراوية، صار يعتمر عمامة بدو سيناء وسروالاً واسعاً، وقميصاً خفيفاً مفتوح الصدر بقبة مستديرة، وإذا ما برد ليل الصحراء أسدل فوقهما قفطاناً فضفاضاً، واستكمل بهزام جلدي وشبرية إذا ما غادر نخيلة صوب القلعة أو الدير مصطحباً المسافرين والمارة، وقد تخفف الفتى الذي كان أستاذاً من الانفراد بكتبه وأوراقه الغامضة.

- نسيت أنك أستاذ؟ يا أستاذ!

* طريقة لشي الخراف بدفنها في رمضاء حارة.

لم يزعج السؤال الأستاذ، لكنه تريث كعادته مقعياً أرضاً، وكفه تقبض كمشاً رملياً، متمم بهدوء:

- فوق الرمل كلنا تلاميذ، أحب ذلك، أقصى ما يتمنى المرء أن يظل تلميذاً.
- تلميذ بلا أستاذ!!

رفع يحيى ناظريه ورأسه تنحني، فتح كفه فانسكب الرمل من بين أنامله مثل شلالات ذهبية صغيرة، وهمس:

- كل ما يحيط بي من عالم ظاهر وباطن، أستاذ.

لا يوغل مقبل في أحاديث لا تتوافق وفهمه، يفضل الانصراف إلى شهاوي، والتمتع بضحكتها البلهاء وهو يدغدغها فوق فراش الشيخ، أو السير في محاذاة الإبل مستعرضاً قدراته في نفخ الناي وإطراب الرعاة، أو الجري وراء الأغنام الكبيرة، تاركاً لها تعقب الأغنام الصغيرة الشاردة، مستمعاً لصدى صوتيهما يتناديان بين الجبال.

يلف يحيى وجهه وهو يقود جمع الرهبان صوب الدير في طور سيناء، متفادياً ضربات الرياح المحملة بذرات الرمل، يفك عمامته إذا انحسر العجاج، ويتركها تتدلى وراء رأسه، ويغذ السير، وقد تبين له أنهم يقتربون.

ينحني الدرب عند وصول وادي الراحة، وتشرق القافلة وهم يدخلون الوعر، يلمحون السور الطويل المحيط بدير القديسة كاترين، فيترجل الرهبان خاشعين، يسجدون فوق الصخر المسنن ويطلقون، ثم يواصلون الرحلة، بعضهم يختار مواصلتها راجلاً، فتبطئ الدواب سعيها بانتظار حجاج المسير الشاق، يستمع يحيى بانتباه مخلوع اللب إلى تمتمة الرهبان يقتربون وقد لاحت مباني الكنائس الأربعة التي تقبع وراء السور مرتفعة في طوابق عالية، في حين ألمت الأبراج بمجموع الحجارة البركانية السوداء التي كونت الدير الكبير في منعزل تحيط به

خضرة مفاجئة، يدخل يحيى مع الداخلين، ويقطع الممرات المتعرجة التي تصل الكنائس ببعضها وتشكل منها وحدة واحدة، فمن كنيسة العذراء العتيقة، إلى كنيسة التجلي المبنية على طريقة البازيلكا، إلى العليقة الصغيرة، يتمهل في ممر الأعمدة التي تمثل اثني عشر شهراً متأملاً في الهياكل المقامة على أطرافها.

عندما ينهمك الرهبان في طقوس اللقاء والاستقبال يسهون عن الدليل الذي يجوس المكان متأملاً حدائقه الغناء، يترك الرهبان الدليل يتحرك بينهم ولا يفوه بكلمة، يوجزون عند لقاءه متمشياً بين أجسام الشجر المثمرة سداً وبلحاً وبرتقلاً، أو متفحصاً لما يملكون من صوامع الغلال ومعاصر الزيت وكورات الزبيب، أو متأملاً عند بئر العليقة شجرة موسى التي تنشر أوراقها الخضر في كل المواسم، يشاركون الرجل طعامهم القليل خبزاً وماءً، مؤكدين حرمة أطعمة البدن من لحم وبيض ونيذ، متغاضين عن دخوله مسجد المسلمين الصغير المنزوي عند أطراف الدير، يجلس لساعات قرب المنبر المنقوش باسم الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله، يقرأ قرآنه، ثم يعود إليهم باسمًا.

لا يغادر يحيى نعيم الخضرة والسكينة قبل مشاهدته شعائر صلاتهم، ينظرهم يرتدون ثيابهم الكاشفة عن الصدور والمشدودة بأربطة صوفية تتقاطع صلباناً فوق أجسادهم، يمضون حفاة عدا قلة ترتدي الصنادل وتخلعها عند باب ضيق خفيض، يثنون أجسادهم ويطأطئون رؤوسهم دالين صندوقاً يتدلى بهم، تكرر روافعه وبكراته تصر، يهبط يحيى معهم فضولاً ولا يعترضون، وهم ماضون في تمتمة صلواتهم بأعين مغمضة، فإذا ما وصلوا إلى بهو الكنيسة، خطف لبه بهاء القبة الفسيفسائية؛ حيث السيد المسيح

يتوسط العذراء وموسى، وقد استلقى بطرس أرضاً، ثم بتحول طفيف للوحة الملونة، يركع موسى عند الشجرة، ويقوم فوق المشهد المهيب كله تابوت الملكة كاترين ضاماً رفاتهما، وبحروف مائلة حُط بالعربية عبارة «لستقم صلاتي كالبخور أمامك، وليكن رفع يدي كذبيحة مسائية».

يتقدم الرهبان خاشعين؛ يتبعهم مسحوراً، ورائحة البخور تعبى صدره ويُعشي دخانها ناظريه، يلمح الكاهن الأكبر ملتفاً بقطفانه، مثقلاً بصليبه الخشبي المتدلي حتى وسط جسده فارغ الطول، مؤرجحاً مجمرته حول القبة الفسيفسائية مردداً بخشوع مموسق متقطع:

- «يا أيها الطويل الأناة، الكثير الرحمة، الحقيقي، اقبل سؤالاتنا وابتهاالاتنا منا، اقبل توبتنا واعترافنا على مذبحك المقدس غير الدنس السماوي، فلنستحق سماع أناجيلك المقدسة، ونحفظ وصاياك وأوامرك، ونشمر فيها بمائة وستين وثلاثين، بالمسيح يسوع ربنا، اذكر يا رب مرضى شعبك، افتقدهم بالمراحم والرأفات، اشفهم يا رب، آباؤنا وإخوتنا المسافرين، ردهم إلى أوطانهم بسلام وعافية، اذكر يا رب أهوية السماء، وثمرات الأرض، باركها، يا الله الذي من أجل محبته للبشر التي لا ينطق بها، أرسلت ابنك إلى العالم ليرد إليه الخروف الضال، نسألك يا سيدي لا تردنا إلى خلف، محوّاً لخطايانا، وغفراناً لتكاسلنا، ومجداً وإكراماً لا سملك القدوس، أيها الأب والابن والروح القدس، الآن، وكل أوان، وإلى دهر الدهور، آمين»*.

ترتج أطراف المكان بترداد آمين...

* القداس الإلهي للصلاة القبطية.

يُنتهي الكاهن من رسم صليبه بالماء المقدس فوق جباه الرهبان الخاشعين الباكين، وتختلط الألسنة بصلوات سريرية وحروف لاتينية، يتقدم الكاهن صوب يحيى مرحباً، ويغيب الرجلان معاً وراء باب المكتبة الخشبي الذي حُفر في أعلاه اسم «يوستينانوس» وأرقام باهتة بدت كأنها «خمسمائة وسبعة وعشرون» بعد الميلاد.

يسمح الكاهن للفتى القارئ بتقليب بعض المخطوطات، ويمنع عنه أكثرها، بأنامل ترتجف وفؤاد ينبض، يتوه يحيى بين مئات الأناجيل التي خطت على ورق البردي بماء الذهب، وعشرات الكتب التي لفت بعناية كالموايد على أرفف الحجر، وتحلت بحروف سريانية وعربية على تشكيلات متنوعة، وأرمنية دقيقة التفصيل، وقبطية مزركشة برسوم الأيقونات والمرسلين والملائكة.

يلمس يحيى فرمان الراشدين وجلاً، ويقرأ حروفاً غير منقوطة:

- «إلى رهبان المسيحيين عامة.. لا نغير أسقفنا من أساقفته ولا راهباً من رهبانه، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم ويبيعهم، ولا يدخل من مال كنائسهم في بناء مسجد، وأن تحفظ ذمتهم ويبيعهم أينما كانوا، من بر وبحر في المشرق والمغرب، وفي الشمال والجنوب، وهم في ذمتنا وميثاقنا وأمانتنا من كل مكروه».

يمور صدره نشوة ودهشة وتشككاً، وهو يرى فرمان مذيلاً بأسماء الراشدين والصحابة تباعاً: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسواهم ممن انمحت حروف أسمائهم، وتآكلت عند ثنيات الكتاب العتيق.

يهمس الكاهن في سمع يحيى :

- أرى النور حولك يا بني، ولأنك قطعت فراسخ مشاها موسى ثم المسيح في رحلة العائلة المقدسة، ولأن لك قلباً يرتعش، أدخلتك إلى مكتبتنا، قلب الأسرار، عل نعمته تتم، لا تبج بما رأيت أو قرأت لجهول غافل القلب، وأمض سعيداً.

يمضي يحيى سعيداً قلقاً منهكاً؛ كأنما يصعد الجبلجلة، يعتزل في صحراء التيه، فإذا ما انقضت أيام، تنبه إلى طول غيابه عن المضارب؛ ترك الدير وراءه مخترقاً قبو الممر الأوسط حيث فتحات مائلة تضيء المذبح، وتمثل الشمس وأشعتها، والقمر في تريعه الأول. يغادر الدير مثقلاً بما رأى، وما فهم، وما لم يفهم، متخففاً مثل طير يجرب خفق الجناحين.



أمحلت الواحة، وتطوح الجريد في أعالي النخيلات الصغيرة في الفضاء الرحب، وعفر الرمل وجه الأرض؛ كأن ريحاً تهب منخفضة في محاذاة الأقدام وبالكاد تصيب الرؤوس، تشققت الأرض في أخاديد جافة، وقد بلغت الحرارة مبلغاً دفع الرجال إلى تعرية أجسادهم واتقاء الشمس في ظلال عرائشهم، بكى الرضع طوال النهار، وامتنعت الخراف وقطعان الماعز عن المسير إلى مرعى لا خضرة فيه، توحشت الصحراء، وأقررت على أنبائها، وانجس المطر. لام الدواج نفسه إذ استرخى مطولاً لليباب الرملي دون أن يزود بيته وأهله ببعض ما يأتي به الترحال والتجارة، عد عامين منذ آخر مرة دخل فيها الديار بالمسافرين الغريين، فهاله انقضاء الزمان؛ شعر بشبابه يولى وجسده يركن إلى شيخوخة لا يحبها، ولا تحبه، عاهد نفسه إذا ما هطل المطر على صعود أرض مصر، وتطلع إلى السماء مناجياً ربه:

- يا الله... أجر عبادك والطف بهم..

لم تعد شهواي تغفو، يفزعها صوت الريح وعواء الجوع الذي تجأر به بنات
آوى خلف التلال المحيطة، وهي تتناهش مع كلاب الحي الموهنة.
فإذا كان نهار مغبر شديد الحرارة، تجمع الناس في ساحة الواحة الجائعة، ودار
بينهم دراويش يحملون رايات خضرًا وسودًا وحمراء، ضربوا بصاجاتهم وترنموا
بذكر النبي الأمين، وداروا مرات ومرات حول الدور والشجر مهملين:

- الله.. الله.. الله..

وردد الرجال وهم يتمايلون:

- هو.. هو.. هو.. هو.. هو..

هلل الجمع الباكي:

- لا إله إلا هو..

ثلاثة أيام والمريدون والمتصوفون يدوخون في دورات لا تسقي عطشًا، ولا
تشبع جوعًا، والكلاب تطرد بنات آوى الجائعات، والرضع يصيحون وحلمات
النسوة تجف، والأطفال يتجمعون منشدين حاملين أطراف الجريد المصفرة
الذاوية:

- سيّد هاشم نسترجيك.. رشق المطر يرقع فيك.. يا الله المطر. يا الله

السيل.. استقي زرعك هالعطشان... حط القمح في الجرّة.. واستنّي رحمة
الله.. حط شعيرك في بيرك.. واستنّي.. الله يجيرك*.

بكت النساء، وصلى الرجال لربهم عليه يسقيهم، باتوا في العراء أيامًا قبل أن
يلمحو ضبابًا أسود بعيداً يتقدم؛ فإذا به غيمة توقفت فوق شجرهم وبيوتهم، ثم

* من أغاني الاطفال في الاستسقاء في سيناء.

هطلت، رقصوا معتوهين، ودار المتصوفون بلا انقطاع حول أجسادهم تحت المطر، وإن تعثرت أقدامهم لاضطراب شقوق الأرض الجافة وهي تبتل وتستوي سادة فجواتها، شبت النسوة نيران التبن الممزوج بالروث، مستبقيات الحطب لما تخبئه الأيام، طبخن على نار التبن عدسًا مخبوصًا بالعسل، وخبزن فطائر وزعنها بكرم.

أعقبت الأفراح موسم المطر، واجتاحت البهجة النفوس، وعادت بالحياة إلى إيقاعها الهني، تلك السكينة لم تستمر.

أعلن الدواج أن أوان يقظته من بياته الطويل قد حل، وأنه ميمم هذا العام صوب مصر، تعرف الأم العجوز أن لا جدوى من بكائها وعويلها، فكم من ليلة تذكرت مهنة ولدها، وتعجبت لطول إقامته، وتمنت لو أنه شاخ وأصابه نصب أو عطب فاكتفى من الرحيل، واستكان مقيمًا إلى جوارها! لكنها في أعماقها تدرك هوس الترحال والتجارة الذي مسه منذ يفاعته، وحاجة البيت إلى رزق يأتي به من سفره، بكّت شهاوي ولطمت خدها، أنبتها العجوز بلهجة حادة ساخرة تبطن غيظًا:

- يا بيت.. علامك تشلخي خدودك! هذي الأعمار.. امقدّرة.. واللي يموت.. خلّه يموت.. خلّه يزور المقبرة...

تعرف البنت التي تكور بطنها أن جدتها لا تعني ما تقول، وأنها تزهو برباطة جأش مصطنعة، تفلت منها وهي تحلب الناقة بعيداً عن الأعين فتبكي وتجوح، مخمّنة أنها قد لا ترى أباهَا بعد سفره هذا أبداً، لكن المفاوضات التي دارت بعد ذلك حول المرافقين لوالدها أرعبتها، فيحيى قرر مرافقته بحثاً عن عالم جديد كما يقول، ومقبل متردد لا يبغى فراق صاحبه.

شدت البنت ذراع زوجها وصاحت:

- لا تذهب معه.. لا تتركني أبداً، هو جوزك، وإلا أنا حليتك!! لا تذوقني
مر عد الأيام، وتميتني بالانتظار.. يكفي غياب أبوي.
ربت مقبل كتفها مواسياً وقال:
- ماشي اللي يحبك ولو ذقت معه المر.
زعقت شهاوي صيححتها المعهودة، ونفضت كفه عن كتفها بغضبة مفاجئة:
- يحبك وتحبه! وأنا عنز ريتها تموت! لو تروح معه، أشرب القيصوم
والقرفة، وأرمي حالي من فوق الطور، وأسقط وليدك من حشاي،
وأحسبك ما جيت، وأرد لابن عمي مناكدة بيك.
- علم مقبل لحظتها أنه سيظل راعياً إلى الأبد في مضارب واحة نخيلة السيناوية،
وأن دربيهما هو ورفيقه افترقتا، ولا مكان لالتقاء، لكنه ساومها في خضم غضبتها
عن المشخص، فأحضرته غير عابئة بقيمته المالية، دسه خلسة بين حوائج الأستاذ
مرجعاً حق مريم لشقيقها، وانطلق الدواج في رحلته الجديدة متنسماً رحيق جنات
المحروسة، مردفًا يحيى وراءه، وقد ظن لوهلة أنه على بعد قريب، سيتشوق ريح
الفردوس.

الفصل الثالث

المحرسة

1001 - 1008 هجرية / 1593 - 1600 ميلادية

«وحدى، غريب، قطرة ماء على حجر، تتبدد والضوء يغتال ظله».

عبارة كتبها يحيى في قرطاسه بأول ريشة اقتناها من سوق الفسطاط العامر.

استعجله الدواج مستاءً من تسكعه الغريب في أسواق الفسطاط وتلفته مندهشاً وجموع العسكر بسيوفهم وبنادقهم يدفعون الناس دفع النعاج، استعجله مؤكداً أن أسواق القاهرة المعز ستال استحسانه دون تلك، وتبعث على دهشته أكثر؛ ألح في لزوم وصولهما إلى الجيزة قبل غياب الشمس؛ للقاء الهواري الذي تودع لديه الأنعام قبل دخول المدينة.

تحدث الدواج عن أسماء يعرفها؛ مفترضاً علم يحيى بها، أفرط يصف علاقته القديمة بالهواري ودهاء الرجل وقدرته وفنونه، وحسن ادارته للتجارة، وعلمه بطب الأنعام والبهاائم، وأمانته في التعامل، وبياض شليله، وحسن معشره وظرفه.

قطعت ريا براكبيها الطريق الصحراوي، والرمال الناعمة تسف وجهيهما وهما يدخلان الغيمات الرمادية المملخة بالارجوان الباهت كآخر مخلفات الخماسين، عاودت يحيى ذكريات هروبه من جلعول، ومرافقته الدواج إلى سيناء، فقبض قلبه، وإن يمم وجهه حيثما ذهبت ريا.

توقفا عند سفح الهرم الأوسط، واندفع الدواج في عناق ودي طويل مع رجل بدوي ضخم الجثة بشوش، حينها أخرج يحيى قرطاسه وريشته، ورسم عبارته الموجزة بخط الثلث في منتصف الرقعة، ثم دس مخطوطه في عب جلبابه الواسع

المشدود بحزام الجلد، كانوا يقفون في منتصف التسابع الثلاثي لاهرامات قامت على قاعدة مضلعة باستواء مربع، وارتفعت فضاءً في تثليث أنيق سامق، وتدرجت أحجامها من الكبير، للأوسط، للأصغر.

غطست الشمس خلف الهياكل الضخمة الثلاثة؛ عاكسة ظلالاً عملاقة في عرض الرمل الأصفر الممتد على طول النظر، والمختلط بتربة بنية، مشى يحيى ساعياً بين الهرمين، الكبير والصغير، مقتفياً الظلال الملونة كأنها مرآة المغيب، ناظراً لشامخ الاهرامات، فراعته ارتفاعها واصطفافها الهندسي الدقيق، ثم ذلك المجسم لوجه حجري ضخّم صارم، يتأمل الحياة ويشهد عليها، وقد طمست الرمال جسده بالكامل.

أودع الدواج ريا في عهدة حظيرة البدوي ريشما ينتهي من تبضعه في مصر المحروسة، تجاذب والهواري الذراعين، المسافر يصير على اتمام رحلته ليصل إلى القاهرة المعز ليلاً، بينما البدوي الوحيد المستوحش، الخبير بالمكان، يلح في ضيافته؛ طامعاً بالأنيس، قائلاً:

– ترفض تضيف في مضارب الفرعون!! ستلحقك لعنتهم...

بات ثلاثتهم على صخر رطب في قلب الهرم، انحنوا عابرين بوابته المواجهة للغرب، وانحدروا في ممر خفيض يهبط إلى حجرة واسعة معتمة باردة، أشعلوا حطباً لونت ناره الجدران الملساء بخطوط متقاطعة وأشكال تعيد تمثيل الحياة، لم يشعر يحيى بضيق أو حرج، والبدوي الهواري يتأمل تراقص أنوار النار على الجدار، ثم يلتفت إلى الدواج ويسأل:

– الولد! ولدك؟ أول مرة يطيح مصر؟

لم ينتظر الهواري سماع الجواب، فهم النفي في عيني الدواج، فأ تبع سؤاله بأخر

محدد:

- يعني، من سينأ؟

أجاب الدواج:

- لا.. لا.. من الكرك.. هذا يحيى الكركي.

سيان لديه إن كان الفتى الأسمر المليح الذي يرافق الدواج ابنه أو عامله، من سينأ أو الكرك؛ فالحيرة والفضول في عينيه تغريان الهواري بلعب الدور الذي يحب، محتكراً المساء، متحدثاً عن المكان.

حكى عن أرواح ينفلت عقالها منذ بدء الخليقة عند كل مطلع نور؛ تهيم في السماوات القريبة مقتفية شعاع الشمس، ثم ترد إلى أجسادها مساءً بانتظار البعث الكبير.

قال الهواري:

- في الأوض السرية لكل هرم، رسومات للحياة والموت، وما بينهما، البرزخ، وما يليه ويكون بعده، كأنهم يخطون على الحجر حكايتهم.

تمدد الهواري متوسداً ذراعيه تتقاطعان تحت رأسه، حلق في النقوش المحيطة بهما على حجر الحجر، وقال كأنما يكلم نفسه:

- هذه كتابة قبطية، أو فرعونية، ربك العليم، ظني أنها كتبت هنا من قبل ما ننخلق، كلنا، يعني قبل البشر، والله أعلم، البشر ما يعرفون قراءة حروفها، والله أنا أقول دائماً، إن بناء الأهرام خلق هبطوا من السماء، ها!! خبروني من ينقل كل هذه الصخور والموازين إذا لم يكن مخلوقاً خارقاً!! ليسوا كالجن أجارنا الله، ولكن أنصاف الآلهة، أجارنا الله وعافانا، يقولون، الذي يبحث عن أسرارهم يصاب بلعنتهم لولد الولد، مالك يا ولد تفتح عينيك مبجلقاً؟ أنا لا أكذب، أحذرك؛ لا يخطر ببالك دخول أوضاعهم السرية، فاللصوص الذين اجتازوا هذه الممرات، وشاهدوا الصور الجميلة،

وأخذوا الذهب؛ لم يتمتعوا به، أصيبوا بغضب كبير، انتهوا نهايات غامضة؛ منهم من عمى الله عيونه، ومنهم من قتل أو غرق أو حرق، نهايات لا يمكن وصفها، لذلك لا تطمع يا فتى بأجوبة عن أسئلة عينيك، امض طالباً رضا وجه تمثال الهول، رأيته؟ ذاك الوجه الحجري الساكت الذي يواجه في موقعه برج الأسد في السماء، يقولون إن له تحت الرمال جسد سبع عظيم، أقول لكم، لا أحد يعرف القوم العظام الذين بنوا هذه العجائب، ولا أظنهم رفعوا الصخر أو نقلوه بالسفن على سطح بحر النيل، مثلما يفعل البشر، لكنهم، والله أعلم، صنعوا صخراً خاصاً، ابتدعوه بعلومهم العجيبة، صبه في مكانه، فكان، هذا الصحيح، ليس كثيراً على بشر لفوا رمم أجدادهم بالكتان لتعيش أزماناً وأزماناً على حالها، مومياءات جاهزة، وربك العليم، ليوم الدين، هؤلاء صدقوني صنعوا الصخر.. ويقولون: إنهم كانوا منذ زمن بعيد، قبل أن يأخذ الطوفان المؤمنين في سفينة نوح، لكن بني آدم تحاسدوا وتحاربوا، وغلب نسل قابيل، فجمع الجبار نفرأوس بن مصرأويم أكثر من تسعين جباراً، وساحوا في الأرض، ولما شافوا النيل قالوا: هنا بلد زرع وعمار.

وسكنوا، وبنوا البنيان وشقوا الجبال وطلعوا الرصاص والحديد، وهندسوا النيل اللي كان بحر فارس ع السهل، حفروا وسيره كيف الحية، ولما حضر أجل أييهم مصر، قال:

- أحفروا في الأرض، ومدوا المرمم الأبيض، وادفوني فيه مع الذهب والجوهر، واكتبوا على الحجر أسماء الله المانعة اللي تصد الفضوليين والسراق، مات مصرأويم، ومثل ما حب، دفنوه بين جبلين مع ذهب

وياقوت، وخير كثير ولا مال قارون، ومن يومها سمت الناس البلد مصر،
وراحوا يدورون على الكنوز بين كل جبلين متقابلين.

غفى ثلاثهم على الصخر الرطب، استرخى يحيى على رجع الحكايات
الخرافية المدهشة التي سامرهم بها الهواري، رغم شخير الرجلين، وانقطاع الهواء
النقي، وتلامع خطوط الذهب في رماح جند فرعون على الجدار المعتم، وشعور
مفجع بالوحدة، وافاه النوم؛ فحلم.

رأى نفسه على ظهر سفينة فرداً، يبحر في امتداد رملي، والفضاء حوله يتقلب
أرجوانياً وأزرق في سواد حالك، تتنازع بصره وبصيرته أسياف النور وأعمدة
الظلمة، وتطوح ذراعيه مثل شراعين لا يقلعان، أو جناحين زغبين لا يطيران.

صباحاً، ترك الرفيقان الجيزة وعبرا طريق معبد الوادي مرافقين لطيور البلبول
والقبطي، ترفرف الطيور بكثافة على امتداد قنوات العيون التي تنتظم الوادي
ويتدفق ماؤها مصدراً خريراً متواصلاً، وقفت طيور الكركي متجاورة على طول
القناة غير فرعة من الهرج حولها، شرب المسافران الماء النقي، وغسلا وجهيهما
مستريحين من عرق التعب والسفر الطويل المضني، بدّل يحيى قميصه الذي اهترأ
لضرب الريح واتسخ بالرممل والعرق، بآخر خاطته شهاوي، ارتطمت كفه
بالمشخص تحت الخرق القليلة التي يحملها، نظر القطعة المستديرة الذهبية،
وتمعن في ملامح العذراء الحانية، لسبب لا يعرفه، قبّل وجه البتول قبلات ثلاث،
ثم ربط المشخص بأحكام إلى حزامه الجلدي، وابتسم لصاحبه، شاعراً برابط
متين يشده إلى الدواج، معتقداً أنه أعاد له المشخص على هذه الصورة السرية؛
دلالة اعتذار عميق عن مطاعم الدنيا.

سارا مخلوعي اللب كأن على رأسيهما الطير.

دخلا القاهرة المعز من باب الفتوح، وسور المدينة يموج بالناس والعسكر، فالمماليك الذين يحكمون إقليم مصر العثماني، صيروا البلاد ساحة للعراك والفوضى، وقطع عسكرهم السباهية* دروب المارة يفتشون بين زكائبهم عما يغمنونه، سار الرجال مندوهين مع الجموع السائرة ذهاباً وإياباً بين البرجين المستديرين اللذين يتوسطان المدخل، عبرا من تحت السور ينظران إلى الطريقين المترافيين عمودياً من فوق ومن تحت السور اتصالاً بباب النصر، وانفتح أمام ناظرهما عالم ساحر مقلق تبلبل فيه ألسنة الناس وتختلط رطانتهم، فالمماليك لا يتقنون اللغة العربية، لكن المصريين يتظاهرون باستهبال ذكي بأنهم لا يفقهون ما يقال بغير العربية، فيدفعون جند السباهية من ترك وابتغاوية وأرناؤوط وبرابرة وتركمان وكرد إلى التصايح بها في عبارات أشبه بالنقيق.

كان الدواج عارفاً بطريقه، يتلفت كل هنية إلى صاحبه كأنما يخاف فقده وهما يجوسان بين البشر والعمران والبهائم محاطين بالصيحات والنداءات، متعرضين للدفع والإبعاد، أو إفساح الطريق كيفما اتفق، وجد صالح الدواج نفسه مضطراً مرات لتصويب درب صاحبه، وشد ذراعه كما لو كان طفلاً غراً يمكن ضياعه في هذا الهرج المخيف التي تزعق فيه أصوات وروائح متباينة، اشتدت الروائح وهما يجتازان سوق البزورية، وعندما هبط المساء لم يستطيع يحيى التخلص من الرائحة النفاذة التي اخترقت رأسه لمئات التوابل المتللة في السوق، ظن في زمن مضى أنه يعرف تلك الروائح، وينادى الأعشاب بأسمائها كما علمته مريم؛ لكنه في سوق القاهرة وقع صريع الامتزاج القاسي والروائح الحادة، عطس مطولاً، وكح، شاعراً بصدره يفتح ويتشقق متسعاً، أو يضيق حتى الاختناق، لم

* عسكر المماليك الأعيان الذين يخدمون مصالح السلطان.

يتمكن من تحديد حالته ولا مشاعره، لكنه وقد ذكرته الروائح بعطارة شقيقته وأدويتها ولفائفها وأحرازها الصغيرة؛ أغمض عينيه، وتمنى لقاءها في هذا العالم العاصف المدهش المخيف، وانساحت أمنيته شوقاً وتحناً، فيما كان الدواج يتكفل بتسديد أجر اقامتهما في الربع*.

نام ليلته مهذود الجسد مترaxي الأوصال متوتر الفؤاد على حشية صوفية قاسية متلبدة، والتقط فجراً شخير الدواج ثم ترتيل صوت الأذان بايقاع وترنيم عذب لم يسمع مثل حلاوته مسبقاً، عاوده الشجن مع انسياح الصوت العذب الندي.. حي على الصلاة، حي على الفلاح، فرك جفنيه مضطرباً يحاول الإفاقة، وأخفى دمعاً يوشك أن ينهمر.

لم يكن يحيى أول من استيقظ من سكان الربع، من موقعه في الحجرة الطينية التي حظيت بنافذة عالية صغيرة مضلعة، وباب منخفض مفتوح على الربع السكني المقام على هيئة دائرية حول شجيرة دفلي تتوسط الفناء، لمح الجهة المقابلة للمكان، رأى الحجرات المقامة فوق بعضها البعض، والأدراج الملتفة التي تقضي إلى أبوابها، وسمع صوت رفع جرار، واندلاق ماء على تراب، ونهيق حمار لا يراه، وتمتمات خاشعة، ومكاغة رضيع، وما يشبه المشادة بين ذكر وأنثى، قدر أن عليه السير نحو وسط الفناء ليبلل وجهه ببعض الماء من جرة ركنت إلى جذع شجيرة الدفلى المورقة، التي تفتحت أزهارها مزيجاً من أبيض مموه وأحمرار باهت، أصغى السمع، ومع انقضاء الأذان، لف المكان صمت مريب، فخرج متلفتاً ظاناً بأن قاطني الحجرات المتراصة نيام، لكنه عندما رش الماء في وجهه مرتين متحسناً لحيته التي طالت حتى منتصف صدره، وجديلتيه المعفرتين بطين

* مجمع سكني.

وتراب السفر، قدر حاجته لحمام يغسل روحه وجسده معاً، شعر فجأة بمرور أحدهم وراءه، استدار، فشهد شاباً أسمر يربط قرباً جلدية بحزام عريض موازنًا بين القريتين على كتفيه بمهارة، مرتدياً سروالاً قصيراً يبرز عضلتين تحت ثوب قطني بالٍ تعلوهما صديرية مفتوحة على صدر عريض أمرد، وقد وضع فوق رأسه الحليقة قبعة صغيرة مستديرة، قدر أنه في مقتبل العمر، مر الشاب دون أن ينظره، خاطبه وهو يعبر:

- مرحب يا جار... أخوك السقا.

خرج السقاء يتأرجح بحمل اعتاد ثقله، واستفاق الربيع تباعاً، فصارت مكاغة الرضيع بكاءً، وتجدد صراخ الرجل والمرأة وخصامهما، ونهق الحمار، وصاح الديك، وانبعث عواء كلب في الجوار، ونداءات لها أصداء مختلفة قادمة من وراء سور الربيع، ثم رأى صاحبه الدواج أشعث الرأس عارياً إلا من سروال داخلي طويل، يقف عند باب الحجرة الطينية ضاحكاً:

- استفتت مع الديك! عظيم، مصر تحب الخفية.

ركض جمع من الصغار ذكوراً وإناثاً بجلاليب قصيرة حفاة حول الشجرة، وأمسك أحدهم بآخر يتنازعان القلة الفخارية الصغيرة المكونة قرب الزير، تبعهم امرأة صارخة توبخهم، ثم التفتت بود نحو الرجلين الغريبيين بالفناء، ردت كشة شعرها ودستها تحت غطاء الرأس، معتذرة عن الإزعاج الصباحي، مرحبة، مواصلة التقاط الصغار من معاصمهم وياقات أثوابهم كقطط شريفة، دفعت بحزم بتين إلى الحجرة التي غادرها السقا صارخة:

- حوشي النبات يا هبلّة.

بقسوة، دفعت بتناً وثلاثة صبية نحو حجرة منزوية مصدرة تعليماتها ممزوجة بالتهديد إذا ما خرجوا قبل الإفطار، لحقت بهم توصلد الباب، لكنها قبل أن تغيب

وراءهم تمامًا، مدت رأسها ضاحكة للجارين، مشيرة إلى أنها ستعد لهما بنفسها طعامًا شهياً في يومهما الأول في المحروسة.

أخجل دفق الحنان يحيى، في حين همس الدواج متفحشًا:

- يا الله!! أرايت كيف يرتج لحم زنديها؟ لا يكاد جسم المرأة في الواحة يستقيم بغير الجلد والعظم، هذه امرأة ناضجة مثل الرمانة.

انزعج الشاب الحيي، واعتذر الدواج عن مزاحه الثقيل المكشوف، وتهوره الذكوري الفاحش الذي قلب ملامح الشاب الهائئة إلى تقطيب وانزعاج، ورغم أنهما ارتادا معًا حمامًا أزالا فيه وعشاء السفر، فغسل يحيى شعره، وحل جديلته، ثم أعاد عقصها جدائل قصيرة رفيعة أخفاها تحت عمامة نظيفة، وخفف من طول لحيته مبرزاً سمرة وجهه لفحتها سياط الشمس، إلا أن الدواج بات على يقين من أن مرافقته الأستاذ الشديد التأدب لن تدوم، فالرجل منبهر أمام المدينة وسوقها كثير التفاصيل، يدهش ويبهت كلما استوقفه امرؤٌ محادثًا، هي لوثة؛ قدر الدواج أن الأستاذ الشاب لن يتجاوزها، وقد تغريه بالبقاء والإقامة في المحروسة ما تبقى من عمره، بينما هو تاجر جوال، متعجل في حمل ما خف من بضاعة والعودة إلى امتطاء ريا عند سفح الهرم تهويمًا في أرض الله الواسعة.

انشغل يحيى في التعرف إلى سحنة الناس، ولون بضائعهم وروائحها، وتميز إيقاع الأصوات المختلطة من حوله، وفكر الدواج في أنه معني بتأمين إقامة الرجل إكرامًا للسنين المنصرمة من رفقتها الطيبة، وقد تكون الخطوة التالية إلزام قاطني الربع على قبوله نزيلاً في واحدة من الحجر الطينية السبع التي تقوم فوق بعضها البعض في الربع الفقير.

أكلوا في يومهم الأول من زاد أم العيال التي عبقت الربع برائحة طيخها، وزنخ دجاجاتها، لكنها رشت فوق صحن عصيدة الذرة ذرات من مسحوق الفلفل

الأسود الشهى تحية للجارين الجديدين، مؤكدة أنها لا تستخدم بهاراتها إلا للغوالي الذين يستحقونها، لم تكن أم مراد سخية في إعداد صحنها، تقوم بتجهيز وجبة ضخمة ترفعها على طبق عريض كل ظهيرة، وتخرج ملتفة بعباءتها؛ تزود الخان القريب بوجبة المسافرين لقاء دراهم تكفل لها عيشاً رضيعاً، كما تقوم بطبخ الزاد لمن دفع ثمنه من سكان الربع، وقد رفضت في يوم الضيفين الأول تقاضي ثمن أو بدل، ورقعت بالصوت والدواج يعرض عليها قلادة من حجر المرجان الزاهي في حمرة منيرة يتوسطه هلال فضي، لطمت صدرها واستنكرت، أحدث صراخها ربكة، التفت السقا الذي كان يعبئ الجرة عند شجرة الدفلى، مغتاظاً:

- يا حرمه، لم تسقط السماء على الأرض، الرجل وقد أكرمه الله وأغناه يريد أن يدفع ثمن لقمته فضة، رجل عبيط، حر، ليدفع الذهب إذا أراد، لا تجعلها حكاية وجرسه، إما تأخدي الدندوشة، وإما تصمتي ونرتاح من صراخك.

عاقبت أم مراد السقا على تدخله وقلة فهمه بحرمانه من الطعام يومها، لكنها أخذت عقد المرجان ببساطة وتحبب بعد ذلك، بل سمحت للدواج بمخاطبتها باسمها الأول، نعمات.

بعد أذان المغرب تجول حرس بتياب العامة يصيحون في الحارات معلنين اقتراب ميعاد إقفال بوابات الدرب في الحارة ناصحين بتفقد الغياب والحاضرين، مؤكدين أن من يتخلف خارج حارته وربعه مسؤول وحده عما يقع معه لو قابل بعض السباهية الغاضبين، فجردوه من لباسه وماله، أو تعرض له قطاع الطرق من بدو وغرباء؛ فأذوه.

أشعل راعي الربع برهوم ناراً صغيرة في الفناء داعياً سكان الربع للقاء الوافدين الجدد، تحلقوا صغاراً كباراً حولهما، وأعلن الدواج أنه مسافر عابر، ولكن الأستاذ شأنه في يده، نظروا إليه كأنما ينتظرون تعليقاً وهو صامت، واستدرك الدواج قائلاً:
- قد يحب الأستاذ الإقامة هنا، يمكنه أن يقوم بتعليم الصغار، فهو بارع في هذا.

لزم يحيى صمته، وشغل الجمع بدخول القرداتي المفاجئ، والشمبانزي المذعور يتنقل قافزاً بين كتفيه، مطالاً عليهم بعينين مذعورتين مهيجاً الأطفال، صاح راعي الربع معترضاً مؤنباً الفتى لادخال الشمبانزي مجدداً إلى المكان:
- يخرب بيتك، أليس لك من اسمك نصيب؟! راجع وعقلك لا يتجاوز عقل قردك وحبه فول!! ألم أنك عن اصطحاب عفريتك إلى هنا؟

دافع الشاب عن قرده اللطيف الذي لا يجد له مكاناً في حظيرة الدواب خارج الربع، ولا يمكن تركه مربوطاً في الزقاق عرضة للسرقة، فهو شريكه الحقيقي في كسب قوت يومه، مذكراً أن صبي النحاس يقتني حماراً، وصغار الربع يجلبون جراء الكلاب المشردة، والبلانة* تعلق في قفص عند باب حجرها ببغاء أخضر غبي دائم الزعيق، كما أن البنات يُدخلن قططاً مريضة عمصاء إلى الحجرات، فضح القرداتي كل تجاوزات أهل الربع؛ يحمي قرده، وراح الصغار يناوشون الشمبانزي الذي قفز أرضاً، يدور حول برهوم ساخراً منه واضعاً كفه على مؤخرته العارية، فقع ضحك الصغار وازداد غضب برهوم، بينما شد صاحب القرد حبله محافظاً على مسافة كافية أمينة كي لا يحدث هرج مؤذ، وفقد الشمبانزي أعصابه فصاح صيحة متصلة زاعقة، ومد ذراعه محاولاً لمس أكف

* مهنة المرأة التي تعمل في حمام النساء.

الصغار الذين نجحوا في استفزازه، ونفروا مبتعدين صاحكين متصايحين، في حين هدأ القرد وركن إلى حضن صاحبه، صامتاً، يهز رأسه بحركة بندولية كأنه حكيم أصيب بالجنون.

في ذلك المساء أحصى يحيى ست عائلات تقطن الربع، وانتبه إلى الصغار الحفاة، والبنات الملتفات بالعباءات، والعجائز اللواتي يقرفن عند البيان، والرجال الهادئين الذين يكتفون بالتعليقات العابرة، وأولئك المتصايحين المتنازعين مزاحاً، وقرقرة ماء النارجيلة، مضى المساء وهجع الصغار، وغابت النسوة؛ انفرد براعي الربع برهوم يجلس مسنداً ظهره للشجرة، يقول بتمهل:

- الأستاذ صحيح أستاذ؟ يعني أستاذ صحيح؟

قدر برهوم أن وجود أستاذ قادر على القراءة والكتابة يمنحه خصوصية مختلفة عن أنماط الساكنين في ربه المتداعي، وأنه ند مشرف، كفاء حقيقي يستطيع السهر معه بافتخار، قادر على فهمه وتقدير كلامه، حدثه عن الباشا السباهي المملوك الذي يملك بنيان الربع، والذي فوضه أمر جمع إيجارات السكان، فكأنما صار نائبه في التملك، بينما انشغل الباشا بما لديه من أملاك لا تعد ولا تحصى، فهو واحد من الأعيان، وإن كان قانون نامة مصر قد حد من سلطته خارج أملاكه، فإن تحكم السباهية بإقطاعياتهم ما زال يمنحهم الحق بمد أيديهم في الجيوب والأفواه إذا لزم الأمر، ولا يكف أيدي الممالك عن الناس، إذ يمارس فرسان السباهية من أثرياء وأعيان الممالك سلطتهم تحت راية السلطان وباسم حمايته وحفظ حقوقه، فإذا سحب منهم بعض امتيازاتهم لتناقص في خراج إستانبول، وآخر عليهم وصول خراجهم وجكماجياتهم* من أقجعات وصرر

* منح أو رواتب ثابتة تصل من السلطان.

الذهب والفضة، فإنهم يتحولون إلى أقطاعياتهم؛ يقاسمون الناس قوتهم ونتائجهم، معلنين أن «خذ ثارك من جارك»، مضرين برزق المصريين الذين لا شافع لهم ولا مجير، حتى إنهم تجرؤوا على الوالي التركي، ولم يكتفوا بما يحصلون من طلبية* وضريبة الوكر من الفلاحين حول المحروسة والفسطاط، ومن حوانيت القاهرة العامرة وبيوت الناس الطيبين، طمعت عيونهم بخزينة البلاد العامرة، يرون لهم فيها حقاً، كما يرى جند الخيالة الانكشارية لهم ذات الحق، وما بين ثورة السبابة، وفورات الانكشارية، حماة السلطان من كل فتنة بسيوفهم وأراوحهم، وتبديد الوالي للمال، والعطايا للدفتردار* وقاضي العسكر، وحصة السلطان، وتكاليف القصور الباهظة التي يتبارى الأثرياء بعمرانها، والمساجد التي يشيدون مزخرفة بالذهب والياقوت، وبنیان الوكالات الفارهة، يُقتسم خير الخزينة ويتبدد؛ ويصير الفقراء مورد كل نقص يصيب الخزينة، ولقمتهم القليلة غاية كل طامع، فتمور البلاد، وتشهد المحروسة فورة لم يرد مثالها على البلاد؛ الكل غاضب وفقير ومحتاج، حتى إن السباهية أغنى الفئات وأوسعها رزقاً وأملاكاً وجشعاً هجموا على بيت الوالي أويس باشا وأخرجوه من بين حريمه، واحتجزوا ولده رهينة عندما تأخر وصول خراجهم من إستانبول، نخ الوالي، وانحنى طالباً قاضي العسكر أحمد الانصاري؛ ليختم بإقرار لهم فيما يريدون؛ فزاد تسلطهم في الأسواق، ومرحوا وسرخوا بالبلاد طويلاً وعرضاً يخيفون الناس.

* امتياز مادي يحصله المماليك من رؤساء القبائل والملاك.

* رتبة للمحاسب.

فهم يحيى سر الحراك المهووس الذي يسود كل حشد في الطرقات والأسواق والساحات، والخوف الذي يلجم الناس في بيوتهم إذا هبط المساء، ويدفعهم للركض في قضاء حوائجهم متلفتين في نهار قصير.

تغرق البلاد في محنة وظلمة، وتصير المحروسة كهفًا يبتلع أبناءه، وقد يتناوب الجند، مشاة السباهية أو فرسان الانكشارية مهمة إرعاب الناس وجني ما لديهم من أقوات ومتاع، إلا إن ذلك الخوف لم يكن متصلًا، فقد تنقضي أيام وشهور يكف فيها سباهية الجند الأتراك والمماليك عن التنقل بين العامة والتنكيل بهم، عندها يسود فرح وارتياح يجعل الحياة ضاحكة مائعة، والناس دافئين ودودين، في تلك الحال المتقلبة، ووسط المخاوف والحذر يتحرك العوام في الدروب وبين الحارات، ويتجدد فرح فطري ساخر، فيتمكن يحيى من ترتيب تفاصيل حياته، وتراجع غربته الأولى.

صار الأستاذ أستاذًا، يجلس كل صباح إلى صبية الربع ذكورًا وإناثًا، يحتمل عبثهم وضحكاتهم ومفارقتهم مجلسه والعودة إليه في فوضى وصخب بين لحظة وأخرى مبتسمًا، يجود آيات القرآن ويرددون وراءه، ثم يرتشف ما تعد أم مراد من كركديه ساخن، ويتركهم يلهون في الساحة، يتناشون ما يجود به صبي الخباز كريم من أرغفة وهو عائد من جولته الصباحية، ولا ينسى السقا عمر تزويد الزير في الربع بالماء المعطر بماء الورد والشب، محذرًا في كل مرة من الإسراف، مهددًا بالتوقف عن سقاية من لا يحترمون الماء ولا يقصدون وفرته.

عودة يحيى إلى دوره العتيق؛ منحت الدواج تحررًا نسبيًا، زالت مخاوفه من أن يعيق الفتى تقدمه وحراكه، أو يلازمه أبد العمر وهو لا يبدي اهتمامًا بتجارة وبيع وشراء، فلا يفيد ولا يستفيد، وإن كانت صحبته آمنة رائقة، لكن الدواج خطط لاكمال رحلته وحيدًا.

صار الشاب الأستاذ جزءاً من الربع، يُعلّم الصغار قصار السور وطوالها إذا وجد بينهم مهتماً، ويتواضع للدور الاجتماعي الذي يكرس انتماءه للمكان، لا يمانع في خدمات صغيرة متفرقة، فيحضر بعض اللوازم للمرأة الطباخة، أو للبلانة العجوز في الحجرة الواقعة آخر المجمع السكني، كما يحمل عن الرجال أثقالهم، فيعين صاحب الربع وصبي الفرن ومساعد نقاش النحاس، وصبي الوراق، والسقا، يجلس إليهم وصاحبه الدواج في ليالي السهر حول شجيرة الدفلى، أحياناً تجالسهم نعمات أم مراد، أو تنضم للحظات زوجة السقا وهي تقنع أحد صغارها بالنوم مبكراً، وقد تقرب العجائز ذكات الخشب المربعة ويقرفصن أمامها ينظفن أوراق الجير جير، وتأتي لهم بنت البلانة زينب بمغلي القرفة، يتششق يحيى عطر القرفة الفواح مستعيداً ذكرى أمسيات جلجلول، ثم يرتد سريعاً إلى مكانه في مصر المحروسة، يسمع حكاياتهم ويرمق بمحبة ضحكاتهم، ويعجبه لعب الصغار بكف الشمبانزي الصغير الطري، دون أن يتحدث بالكثير عن نفسه، ولكنه يلح لمعرفة المزيد عن مصر، يقول صبي الوراق أدهم:

- يقول ابن بطوطة: إنها «أم البلاد، وقرار فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة» واعني؟ لها في كل زمن فرعون، لكن أولادها الطيبين قاعدين فيها، والبكوات والأغوات والسلاطين تروح وتيجي...

سار يحيى مع القرداتي وميمونه الصغير الشقي في شوارعها الصاخبة وأزقتها، وسمع الرطانات المتنوعة، عربية وأعجمية، من كل فم، شوام متمدنون، وفلاحون سمر، وأفارقة زنوج وخلاسيون، ومغاربة عرب وبربر، وروم ترك، ومماليك جر كس، وبشناق، ودرأويش متصوفون يصيحون باسم الله، وهاليل يدورون بمباخر نحاسية، نزع يحيى ثوب البدوي السيناوي والعمامة؛ أعاد له صالح ثوبه الكركي القديم، دهش لضآلة جسده قبل عامين اثنين أو يزيد بقليل، طالت قامته،

وعرض صدره، ونبت فيه شعر صريح لا زغب خجل، وتكورت عضلاته، واشتد ساعده، ما عاد ثوبه القديم ملائماً، ضاق عن عضلات صدره حتى انشق، ولدهشته قدم له أهل الربع ثوباً جديداً اشتركوا في ابتياعه، وقال صبي النحاس مازحاً:

- *حقك وصلك، فلا تطلب من الصغار ثمن تحفيظهم كتاب الله، الطمع وحش.*

لم يطلب يحيى ثمناً لتعليمه الصغار الذين باتوا ينامون مبكراً وقد أنهمكهم اللعب وأسئلة الأستاذ المحيرة، فإذا ما هبط المساء وغرق الربع في عتمة تتخللها الأصوات والأطيان المتحركة، استعد فتوة الحارة لإغلاق أبوابها، وانعقد مجلس الربع ليلاً حول شجيرة الدفلى، تشاغل يحيى بمساعدة السقا في تنظيف قربه الجلدية المدبوغة بالقرط اليماني، يصنعان كرات صغيرة من قماش يضم بعض بذور نبتة الرحلة أو نوى السدر ونبقه، ويودعانها الجرار كي تنقي الماء الذي يسير إليه السقا يومياً رحلته بين النهر وتجمع الكيزان وبيوت الحارات البعيدة، لم يكن انهماك الرجلين في شطف القرب وتنظيفها، ولا غفوة البلانة، ولا بقبقة أنبوب نرجيلة راعي الربع الأعرج، وصيحات ميمون المفاجئة المتقطعة؛ تمنع أم مراد من التحدث اليومي عن زوجها الغائب الذي هج لاحقاً أهواءه إلى إستانبول، باحثاً عن فرصة عمل في بناء مساجد السلاطين وقصورهم، تركها تعارك الحياة مع صغاره الذين يسيرون حفاة في طين الأزقة وهم يحملون أسماء تركية مثل عليّة القوم، يستمع صبي النقاش يوسف بشغف إلى سيرة الزوج الغائب، يتلقت أخباره عسى أن يتبعه على الدرب، وتنفّث أمامه كوة للمشاركة بعمل عظيم مثل المعماري الهارب؛ فقد عمل في نقوش مسجد سنان باشا في السنانية في بولاق.

أعلن الدواج استعداده للرحيل، وجلب تصريحاً من قاضي العسكر محمد بن معروف يمنحه الحماية وحرية اجتياز التيه، واستعادة رياء بقصد الرحيل، مختموفاً بختم الوالي أحمد باشا الحافظ، سادت الربع مشاعر حزينة لفراقه، وهو يختلي بـيحيى حزيفاً معانقاً، هامساً في عتمة الحجرة:

- لا أعرف إذا كنا سنلتقي يا ولد.. لقد أحببتك مثل ابني، سامحني إذا كنت قد أثقلت على أختك، وقبضت ثمنفاً غالباً لصحبك، لو كنت أعرفك حينها معرفة طيبة ما طلبت فلسفاً، ولو أنني لم أهد المشخص لشهاوي، كنت أرجعته لك الآن؛ تستعين به على تدبير أمورك في مصر المحروسة. هتف يحيى متعجباً مستنكراً:

- ماذا! أأست من وضع المشخص بين خرقتي؟

لم يعرف أي منهما من جاء بالمشخص بين حاجيات الفتى، وتنازعت الدواج فكرتان، أن تكون شهاوي من فعلت ذلك، أو زوجها الراعي المتعاطف مع أستاذة، سخط لجرأة أحدهما على ارتكاب فعل كهذا دون استشارته، ورضي عنه في قرارة نفسه، كونه فعل مقدماً ما كان سيفعل الآن لو كان المشخص بحوزته، حلف برأس أبيه وعرض أمه أن لا يستعيد القطعة الذهبية، أيقن يحيى أن بقاء المشخص في ملكيته بعد مضي كل هذه السنين، يدل على ارتباط مصيره وقدره بتلك القطعة التي اعتقدت شقيقته يوماً أنها أنقذت حياته على صورة غامضة مذهلة.

اتخذ رحيل الدواج مظاهر شجن علنية بين سكان الربع، ومشاعر خفية بالحزن، كأنما ترك يحيى في مواجهة القاهرة، نداة الروح والجسد، ولم يعد هناك من يقوم على تصريف شؤونه، حتى إن برهوم مازحه وهو يقرقر التباك فوق الجوزة:

- يا ولد، إذا لم تجد عملاً يضع القرش في يدك، سيتهي بك الأمر متعطلاً
متبطلاً مثل دراويش الساحات.

متمهلاً، سوى برهوم بأنامله ما تبعثر من التباك العجمي الحار فوق فخارة
صغيرة، تعتلي عود قصب البامبو المتصل ببطن قعر جوزة الهند، وسحب نفساً
مستمعاً لكركرة الماء ثم أضاف جاداً:

- لا تنزل، أنا عبد مأمور أمهلك شهراً لسداد ثمن إقامتك في الربع، الباشا
حريص، خاصة أن قاضي العسكر تغير، وجاء عثمان أفندي تعاون زادة،
وهذا أرئودي من بلد الباشا، لو صار أي تأخير في خراج الربع، انتبهوا لنا
وأرسلوا رجالهم يحشون الأخضر واليابس.

تسابق الرجال، السقا عمر، والنقاش يوسف، والقرداتي راجح، والوراق أدهم،
والخباز كريم على إيجاد مهنة للأستاذ الذي يتبرع بساعات يعلم فيها أولاد الربع
آيات القرآن وفك الخط ومبادئ الجمع والطرح، حتى البلانة اقترحت العمل في
مثل مهنتها في حمام الرجال، حيث لا يتطلب غسل الأجساد العارية في الحمامات
العامة، وفركها بالصابون وزهور الخزامى براعة كبيرة، شكرها متلطفاً وقد راعته
تفاصيل المهنة، وما ظن بقدرته عليها، كانوا فزعين من وصول أي همس مغرض
في أذني الباشا عن نزيل لا يدفع أجره إقامته في الربع نقداً، اصطحبه كريم إلى
الطاحون وبيت النار في القرن، فنفر فؤاده وهو يتذكر أحاديث أخته حول مهنة
والده القديمة في الطاحون الذي أكل عمره وأشقاه، وجال مع القرداتي رافضاً
اعتماد طرطور هزلي كما يفعل صاحبه، ركبا معاً القراقير* على بحر النيل

* مراكب صغيرة.

والفلوكات* المستأجرة، قاطعين القاهرة من شرقها إلى غربها يرافقان طيور الخطاف والنوارس البيض، ويجمعان حولهما العوام بصيحات راجح وميمون، لم يثبت الدف في كف يحيى وهو يهزه للقرد المشاكس المرواغ الذي يتقلب لابعاً مقلداً نوم العازب على ظهره، ونوم العجوز على بطنه، ثم ينطلق بين المجتمعين ماداً كفه الصغيرة بطرطور سيدة، فيسقطون دراهمهم أو قطع الحلوى راضين، يلامس ميمون طرف الكف الواهبة بخفة وسرعة قبل تراجع صاحبها مذعوراً صاحكاً، يقبل القرد كفه التي لامست كف الزبون ويضعها على رأسه علامة امتنان وعرفان، أو يدير مؤخرته علامة استهزاء واستخفاف ببخلاء امتنعوا عن الإكرامية، لم تغر تلك المتعة المسلية يحيى؛ ولم تدم زمن تجواله مرافقاً للقرداتي، وإن قربته من ميمون الذي يزق قافزاً فرحاً عند رؤيته.

طاف في المدينة المستعصية باحثاً عن مصدر مورد مالي، عاد مرات عديدة من سوق التوابل دائخاً لفرط ما اشتهم من روائح مختلطة، ودبر له السقاء عملاً في سبيل يوسف بيك قرب الجامع الطولوني، حارساً ليلياً لكيزان الماء الكبيرة، لم يصبر على المهنة أكثر من يومين؛ أضناه شوقه إلى هرج الربع وتصايح الصبية، وأرعبته فكرة الاصطدام جسدياً أو بالعصي والسكين مع لصوص الماء الكثير، جرب أن يصير سقاءً لأيام، حمل قرب الماء ودار بها بين البيوت، غربّ وشرق، وإن طاوعته ذراعه القويان وظهره الصلب، إلا إنه تاه في دهاليز القاهرة وراوغته الأزقة ونهايات الحارات؛ وهو الدليل في الفضاء الرملي الصحراوي، كما لم يسعفه الوراق أدهم في اقناع صاحب عمله باستخدامه؛ لفرط ما يخاف ويحرص على مخطوطاته وصحفه وأقلامه من الغرباء.

*مراكب.

بدا كما لو أن القاهرة استعصت تماماً، وتناقصت أيام المهلة التي أتاحها كرم برهوم، إلى أن قاده يوسف النقاش على ظهر حماره إلى سوق النحاس. خلع لبه ما رأى وسمع، تجاوزا جانب القصبة الأيمن ودخلا وسط المدينة، فانفتح شارع المعز الفاطمي أمامهما بوكالاته التجارية مختلفة التخصصات، انحرفا قليلاً إلى جانب فرعي للسوق الذي يتدفق فيه البشر، حاذيا باب زويلة في منطقة الحرفيين، وعبرا أمام ورش صناعة الخشب ودباغة الجلد وصاغة الفضة والذهب والأحجار الملونة الزاهية بكريمها ورخيصها، ومحلات البسط والقماش، وحوانيت الخطاطين وباعة القماش، إلى أن ولجا سوق النحاس، انبعثت من الحوانيت الصغيرة المتقابلة الطرقات والصفافير والدق مكرورة بأصداً تتجاوب وتشتد لضيق الممر، طم طم.. طاخ طاخ.. طمطم تك... طططط... أصوات كرنفالية تهاجم الأذن وتذهب بالسمع لعلوها وانتظامها، لكنها فتحت في صدر يحيى كوة فراغ عمره الصوت الرتيب.

وقف متلجلجاً ويوسف يقدمه لمعلمه وزوج عمته الحاج جعفر، عدل المعلم البدين طربوشه المنزلق على جبهته، وأراح فخذ قدمه اليمنى التي تصلبت لفرط الجلوس فمددها أمامه، وقد أزاح جانباً صفيحة نحاسية كان منكفئاً فوقها، أرجح قدمه اليسرى مجرياً الدم فيها، وعدل من تجعد جبة الجوخ تحت ضغط جسده المتين، دارت عيون الفتى انبهاراً في المكان، نظر إلى الأواني، والأباريق، والدلال، والسيوف، والخناجر، والقدور، والصواني، ورقائق النحاس المنقوش، والعاطل عن النقش، وصفائح المعدن المصبرة في الزاوية، وتلك التي اتخذت أشكالها، والخزائن المقفلة بالأقفال والسلاسل على ماء الذهب وألوان النقش، واللوحات التي امتزج فيها الخشب بالنحاس، كل شيء حوله بديع؛ يبعث على الدهشة.

تمكن المعلم الحاذق من قراءة الاصفار في وجهه، وتتبع عودة الأنفاس إليه وروحه تكاد تزهق حيرة، قال ليوسف:

- جئت لي بنان أم مخبول؟ الله أعلم.

شغل يحيى حرفته الأولى في مصر المحروسة في حارة النقاشين، راهن المعلم جعفر على إمكانيات مختلفة لدى الفتى الكركي، ولم يعد يبذل الكثير من الجهد مع صبيه ونسيبه يوسف، مقدراً أن إمكانياته وقدرته على العطاء وصلت إلى حدها الأعلى، ولن يتقدم أكثر مما فعل، بينما يفصح العامل الجديد عن أمل واضح، قدر أنه سيزر أقرانه من ضاربي النحاس والنقاشين الذين ورثوا المهنة عن أجدادهم، تابع أنامله ممسكة بالسمة لتحدد الشكل الدائري في صفيحة النحاس بدقة دون فرجار ولا بيكار، وراقه انسياب ريشة الرسم على المساحة البكر، والإمساك الموزون بالمطرقة، علمه بعض الخطوط والنقوش المطلوبة في السوق، واستمتع بقدراته في رسم الخط ببراعة يحسد عليها دون أخطاء، وأعجبه الفراغات التي يتركها الشاب النقاش الجديد بين الخطوط المتقاطعة، وتلك الزوايا التي يحفرها برقة وصولاً إلى تشكيل أشبه بورق الشجر، كلفه في بداية عمله بتشكيل بعض القدور ورسم النقوش اليسيرة على حوافها، ثم ما لبث أن ترك بين يديه قطعاً أكثر أهمية وهو يرقب براعته وخفته وإنجازه السريع في وقت أقصر مما يتأتى ليوسف الذي أدرك منذ الأيام الأولى أن صاحبه يفوقه حرفية، فانصرف إلى طرق الصفائح وإعدادها للنقش مكتفياً بهذا الدور، ولأول مرة يتعامل مع المنافسة في الكار* برضا، لا تعتريه غيرة أو حسد، مطمئناً إلى موقعه؛ لما تربطه من أواصر مصاهرة مع المعلم البدين، ممثلاً بالود الحقيقي تجاه الفتى الكركي.

استقامت الحياة للفتى، بات له خلان وصحبة وحرفة وتلامذة وعالم بحجم اتساع المدينة الصاخبة المجنونة من حوله، وعندما سدد أجرة الربع للمرة الأولى من كد ساعده، ابتسم برهوم يعد القروش القليلة، ودسها في جيب صديريته الخفيف، وقال:

- غائب نهارك كله عنا، عملك مجزي، ولكن!! أنساك نقش النحاس تعليم الصبيان يا أستاذ!!

سخرت نعمات:

- من يسمعك يظن أنك في لحظة شهامة وكرم، ستنازل عن قروش حجرة الطين البائسة التي تشاركه فيها العناكب والفئران، وتركه يعلم أولادك العبط، وأولاد السقا الصعاليك، ليصيروا بني آدمين حقيقيين.

كركر الرجل في انبوب أرجيلته، وقطب جبينه تحبباً، مرقصاً حاجبيه:

- تنصين من نفسك قاضياً يا نعمات! اسمعي مني وتزوجيني، لأعفيك من أجرة الحجرة، وأشاركك تربية أولاد الأبالسة الذين تظنينهم بشراً.

نفضت كفها من حفرة التراب التي كانت تقلبها حول شجرة الدفلى، وردت الكرات القطنية الملونة المتدلية على جبينها، والمربوطة بمنديل رأسها قائلة بغنج يتبعه حدة:

- لو تموت، زوجي سيعود يا عايب، ويفقأ عينيك الجريئتين، احتشم، على الأقل على مسمع الغلبانة أم العيال.

عاودت تسوية التراب حول الدفلى، منشدة ما حفظته عن لسان أخيها الحكواتي الذي يعمر ليالي السهر في مقاهي الفسقاط، حين يحكي حكايات الهلالي:

- اعرف يا بطل، أنا وليه... جوزي كان بالأصل سلطان.. كان ساكن علالي
وحاكم قبيلة، وأنا كنت في صولة كبيرة.. عساكرع الجنين صفالي.. وعلى
ريش النعام كنت أنا.. والدهر يا ما صفالي..

تبسم زوجة برهوم ابتسامة بلهاء متتبعة الحوار اليومي بين زوجها ونعمات،
وتركن لشهامة المرأة دون عيني زوجها البارعتين في تتبع أفضية النساء، ولسانه
الدلق الذي اعتاد كلمات غزل فاحشة لا يتبعها فعل.

في ورشة النقش، أفرد الحاج جعفر للنقاش الجديد أدواته الخاصة، مطرقتين،
واحدة مقعوفة الرأس، والأخرى مدورة، ثم جاءه بثالثة مسننة بناءً على طلبه، رغم
أن الصينية التي بين يديه تحتاج إلى مطارق وأقلام عريضة، لكنه انحنى فوقها
ينقشها برسم دقيق جميل، وعندما حملها الحج المعلم منجزة، أدرك أن مهارات
الفتى اكتملت، ودفع بصنعتة للبيع في سوق النحاسيين بقلب قوي، حتى وهو
يتعجب من تلك الزهرة المنمنة الوحيدة في طرف الصينية، التي تترافق مع حروف
كلمة الكركي، شرح يحيى:

- هذا ختمي، السوسنة، هي زنبقة سوداء تطلع كل ربيع في سفوح جبال
الكركي.

رسم النقاش الجديد سوسنته في كل أنية نحاسية نقشها، حريصاً على ختمه
بكنتيه التي أسماه بها أهل المحروسة، سواء فوق الأباريق أو الصحون، أو
الشمعدانات والصواني، وقد أعفاه المعلم من مهمة طرق النحاس، مستبقياً جهده
وفنه للنقش الفاخر الجميل، تنبه السوق إلى تميزه، وأحدث طلباً متزايداً على
مصنوعات ورشة الحاج جعفر الذي فتح باب خزانته الخاصة، وأخرج ماء الفضة
أولاً، مراقباً الشاب وهو ينقش بالماء الباهظ الثمن أول إبريق من النحاس الأصفر
البهيج، خاطأ في عرض الإبريق بخط النسخ عبارة «لا اله إلا هو»، ثم منزراً

الإبريق بشريط من أزهار اللوتس، وراسماً ثلاثة خطوط متوازية في عنق الإبريق الضيق، وأخرى متقطعة في صنبور الإبريق، ثم في أسفله منمنماً بتلات الزهرة السوداء، متجاسراً على مدها قليلاً على البطن الكروية للوعاء المدهش.

بيع هذا الإناء بما فاق توقع الحاج، صفر يوسف وهو يرى الدراهم تتساقط في حجر معلمه، كما رفع يحيى ردن كميته وهو يتلقى طلبات جديدة لصنع شمعدان خاص يشترط جودة الإبريق، والتعبير عن دلالة خاصة تتعلق بالموسيقى، أيقن المعلم أن المشتري صاحب مزاج خاص، وأنه سيوجد، فلا يقتر ولا يساوم، خاصة أن الطليبة جاء بها قن أسود يمتطي عربية فارهة مزركشة يجرها حصان قوي، أفاض المعلم كرمًا وهو يسمح للفتى النقاش بمزج ماء الذهب والفضة والنقش بهما فوق الرق النحاسي المتشكل الذي أنجزه الشاب في شهرين، مقترحاً شكلاً جديداً لشمعدان مخروطي يتسع عند القاعدة ويضيق في أعلاه، حيث تمتد رقبة الشمعدان قائمة على رفرف رقيق يوشك أن يشف، صنع زخارف مذهلة من خطوط تشني كأنها أجسام آدمية خرافية التكوين، تمسك بثلاث آلات موسيقية يمكن تبين أوتارها وأبواقها على نحو مجرد، منمن في أعلى الجسد المخروطي تشكيلات متفرقة لحروف موسيقية، وعند قاعدة الشمعدان، كتب يحيى بالخط الكوفي كلمة «الكركي»، ونقش زنبقته المعتادة بالفضة، عميقة واضحة.



وقف يحيى فارداً ظهره مطلقاً سلسلته الفقرية، ثم توجه إلى المخزن الداخلي لحانوت النقاشة يطلب صفيحة جديدة، تشق فجأة عطراً كأنه الخزامى مختلطاً بناعم الياسمين، غطت الرائحة العطرة على سناج النحاس والفضة اللذين يعبق بهما المكان، وبزغ يوسف عند مدخل المخزن يضرب رأسه ببطن كفيه ضربات متوالية هامساً:

- يا الله.. يا الله.. لن تصدق، لا إنس ولا جن، سبحان الله.

غض يحيى بصره حين خرج ومؤخرة الحاج تداري من يحادثه في مدخل الحانوت، تمكن فقط من مشاهدة ذيل حريري أخضر يفترش التراب، انزاح المعلم كاشفاً عن امرأتين واقفتين في المدخل، كما لو أن شمساً أضاءت المكان، وجه قمرى يتسم له، وآخر تطل منه عيون ما شاهد في اتساعها، كانت المرأتان ترتديان ثوبين من اليك الحريري، أحدهما في خضرة الحشيش، والآخر في حمرة الياقوت، وتحيطان خصريهما الناحلين بحزام كشمير عريض، وقد أسبلت إحدهما فوق وجهها برقعاً مثبتاً بشريط مشدود إلى رأسها، وانسدل حول جسدها قفطان زيتوني مفتوح الصدر يكشف زخرف اليك الأخضر تحته بأردان طويلة واسعة، كان التناغم عالياً وفارهاً بين درجات الأخضر في اليك والقفطان الحريري، قال الحاج بأدب كبير:

- الهانم تسأل عنك؟

لم يعرف يحيى لوهلة أنه المقصود، لكن الحاج وضح بكلمات مقتضبة أن صنعة الشمعدان نالت رضا الهانم، ولما تبادلت المرأتان النظر، قالت صاحبة رداء الياقوت التي كشفت وجهاً مليحاً تلعب في صفحته غمازة جرئية:

- ستي تسأل.. ماذا تقصد بـ«الكركي»؟

فاجئ صوت الصبية مسمعه كأنه قادم من الفردوس، لم يفهم سؤلاً، ولم يحرج جواباً، ضحكت الصبية وقد راقها ارتبأكه أمام حسننها، تقدمت نحوه خطوة جاءته بعبير الياسمين، عندها عاد إليه إدراكه، وقدر أن الأخرى تعطرت بالخزامى، وإن شوشته الضحكة المقتضبة الساخرة في الوجه المليح، وبلبلت انتباهه مجدداً الغمازة اللعوب عند طرف الشفة، وخضرة الحشائش في حدقتي عينيها، قالت:

- أنت أصم؟ ستي تسأل ماذا عنيت بـ«الكركي»؟

تدخل المعلم موضحاً الأمر:

- الولد من كرك الشوبك في أعمال الأردن، كتب توقيعه، إذا لم يعجبكم

النقش، نزيله عن قاعدة الشمعدان ببساطة.

تبادلت النسوة النظرات مجدداً، وقالت المنقبة بصوت رخيم:

- من الكرك، أين؟

نظر المعلم بحق إلى عامله الذي تجمد مجدداً، ويوسف واقف إلى جواره
ينخذه بلمسات موارياً كفه وراء الجلباب مشجعاً إياه على الكلام، قال والخزامى
والياسمين تطوحان روحه:

- من الكرك.. من خربة.. خربة قريباً، اسمها جلعول.

اقتربت صاحبة اليشمك، فاشتد فوح الخزامى، رفعت نقابها عن ملاحظة،
ونظرت ودموع تترقق في زاوية العين الوسيعة، قالت:

- من؟ من تعرف من جلعول؟

لم يحر جواباً، بدت جلعول بعيدة، والفاتتان اللتان أحاطتا روحه بشذا
عطرهما، لم تنتظرا، تحركتا معاً حتى صارتا في مواجهته تماماً، قالت الجميلة
التي ردت نقابها وراء رأسها:

- أتعرف الشلبي؟ أبو جعفر الحلاق؟

ارتخت أوصال يحيى، ولم يجسر على التفكير بهوية الفتاة، لكنه قال همساً لم
يسمعه سوى الفاتنة صاحبة الخزامي:

- نعم، أعرفه، أنا.. يحيى.. ابن عيسى أبو بكر النحال.

نطت دمعة وحيدة، وهمست الفاتنة:

- الطحان؟

هز يحيى رأسه موافقاً، فهتفت بلوعة كأنها تبكي:

- يحيى!! يا الله... يحيى! لم تعرفني! لا تعرفني!!
- ثم مدت صوتها راعشاً منمغماً ساحراً، وتساقط دمعها:
- خاتم حبيبي وقع بالبير.. له رنة.. يحيى.. أنا هنفوف.. هنفوف الكركية.



كأنما اختفت القاهرة لساعات طوال، حمل النقاشون وطارقو النحاس كراسيهم الواطية إلى مدخل باب حانوت الحاج جعفر، وارتحلوا إلى جلعول؛ يسمعون الأسئلة وأجوبتها تنتقل بين المرأة الفاتنة التي لم يزعجها احتشاد أرباب الحرفة، واكتفت بإسدال نقابها مجدداً وهي تسمع يحيى يحكي، تنبه يوسف إلى أن الشاب الذي عاش بينهم شهوراً، لم يتحدث عن مسقط رأسه بتاتاً؛ مكتفياً بسماع حكاياتهم حول المحروسة، وهما الزائرتان الغامضتان تكشفان عن سيرة، وبشر، وأمكنة بعيدة.

تحدث بإسهاب حول جعفر وزيد، ابني الحلاق الشلبي، ومصائر أولاد الشيخ صايل المتباينة، كانت عينا هنفوف حانيتين راضيتين، وهي ترغمه على تكرار وصف شقيقتها الطفلة نفل التي لم تلتق بها قط، وبكت عند ذكر أمها، وضحكت وهي تقول:

- لم أسألك عن أختك مريم، أعرف أنها قوية مثل بغل، لا أتوقع أنها ماتت بداء أو مصاب، عودها صلب، ولا بد أنها ما زالت تعاند زمانها، أعرف، قلبي يحدثني.

حكى لها عن عطارة مريم ونسجها وأنوالها، وعام الجراد الذي تداعت نتائجه فكان من آثاره هروبه مع الدواج، هو نفسه لم يعرف كيف تحدث بإسهاب فأدمع عيون السامعين، وسحب تنهداتهم وصفير التعجب من صدورهم، وجعل عيني المرافقة الحسناء تتعلقان بشفتيه.

قرب حلول المغيب فرق محاسب السوق المجتمعين بإشارات من عصاه،
مشيراً إلى خطر التجمع الذي قد يغري الجند أو السراقين، رُدّت روحه إلى
القاهرة، سأل بتعجب:

- ماذا عنك؟ أين كنت؟ ماذا حل بك؟

وقفت هفوف وأحكمت قفطانها فوق كتفيها، نظرت بريّة في وجوه من تبقى
من الجالسين والفضوليين، لم يفتها الانزعاج في نظرات صاحب الدكان الذي
تحول إلى مجلس، قالت تنقل الكلام بين مرافقتها ويحيى:

- جمان، حان وقت الانصراف، سترثر كثيراً في قادم الأيام، فتلك حكاية
أخرى تطول، اصنع لي توأماً للشمعدان أعود لآخذ، وتحدث مطولاً.

غادرت وجاريتها، وانسحب رواء عطريهما وراءهما في زقاق النحاسين.

دفع يحيى درهمًا وابتاع زيتًا لسراج يصطحبه إلى حجرته مساءً بعد نوم سكان
الربع، ووافق الحاج النقاش على إعطاء عامله البارح ما يحتاج من نحاس وماء
الذهب؛ ليكمل ما بدأه في الحانوت، مشروطاً أن لا تتكرر الجلسة المحرّجة أمام
بابه مجدداً، واعتزل يحيى الجميع في محاولة للإسراع في إنجاز الشمعدان التوأماً،
تذكر بدقة كل طريقة أحدثها، وكل انحناءة في كتلة النحاس، بل وأعاد رسم الفنانين
الثلاثة في أشكال تعبيرية، وهم يعزفون ذات الأوتار والدفوف والمزامير نفسها،
علّق يوسف:

- أصعب العمل أن تأتي بالصورة نفسها.

قال يحيى:

- بل أهونه، إنه درب تخبره، يدك تعرفه، وذاكرتك تعينك، الأصعب هو
الإتيان بجديد، لا تقليد القديم، بعد أن أنجز لهفوف طلبها، سأصنع
جديداً.

تعجب يوسف ونسيه النقاش لسرعة الإنجاز، حمل الشمعدان هاتفاً:

- بديع، لا يمكن أن تفرقه عن مثيله، كأنه هو.

رد يحيى:

- لا يمكن أن يكون هو، على أي حال تنقصه السوسنة.

استعاد شمعدانه، دق بمطرقته الحادة، وبلطف حذر متأنً زهرته، دوم تك دوم

تك.. دوم تك..

توقف؛ داخ إذ داهمه عبق الياسمين، ظن نفسه واهماً لبرهة، أحس بنشوة تسري في أوصاله، وقدميه ترتعشان رعشة خفيفة كما لو كانت خفق جناحي طائر.. وشعر بجسده خفيفاً مثل ريشة، كأنه انفصل عن الأرض بوصات قليلة وحلق.. أو أنه نائم والسوق يسبح تحته، هزته نشوة غامضة قبل أن يستوي ويلتقط أنفاسه، ويرى ما يحيط به من معالم الدكان واضحة وسط غمام.. واستقام طيفها بباب الدكان، ثم انجلى وتماسك جسداً واقعياً مضمخاً بعطر الياسمين، وهمست جمان:

- تنقش على إيقاع دارج*.

توقف عن النقش مفلتاً شمعدانه والمطرقة، ووقف، تراجعت رائحة النحاس الثقيلة، وخيالات الحلم العابرة؛ تبدد يوسف وزوج عمته الواقفان بقربه، ولم يعد أمامه إلا وجهها المنير وحشيش عينيها، ابتسمت فانبعج خدها، ووخز قلبه، نظرت حولها متفحصاً بلفتة رأس سريعة، ثم ثبتت ناظرها في عينيه متأنية قائلة:

- أنت خزين يا كركي، تنقش على إيقاع الحزن الكبير، إيقاع دارج!

* إيقاع موسيقي.

في وجهه جهل ملتبس بشغف لا يخفيه، وخضرة عينيها تخاتله، هز رأسه فضحكت:

- أقصد... دوم تك.. دوم تك.. هذا إيقاع موسيقي حزين.

لم يبادلها حديثاً مباشراً في اللقاء الأول، وإن أحس بوجودها لطيفاً ممتعاً، ولكنهما إذ يلتقيان للمرة الثانية؛ تدخل وإياه في تفسير أمر لم يخطر في باله حين دق برأس مطرقته المسنن جذع الشمعدان، استجمع رباطة روحه وهي تنقل له رغبة هفوف ودعوتها لاستقباله في بيتها وعودته معها، بينما الحاج جعفر يقاطعها منهيًا الحديث:

- الشمعدان جاهز يا أخت، يلزمه طريقة واحدة، انتظري بالعربة ويأتيك به. انحنى يحيى يضع اللمسة الأخيرة، والمعلم يزفر، وقد تجاهلت الفتاة اقتراحه، ووقفت ترقب يد الحرفي يكمل النقش. دوم تك.. دوم تك.

مسح يوسف الشمعدان ضاحكاً بخبث وفرح، وأحاطه بكيس من الخيش يحفظه، في حين لمح يحيى العربة التي يجرها حصان أسود لامع، ويقودها القن، ووراءه ما يشبه اليهودج مغطى بقماش الصايا المزركش، تنتظرهما عند مدخل الحارة الكبير، رجف فؤاده، شده الحاج المعلم من ذراعه هامساً في أذنه، قبل أن يلحق بعطر الياسمين:

- انتبه لنفسك يا بني، كله ولا درب الغواية، النسوان، كلتا هما، جارتان، والعياذ بالله، غوازي، جنكيات*، ثوبنا غير ثوبهم، لا نعلم ما وراءهما يا بني.

* راقصات.

اقتادته العربية المزركشة إلى الجنوب خارج باب زويلة، شل العطر حركته وألجم كلماته، إلا أنه ميز رفاه المكان الذي يدخلون إليه، صارت العمائر أكثر جمالاً واستقلالاً، وكثرت حولها الحدائق والأشجار، بعضها في مصاف القصور، طرقاتها مسوية إثر مرور مداحل تجرها الثيران ورشها بالماء على نحو دائم، فلا تثور أغبرتها مع دوران عجلات العربية التي يجرها الحصان، أو لمرور العربات التي تقاطعهما الطريق جيئةً وذهاباً، لم تزعجه سخرية جمان من صمته، وتجاهلها له بعدها، وزهوها حين قالت:

- هذا شارع خوش، كله أغوات وممالك وأعيان وترك.

كل ما تفعله فاتن جميل، فكيف وقد انصرفت إلى دندنة موسيقية خفيفة، وفي رجع صوتها الرقيق ما يشبه صدى المزمارة.

توقف الحصان بباب بيت من الأجر الأحمر، وترجلت جمان تدعوه ليجتاز بوابته الخشبية المزخرفة، كان محاطاً بغابة شجرية صغيرة وأحواض للورد البلدي تزنر المكان، وتترك للداخل أن يطأ ممراً حجرياً قبل فتح الباب الداخلي.

لا يتذكر يحيى مشاهدة مثل هذا المعمار في حياته، حتى عندما كان يزور الراهب في دير كاترينا، ويتمتع مع الزوار والرهبان برفاه المكان وعبق البخور، فإنه لم يطمح إلى دخول بقعة في أناقة واكتمال هذه الدار، وحين أطلت هفوف بلليك أزرق مطرز بالنقوش، محلّى بالأحجار اللامعة، وقد تخلصت من برقعها وقفطانها، ونثرت شعرها على كتفيها، سلمت بود يشبه عناقاً قصيراً سريعاً؛ زالت رهبة المكان، وشعر يحيى بطمأنينة غريبة كأنه يجالس مريم.

سمع حكاية رحلتها الطويلة جارية للقائمقام كارتال الذي أخذها بداية عهده بها إلى أدرنة، فأحسن معاملتها واصطفها، تحدثت عنه بمحبة واحترام، وصفت كيف نزل بها أرض مصر، وأقام لها هذه الدار حيث يسكرون ويستضيفون

البشوات والأغوات وأمرء الجركس الممالك وعلية القوم، ثم كيف اشتد المرض عليه، فكتب كتاباً يحررها فيه، ويتخذها زوجة قبل أن يهبها الدار؛ فيكفيها أمر مشاركة ورثته الكثير في أدرنة وإستانبول، ارتبكت أفكار يحيى، كان تجميع خيوط الأحداث مرهقاً موجعاً معاً، وقد بكت بحرقة حين علمت أن أهلها ظنوا منذ ارتحلت أنها زوجة للرجل، وأن أمر بيعها جارية لم يخطر ببال، ولم يأت على ذكره أحد، ولا حتى المختار الذي قبض ثمن عبوديتها، كلما أجهشت بالبكاء، سارع يحيى للتحدث عن نفل الصغيرة التي تعلمت الحياكة وخطبت عروساً لابن عمها، فأضحكها.

أمسكت كتفه بود، وأمالت رأسها تتأمله بشجن، تناولا ما أعدت جمان من شراب الورد في كؤوس من المينا المزجج بمماسك فضية، رشف يحيى من كأسه مستفتياً فؤاده عن النعيم، وإذا بهفوف ترفع إلى حجرها عوداً من خشب الورد.. وتداعب أوتاره، فتحلق الأرواح، وينسى يحيى وصايا المعلم النقاش، ويقع الصوت الطروب نوراً وماءً رطيباً على خشين الروح:

ما ضاق دهرك إلا صدرك اتسعا.. فهل طربت لوقع الخطب مذوقعا...

تزداد بشراً إذا زادت نوائبه... كالبدرا غشيته ظلمة سطعا*.

تمنى يحيى توقف زمانه، فلا يكون له سابق، ولا يتبعه لاحق، ذاب في وجد الوتر وتبر الصوت؛ لكنه انكفاً حزيناً، والباب المفتوح يُدخل سيلاً من البشر الأتقيين يرتون بكلمات لا يجيد حل مغاليقها، يرتدون جبات الجوخ المطرزة بالذهب، ويعتمرون العمائم الملونة والقلنسوات، ويغزون الريش في أطراف

* كلمات الشيخ صالح الكواز.

عمائمهم، يدخلون البهو الواسع، فترحب هفوف بهم وتتبادل وإياهم الضحكات واللمسات والقبلات، وتخرج إليهم من الأبواب الداخلية، جماعة من الحسان، الشقر والصهب والسمراوات، فيجالسن الزائرين، وتوزع أكواب البلور بمنقوع الورد ومخمر العنب على صواني الجواري، وتتناثر الصحون الفخارية والخزفية المعرمة بالثرید واللحم والفريك والحمام والدجاج.

تململ يحيى كأن الفردوس ضاق عنه لوهلة، وإن أوشك إطالة جلوسه لما رنت أوتار القانون، حلق في الصندوق الخشبي، وأنامل العازف تنتقل بخفة بين الكشّبان على سبائته، وريشة تتخاطف الأوتار أنغاماً ما عرفتها أذنه سابقاً، وظن لبرهة أنه مسلوب الإرادة، باق في المكان ما بقيت الحياة؛ أيقظته من غفلته ضحكات خليعة جانبية، سارع إلى الباب مكلوماً هارباً مختلط المشاعر، حاولت هفوف تخفيف روعه بتأكيد لزوم تكرار اللقاء، وتبعته المليحة جمان حتى العربة هامسة:

- تغادر ولم تسمعني أغني بعد! صحيح، صوتي ليس مثل بديع صوت سيلتي، ولكني أحب أن تسمعني.

لم يشه لهف قلبه، ولا أغواه رجاء الصبية الفاتنة، غادر مثل مطارد، تاركاً الحصان وقائد العربة يخترقان ليل القاهرة المعتم يتقدمهما حارسان مسلحان، تبلبل في سيل العواطف المتناقضة تضرب روحه، وتذروه في مهب الحيرة والوجع حيناً، وفي هيمان وانتشاء معطر مموسق حيناً آخر.

تنبه الفتى إلى أن المدينة الصاخبة الحافة بالضجيج، وسبل العيش المتنوع حرمة من قرطاسه وكتابه، وأطلقته باحثاً عن مهنة، مبهوراً بما أحاطه من صنائع وطرائق وبدع، وأحداث تعصف بالقلب، مبتعداً عن «عيون الحكمة» حتى

النسيان، مفارقاً لكتاب الله إلا فيما يدرب عليه صغار الربع ملقناً إياهم آيات القرآن دون تدبر، ساءه سبيله وأفرعه، فاختر الرجوع إلى حيث يجد ما تحب نفسه وتهوى، من تمعّن في الكلام، وتنقيب عن المعرفة، هكذا صار يسرع في إنجاز بعض أعماله في سوق النحاسين، ويكتري حمار يوسف مختصراً الوقت الذي تضعه المدينة المتسعة، فيوافي أدهم في حانوت الوراق أحمد، صاحب الحانوت الذي كان ينظره شاكاً بداو فعه في البداية، خائفاً من تخريبه لكنوزه الوراقية، صار يرحب به، يتركه يقلب الكتب والقراطيس والمخطوطات التي حفلت بالمنمنمات الصغيرة في أطرافها، ويعلمون الفقهاء والأئمة ومحترفي اللغة والكلام في متنها، مخطوطات في اللغة والنحو والأدب والكلام والتصوف والفقه والفلسفة، حُطَّت على قراطيس كتانية وقطنية.. يجلس لساعات محاذراً من الحراك وهو يراقب الوراق يضع لمساته الأخيرة ناسخاً سورة الكهف على ورق صقيل، مستخدماً خط الرقعة الأنيق، مزوداً منسوخته بالرسومات لأوراق الشجر وأشكال هندسية، فإذا ما فرغ منها، ختمها بريشته الرشيقة بعبارة «خطه العبد الطامع بمرضاة ربه، أحمد الوراق في سوق الوراقين في القاهرة، في العام الثالث بعد الألف من التقويم الهجري، كل من يقرؤه، أو يعيد نسخه؛ يمنحه الله بيتاً في الجنان، ويباعد بينه وبين المرض والحزن، ويهبه الذرية الصالحة والرزق الوفير، ويجعل مقامه في الجنة مع العلماء».

يعرض الوراق مخطوطه مباهياً، فينظر يحيى فرحاً، ثم ينبش ما تبقى من مخطوطات لم يتعرف عليها بعد؛ بحر لا قرار له خض جنان الفتى، وجعله يسابق نهاره من درب إلى درب، ما بين نقش النحاس، ونش الكلام من متون الكتب التي خيطة بنسج عقدي وشمعت قبل إلصاقها بغلاف جلدي دبغ بعناية، الأنوار التي أضاءت صفحة وجه يحيى، عالجت قلق أحمد الوراق؛ بات ينتظر زيارات الفتى،

ملاقياً من يحاوره بما في الخبر من معنى، سمح الوراق له بتصفح الكتب حتى المغيب لقاء دراهم قليلة بداية، ثم ما لبث أن أعفاه من أي أجر معتبره صديقاً للكتب وله، كما سمح له باصطحاب الكتب والقراطيس والجلود إلى الربع، ليعيدها في اليوم التالي، وقد تركت في جفنيه اسوداداً، ودلائل على ليلة لم تعرف النوم.

قلَّبَ يحيى شغفًا المصاحف المزخرفة بالأشكال والأزهار، وعثر على نسخة من «عيون الحكمة» التي يعرفها ويكاد يحفظها عن ظهر قلب إبان تأمله في سيناء، وقرأ «المقابسات»، و«الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدى، وتراجم ياقوت الحموي، و«الفهرست» لابن النديم، و«الحيوان» للجاحظ، و«قوانين مصر نامه»، وكتابات متفرقة لأعمال مجهولة وأخرى مقلدة، بعضها علم قيم أو فن بديع، وبعضها لغو، وقف مطولاً خلف كتف الوراق يرقب ريشته المستدقة تنغمس في مداد الدخان والصمغ، ثم تنساب على الورق كلمات منمنمة صغيرة.

أسرَّ يحيى لأحمد الوراق أمر اقتنائه كتاب «عيون الحكمة» بنسخة مختلفة عتيقة، فنصحه أن لا يفشي السر لسواه من الوراقين الذين يبرعون في اقتناص الغالي ببخس الثمن، وتبرع بتجليد نسخة الفتى من الكتاب، وما رافقها من كلمات رجع أنها بخط الخسرو شاهي أستاذ الملك الناصر في الكرك، وأنها كنز يجدر الحفاظ عليه، فخاط أوراقها بحرفية كي لا ينفلت الكتاب، ولا يفسده القدم، متعجباً من أثار شمع مريم الذي حفظت به الورق، فإذا ما سأله يحيى تعليمه حرفة الوراق وخط الحروف على شاكلة ما يفعل، هز رأسه رافضاً قائلاً:

- هي حرفة الشؤم كما قال التوحيدى، فيها ضياع العمر والبصر، اسمع نصيحة عجوز مثلي، اعتبرك ابنًا وصديقًا، إذا خيرت بين علم وفن أو

صنعة، فاتبع ما يسر قلبك ويطرب حالك، ولا يثقل كاهلك، ويحير فكرك،
فليست الحياة على مثل هذا الجد.

لم يكن يحيى متأكداً ما إذا كان العلم لا يسر فؤاده، فقلبه ينبض لكل معرفة
جديدة، وروحه تفتتن وهو يقرأ ألعاب حيوانات الجاحظ، كما عندما تتلاعب
غمازات الفاتنة جمان، أو حين يدق بمطرقة السوسنة على طرف الصحن
النحاسي.

يمر الوقت سريعاً والرجلان يجلسان في مرمى الإضاءة الخفيفة التي يبعث بها
قنديل علقه أحمد على مسمار كبير أعلى البوابة، يقرآن وقد يتوقفان عن القراءة
لتدوال خبر، أو شرح ما تعتم، ويسود صمت إذا ما مر في الطريق رجال الجندرية
برياشهم يتلفتون يمنة ويسرة، وإذا ما تجاوزا، هز الوراق رأسه متمتماً:
- وكم ذا بمصر من المضحكات... لكنه ضحك كالبكاء*.

يشرح لرفيقه اختلاط الحابل بالنابل، وصراع الفقارية والقاسمية وخلافهما
الذي زرعه السلطان العثماني سليم واحتال فيه براءة، حين بدأ لعبة مبارزة
الشقيقين المملوكيين تحت ييارق ملونة، فمنح أحدهما بيرقاً أبيض والآخر
أحمر، وقسم اللاعبيين بينهما، العثمانيون يلعبون دور جنود أحدهما، والمصريون
يلعبون دور جند شقيقه، ثم بمرور الوقت صار اللعب جدياً، ولم تعد المنافسة على
نياشين السباق للتسلي، وأوغرت الصدور وزاغت الأبصار، فإذا بالحقد يتسيد،
والصراع يكبر، كأنما تنغرس أقدام العامة في الوحل، كل يوم أكثر، فلا تستطيع
فكاكاً، رافعو الرايات البيض والاحمر لا يجدون الوقت لتدبر شؤون البلاد، أو
مقارعة السلاطين الذين حوّلوا البلاد إلى مزارع لهم، وحاكورات لولاتهم

* المتنبي.

وأغواتهم وعسكرهم من سبابة وانكشارية، فما ظل مصري لم يتذوق ذل الفقر،
وحرقة العازة.

وإذا مر جمع من الانكشارية على خيلهم يتمخرون، قلب أحمد الوراق
المخطوط بين يديه بحذر وانتباه شديدين، وتمتم بكلمات خفيضة حزينة كأنها
حكمة دهره التي قطع بها كل أمل :

- مين اللي قال الفرس فرسكم! دي ملك للي فوقها*..

رغم المتعة التي تبعث بها الكتب في نفسه؛ فإن أحاديث الوراق توجعه،
ومخاوف الناس في السوق والربع وقد تزايدت مع اشاعات حول تبديل الوالي
الحافظ الذي قضى أعلى ولاية عرفتها المحروسة إذ أتم السنوات الأربع، دون
إنقاذ العملة التي تدهورت قيمتها، فشحت الفضة التي تأتي من أراضي السلطنة
الواسعة، وطرح أسواق النقد بندقيات* فضية مغشوشة خالط فضتها معدن آخر
واختل وزنها، وما عاد التجار والصناع يأمنون قيمتها.

مال يحيى إلى عزلته عندما ماجت الأوضاع مجدداً؛ يحتمي بها من عجزه على
الإتيان بفعل، وفي فجر الربع الحزين بينما كانت نعمات تحفر عميقاً تحت الدفلى
وتندس صرة صغيرة، فاجأها برهوم من خلف قارصاً خاضرتها الممثلة ضاحكاً:

- بتخبي لبكرة يا جميل، هو العمر فيه كم يوم!!

صرخت مستنجدة يحيى:

- اشهد، لو أصاب صرتي نقصان فهو من يعرف مطرحها، أبو عيون زايغة.

عاود برهوم قرصها مازحاً متمادياً، قفزت إلى الراء غاضبة وهو يقول:

* من سيرة الهلالي.

* عملة عثمانية قديمة.

- يا مجنونة، أنا أعطيك؛ لا آخذ منك.. خائفة تموتي من الجوع وأنا أنفسي!
تبسم يحيى حزينا، وعاوده اغترابه يوم دخل باب الفتوح، رد إلى حجرته
يناجي ربه بكفين عاجزين، وذراعين مغلولتين:
- إلهي، جئناك، ارفع عنا قهر المذلة، وأنر دربنا إلى سواء السبيل، كي
نهتدي.

انتبه صحبة الربع إلى انغماس الرجل في عزلته تدريجيا، لم يعد يجالسهم
أمسيات شجيرة الدفلى إلا قليلا، ولا يتذكر أطفالهم إلا لماما، ولا يخطر في باله
جوع بطنه، إلا حين تؤنبه نعمات مرغمة إياه على تناول طبق البصارة، الطافح
بطيخ العدس والبصل، تمازحه بدفع ملعقتها الخشبية مملوءة إلى فمه كما لو كان
طفلا تلقمه؛ يستحي ويأخذ الملعقة من يدها ليأكل لقيمات قليلة، شاهدوه هادئا
صامتا متأملا مبتعدا عنهم، ظنوا أن له مزاجه الخاص وطريقته، وغالى برهوم في
تقدير مزاجه؛ اتباع له سراجا جديدا بدل السراج الذي يستعيره من جعفر، منحه
فرصة التمتع بالضوء المتراقص على صفحات الكتب، قبل أن يهجع الجمع في
الحجر الطينية إلى النوم حتى مطلع الفجر.

تبخر أريج الذكرى الماتعة التي خبرها في زيارة بيت الغوازي، كما أسماه
الحاج جعفر النقاش، ما بقي منها أثر في نفس الشاب المنعزل بمقدار، لكن حدثا
وقع، أعادها مثل بصة نار طار عنها الرماد، قدر لا مفر منه.

ذلك المساء وبخه حارس الدرب على التأخر في سوق الوراقين، ذكره بمحن
القاهرة ومخاوف الليل، وسمح له باجتياز الدرب إلى الربع، فداهمته رائحة
الخزامى وعصف الياسمين وإغواؤه الفتان، تخيل أن رغبات ذكورية خفية لديه
فجرت العبير، لولا اندفاع يوسف عند بوابة الربع هامسا بارتباك:

- جئن إليك .. انتظرنك في الحانوت عصرًا، عم جعفر جن جنونه، استاء وتذمر، أي والله، كاد يطردهن، ثم؛ ثم جئن معي.

بدت ساحة الربيع مثل عيد، مضاءة بالفانوس وشموع متفرقة، التف الصغار حول المرأتين الغريبتين دون أن يزجرهم الأهل ليناوما، وزعت نعمات سكاكر النداعة بكرم على الجالسين، وعرج برهوم حولهما كأنه يرقص؛ يرحب ويكرر ترحيبه ويعرض خدماته، وامراته تعدل الوسائد خلف ظهريهما، وميمون يقفز حول الشجيرة، ويشير نحو المرأتين ثم يضع كفيه مراراً فوق رأسه في توقيير واحترام، يصيح راجح متظاهراً بمناداة قرده، وعيناه تلتهمان الفاتنتين:

- الله الله يا ميمون.. الله الله... يا عسل.. يا فاهمني.

يحدق السقا تاركاً أمر تنظيف قربه للغد، ويهيم كريم الخباز في ما يشبه الغيبوبة، ويزجر أدهم زوجته التي تنظر بانبهار أبله، وتجلس البلانة وكفها يحضن وجهها، وابنتها زينب تنتهد، العالم مشغول بالمرأتين اللتين جاء بهما يوسف، انفرجت أسارير وجه يحيى وهش قلبه، واندفع يرحب مع المرحبين، لولا صدق اللهفة في عينيه لأوسعته هفوف بعثتها وملامتها، لكنها اكتفت بالقول:

- نسيئنا؟ خفنا عليك يا جاحد، لا تغب عنا هكذا ثانية؛ تركتنا نركب الخطر ونقطع دروب القاهرة إليك وسط الزعران والحرافيش.

هوى الزمن الذي راهن فيه يحيى على تناسي الجميلتين في لحظة، وعاد التعلق الغامض يحرك أشجان روحه، وطارت كلمات النقاش التي حذرت من المرأتين، وتبددت صورة الزوار الذين يرتدون الصاياء والجوخ والدمقس والريش، ويشربون أقداح الورد والعنب المخمر في صالون هفوف، حيث تعلق الضحكات الرقيقة.

تعمدت جمان كشف لهفتها جهاراً؛ لا تزيع خضر عينيها عن محياه، فاسترعت انتباهه رغم انصرافه البادي إلى هفوف، ضحكت الحسناء الصغيرة،

وألقت بالنكات، ولا مست رؤوس الصغار الحليقة، ولم تمنع في تحسسهم
خصلات شعرها الكستنائي المتماوجة، ثم اقترحت الغناء، ووسط هياج وتصفيق
سكان الربع تغنجت، وهي تبوح:

- أغني لي سمعني أحدهم، غناء خفيفاً على مقام السيكا*، مقام العشاق في
لحظة أنس، أغني لأحدهم، أغني، لمن في رأسه عيون ترى، وأذان تسمع،
وفي صدره قلب حسيس، يشعر.

تبادل المجتمعون النظرات، ودخل يحيى دوامة الود والجوى، غنت جمان
وهي تضرب صينية نحاسية رفعت عنها أكواب الكركديه المنعش؛ موقعة لحناً
بهيجاً بضرباتها الخفيفة، وارتفع صوتها فرحاً رائقاً، يعلو وينخفض مع ارتفاع
صدرها وارتدادته، وتقدم وتراجع أنفاسها:

يا قلبُ أنتَ وعدتني في حُبِّهم	صبراً فحاذِرْ أنْ تضيقَ وتضجرا
إنَّ الغرامَ هو الحياةُ فمت به	صَبّاً فحُقِّكْ أنْ تموتَ وتُعذرا
قلْ للذينَ تقدّموا قبلي ومنْ	بعدي ومنْ أضحى لأشجاني يرى
عني خذوا وبّي اقتدوا ولي اسمعوا	وتحدّثوا بصبايتي بين الوري*

ساد صمت تحولت الفضاءات خلاله إلى صدى ثم فراغ، وامتلات القلوب
صباية، حتى ميمون الذي لا يكف عن الحراك شل في موقعه، وتندت عيناه بلمع
خفيف، وانهمرت دموع نعمات، وذاب برهوم، وانجست تنهدات زينب، وفي
مرمي عينيها عينا راجح المتيتمتان، فإذا ما توقفت الجميلة التي غنت دون حرج
وعيناها معلقتان بيحيى، وهو يغض بصره ويراهما بكامل روحه، ويجتاح بهاؤها

* مقام موسيقي.

* ابن الفارض.

مجرى دمه، بينما هفوف تستبطن النظرات والأنفاس عما يدور بين الشابين من نظرات، فجأة، صاح الشمبانزي زعقة انتشاء قطعت لحظات التجلي عليهما، وأضحكت الربيع، وعاد الأنس إلى المكان الذي دبت فيه الحياة وتلون مساؤه.

من سمع الطرقات التي يعالج بها يحيى النقاش صفائح النحاس المبعوجة والمثنية والمطروقة، صواني وأباريق وقدرًا وشمعدانات، يدرك أن ثمة جديدًا في مزاجه، بات أميل إلى المرح، ففي اللحظات التي يتمكن فيها من التغلب على شطحاته، ما بين نقش تحفة وأخرى، يضحك مع المحيطين والمارة، وتوقع مطرقة أصواتًا جديدة.

دوم اس تك.. دوم اس تك.. دوم تكتك.. دوم تكتك...

لم تعد الحسناء تردد في زيارته في مشغل النحاس أو الربيع، يصطبغ نهاره بألوان فساتينها، اليك المزمر المتبدل بين أخضر وأحمر وأزرق وذهبي، تأتبه بقوس قزح إلى المكان، وتخلف الفاتنة الجريئة وراءها أريج الياسمين، كشفت له أنه بات ينقش على إيقاع بلدي، إيقاع البهجة والفرح، مغيرًا الإيقاع الرزين الثقيل الذي سمعته أول مرة.

تذمر الحاج جعفر من تردد الصبية وعيون المجاورين وهمساتهم، لكنه رغم نفوره، يعرف أن الفتاة قدرٌ أحاق بصبيه ولا فكاك منه، وأن أيّ ملاحظات إضافية ستطفش النقاش الماهر من حانوته نهائيًا باتجاه سوق الوراقين، لهذا احتفظ بأفكاره لنفسه، وراح يسمع مع يحيى حكاياتها منذ كانت مملوكة للقائمقام التركي كارتال، وكيف جيء بها من البندقية طفلة لم تحبُ بعد، ف وقعت الجارية هفوف في محبتها، واقتتها لتربيتها كما بدا لها، على حب النغم، وضرب الوتر، وجزيل الشعر، وخفيف الغناء، فإذا ما ارتحل القائمقام بمحبوبته من أدرنة إلى إستانبول فالقاهرة، تركت وراءها كل ما عرفته، إلا الصبية التي ربتها واعتنت بها، اصطحبها

رفيقة وجارية وبتًا توليها ثقتها، تسمح لها برؤية دموعها، وتقوم على ترتيب ثيابها، وابتياح حاجياتها، واستقبال ضيوفها، والإشراف على بيتها في شارع خوش في باب زويلة، لم يكن يؤلمها أن سيدتها هفوف صارت زوجة للقائمقام وتحررت، بينما نسي سيدها تسوية أمورها قبل رحيله؛ فما زال أبناء الرومي العثماني البعيدون يمتلكون نصَّ عبوديتها.

تقول بمرح:

- عرفت سيدتي الحرية في طفولتها، في جلعولكم تلك، كانت كثيرة البكاء رغم الترف الذي تعيشه؛ متألّمة لفقد حريتها، وكم فرحت باستعادتها، أما أنا، فقد ولدت هكذا؛ أمة رومية لا أعرف أمًا ولا أبًا، ولا تضيرني وريقة في إستانبول، فحتى السلطان الكبير له جارية من البندقية، هي أم ولده وخليفة عرشه، ولنفترض، مجرد افتراض أن جاريته أم الخليفة، مثلاً، ترتبط بأمي بصلة الرحم في البندقية، هذا ممكن، أليس كذلك؟ ألا أكون في هذه الحال هانم، أميرة! ألا تراني مثل الأكابر أعشق مقام السيكا، وما علمتني سيدتي من حلو الكلام! أنا أميرة يا نقاش، لكنني لا أبغي من الدنيا إلا رضاك، فلا تتبطر على النعمة، بوس يدك وجهه وقفا.

يغض يحيى نظره باسمًا، ودمه يندفع في وجتيه، فتضحك صائحة:

- تستحي!! هل يستحي المرء من دمه؟

تدندن في ترجيع ناعم:

فكانا هلالين عند النظر	رأيت الهلال ووجه الحبيب
هلال الدجى من هلال البشر	فلم أدر من حيرتني فيهما
وما راعني من سواد الشعر	ولولا التورّد في الوجتين

لكنْتُ أظنُّ الهلالَ الحبيبَ وكنتُ أظنُّ الحبيبَ القمرَ*

يطل يوسف من داخل الورشة باسمًا، ويهرع الحاج جعفر عابسًا يرد الباب الثقيل بين الحانوت ودرب النقاشين الذين يعلمون أن الصبية الرومية لم تعد زبونة عادية، ويكاد يحيى ينفرط مثل أوراق وردة تفتحت.

إذا ما زارته في الربع، تضاحك الصغار متهامسين وحمرة الخفر تجتاح وجه الفتى والغزيرة تلعب حاجبيها، وترقص غمازاتها، أو تطلق شدوها الشجي، وشعرها الكستائي يتموج على كتفيها المهترتين، ينه الصغار بعضهم بعضًا عندما تتعمد جمان إطالة إمساك كف يحيى حين الوداع، فيتقلب وجهه ويزوغ ناظره ولا يُسمع له حسٌّ، وإن ارتجفت شفتاه، لم يكن المكان ملائمًا لالتقاء العشاق، وإن كانت الجلسة في فناء هفوف العامر بالورد أكثر ملائمة لسر يتشكل، وروحين يندمجان.

حظي الشباب بمباركة هفوف ومساعدتها، لكنهما اكتشفا مكانهما الخاص الذي يهربان إليه من صخب القاهرة، وأعين الفضوليين، وانشغالات النقش، والكتب، والغناء.

خرج سكان المحروسة يرقبون موكب الاحتفال الكبير بتنصيب السلطان العثماني محمد الثالث بعد رحيل والده مراد الثالث الذي كثر تعظيمه، كانت احتفالات المحروسة صدى لاحتفالات المركز العثماني في إستانبول، لكنها أكثر هرجاءً وبهاءً؛ يحاول المحتفلون فيها تأكيد انتمائهم وولائهم للباب العالي، وقد كف الجند عن ملاحقتهم الناس وتسلطهم في طلب حصتهم، آملين عهداً جديداً

* البصري الخيزارزي.

لا تستنيهم الأستانة فيه من عطاياها الكثيرة؛ فتعفيهم من معاداة العرب المصريين،
جال المنادي بين الناس معلناً:

- لتاج مولانا، السلطان محمد الثالث، تاج الملوك، وأمير المؤمنين، وقائد
العند حامي الديار، وخليفة المسلمين، نأتي مواليين حامدين طامعين،
نرتضيه ونفتديه، ونعلن له البيعة في عامنا هذا، الموافق، ألف وثلاثة من
الهجرة المباركة.

رافق اعتلاء السلطان الجديد تخته عزل رجال العهد المنصرم دفعة واحدة؛
فتغير القوائم والوالي وقاضي العسكر، وتداول أهل المحروسة اسم الوالي قورد
باشا مقتنعين أن الزمان لا يأتي بجديد، وإن تقلبت الوجوه وبُدلت الأسماء.
يدرك العامة أن واليهم الجديد لن يحرك الأمور قيد أنملة، وأنه على أحسن
ترجيح؛ لن يصمد في القلعة أكثر من عام يسوده الفوضى ويتجدد فيه النهب، إلا
أنهم احتفلوا بذات البهجة والاحتفاء طلباً لمتعتهم، تحولت المدينة إلى ساحات
أعياد وهي تستقبل مندوب السلطان، رفح الفقاريون راياتهم البيض، وأكثر
القاسميون من الرايات الحمر في الميادين والأسواق، وهم يهزؤون بالوالي
الجديد، لعبتهم الجديدة، يسيرون باسمه شأن البلاد والعباد، نُصبت الدواوين،
وأقيمت الخيام، ومدت أسمطة الطعام للعامة من شحاذين ومهنيين وأغراب في
ساحة باب الزويلة، والجامع الأزهر، وصحن القلعة، وعلقت جبال الزينات
والرايات، وغادر الناس بيوتهم متشرين في الساحات المبهجة البهجة.
شارك يحيى الناس المنبئين في كل صوب ودرب، يتشر البهاليل بصيحاتهم،
ويدور المجاذيب في حضراتهم، وتضرب النسوة من جنكيات الروم واليهود
بالدف، وينشد المتصوفون بصوت حنون:

- دنيا الجمال بتنهى الروح.. وتطمئن الفكر الهائم.. وكل شيء يدبل ويروح..
أما الجمال؛ على الكون باين... مالك الملك في إيدك قيادي... الهمة الحق
فؤادي..

ثم بانسجام تام يتمايلون وأصواتهم تتناغم:
- الممدد.. الممدد.. يا الله مدد مدد... مدد مدد.. مدد..

توقف يحيى مسروق الفؤاد وقد خلب المشهد لبه، وضربت القشعريرة
أطرافه، فأوشك أن يميل مع المائلين، لولا كف القرداتي أطبقت على زنده وجرت
وسط الزحام، فاستيقظ.

وزع الجندمة الحناء، والبقلاوة العسلية، وتوقفت الأسواق عن العمل لصالح
الاحتفال، أقفل المصريون حوانيتهم، وراحوا ينبشون في مخازنهم وتحت متاعهم
مخرجين الفوانيس الفاطمية القديمة التي خصصوها لرمضان، واندفعت البنات
يحملنها على أبواب الدور وفي الأزقة، وجر الفنانون عربات خيال الظل بين
المطارح والساحات عارضين فنونهم، ومفردين لحكايات عنتر العبسي وجحا،
وجر الحكواتية أوتار الرباب يرددون سيرة بني هلال:

- يقول أبو زيد المسمى سلامة.. جور الليالي يبهدل الشجعان.. آهين من
الأيام... ثلاثة من الزمن.. ولا كان حسابي إن الزمن خوان... بتخونني ليه
يا دهر، تكسرني في الغضا... صبحتني بعد الهنا.. تعبان.

وصل يحيى ويوسف إلى حواف النيل، تفرجا على المراكب من شخاتير
الفقراء إلى حرايق* الأغنياء تتطوح على سطح الماء، والناس يتدافعون لحجز
رحلتهم التي تقطع النيل عرضاً بثمان زهيد، يرتفع إذا رغب الراكب برحلة طويلة،

* مراكب كبيرة.

يحملون كبارهم وبكواتهم وأغواتهم على المحففات مع رياشهم وجواربهم يغنين، شاهدا الخيام والقباب التي أقامها المحتفلون بين أكمات الشجر، يراقبون عبرها سباق الخيل، ويضحكون للبهاليل الذين اغتتموا الفرصة في تسول لطيف لقاء عرض ضاحك، في حين ارتفع صياح الباعة المتجولين في كل صوب، فذاك موسم بيع وشراء، وانتهى يوسف مردفاً يحيى على حماره إلى بركة الأزبكية، ربط الحمار عند مدخل الحدائق المفتوح على كل اللطائف والظرائف، ودخل مع جموع المحتفلين، رصد يحيى الأماكن بدقة، فإذا ما غابت الشمس، أشعل المحتفلون القناديل والمشاعل القطنية المضمخة بالزيت، وحمل الصغار قشور نارنج مجوفة مملوءة بفتائل مغمسة بالزيت، وداروا بنيرانهم القليلة ينتظرون المدفع المنسوب أعلى القلعة، الذي يطلق طلقة من النفط تضيء سطح الماء، وتسمع فرقعتها في الجيزة وبولاقي، وتردد صدى أصوات القيان ينشدن:

– ده زمان، لما كانت الناس ناس، والزمان زمان.

اهتدى يحيى إلى مدخل مكمل بالورد، يعلوه النخيل، وصولاً إلى باب لحديقة ظليلة، ثبت على بابها لوح رخامي أبيض خط فيه: «حديقة الصفصاف والآس لمن يريد الحظ والاثتناس».

كأنما وقع على الفردوس، فإذا هدأت استعراضات العامة لتنصيب الخليفة؛ أقبل كل صباح على إطعام حمار يوسف خرجاً من التبن، وسقايته بماء نظيف كي يفوز باكترائه، فيحمله عصراً؛ مرة إلى دكان الوراق، ومرة إلى حيث المربط، مجاوراً الحصان والعربة التي تأتي بجمان، يدلفان حديقة الصفصاف مارين بالمقاهي والمساقى، سامعين أصوات ضرب العود والوتر تنبعث من الخيام المضروبة على مسافات متفرقة بين الشجر الضافي، بعيداً عن عيون الراصدين، في

أبعد أجمة شجرية ظليلة، يتراجع خوف يحيى ويقبل على المحبة شغوفاً مشوقاً دنفاً.

تصرفت هفوف كما لو كانت ولي أمر الشاب الكركي النقاش؛ رغم التبسط الذي تبديه إذا جلسا في حديث، أو راحت تحكي عن تفاصيل يومها، وما تعيده ذكريات الأستانة من شجن، وما تبعته حكايات جُلجول من ألفة بينها وبين الشاب الذي تجاسر وصار لا يرفع ناظريه عن وجه جمان، يضحك لفعالها الساذجة، ونكاتها البلهاء، ويضطرب لأغانيها مهما لحن صوتها، أو انخفض وارتفع، حين تنسحب الغواية التي تفيض في جسد الصبية وعيونها العاشقة إلى الداخل لإعداد شراب أو طعام، فإن الحديث يصير أكثر جدية، يحكي يحيى عن الكتب التي قرأها في حانوت الوراق، ويشير إلى كتاب الأغاني كي يحظى باهتمام أوسع من هفوف، لكنه لا يتوانى عن الحديث حول كتب الفقه والتصوف، فكرت وهي تطالع وجهه متخذاً سمة المشوق إلى المعرفة، وسمعت بانتباه، ثم فاجأته:

- لماذا اخترت النقاش؟ ألسنت معلماً يا يحيى؟

ارتبك، نفس الارتباك الذي يصرعه مساءً ويقض مضجعه، ويختلط بتنهدات الهوى والغرام، فيتقلب مشوشاً مرهقاً لا ينام، انتظرت لحظات ريثما يسحب أنفاسه، هز رأسه وضغط شفتيه، وما رد جواباً، قالت تخفف توتره:

- لا أعترض، أنا أسأل فقط.

بالكاد يمكن سماع صوته، لولا شدة انتباهها وقراءة شفتيه، قال:

- لم أختَر، أحتاج إلى عمل اعتاش به، لست متعطلاً، ولكن.. النقش على النحاس فن، أحب عملي، أما التعليم، فأني قلق من كل كلمة قلتها لطالب قبل اليوم، أحتاج أن أصير تلميذاً لا أستاذاً، أتعلم لا أعلم.

- وما الذي يمنعك أن تتعلم؟

نظرها متعجباً، كان في طلب العلم مكتفياً بتلك الكتب التي يوفرها الوراق، وبتأمل طويل توفره مهنته التي تجعله يعكف على تحفته النحاسية، ناقشاً، رابطاً الأشكال والزخارف بعلاقات جمالية معقولة، بدا كما لو أن كل ما في الكون من زمن وأمكنة قادر على تعليمه، في ملجئه الآمن في حديقة الإياس يعاوده اهتمامه بالظل والعتمة، يرى تكرار انحناءات الأشجار ظلالاً على الممرات، يمايز بين كثافة النور القادم عبر وريقات الشجر، والتماع عيني المحبوبة والأفق الذي يزور المكان، مرور فراشة بجناحين متمائلين ترفان فوق زهرة، يعلمه شيئاً عن الحياة، القطة العمياء التي جاء بها الصغار إلى الربع، تثير لديه أسئلة متلاحقة، ميمون وهو ينظره بفيض محبة كأنه يفهم ما يدور في رأسه، يدلّه على معنى ما، لكن زمن جلوسه إلى معلم لم يعد ممكناً، قالت هفوف:

- يليق بك الانتساب إلى الأزهر.

اضطربت دقات فؤاده، ثم انحبس الهواء، استبعدت ابتسامته الوجلى اقتراحات الجارية الجميلة التي استبدل بها شقيقته الغائبة، وبدت كلماتها غريبة وسط ذلك الحيز من العطور والبخور والقصف والشراب والغناء، همست بذكاء:

- أغريب أن أقترح، وأنا الجارية، انتسابك إلى مكان وقور مثل الأزهر!

خجل من انكشاف أفكاره، وتذكر أمانيه بتلقي العلم في جامع كالأزهر، وأعدت هفوف اقتراحها محملاً بالتفاصيل الدقيقة:

- أنت مثل أخي، اسمع يا يحيى، دعك من النقاشة وانتسب للأزهر، لا تضع رأسك، وما خلقت إلا لتعتني به، لا تحمل هم التكليف، في عنقي دين كبير لأهلي، اسمح لي بسداده في تسيير تعليمك، ليس لي من الأهل سواك، امنحني الفرصة للشعور بالوفاء لمن أحبهم، وافقني فتسعدني، هو

أمر أقوم به لأنه يفرحني، ولي من الأصدقاء من يعرفون قاضي العسكر
الجديد حسن فتلي زاده، والدقردار الذي يجري جارية الأزهر من
الخزينة، سيكون مسروراً بخدمتي، ويسهل لك دخول الأزهر دون
متاعب.

طارت روحه في مهب الاختبار، بين رغبته العارمة في الجلوس طالباً في مكان
عريق كالأزهر، وقبول عرض الجارية، حاكم نفسه، وتأرجح على جبل القبول
والامتناع، لكنه اهتدى أخيراً إلى حل يشفي نفسه ولو قليلاً، أخرج خبيئة شقيقته
ونظرها مطولاً، آمن بارتباط قدره بالمشخص، وأن هناك سحراً يوثق رحلة حياته
وتلك القطعة الذهبية الصغيرة، بكت هفوف بحرقة عندما رأت المشخص
الصغير، تذكرت كل ما تعلق برحلتها الطويلة في الحياة، وما صنعتة وصاحبته
مريم من توضحيات في سبيل الحصول على المشخص الذي عبر الكرك مجتازاً
بلاد الشام وبيداء التيه في سينا ليعود إلى كفها، قبلت عطيته مدركة أنها ستعيده له في
قادم الأيام، ثم أقامت وجاريته العاشقة حفل انتساب يحيى إلى الأزهر في قاع
الربع، فغنت.

صاح صوت هفوف الشجي كما لم يسمع يوماً بهذا الصفاء والعطاء
والتجلي:

يوم كأيام لذات لنا انصرفت	بتناله حين نام الدهر سُراقاً
نلهو بما يستميل العين من زهر	جال الندى فيه حتى مال أعناقاً
كأن أعينه إذا عاينت أرقى	بكت لما بي فجال الدمع رقرقاً
ورد تألق في ضاحي منابته	فازداد منه الضحى في العين إشراقاً*

* ابن زيدون.

لاعبت جمان أوتار العود مصاحبة غناء سيدتها، ومازحت القرد الذي أصيب
بمس طروب، وردت على مغازلة برهوم المكشوفة ضاحكة مؤنبة، وتغنجت
دلاًلاً وهي تزهو بانتساب حبيب القلب إلى صرح تعليمي بارز، إلا أن مخاوفها
عكرت كامل فرحها وزهوها، همست بين جد وهزل:

- عندما تصير مولى أزهرى بعمامة، لن تبقي على محبتنا، بل قد تبغض
حالتنا، وما نحن عليه.

تفهم يحيى مخاوف الحبيبة والشك في عيني هفوف، قال وهو يوزع أقداح
شراب الورد التي أعدتها نعمات:

- لا تراهني، إذا كان الأزهر يعد تلاميذه للإيمان، فإن المؤمن يحب مطلقاً،
والكافر يبغض مطلقاً، ومن قل علمه اجتمع فيه بغض وحب، فتأهبي إذا
ما ضمنى الأزهر، لقلب يفيض محبة، حتى يغرق الربع وصولاً إلى بيت
الأزكية.

واصلت هفوف غناءها:

لو شاء حملي نسيم الريح حين هفا وفاكم بفتى أضناه ما لاقا

اجتاز عاريًا بابًا منخفضًا ضيقًا ناتئ المسامير، فأحنى رأسه متفادياً الارتطام
بالسقف المدور الصلد المحيط بالمدخل كأنه النفق، سار، طقطقت عظامه، وأنّ
عاجزاً عن الالتفات خلفه لضيق الممر، قاداته خطوات الترقب والتوجس والتطلع
إلى نور ساطع، أغمض جفنيه وهلة وقد أوجعه هجوم الضوء على ناظريه،
فتحهما متمهلاً حذراً على صحن شديد البياض، لا سطح ولا جدران ولا حدود
له، ولا نهاية لاتساعه وامتداده، ضربه الانبهار، وخالط النور دمه، فمضى يدور

مترنحاً نشواناً، ثم استقام جسده على التفاف متسرع مثلما الداو ريش، تمدد اللحم أجنحة تحف به.. دار ودار حتى داخ وتبدد.

فتح عينيه على انقشاع الحلم، فارتد إلى الواقع مختلط المشاعر خائفاً مبهتجاً متوثباً، تذكر أنه يومه الأول في ارتياد الأزهر.

سار خاشعاً محاذاة الجدار الغربي للمسجد، كما لو أنه سينكص على عقبيه، لكنه في الواقع يتمهل متمتعاً برهبة خطوه على درب غامض، وقف برهة عند البوابة الغربية المفتوحة على صحن المسجد العتيق، حين تأهب لدخول بوابة الأزهر؛ بسمل بخشوع كبير، ودلف.

كانت صلاة الضحى قد رفعت، والمصلون يتفرقون عائدين إلى البوابة حيث يلتقون أحذيتهم المصفوفة بانتظام في دولا ب خشبي، عشرات الصنادل، والشبابشب الجلدية المفتوحة، وأحذية برباط، وأخرى تنزلق بها القدم، بعضهم ينحني لمعالجة ارتدائه الحذاء، وآخرون يكتفون برفع أقدامهم وزج أرجلهم في التجويف الجلدي وهم متكئون على جدار البوابة، نظريحي مهرجان الدخول والخروج متفحصاً، فاسترعى انتباهه الكهل المعمم البدين الذي انحنى يصارع ارتفاع كرشه محاولاً ربط إيزيم حذائه، فتعيقه كتل اللحم والشحم التي تزر جسده، ركع يحيى أرضاً بوجه باسم، ومد كفيه إلى الإيزيم يعالجه وهو يخاطب المعمم قائلاً:

- اسمع لي يا عم.

أنهى يحيى ربط الحذاء وهو يسمع لهاث الرجل يتراجع، انتصب واقفاً، ابتسم البدين، وبصوت تعب لكن ضاحك مشرح قال:

- تشكر، أولادي التلاميذ فقدوا نعمة البصر، هكذا، كما ترى، لن يساعدني أحد، يجدر بي ارتداء شبشب مرن حمال للأسية، يتحمل هذه البدانة المفرطة.

اكتفى يحيى بالابتسام، فمسد الآخر لحيته الكثة سائلاً:

- ها!! خارج أم داخل؟

تنبه يحيى إلى دھوله عما جاء به إلى المكان، استعاد صحوته وهمس:

- داخل يا شيخ، أبحث عن زاوية الشيخ عبدالله بن زيد الدسوقي.

أحاط المعمم الشاب بذراعه اللحيمة، استدار به داخلين المسجد:

- شامي إذن! تعال معي، أوصلك، قريباً من مطرحي، الدسوقي معلم زاوية الشوام.

قطعا صحن المسجد المكشوف والمرصوف بالحجارة الملساء، استظلا بالفيء المحيط بالصحن، الناجم عن انتظام ستة وسبعين عاموداً رخامياً، تشع بريقاً أخاذاً في جدل جمالي رفيع، بينما زينت نقوش أحرف كوفية الجدران بالآيات القرآنية.

توزع رجال كثر في زوايا متباعدة نسيجاً متحلقين حول معلمين وعلماء يرفلون بعباءات واسعة وعمامات بيضاء ملتفة، تطوع البدن في تسمية الزوايا:

- هذه زاوية المغاربة.

تدأخل الأصوات بخير الماء المنبعث من الفسقية المزخرفة بالفسيفساء خلف الجالسين، كما تتدأخل أصواتهم وهم يتحدثون جماعة بحروف لها إيقاعات لم يسمعها من قبل تحول دون فهم ما يدور من أحاديث، ازدادت صعوبة الفهم وهما يمران بزاوية الأفارقة، وانتبه يحيى إلى خزانة الكتب القائمة وراء

الأجساد الأبنوسية اللامعة، مراكب رواق السودانية والجبرت، والأندونسيين،
والأفغان، حيث في كل زاوية مكتبة، قدر يحيى أن في كل زاوية قاموساً يعين على
التقاء العربية باللغة الأم للطلبة الذين تنوعت سحنهم وألوانهم، وبعدت أوطانهم.
توقفا عند جمع هادئ من رجال وشبان وأطفال، فقال البدين:

- هنا مطرحي، قد يحولونه يوماً إلى زاوية، لعل وعسى، أولادي ضريرون
يا صاحبي، حرموا من البصر، ولكن القلوب بصيرة، على الأقل، رحمهم
الله من رؤية جنابنا، المكعبر، المدعبل، محسوبك أستاذ العميان برهان أبو
جابر، إذا احتجت أمراً، أسأل عن أستاذ العميان، أما أستاذك في زاوية
الشوام، عبد الله، فعلى بعد خطوات على يسارك، عند المحراب، قرب
المنبر، تدخل الحرم فتجد إخوتك الشوام.

تأمل يحيى المكان بحرية وقد فارقه شيخ العميان ملتحقاً بزاويته، سار
خطوات إلى منبر علاه حجر، قرأ الخط الرشيق المنحوت على السطح الصقيل،
«بسم الله الرحمن الرحيم، مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم مَعَدَّ، الإمام المعز
لدين الله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين، على يد
عبد جوه الكاتب الصقلي، وذلك سنة ستين وثلثمائة».

قرأ الحجر كمن يعود به الزمن، دائماً يعاوده ولعه الغريب بقراءة ما خط
الأولون على الحجارة وفي جدران الأبنية، من موقعه الكاشف لصحن المسجد،
ألم برؤية المنارتين الفريدتين، واحدة غربية مزخرفة بعناية، والأخرى شرقية،
يعتلي زخارفها رأسان يرفع منها الأذان خمساً يومياً.

اقتلع الهرج الشاب من تأملاته، فقصد زاوية الشوام، داخلاً حرم الجامع
المسقوف بالخشب والمتنعم بالظل، بدا في وقفته أنيقاً مغالياً بثوبه المنشئ

وحذائه الجديد وطاقته المشغولة، على بعد خطوات من المتحلقين حول أستاذهم، عاودته ذكريات المجلس الأول، والحبر الذي غمس فيه أصابع الطفل الذي كان، دلت حيرته على جدته، تقدم خطوة قبل أن يتنبه إليه المعلم النحيل، مد المعلم ذراعه ولوح بها داعياً إياه للانضمام بحماسة ولهوجة محببة:

- اقرب يا فتى، تعال.. تعال.. أنت.. أأأأ الكركي!! تعال.

تم إدراج يحيى بن عيسى بن أبي بكر الكركي طالباً في مدرسة جامع الأزهر، وقد كتب اسمه ونسبه بخط أنيق في دفتر ناظر الأزهر الذي وضع أمام الاسم رقماً يعينه على تنظيم شؤون الطالب الجديد، وجفف الحبر الذي اندلق قرب دفتره بردن ثوبه، منبهاً الشاب إلى أنه موظف إداري لا يحمل لقب شيخ الأزهر كما خاطبه، كما أن أي من المعممين في الجامع لا يحظون باللقب، وما هم إلا علماء أساتذة، ولكن اللقب خلط العوام؛ لم يصدر به ترسيم ولا فرمان، وجامله قائلاً:

- أهلاً بك معنا، أوصى بك الدفتر دار ذات نفسه، أنت في عيوننا، المهم أن تنال رضا أستاذك، يمكنك تسميته الشيخ على سبيل المجاملة، فهو أستاذك حتى تجاز، بينما الدفتر دار والقضاة يتغيرون، وأنت بعد ذلك حر في اختيار العلوم التي تهواها نفسك.

أي علوم تهواها النفس؟ سؤال حير الكركي، لكنه وجد في تقارب الزوايا ما أضرم الحماسة في فؤاده، وزع أوقاته بين صلاة وصلاة، متنقلاً بين زاوية الشوام يدرس الفقه والحديث على يد عبد الله الدسوقي، أو ينضم للعميان فيسمع ضحكات برهان أبو جابر وحكايه التي تنقلب اهتماماً جاداً إذا ما عرج على السيرة النبوية، وقد يحلو له مجالسة المجاذيب المقرفين بباب المسجد

يستجدون تعاطف المارة، ويهزون رؤوسهم، بينما أناملهم تعد خرزات المسابح الطويلة، وتعتقد ألسنتهم على تمتمة غامضة يتخللها ذكر الله في أسمائه المائة، وقد يقوم من جلسة روحانية خطفت له إلى زاوية تعنى بعلم الفلك، أو أخرى تناقش علم الحساب والجبر، أو العلوم الحكيمة*، وقد ينضم إلى الأحباش والأفارقة في زاوية الأرتيريين «الجبرية»، حيث يقرأ معهم ما خط شيخهم حسن الجبرتي، ولا يشبه إحجام أستاذه عن الرسالة الوزيرية وتحذيره طلبته مما جاء فيها على تصفح أوراقها في خزانة الكتب، يتشي بهجة ودهشة ولهفة، وهو يفتح الدرفة عن رفوف وزعت في محاريب رخامية بديعة، وسقفت بأسطح منقوشة بحروف مذهبة، يتناول الكتب المصفوفة تباعاً، ولا يروي ظمأه، يقرأ بسرعة، ثم يعيد الكرة متمعناً بطيئاً، هكذا قرأ ما خط الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، و«ميزان الاعتدال في نقد الرجال»، وما أفاد به أبو العباس القلقشندي العباد في كتابه «صبح الأعشى»، وتقي الدين المقرئ في كتابه «الخطط»، وشمس الدين السخاوي في كتابه «الضوء اللامع»، والمؤرخ الفيلسوف ابن خلدون في مدهش ما جاء به في مقدمته.

يقول له أستاذه:

- ما زلت في مفتتح الدرب، لا تلج عمق الخزانة حيث الكتب التي تقتل أصحابها، سنقرأ على مهلنا ابن تيمية، ونناقش أفكاره، لكننا تجاوزنا في الزمان رسالة ابن كلس، لا نقرأ المختلفات، قبل أن تقرر المسلمات في قلبك.

ينهاه أستاذه عن التوغل في قراءة الكون على كل وجه، والاكتفاء بمرحلة تؤسس وعيه، في حين يحرضه أستاذ العميان على نبش كل خفي، وتصفح كل مخطوط، والجلوس لأي عالم يزيد ولو نتفة من معرفة، يقول له:

- جالس العلماء في الدنيا؛ يجعل الله مقامك إلى جوارهم في الجنة، وما يتساوى العالم والجاهل، فالعلماء من ذهب، والمتعلمون من فضة، وسائر الخلق من رصاص.

تشكل الأفكار منسجمة متناغمة في عقل يحيى، يشعر بنفسه تطفو، وعلومه تتمازج، وهو يستمع بخشوع وشجن يفطر فؤاده لآيات الله تتلى على طريقة أبي عمرو البصري أحد القراء السبعة الأشهر للكتاب.

يتصفح الكتب، ويقارن بتسامح عقلائي كبير اختلاف أئمة السنة الأربعة حول تفاصيل صغيرة، ويجترح فوق اجتهاداتهم اجتهاداً جديداً، يُفاجأ الأستاذ بنهم تلميذه إلى الكتب المنتشرة في كل زاوية، لم يأخذ أمر قلق الشاب على محمل الجد، بقدر ما عده نوعاً من تقليب الفكر على نار الشك حتى يصل اليقين، بعد أشهر قليلة رجح الشيخ عبدالله أن تلميذه يحيى سيحظى بزاوية تخصه عندما يجاز.

اختلط الهناء السطحي الذي يبدو في إقبال الشاب على قراءة كل ما تقع عليه يده، بنار خفية تشب في روحه، يزداد شعوراً بكبر الكون، وتعدده، ووحدته، وهين ما ظهر منه، وعظيم ما بطن، يعود مثل طفل أوجعه الفطام إلى «عيون الحكمة»، فيقرأ: «كل متحرك حركته تجب عن سبب آخر: إما قوة فيه، وإما خارج عنه، المحركات في كل طبيعة تنتهي إلى محرك أول، لا يتحرك، وإلا لاتصلت محركات ومتحركات بلا نهاية، واتصلت الأجسام بلا نهاية».

تدمع عيناه متفكراً بالمحرك الأول، ويشهق فؤاده وهو يسأل العقل عن أسباب استحالة حركته، وأي الموانع في اتصال الكون على حركة واحدة، كأنه ذرة واحدة!!

أفاقت القاهرة على دورة تبديل الولاية والقضاة الخطيرة التي تشهد الفوضى عادة، فمنذ الصباح أذاع المنادون في الأسواق اسم الوالي الجديد محمد باشا الشريف، وتزايد الجندرمة مشاة وفرساناً في الساحات، اتخذوا لهم مواقع حصينة في القلعة وعند أبواب المدينة وفي مداخل الحارات؛ تجددت دورة الخوف لدى العامة، احتبسوا في البيوت، وقللوا البيع والشراء، وحاذروا من المرور أمام القلعة أو قريباً من حارات الممالك، أو أورطات* الانكشارية، إلا أن يحيى تأخر في العودة في ذلك المساء الرطيب كعادته، وفتح له حارس الدرب الطريق إلى الربع، وقد بات يعلم أن لا مفر من غياب الرجل حتى منتصف الليل، عند باب حجرته تماماً تعثر بطبق القش الذي يتوسطه وعاء فارغ، كانت نعمات قد تركت له نصيبه من الحمام المحشي بفريك القمح، عندما غلبها النعاس، أغلقت حجرتها عليها تاركة الطبق بانتظاره، لتتجمع قطط الدرب وأخرى شريفة على الطبق المدهن، فترك بقاياها عظاماً دقيقة متناثرة حوله، انحنى يرفع ما تبقي من عظم مبعثر، وبرزت البلانة وسط العتمة هامسة:

- عدت يا سيدي؟

* معسكرات.

لم يتعود أن يخاطبه امرؤ بهذه الصفة، ولكنه لم يجد ذلك المساء ملائماً لتصويب خطاب المرأة التي بدت على لهفة وهي تساعده في تنظيف ما لوثته القبط، وتتحدث:

- ربنا يسامحها، أم مراد، تترك الحمام المحشي بالباب!! أظن أن القبط ستمتنع عنه اكراماً للأستاذ؟!!

شكرها معفيًا إياها من مساعدته، ولكنها لا تستجيب، وتصبر على فعلها واضعة العظام في الطبق مجدداً، تقول صادقة:

- يا ندامة.. أتركك تنظف الأرض؟! حاشاك.

ثم تتقدم بوجهها الحزين صوبه سائلة:

- أسمعني؟ أعرف أنك تعبان، لكن أنا في محنة، ربنا لا يوقعك بمحنة.

رصد التماعات دموعها المنسابة على خديها، وأبدى اهتماماً وهي تتحدث دامعة:

- يرضيك؟ أزوج ابنتي قرداتي؟

جلسا على الحجارة المصفوفة بعناية حول الدفلى، وسمح يحيى لقلبه وهو العاشق أن يتعاطف، وضع كفه على كتفها المائلة انحناءً:

- ما به القرداتي؟ راجح شاب طيب.

- أنا بلانة يا ابني، بلانة يا أستاذ، طول عمري بلانة، لا أتكبر على مهنته،

نحن فقراء على باب الله، كلنا فقراء، ولا قلنا، هات ألفين جمل، وألفين

حصان، وألفين فرشة نعام، لكن.. واعى إيه يعني بلانة! كنت أخذ زينب

معي، بلانة صغيرة، جسدانا يتقشران ونحن نخرج من حر المياه في الجواني

لبرد البراني، مرات ومرات، نستحم معاً كل يوم بانتهاء حمام النسوة،

نغلق الماء على جسدنا وندعكهما بما نسيته الزبونات من صابون،

وأحيانًا عطور الياسمين والورد والمسك، بتتي زي الفل، حتى إننا لا نرتاد بيت الخلاء المشترك في الربع، ألا تلاحظ كم نحن مميزتان؟ كم هي فلة ابنتي تقرف من الخلاء المشترك؟ أزوجها قرداتي تفوح رائحة ميمون من جلده؟ يرضيك؟ البنت لا تعرف أهمية ذلك الآن، سرقتها الهوى وغمز العيون السود، غداً، بعد فوات الآوان، تأتيني قرفانة نكرهه، ولا تطيق، ماذا أفعل حينها؟

ابتسم يحيى لفرط البساطة التي تحتوي عمقاً فائقاً، مد ذراعه كلها لتحتوي كتفي البلانة بأخوة صادقة، فاستكانت إلى إحاطته، نظر نحوها ووجهها يعكس حيرة وظلمة وارتباكاً سائلاً:

- أتظنين القلط تمتنع عن طبق الحمام إكراماً للأستاذ؟

بهتها السؤال، لوهلة ظنت الأستاذ لم يسمع شكواها، ولا أحاط بهمها وقلقها على ابنتها، وأنه يسخر منها، لكنها في وهلة تالية، أدركت رسالته الخفية، هزت رأسها استسلاماً وقالت:

- القول قولك يا أستاذ، لا تهون ولا نبيعك.

اصطحب يحيى ورجال الربع القرداتي إلى حمام خوند مخلفين قرده، ضحكوا وهم يقرصون جسد العريس الذي تعرى ولف عورته في إزار أزرق، قاده ليوانجي الحمام إلى غرفة دافئة بحذر خشية انزلاق قدميه المنتقلتين قبقبا خشبياً فوق الأرض الرخامية، وسط أهازيجهم التي أفرحت رواد الحمام، صاحوا بصوت جماعي أجش.

- يا حمام العملة.. يا حمام الغفير.. واللي عنده واحدة سمينة.. يوديها للخراطين، واللي عنده واحدة رفيعة.. يوديها للعلافين، واللي معاه واحدة

سودة.. يوديتها للبياضين، واللي معاه واحدة بيضا.. يرمي عليها البشكير،
تعالى تعالى.. يا بيضا تعالى، والنبت بيضا بيضا، والنبت بيضا وأنا
أعمل إيه؟

انتقل المحنفون إلى بيت الحرارة حيث غشي البخار الحجرة، وبقبت مياه
الفسقية في منتصفها، مددوا العريس فوق مصطبة رخامية، ورفعوا المنزر عن
جسده يلاعبون أعضائه بفجور مازح، فيدفع أيديهم شاتماً، تفتحت مسامه وتدفق
عرقه، فرك المكيس جلده بالليف والصابون وشطفه بالماء، وحف شعر إبطه،
وشذب ذقنه وسالفه، قبل أن يدلك أطرافه ويترقع أصابعه ومفاصله بحرفية
عالية، مع طقوس الاستحمام ارتخت عضلات راجح في مغطس فيض ماءً دافئاً،
وأغفى في الحجرة الأولى مستسلماً للذة النظافة والتخييلات المنتظرة لزفافه بابتنة
البلانة.

قالت البلانة لسكان الربع إن الأستاذ أشار عليها باستكمال هذا الزواج، وإنها ما
كانت لتشك في كلمة قالها الأستاذ؛ آمنوا على ما ذهبت إليه، وتحدثوا مطولاً حول
ما ظنوه من اكتمال في صفات الرجل الكركي، واختلطت أقاصيصهم بما تخيلوا
وتمنوا، فصلوا وجمعوا تصوراتهم عن الرجل بشذرات أحاديث متناثرة، وأقوال
ألقاها عرضاً، أو نظرات وابتسامات ندت عنه، ومواقف في مسيرته القصيرة
المزدانة بألف لون يجعله بطلاً يسكن القلوب.

في المساء الذي احتفلوا به بزفاف القرذاقي ابنة البلانة، أغلق الشطار المسلحون
بالنبوت والسكاكين مطلع الحارة ومدخلها منحازين لفرح المساكين، مانعين من
يشكون بأمره من الدخول، وبدا راجح وسيماً فحلاً ممشوقاً سعيداً واثقاً؛ شبك
ذراع زينب الضاحكة وهي تتوسطهم متألفة بثوب أرجواني قشيب مطرز الحواشي
بخيوط فضية منحتها إياه جمان، وقد حنت كفيها، وروح صدرها الصغير مثقلاً

تحت كردان فضي من البندقيات الصغيرة المستديرة أهده إياها هفوف بكرم،
غنوا وصفقوا وزغردوا، وشربوا شراب الورد، وأكلوا أقراص الزلايا المحلاة
بقطر العسل، وقلد ميمون نومة العروس المستحية، فضحكوا حتى أوجعتهم
أحناكهم وبطنهم وخواصرهم، وسط الزغاريد الممطوطة السخية، رددت نسوة
الربيع والجارات في الدرب الأغاني بحبور:

- درج الحمام ع الكوم... ولا فيش جواز اليوم...
- كلو بعضكم يا بنات... درج الحمام ع الجنا.. ولا فيش جواز السنة... كلو
بعضكم يا بنات...*
- ثم مال المجموع إلى صمت وانتباه يسمعون صوت جمان الشجي يتبسّط
بايقاع ولغو شعبين:
- كيف ما حينا.. يا ليلي ونجبه، كيف ما حينا... همّل بنات عمه وجه
عنلنا... كيف مص الجصّب.. يا ليلي كيف مص الجصّب... همّل بنات
عمه وجانا وخطب*.

أحنى برهوم كتفيه مسائلاً يحيى وعيناه معلقتان بحسن المليحة المغنية:
- البنت زي القشطة، ما الذي يمنعك عنها؟

تنهت جمان إلى صمت وليفها لا يحير جواباً عن استفسار برهوم،
وتجاهلت ذلك منصرفة إلى صخب العرس، لا يفوت يحيى أن محبوبته لا تقاوم
بين النساء، ولا ينكر على نفسه رغباته، ولا يكاد يداري أشواقه عند اللقاء، ومثل
مجنوب يحلم بلحظة الكشف، حلم وانتظر وتمنى لحظة تجمعهما جسدين

* غناء شعبي مصري في الأعراس.

* غناء شعبي مصري في الأعراس.

خليقين بالغرام وناره، زوجين جديرين بإعلان اتحادهما على الصورة المعتادة المتمناة، لكنه ما تحدث معها حول ذلك، ولا توقف كثيراً حول تعليق برهومة، وقد ماثله تعليق عابر خبيث نطقته هفوف، لم يكن يظن أن أحواله ستستقر إلى الحد الذي يسمح لنفسه بإنشاء أسرة، وإنجاب أطفال يرثون غربته وتشظي روحه وتشرده في بلاد الله الواسعة، كما أن جمان أحجمت عن مكائد النساء للإيقاع بعشاقهن ليصيرا أزواجاً مباركين، تناوبها إحساس بكرامة عالية، وصغار مهين، فما زالت أمة مباحة، وما هي إلا جارية ورثة كارتال باشا، رغم أنها تتباهى بين الحين والآخر بنسبها البندقي الذي يحتمل أن يصلها بالأميرات وصاحبات الألقاب الرفيعة، يعترى وجنتيها شحوب عابر إذا ما تذكرت واقع الحال، تقارن ما تلقاه من انصراف المحبين والسميعة في أمسيات البيت في باب زويلة، بتلك الهالة من التقدير والإحاطة التي يقدمها أهل الربع للأستاذ الملتحي وقد شذب لحيته الناعمة، لكنها وقد ترافقت بعمامته الصغيرة وقفطانه، فإن قلب العاشقة ينخلع متشككاً، وكلما سارت هيئته إلى وقار فإن أحلامها تتضاءل في أن يكون لذلك الحب مسلكه الشرعي، ونتيجته المرتجاة، وأطفال من لحمها يقفزون حولها، تأمل أحياناً أن صبرها وصمتها سيأتيان به مسوقاً مشوقاً، لكنها لا تراهن، ويزداد انشلاع فؤادها حين تكتشف تلك الصورة التي يتعامل بها أهل الربع مع الشيخ الصغير، لم تتوان نعمات أن تدعوه بالشيخ، وأدهشها أنه قادر على الوقوف لحظات مع شطار الحي فإذا بهم يسمحون لفقرء الأحياء المجاورة وطالبي السمر والفضولين والغرباء بدخول الحي ليلاً كي يجعلوا من عرس القرداتي حفلاً شعبياً كبيراً، تقاطروا حتى زحموا الربع، وفتحت الأبواب، وأغدقت الأشربة، ووزعت نسوة الحي على الضيوف كمشات الترمس المنقوع، وانتقل العرس بأسرجه وقناديله ودفوفه وناسه، إلى دروب الحي في الخلاء المفتوح.

الفقراء الذين شاركوا المحتفلين فرحهم في عرس الربيع، كان لديهم ما يفرحهم ويخرجهم في ذلك المساء أيضاً؛ فالوالي الجديد أبدى رافة بأحوالهم، وأجرى بعض الهبات للمساكين، وأصدر الفرمانات للمماليك من السبابة بدفع أجور العاملين في حواكيرهم وقصوره وخاناتهم وبواكيرهم، وأنزل رجاله يفتشون عن المظلومين الذين منعوا أجر عرقهم، فيأتي لهم بحقوقهم، كما أمر بالتحفظ على نتاج القمح ريثما يحدد حصة العلماء فيه، فكانت الإجراءات بهيجة للناس ما عهدوها مسبقاً، وإن تجمع الجند والمستفيدون في العهود السابقة في القلاع والقصور يبحثون أمر الوالي الجديد الذي عين قاضي العسكر عبد الرؤوف العربي مجاوراً الأزهر ومرتدياً الزي العربي دون بزة الترك وشراويلهم. أمسكت جمان صوتها تاركة زمام الغناء والطرب للعمامة يصيحون وهم يضربون طبلاً جاء به أحدهم:

- بلحك سوس يا عبده... بيعه واتجوز يا عبده.

وصل الحاج جعفر النقاش متأخراً إلى الاحتفال، كان الصخب قد اشتد وتعالّت ضحكات النساء، والبنات يدرن بين الجمع الراقص متخففات من الشالات ناثرات شعورهن كاشفات سيقانهن، والشبان يقومون برقصة التحطيب ببراعة وقد خلعوا صدورهم وعروا صدورهم، دون أن تصطدم عصيهم الطائفة برؤوس الجمهور الغفير، توقف جعفر يعلو محياه استياء حقيقي، ثم استدار قافلاً، تشبث به كف يحيى تستوقفه، شد ذراعه بحزم جاف قائلاً:

- أعود بالله، لا أشارك في جلسات المجنون، وسهرات الجنكيات شياطين الأوتار والأنغام، والعياذ بالله، لم أحضر إلا إكراماً لك، ولو عرفت بالقصف والعصف ما جئت، أعوذ بالله من الشيطان، هذه حال لا ترضي

الله، أنت أزهرى، لا تضع نفسك في مثل هذا الموقع، سبق وقلت لك؛ إلا الغواية.

وسط الصنخب وتدافع جمع من الصبية الذين خلعوا ثيابهم مكتفين بسر اويل واسعة تستر عوراتهم يتعاركون ضاحكين، لم يتمكن يحيى من استبقاء معلمه النقاش، كما أحجم عن الرد على كلماته الجارحة، وارتد إلى الجمع محتاراً، لم يلمح هفوف ترقب صمته أمام حجة النقاش، وتهز رأسها متأثرة غاضبة، وب نظرة من عينيها تستدعي جمان لتغادر كلتاها الساحة مكسورتي الخاطر حزيتين.

اختفت الفاتتان من بين الجموع، وسمع بعض الصبية سنابك الحصان تعدو في الدرب مختلطة باندفاع عجلات المركبة المبتعدة بهما، جر يحيى نفساً مثقلة بالأسى، وإن حافظ على ابتسامته حريصاً على بهجة المحتفلين رغم بؤسه وقلقه، وقبل انقضاء الاحتفال بوقت يسير، اختفى في حجرته متأملاً ما تم وما وقع؛ ضحكات النسوة، أغنيات الحب واستعراضات راقصي التحطيب وتعريية الأجساد، والزغاريد والممازحة المكشوفة، والنور ينبعث من وجه جمان فينير الدرب أكثر مما تفعله إضاءة الحطب والنفط الذي أشعله الحارس في الخلاء، صور كثيرة مفككة يجمعها عقله ثم يثقل رأسه، فيثني إلى فراشه ملقياً حملته، ولا ينام.

حرق أستاذ الزاوية عبد الله في عيني الشاب وقد أحاط بهما اسوداد السهد والأرق، قال متيقناً وهو يرد على استفسار طالبه:

- الغناء يصدُّ عن ذكر الله، ويصرف النفس إلى متع الدنيا وشهواتها دون التفكير بالآخرة، وقد ورد عن أبي الطيب الطبري: إن علماء الأمصار أجمعوا على كراهية الغناء ومنعوا عنه، وورد عن ابن الصلاح إجماع تحريم الغناء المرافق للآلة، وفي حديث صحيح لأنس بن مالك جاء: إن

هناك صوتين ملعونين في الدنيا والآخرة، مزمار عند نعمة، ورنة عند مصيبة. بل وهناك إجماع على تحريم إجارة نائحة أو مغنية، اللهم نعوذ بك من مزامير الشيطان.

مشى يحيى مثقلاً وقد تشظت روحه، يفكر بالمقرئين الجالسين حول الأبواب وفي الزوايا يقرؤون كتاب الله مجودين، وبعضهم يعلي ويخفض في قرار صوته كأنما يوافق لحناً موسيقياً، تأرجح بين القبول والرفض، ثم رق فؤاده لكل صوت جميل وكلم رفيع، عبر الفناء المرصوف لساح الأزهر مطاطى الرأس مهموماً، فوصل إليه نداء برهان مثل صوت قادم من مكان سحيق، لم يتمكن الرجل البدين من القيام إليه، فنادى بإصرار.

وقف قرب حلقة المكفوفين مقبوض الفؤاد، راعته الابتسامات التلقائية التي يرسمونها فوق شفاههم، مادين أعناقهم تجاه مصدر الصوت، وبرهان يصيح:

- يا رجل أناديك، ألا تسمع! ما بك انقطعت عنا؟ ومشيك لا يعجبني، كأن القيامة تندرك وحدك بالقيام، فتقعده محزوناً، ما بك يا كركي؟

حاول انتقاء كلماته كي لا يفسد على العميان فرحتهم بخبر وعود الوالي الجديد بتجديدات في الأزهر وإمكانية تخصيص زاوية لهم تقيهم التجمع في الصحن المكشوف كيفما اتفق، همس يحيى بسر جمان في أذن معلم زاوية العميان، انفرط فؤاده بالبوح، وتسربت كلماته إلى حاسة السمع الحاضرة لدى المكفوفين فتعاطفت وجوههم، وضحك برهان مهوناً، قال:

- استفت قلبك يا ولد؛ كيف لما خلق الله أن يصد عن ذكر الله؟ وهل نصل إليه إلا بتذوق جميل خلقه؟ والتلذذ بمتعة صورته؟ الذين فقدوا نعمة مشاهدة الجمال أكثر معرفة به وتقديرآ له في كل ضروبه، وبكل الحواس

التي خلقها الله لتعرفه، وقد ورد عن البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم..

تمت العميان جمعاً:

- اللهم صل على سيدنا محمد.

وأكمل أستاذهم دون انتظار انتهاء تمتعتهم الخاشعة:

- قال: «لتكونن من أمتي أقوام يستحلون الحرير والخمر والمعازف»، وفي هذا الحديث قال ابن حزم: إنه حديث منقطع بين البخاري وصدقه؛ ولا بن حزم كلمة فصل يقول: إن من نوى باستماع الغناء عوناً على معصية الله، فهو فاسق، ومن نوى ترويح نفسه ليقوى بذلك على طاعة الله عز وجل وينشط نفسه بذلك على خير؛ فهو مطيع ومحسن، وفعله هذا من الحق، ومن لم ينو طاعة ولا معصية؛ فهو لغو معفو عنه، كخروج الإنسان إلى بستانه متنزهًا، وقعوده على باب بيته متفرجًا، وصبغه ثوبه لا زورديًا أو أخضرًا أو غير ذلك.. صعب يا بني الأخذ بكلمة فصل، ترى في زماننا مسلمين يُحرمون شرب التنباك في الجوزة، ثم يتعودون، ويبحثون عن المبررات في النصوص الشرعية، وستأتي أزمنة يضع فيها الشيوخ بدل العمائم طرايشًا، ثم يخلعون كل ما كان، ويجدون أردية مغايرة، فوفق ذوق كل زمان تختلف حياة البشر، يستكرون ما لا يعرفون، فإذا ما عرفوا اطمأنت نفوسهم، ما للعقيدة والشرع وكل هذه المتغيرات! لا يذهبن عالم إلى التحريم والتحليل مطلقًا، كأنه في أول الزمان أو آخره، أو مالك للحقيقة دون سواه؛ فيقع في المحذور، لا يحرم بلا سند في كتاب، ولا موافقة في عقل، ولكن يماري كل من كان في نفسه هوى لسلطة، وفي عقله

تصور واحد لا يركن إليه، يرتعد مما عداه، أقول لك، وأنت المؤمن:
استفت قلبك، وعقلك، يصدقك.

ثم أشار برهان إلى طلبته السامعين باهتمام، المادين أعناقهم كأسراب طير
تقتفي أرزاقها، وقال مازحاً:

- ليس بالعين وحدها يرى الإنسان.
أغمض يحيى عينيه.. فرأى.

فتح يحيى كتاب الله بين كفيه خاشعاً فانكشفت صفحة منه، ووقعت عيناه
على آيات بعينها: «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل
هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم
يعلمون»*.

اتخذت المناوشات بين يحيى وأستاذه طابعاً صدامياً رغم ظاهرها التوافقي
على الود والنقاش في أمر المعرفة، فالأستاذ يرى إن الطيبات للمؤمنين الصابرين في
الدنيا، أرجئت خالصة كاملة ليوم القيامة، فمن أراد متعاً حسية، خمرًا وموسيقى
ونسوة، انتظر استحقاقها، وجاهد النفس في الابتعاد عما لا يحل له في الدنيا، ولم ير
يحيى أن الآية تحرم المتع على تلك الصورة، فدخل في جدل لغوي حول دلالة
العبارات وترتيبها؛ بات الأستاذ ملولاً لكثرة ما يناكفه الفتى في أمور يسلم لها من
حواله من الطلبة المعممين، قرأ علناً في مجلس الأستاذ ما خطه الامام الغزالي في
كتابه «آداب السماع والوجد»:

* القرآن الكريم - الآيات من 31-33 من سورة الاعراف.

- «البليد الجامد القاسي القلب، المحروم من لذة السماع، يتعجب من التناذ المستمع، كما تتعجب البهيمة من لذة «اللوزينج»^{*}، لا تدرك البهيمة لذته بطبيعة الحال، وكذلك غلاظ القلوب والعقول، لا يدركون لذة الغناء».

لم تتوقف مناقفات يحيى حول الغناء إلا وقد بدأت جولاته حول إباحة المشروب الجديد، القهوة، فإذا ما لعن أستاذه المجاذيب الذين يشربونها كي يجافوا النوم، وخص الشاذلية أتباع العيدورس، والتجار الذين استبدلوا البهار والتوابل بها طلباً للريح، يجلبون حبات القهوة الخضراء على ظهر السفن القادمة من اليمن، فيحمّصونها، ويسحنونها، ويبيعونها بسعر مرتفع؛ يشتريها أصحاب المتزهات والأماكن العامة وغرز المتصوفين وأصحاب المزاج والسهر، يغلونها مضيفين إليها حب الهيل أو القرفة أو الزنجبيل والعسل، لم يكن الأستاذ عبد الله على استعداد لسماع ما يفرّق القهوة عن الخمر، فقد وردت الفتاوى من مكة المكرمة بتحريم ذلك المشروب الملعون الذي ينبه الحواس، ويراق في مجالس الشعراء والمغنين والنسوة، احتكم إلى «لسان العرب» الذي جاء في حديث لابن منظور من أن القهوة هي الخمر، سميت بذلك لأنها تقهي شاربها عن الطعام، ورجع يحيى إلى المعاجم التي أوردت كلمة القهوة مقرونة بالخمر، فما وجد من ارتباط يزيد على أن الشرايين يقهيان عن الطعام ويقللان الشهية.

أقلق التساؤل يحيى، فعاد إلى أحد الكتب التي تتناول الموضوع قارئاً: «قال الحكيم داود رحمه الله تعالى: البن ثمر شجر في اليمن يغرس حبه في مارس، وينمو ويقطف في أغسطس، ويطول نحو ثلاثة أذرع على ساق في غلظ الإبهام،

* حلوى باللوز.

ويزهر أبيض، يشمر حباً كالبنديق، وربما تفلطح كالباقلاء، وإذا تقشر انقسم نصفين، وقد جُرب لتجفيف الرطوبات والسعال والبلغم والتزلات، وفتح السدادة وإدراار البول، وقد شاع الآن اسمه في القهوة إذا حُمص وطبخ بالغاً».

حكيم الأزهر كبير الأطباء أيضاً أوقع يحيى ورفيقه برهان في حيرة، إذ ذهب إلى أن الطبيعة الباردة الجافة للقهوة تضر بصاحب الطبع المعتدل، لكنها حين تصير مشروباً تقطع البلغم عن الصدور المعتلة، وقد يجب على من كان سوداوياً الابتعاد عنها، إذ تزيد أرقه واكتابه، مال الطبيب إلى تصنيف المشروب نوعاً من الداء المذموم احتساؤه لغير التداوي، لكن يحيى قال مستشرفاً ما قد يكون:

- هو شراب يحقق شيئاً من اللذة المحايدة، وسيكون مشروب العامة في قادم الأيام، كما شراب اليانسون والكركيه والزعر والنعناع، ولا أرى في تحريمه إلا خوضاً فيما يضيع الوقت، ويصد عن كباثر الأمور.

اشتد أستاذ الزاوية عبد الله في تحريم القهوة مدعوماً بالفتاوي القادمة من مكة وإستانبول ودمشق، فأفاض وزاد، نكاية بتلميذه الكركي، وجمع حوله نفر من السامعين يفصل لهم ماهية ذلك المستحضر المفزع، وانفرد بالكركي يؤنبه لكثرة وطول الجدل، ويذكره بفعل السلاطين ونقمتهم وما هم عليه قادرون، وضرورة تفادي غضبهم، قائلاً:

- أفتى فقهاء إستانبول بحرمة القهوة، لا تجلب على فقهاء الأمة الأذى، ولا تقطع أرزاق الأزهرين بالترهات، فوالله إنهم بفرمان يأتي في ليل، يغلقون مسجداً، ويوصلون أبوابه، ويعطون فتاوي الشافعية منا لصالح الحنفية من أتباع السلاطين العثمانيين، لا تظن ذلك بعيد محال، ألم يوقف صلاح الدين صلاة الجمعة في الأزهر سنوات، لظن في نفسه أن المكان يجمع الإسماعيلية الرافضة!! وما عادت صلاة الله يوم جمعة تؤدي في هذه

الرحاب إلا منذ مئة عام، اعرف قدرك جيداً، وقس خطوك وزلات
لسانك، ولا تجلب علينا وبال أفكارك يا ولد، ولا تظن أن ذلك الأمر من
توافه الأمور، ولا يقاس بما ذكرت لك من فواجع، فقد أجمع فقهاء
إستانبول على تحريم القهوة وقرنها بالخمير، وعلى ما فعلوا وقالوا؛ نُقر
ونسير.

أصلح الوالي الجديد تالف الجدران وما تهشم من البلاط والخشب والنقوش
بفعل الزمن في مبنى المسجد الأزهر، كانت جموع الفعلة المتبرعين بعرقهم أو
المسخرين تتناوب في العمل طوال ساعات النهار، لكن القاهرة ماجت مجدداً،
الفقراء الذين كانوا قد استبشروا بالوالي منصف العلماء ومحقق الحقوق، الذي
آمن المساكين من خوف وفقر، فأجرى المطابخ المجانية في التكايا والزوايا، راقبوا
وجلين حراك الانكشارية المسعور، وإن انصب في معظمه على الوالي الذي يجمع
حوله العلماء مبرراً تقرييهم ورعايتهم بقوله:

- هؤلاء سلاحهم الكلام، وهو أشد من السيف.

لم يرق للجند تعيين قاضي العسكر عربياً يتقرب إلى المساكين دونهم، ويعطي
العامّة الأرزاق والهبات دون وجل من سبابة أو انكشاريين، كما لم يرضهم تغيير
معايير توزيع القمح وتقليل حصصهم مقابل زيادة حصص العلماء ومخدومي
الدواوين من صغار القوم، فعادوا إلى مضايقة الناس في الأسواق، وأرسلوا يشنون
بالقاضي في إصراره على اللباس العربي والعمامة الصحراوية، وما يحمل هذا
التصرف من دلالة على التقليل من هيبة الترك، ساندتهم السبابة في أول تحالف يقوم
بين مصلحتي الفريقين من عسكر آل عثمان؛ أرسلوا المراسيل تصف حال
القاهرة، والفتن التي تقوم بين العلماء الذين يدلّهم الوالي، فيسرف في صيانة

أبنيتهم، ويتركهم يطلقون العنان لفتواهم على مذهبهم دون مذهب السلطان، كما لم يتخرج أعيان المماليك من نقل ما يرد على السنة المصريين من نكات ومساخر سفيهة بذئنة، يهزؤون فيها من السلطان، وأمه، وجنده.

وثق العسكر في انتصار السلطان في إستانبول لهم على الغوغاء، فهم حُماته، وشوكنه بين رعاى العرب، وأمم الأرض التي يمد ظله عليها؛ لم تتأخر ردود الفعل السلطانية، فبدأت بعزل قاضي العسكر وقد جلس إلى كرسية أربعة أشهر لا تزيد، وعين بديلاً عنه حسن فتلي زادة، فما طال فرح العامة واستبشارهم، وانكفؤوا مجدداً على الخوف والحذر، بينما نادى المنادي بعزل الوالي، وتعيين خضر باشا الوزير.

تحلق الطلاب وبعض الشيوخ والصوفيين والدارويش في صحن الأزهر خارج الدرس حول يحيى، وقد مل تكرار حديث القهوة والبلاد تصطخب، وعلا الهمس حتى بات جهرًا، توقع العلماء والطلاب انقضاء زمان الهدوء في الأزهر وفي المحروسة كلها، وتزايدت الشكوى من انخفاض قيمة المسكوكات من بندق وأقجة مغشوشة تناقص وزنها، وساد ترقب ورعب مما سيكون من الوالي الجديد الذي جيء به من بغداد كي يسوي ما حاد عن الدرب من شأن مصر وأهلها، خاصة أن السراجين والدلاة والعسكر باتوا يجوسون الحارات بأمر من الوالي، ويدهمون البيوت بوجوه عابسة وأسلحة مشرعة، فيسبون، ويقتطعون ما شاؤوا دون حساب؛ تكميلاً لخراج مصر الذي طلبه السلطان قبل أوانه، بحجة مرور السلطنة في زمن ضيق وظروف صعبة.

وصل الوالي الجديد وفي نيته عقاب المصريين، ورسم حدود لا يتجاوزونها؛ كي يتناسوا التدليل الذي أفسدهم به واليهم السابق، حتى إنه أسر لقاضيه يحيى بن زكريا وهما يبحثان في سبل لجم المصريين، قال:

- أريدك أن تنسي الواحد منهم حليب أمه .

اكتظت مراسي النيل وشواطئ الإسكندرية البحرية بالمراكب التي تحمل مساهمة أهل مصر في خراج العثمانيين، وتدافع خلق كثير يحملون وينزلون، بينما فئران الموانئ والشطوط تتقاذف بين أقدامهم، وقد سمن بعضها وصارت جرداناً رمادية بأذيال طويلة، بوصول خراج الفضة والذهب من إستانبول إلى أتباع السلطان؛ رفعت غلال كثيرة على أسطح السفن، وطالب الكرد والجركس والروم بحصصهم في الخراج، واقتطع المماليك والانكشاريون والسادة والأعيان وزعماء قبائل البدو المحيطة حصصهم قبل إقلاع السفن، حتى بدا للناس أنهم لن يوفوا بالمطلوب منهم ولو باع الواحد منهم أسماله ولحم عياله، خاصة أن النيل لم يوف ويرتفع، وانحسر فيضانه عن الأراضي الزراعية في ذلك العام، خشي السقاؤون من اغتراف ما تعودوا من مائه، وصار من المألوف أن تقع العين على مجموعات من فقراء الريف الذين زحموا المدينة بالشحاذين والمتعطلين، فكثر المشاحنات وعم النهب، وشارك العسكر الذين ينزلون الساحات لفض النزاعات في نهب ما تبقى؛ تاركين الرجال عراة إلا من سراويل تستر عوراتهم، بعد أن يعملوا عصا النبوت في أجسادهم.

لم تطل فترة هناء الناس، وتوقفت الأعمال الترميمية في الأزهر، وعاد الرعب يتسدد الحارات والدروب والأسواق، لم تكن الحال مواتية للجلسات الرائقة الوادعة في زوايا الأزهر والتفكير بالكتب، وسماع الشروح والتفاسير، فمعظم الطلبة غاضبون، المصريون منهم أصابهم غيظ على ما يرون فيه أهليهم وديارهم، والغرباء المجاورون حرموا من إمدادتهم وجرياتهم التي تعرضت للسطو قبل أن تصل إليهم، التجأ بعضهم إلى العبادة أكثر من الأدعية والتوسل، إلا أن الشبان منهم، وأصحاب العلم الغزير من أساتذتهم، افترشوا واسع الصحن، وناقشوا

بمرارة أحوالهم باحثين عن حلول عملية، ظن البعض أن خروج أئمة الأزهر إلى القاضي الجديد الذي صاحب تعيين الوالي قد يكون مجدياً، قد يجري أرزاق الفقراء في مطابخهم، أو ينقذ الطلبة الغرباء بعض حقهم في حصة الأزهر في الخزينة، تبادلوا الأفكار والاقتراحات، بينما يحيى وأستاذه عبدالله واقعان في صمت عميق يستمعان، فإذا خرج يحيى عن صمته قال:

- ظننت؛ وأنتم نور الأمة وسراجها، أنكم تريدون حالاً لا هالي المحروسة، لا لقعدي الأزهر وحسب!!

فهم الجالسون الملامة، وراح البعض يصف استحالة الاخذ بالقوة لتغيير منكر ما أحاط بهم، ويحيله إلى عسير الأمنيات التي دونها الموت. الذين خاب أملهم في أنفسهم وفي الدنيا؛ أطلقوا أصواتهم بأدعية تصب النقمة على الأحوال، وتدعو السامع أن يستفيق، وتتوسل الله لرفع مقتته عنهم، وجور المماليك وعسف الجند وخيانة القائمين على الرزق عن البلاد، وسكوت الوالي عما يصيب الأمة من أذى. قبل أذان العصر بقليل، فتحت بوابة الأزهر الغربية على مصراعيها؛ حتى سمع صرير الحديد على الخشب، وداست سنايك الخيل في قفقة هو جاء حرم صحن الجامع المبلط، ولاحت رايات الانكشارية ترفرف، وقفاطينهم تنفخها الريح وراءهم، وسياطهم تهوي على أجساد الصبية المتحلقين في جمع الداعين، اندفع الأساتذة يتخطون إلى الحجر الجانية ووراء الأعمدة، وتفرق الطلبة والمجاورون وتعال الصرخات، والجند يتناولون من تلكأ في الهرب من ذراعيه رافعين بجسده فوق خيلهم موثقين ذراعيه؛ لم يكن اقتحام الأزهر على هذه الصورة العنيفة المقيمة مسبوقة، ولم يدم طويلاً، رسالة موجزة تهدد وتعد، واختفى من بين الطلبة خمسة بين مصريين وحش وشوام، لم يكن عسيراً التنبؤ بما سيتعرض له الرجال الذين تم أخذهم من تعذيب قد يصل إلى حد القتل.

رغم فجعية ما جرى في صحن المسجد تمتم برهان:

- مصر ولادة، يأخذون عشرة فيولد مائة.

هز الأستاذ عبدالله سبابته في وجه يحيى غاضباً:

- أنت، أنت حرشت الطلاب، الآن، أنت ومعلم العميان، معمي القلب هذا،

كلوا واشربوا نتائج أفعالكم، اطفحوا، الناس تريد العنب وأنت تطاول

الناطور، لن نرى قرشاً من الدفتر دار بعد اليوم، خلوا المطابخ للفيران،

والمساكين تجوع، والدروس تتعطل، والله أعلم.. الله أعلم، المخفي

أعظم..

ارتفع منسوب بحر النيل فجأة وأفاض، لكنه لم يرفع الكمد والحزن عن كاهل

الناس، وإن زاد في نتاج الأرض، ومكن الفلاحين من سداد بعض ديونهم

للسلطان، وفارق عدد غير منهم المحروسة لقضاء مصالحهم في مزارعهم

وقطائعهم، وخفف غلواء السباهية الجزعين على مكاسبهم؛ قدر الكثيرون أن

اللحظة فترة استراحة معقولة بين هوجتين، كما يحدث عادة، استعادوا رويداً رويداً

إيقاع حياتهم؛ يتجمعون في المقاهي يسردون سيرة عنترة، وعلى أبواب البيوت وفي

التكايا والزوايا، وصحن المسجد الأزهر، ينسل بعض الطلبة من زواياهم منضمين

إلى جلسة يحيى الذي ما عاد أستاذه يرغب في استقباله، وكان واضحاً أنه لن

يجيزه، إلا أن ما يشغل بال الكركي وصحبه يدور حول همٍّ واحد غامض، ماذا

نحن فاعلون؟

طال انشغال يحيى بجماعته الغاضبين الحائرين، وباعد بين ليالي العشق؛ فما

عاد يرتاد وجمان روضة الإناس والصفصاف، لم يمحُ ما خط في فؤاده للصيبة التي

ما عادت تعود، ولا يعودها منذ عرس القرداتي، كذلك سيدتها التي اكتفت بتسديد

رسوم الفتى بالأزهر دون لقاءه، وفي مساء رائق، مالت نعمات إلى الرأس المععمة،
وهمست عاتبة:

- رمضان في الباب، لم يعد أحد يجيب لنا صفائح الجبنة الحلومي، الله ما ألد
تلك التي كانت تجيبها هفوف، لم نعد نسمع أخباراً عنها! أيقاطع المؤمن
أخته! أليست هي أختك في المحروسة؟ ثم، يا حسرة على العشاق، ربما
زهقت روح البنت جمان، وأنت يا قاسي، ولا أنت هنا.

كعادة نعمات تترنم بصوت خفيض بحكايا شقيقها الحكواتي، لكنها تعلي
الطبقة لتمتع في إيقاظ أشواق الرجل:

- أنا لم لقيت لي سعد ولا بخت، ولا خل صادق قناني، كلام الغربا
وحملناه، قلت علينا كما ريح هاوي، كلام القربا.. آآآخ مناه، يحرق فوق
فرش الكلاوي.

انبعثت ذكرى من لا ينساها شوكة في خاصرته، قض العتب مضجعه، لماذا لا
يتزوجها؟ كان السؤال الحائر أبداً يداهم، صغرت همّة الهوى، وصار السؤال؛
لماذا لا يصلها فحسب! كأنه المعلوم المتهم الخائن للعهد، أوشك على البكاء، لا
يحير جواباً، وأدهم يصيح فوق السور:

- لا أظنها ليلة رمضان، سيكون شعبان، السماء سودة ولا هلال ينيرها.
لا يمكن أن تكون السماء سودة، قال لنفسه، لكنه رمضان يختبئ ريثما يروي
المعمم عطشه وجوعه من الحبيبة؛ أسر لأدهم برغبته في زيارة باب زويلة، عارضه
بشدة، فالعتمة حالكة، والوقت قد تأخر، ولا يؤمن حدث مفاجئ يذهب بحياتهما،
لكن العاشق ألح راجياً، حتى فك أدهم عقال بهيمته، معيراً إياها ليحيى ليمتطيها
وسط عتمة وترقب القاهرة إلى باب زويلة.

وصل يحيى إلى باب البيت فجراً، والنور يسقط في النقوش الخشبية مجاوراً للظل، عصيت أنفاسه وذكرى نقش السوسنة على حواف الأواني النحاسية يداهم، ربط البهيمة بعمود خشبي في الجوار؛ أوشك على الارتداد عن الباب، ولكنه قرعه.

اعترت الدهشة الفتاة التي فتحت طرف الباب، إذ مضى زمن لم يطل فيه الشاب الكركي، لكنها أعلنت بحماسة:

- ستي.. ستي.. هاذ قريبك..

لم يكن استقبال هفوف على مثل حماسة الجارية الصغيرة، دعت له للدخول بفقر ملحوظ، وتعمدت التظاهر بالنعاس، والثأوب بين كلمة وأخرى، وراحت تتمم بارتخاء حول جهلها ما إذا كانت جمان نائمة أم استيقظت، جلس وسط أثار سهر وقصف الليلة الماضية، الكؤوس المتناثرة، والأرائك المبعثرة، وبقياء أطباق الفاكهة، وقشور اللوز والجوز تعم صالة البيت، توجس متذكراً جموع الجائعين العراة وأيدي الشحاذين التي تتوسل المارة في كل درب في المحروسة، شعر بإثم جلوسه في ذاك الموقع، وإثم سابق اقترفه عندما تمكن الهوى من فؤاده، فما سعى لتصويب ما بينه وبين المحبوبة في زواج شرعي يبعدها عن تلك الحياة الماجنة، تشظت نفسه حيرة، وحين أطلت جمان بمنامة قطنية ناعمة انسدت حول جسدها الرشيقة، وشعرها الجعد مبعر فوق كتفيها، ووجهها نظيف من كل زواق، فزت روحه إليها، لم يعد متردداً، ونسيت وهي العاتبة المجروحة قراراتها بمقاطعة الحبيب، رأت عينيه المتعبتين في غبش الفجر وعمة الحجرة، وهمست بعتب كالبكاء:

- اشمعنى يا نور العين.. دمعي رخيص، ودمعك أنت اللي غالي؟

اندفع كلاهما كما شلال ينهمر إلى عناق محموم، انسحبت هفوف دامعة،
وخلا المكان لعتاب يسكته لمس، ويذيب قاسي كلامه همس، ما عاد التنصل من
سؤال الارتباط همماً يخص يحيى وحده، وقد طرحه مستبشراً آملاً، لكن الفتاة
أسبلت جفنين حزينين قائلة:
- لا أريد.. لا يمكن..

كادت الصدمة التي رافقت الوله والشوق تودي بروح الشاب الراكع على
سجاد الصلاة مسنداً ذراعاً على يد الأريكة، وذراعاً على فخدها، شرحت
وصوتها ينخفض حد التلاشي:
- لا يمكن.. لست حرة.. أنا جارية.. عبدة.

وقف زائغاً مرعوباً، ثم انهد جالساً جوارها، محاولاً تمالك نفسه؛ احتضن
جسدها الراعش المضطرب، لم يكن على قدر ما يعرف من شؤون الحياة وما
خطته الكتب، يدرك أن جمان أمة لا تملك حق التصرف بنفسها، وبداله أن
الحديث مرعب يشل خطواته، وهي تدعي أنها لا تليق به إلا لو كانت حرة، هصر
جسدها بين ذارعيه يخفي ارتعاشه ويخفف من انفراط رعشتها، ويمزج وجعه
بوجعها مواسياً، دفن وجهه في شعرها ساتراً دمهعه، بينما دمعها يلل كتفه، وفي هداة
الفجر الحزين؛ كشف نواحيهما الفاجعة التي أبكتهما.

لم تجزع هفوف وهي تستمع لشكوى العاشقين، ورجحت أن بعد المحروسة
عن إستانبول، وانقطاع الصلة بينها وبين أبناء زوجها الذين يمتلكون صك ملكية
الجارية جمان، كليل بجعل الصبية تشعر بالحرية والأمان في الارتباط والارتحال
إلى حيث لا يمكن لكائن العثور بها، لكن جمان أبت، ووضعت أمر نيلها حريتها
عشرة؛ لا بد من تجاوزها للارتباط بمن تحب.

بحث الجاريتان بكد عن الثغرات والإمكانات التي تتيح منح جمان حريتها، راسلتا أبناء القائمقام كارتال في إستانبول، وراجعتا مفتي الأزهر في القاهرة، وجالستا الشيخ برهان تستمعان إلى موافقته على ما ذهبت إليه هفوف، إلا أن جمان تعنتت، وأعلنت أنها لا تحرك ساكنًا في أمر مستقبلها حتى تصل الوثيقة التي تحررها؛ تحملها معها أينما حلت وارتحلت، وتكون صفتها وبرهانها إذا ما تزوجت أو باعت واشترت، كأن تلك الوثيقة اعتراف بالحياة وبالوجود، بدت جمان واثقة من أن هذا هو الحل الوحيد الذي سيغير مجمل حياتها، ويجعلها كفوًا ونداً للكركي الأزهري، ورضخ يحيى لتعنتها، واستسلمت سيدتها وهي تنتظر خبراً يقينًا، وإن كانت ضمّنت مراسلاتها مع أبناء زوجها عرضاً سخياً تشتري بموجبه الجارية لتنتقل ملكيتها لها، فتعتقها دون منة، وتتيح لها تحقيق زهوها بكرامة واعتداد.

دخل رمضان في السنة الثامنة من الألف الأول للهجرة على القاهريين في صيف، وقد بدؤوا يقبلون دون اعتياد أو نفور مصاحبة التاريخ الهجري بالميلادي، يضعون شهر الصيام في عامه الستمئة بعد الألف متسائلين عن تلك الهوة الواسعة بين التاريخين، وما الذي كان فيها من أمور العباد وحكايا البلاد، لكنهم ينصرفون باهتمام احتفالي إلى طقوس رمضان.

انشغلوا بحلقات الذكر ومجالس الوعظ وصفوف الصلاة، ثم بهيج الليالي، وعادت زيارات الفتاتين إلى الربع تؤنسان لياليه، وتحرضان أهل الربع الذين يتجمعون حول طبق واحد لإفطار رمضان، فيأتي كل واحد بما قدر عليه، ينتظرون رفع الأذان، فيشربون ويأكلون البلح الجاف، ثم يقفون وراء يحيى في صلاة خاشعة، قبل أن يبدؤوا مساءهم متحمسين في طلب المأكّل والمشرب كما في مناقشة مستقبل العاشقين، حلموا وهم يأكلون حبات القطايف المحشوة بجوز

العين جمل والزبيب التي أعدتها العروس، إذ باتوا يسمونها العروس، وقد أعدوا بخيالاتهم ليلة أنس لا سابق لها؛ يزفون فيها الأستاذ وعروسه، لم يعد عجيباً في الدرب أن يظل باب الربع مفتوحاً حتى ساعات متأخرة من الليل، حتى حراس البوابة الخارجية للحارة الذين يحكمون إغلاقها بالمزليج، صاروا يتركونها في رعاية أحدهم متناوبين الانضمام إلى أهل الربع، يسمعون صوت الطرب ودق الوتر بعد ساعات من صلاة التراويح وترتيل القرآن، فيسكب حارس الدرب لنفسه كوباً من القهوة الشهية محافظاً على يقظته، ريثما ينتهي نهار ويتصل بنهار جديد، في حين يتبادل العامة منقوع السوس أو اليانسون، ويسردون ما تمنوه من حلم ليلة العرس الموعودة، ثم ينعمون تباعاً؛ مخلين الليل للعاشقين، تقطع هفوف أنسه بمزاحها الثقيل.

تخرج عربية السيدة وجاريتها فجراً من زقاق الدرب، فيشير لها السقاؤون وبائعات الحليب، إنها عربية حبيبة الكركي التي ستشتري حريتها قريباً، وسيكون لها كما في الأحلام، زفاف أسطوري ولا قطر الندى.

فارق يحيى جزعه، لا يؤرقه العشق إلا اشتياقاً، متوافقاً مع نفسه، لا يحمل الدنيا على ميزان الحلال والحرام، يقلب خيارات قلبه وعقله فلا يجد تناقضاً، وفي مجمل تفاصيل الحياة ما عاد معنياً بكثرة النقاش واحتدام الجدل وجفوة أستاذه، يشعر بخفة تطير روحه، وتغمره بسعادة ملونة يستطيع معها مزج العشق بجذو التعلم كما يذوب في جمال التأمل، يجلس في كل زاوية وإن تباينت العلوم المطروحة فيها، يسمع بانتباه، ثم يفكر بانتباه أعظم؛ يختار ما وافق العقل، ورغم زخم جلسات القراءة والتفسير والحديث التي واكبت صيام رمضان، إلا أن ليل الأزهر المضاء بالأسرجة والفوانيس يتيح هدأة للتأمل والخشوع والتعبد، يتفحص في منزله كنه الكون وماهيته، يتحسس وحدته وارتباط أجزائه التي تبدو من عناصر

شتى متغيرة ومختلفة، كاشفاً عن ارتباط وثيق في كل عجيب، وقد ينادم برهان ويبوح بهواجسه الحائرة خالطاً العلم بالحدس:

- نفسي تشد التنوع وترتضيه؛ وهي النفورة صعبة الإرضاء، وما أظن التعدد فراقاً بين عناصر الكون الفسيح، بل تجلّ لوحدها، كما في الحساب، ليس هناك إلا رقمان اثنان، تقوم الحياة ما بينهما، الواحد والصفير، الفراغ وخالق الفراغ، ونحن حصيلة اندماجهما، وما الأرقام المجردة المتداولة التي نعرف، إلا نتاج علاقة بين الصفير والواحد، وكل يأخذ منزلته بمقدار ما ينطوي فيه منهما.

لا يناقش يحيى تلك الصور التي يتوصل إليها عقله أين ما جلس، متأكداً أنه ما زال يقلب أفكاره ويمتحنها، لكنه في العشق أناخ روحه وعرف داره، حين تلتمع عينا جمان وهو مقبل إليها، يظن العالم فتح أبوابه، وكشف مدهاه، واستضاء بنور عظيم، يضع كف حبيبته على صدره هامساً:

- هنا قلب يعشق عينيك، وما يفيض منهما من كون يتشكل، وكون يغيب، أساس المعرفة كلها ابتلاء القلب بوله صحيح، فتتكشف له الحياة، ويصل إلى عشق الحياة بمجملها، وتفاصيلها.

تغني وقد تلقفت كفه وأودعتها فوق نهديها، وراقها استبقاؤه كفها على صدره:
حبيبي على الدنيا إذا غبت وحشة فيا قمرًا قل لي متى أنت طالع؟
لقد فنت روعي عليك صباية فما أنت يا روعي العزيزة صانع؟
وغيرك وافي فما أنا ناظر إليه وإن نادى فما أنا سامع
تذللّت حتى رق لي قلب حاسدي وصار عزولي لي في الهوى شافع

وإن تتفضل يا رسولي فقل له محبك في ضيق وعطفك واسع*

يهز العاشقان رأسيهما ويتأرجحان معاً مرددين:

- يا ليل.. يا ليل.. يا ليل.. يا ليل.. يا ليل..

لم تكن مخاوف الأستاذ عبدالله الدسوقي حين راح يجادل طالبه محتداً من نسج أوهامه، فقد هيأ الوالي خضر باشا الوزير للأزهر ضربة ناجعة تحولته إلى واحد من معاقل السلطان، عزل قاضيه مستجلباً قاضياً مرناً مطواعاً ينفذ مخططه الكبير الذي سيغير تاريخ الجامع بل المحروسة كلها، وما جاور أو بعد من الأراضي والبلدان التي ينفرش في سمائها ظل آل عثمان، في ليل، كتب وقاضيه المولى عبد الوهاب أفندي فرماناً يُرضي السلطان، ملغياً صلاحيات شيوخ الأئمة الأربعة بجرة قلم، مكتفياً بهيمنة المذهب الحنفي، مذهب السلاطين الأتراك، الذي يرجعون إليه في معاشهم، وعنه يصدرون الفرمانات، ويطلقون الفتاوى، ويحكمون بالتراسيم، ويتعاملون مع الناس، وزع الفرمان الحاسم الفصيح الذي لا يحتمل التباساً في مواقع الفتاوى وسن القوانين أولاً، بُدئ الأمر في زوايا الجامع الأزهر، ومكاتب مالية البلاد، وفي كل دفتر رسمي يصدر في المحروسة، وضع الوالي خضر باشا الوزير خاتمه الذي يحمل اسمه وصفته كخادم للعرش، في خنصر يمينه، وحبره، ثم دقه نقشاً على الفرمان.

دب الذعر في الجامع وبين العلماء والأئمة، وكثر اللغط بين الطلبة وعامة الناس الذين تفتنوا فجأة إلى تمايز المذاهب؛ وما كان هذا مما يتنبهون له في معاشهم، وتبلبل الشيوخ على مختلف مذاهبهم في فهم الاجراءات المترتبة على

* قيس بن الملوح.

الفرمان، وهل يحمل في طياته وقف دروس المذاهب الأخرى؟ وهل يدل على انحسار زمان بعض الأساتذة والأئمة؟ انكفأ بعضهم متحسرين مهزومين، وتساءل آخرون مع يحيى، إذا ما كان هذا منعاً لكل اجتهد قديم، ونهياً مبطناً عن كل اجتهد جديد!!

اعتكف يحيى ونفر كثير في الأزهر في الليالي العشر من رمضان متوسلين ليلة القدر، متقلبين بين الدعاء، مناقشين هول ما وقع وبلبل علماء البلاد، وشتتهم بين داعٍ إلى القبول والرضوخ؛ خوفاً من انتقام دموي يطال المحروسة كلها، ومنتحٍ عن الدرب حزناً مستسلماً، وآخر يرفع صوته بالشكوى معترضاً، عدا عن طلبه علم اختاروا العودة إلى بلادهم، أو التوجه إلى جامعة القرويين في المغرب، احتد خلاف المعتكفين مودياً بخشوع الانعزال والتعبد، دون أن يثمر حوارهم عن فعل يسوي أمورهم، اكتفى يحيى في الأيام الأخيرة من اعتكافه ببعض الماء والتمر، فتحل واسودت جلده وغامت عينيه، وهو غارق في الكتاب يدوي بآيات الله حدساً ينبى بوجع آت إليه.

لم يكن جديداً أن ينظر أستاذه إليه شزراً إذا مر جواره، فمنذ تزايدت الاختلافات بينهما، ووقع الجفاء، والأستاذ يحمله وزر ما حل بالأزهر، ويصرح بامتناعه عن إجازة ذلك البدوي الحائر، الخارج عن المؤلف، مؤكداً أن الرجل سيأتي بالفتن إلى من يحيط به، ولن يحقق خيراً أو نجاحاً يصبو إليه.

تجنب يحيى الاحتكاك بأستاذه، لكنه لم يتمكن من الانغماس في خلوة بينما الأوضاع تموج بالغضب والحزن العام، تكدر وهو يشاهد رفاقه يحملون بقجهم وأطعمتهم، وما تيسر من خبز ونقد وقماش إلى زوايا الأولياء تبركاً، وفي جلسة قرب الفسقية؛ تجرأ على الفتوى، ساخراً من فكرة التقرب للأولياء في الزوايا والتكايا، بل منكراً ما يدعيه بعض الأولياء من الاطلاع على اللوح المحفوظ في

رؤيا أو منام، مشيراً إلى أن الأنبياء أنفسهم لم يحظوا بتلك الحظوة، فما بالك بالأولياء وهم بشر عاديون انقطع عملهم من الدنيا. وزاد أن بناء القباب فوق أضرحة الأولياء، إنما هو بطر يبتز الناس في معاشهم، ويقتر عليهم قوتهم كفعل السلاطين وأشرار الأعيان، وأنه ليس من الإسلام في شيء.

للأفكار أجنحة، تناقل التلاميذ أفكار يحيى وكلماته، فمنهم من أسماها رأياً، ومنهم من نقلها كفتوى، واشتعلت غيرة أستاذه الذي اندفع إليه جهراً يؤنبه، لم يمنع صوت الأذان الشجي المتعالي من مأذنة الجامع عصراً الأستاذ من الوقوف معنفًا، توقف الرجال المنشغلون في وضوء أو المنصاعون لصوت الأذان الداهبون إلى الصلاة، وتبادلوا النظرات، كان جسد الدسوقي يهتز غيظاً وهو يحرك سبائته للمرة الثانية في وجه الكركي الساكن:

- عيونك فوق والا الحواجب!! من أنت لتفتني؟ من أجازك؟ ألا يكفيك ما حل بالدين والبلاد والمذاهب من غم بسبيك؟ مالك والأولياء؟ بكرة تصحى يا ولد، لما يلطم السن راسك.

تمسمر يحيى مأخوذاً بالمفاجأة وتواصل صوت الأذان، ولف الأستاذ جسده بقفطانه مستغفراً ربه في تمتمة راجفة، منصرفاً، فإذا ما عاد المتوضئون إلى وضوئهم، ووقف المصلون في أماكنهم، سقطت دمعة على وجنة يحيى، وبهت برهان، تنفس يحيى كأنما يستعيد روحه وهمس:

- نأكل بعضنا، والنار تأكل لحمننا!

ربت برهان كتفه مهوناً، قاده إلى الصلاة قائلاً:

- لا تعتب على الأستاذ الدسوقي، موجوع يا ولداه مما حل بالأزهر، خلي قلبك كبير، هو مثل كل الناس، مش قادرع الحمار؛ يتشطرع البردعة.

لم يكن يحيى محتاجاً لنصيحة في الغفران، فما اعترى قلبه عتب أساساً، كما لم يكن منفرداً في مراجعته أمر انكفاء العامة على الأولياء وتمسحهم بأمل وهمي، فالفقراء وقد قرص الجوع بطونهم وما استجيت دعواتهم، خرجوا في مجموعة قليلة، تكاثرت على الدرب إلى زاوية باب زويلة الشهير، متسولين قوت يومهم، فصدّوا بالهراوات والشوم؛ أنزل الجوع وفقدان الآمال والذل والقهر بهم هوساً جماعياً، غالوا في الصراخ والتخريب، ومزقوا ستائر الجوخ عن الزاوية بأيديهم، وردوا على الضرب بقذف الحجارة، وعلى الشوم بمثله، وكسروا بالحجارة أكر النوافذ والأبواب، وتداخلت صرخاتهم:

- أين هم الأولياء الذين تدعون، هاتوهم.. هاتوهم.

فقد مجذوب منطقة صائحاً:

- هاتوهم ناكلهم، إحنا جيعانين.

في الأزهر تمكن شيوخ الزوايا من السيطرة على طلابهم، خائفين من نتائج أكثر عنفاً قد يشهدها الجامع في أيام مبروكة من رمضان، تصرفوا بهبات المؤمنين المقتدرين الذين سارعوا في صدقاتهم وزكاتهم لنجدة الجياع، منحوا الفقراء المتجمعين عند المداخل طعاماً يسد جوعهم، وكساءً يلبسونه في العيد المنتظر يخفف عنهم غضبتهم، ويمنع انضمامهم إلى العوام الذين شاغبوا وعاثوا فساداً عند القلعة أو زويلة، لكنهم حين اجتمعوا يتداولون في أسباب الفتنة، استبعدوا الجوع عاملاً أساسياً؛ فالمحروسة تعرفه منذ بدء الخليقة، يسير مع الحياة ما سارت، ولكن الناس لا يخرجون تأثيرين دائماً، ما الذي حرضهم إذن!

تجمع الفقهاء والعلماء في الحجرة الخلفية مانعين الطلبة أو صغار الأساتذة أو العامة من الدخول إليهم، وقد أحكموا رتاج الحجرة، وأوقفوا ولداً يمنع كل من يقترب، تباحثوا وأشاروا بين كلمة وأخرى إلى تجاوزات يحيى على الأولياء،

واستكثاره عليهم ما يحصلون من الناس من نقد ومأكل، وقالوا كلاماً كثيراً عن استحالة انقطاع كرامة الأولياء بالموت، وكم هو خطير أن يكذبوا في مسألة اطلاعهم على اللوح، وتنزع عنهم كراماتهم التي تعين نفوس الناس على احتمال مشاق الحياة، ويُشاع عنهم أنهم حشيشة* الأمراء والسلاطين لتنويم الناس وتبسيط همتهم، اتقاء لشهرهم وثورتهم!

تجنب العلماء والأئمة في حذر التطرق إلى مسألة المذاهب التي عطلت كثيراً من الدروس، وأوقفت فعل فتاوى الشيوخ، وحصرت الهيمنة في يد قاضي الحنفية.

بقيت ثلاثة أيام لانقضاء رمضان، دخل يحيى فيها تهجداً منقطعاً عن العالم، متدبراً في آيات الكتاب، منكباً على الورق يقرأ خاشعاً، ويتأدب إذا ما عن للأستاذ برهان التطفل على خلوته، والجلوس ماداً قدميه مسترخياً متحدثاً كأنما يحدث نفسه:

- إيه.. الدنيا عجائب، نشغل بالفتاوى عن الأولياء، والمحروسة قايمة قاعدة، ولا أحد تعجبه سحنة الآخر، ولا لونه، يا بخت الأعمى ما يشوف، وكل الناس عنده ناس، شايف البشر رموا وراء أكتافهم الخير والعدل، يأكل القوي الضعيف، ويسرق الكبير من كيس الصغير، لا تستن أحد إلا من رحم ربي، يمد الفقير يده في جراب الغني، ويمد الغني يده في فم الفقير، ويخون الرجل بيته، وتخون المرأة ولدها، ويبيع الخسيس شرف أمه، وينسى العاق والسفيه عرق أبيه، فساد في فساد، فما من درب تنشق إلا ملاها العامل حجر، وما من حيلة أو سقف إلا سرق البنا مؤونته، وما من

* نبتة مخدرة.

ميزان إلا لعب البياع بموازينه، يتحاسد العلماء، ويتنازr الجاهلاء، ويضرب
السلطين العامة ببعضهم بعضاً، ولا تحفظ أمانته، ولا يرتدع سافل، وإذا
ما هياً المقام للشريف نيل حظوة أو مالاً أو جاهاً، رمى وراءه ميثاق
الشرف، إيه، يا بخت من حرم نعمة البصر فلا يرى، ما من شيء يسر لنراه.
ذئاب كلنا في خلق ناس... فسبحان الذي فيه يرانا

يعاف الذئب يأكل لحم ذئب.. ويأكل بعضنا بعضاً عياناً*

يتبادل الرجلان مساندة حزنهما واستنهاض معنوياتهما، إذا وقع برهان في جبة
الحزن العميق وهو يتأمل الحال والأحوال؛ دفع يحيى إليه بكتاب الله قائلاً:
- التجى، يجرك الله.

وإذا ما خرج أستاذ زاوية العميان من كآبته وهو يتدبر القرآن، ضحك، وعاد
اللطيف المتفائل، الساخر الذي يفلسف الأمر على محمل قدرة الإنسان في تناسي
ما ابتلي به عبر النكتة والضحك، متشلاً يحيى من عميق فزعه على الناس:

- الناس الطيبون، أهل مصر المحروسة، فلا فسة*، قالوا: اضحك على الهم
يصغر، ومسخره يتمسخر، الضحك حيلة من لا حيلة له، تمسح الضحكة
والنكتة صدور المحرومين، مثلما يمسح الأذان نفوس المؤمنين المقبلين
على الصلاة، بالكلام الزين يقولوا وجعهم، ويخطوا ما بدا لهم، واللى في
ضميرهم على لسان الهاللي يقول: إوعى تقول للنذل يا عم، ولو كان على
السرج راكب، ولا حد خالي من الهم، حتى قلع المراكب، ولا بد من يوم
محتوم، ترد فيه المظالم، أبيض على كل مظلوم، أسود على كل ظالم.

* ابن لنك.

* فلا سفة.

لم يقطع أي من الاساتذة والطلبة خلوة يحيى عدا برهان، فالأساتذة غاضبون يحملونه مسؤولية بعض الخراب، والطلبة معتكفون في المسجد يتوسلون ليلة القدر، والعامّة موجهعون من تكاليف الحياة التي تضيق والعيد على الأبواب، يسقط السكون كما لو كان عازلاً بينه وبين الكون؛ لهذا لم يسمع يحيى حركة الفتى الذي دخل عليه وهزه مرات، رفع نظره عن الكتاب متعجباً، قال الفتى:

- عند الباب الشرقي رجل يسأل عنك، يقول اسمه مقبل.

خُلع قلبه بهجة وخوفاً معاً، قدر أن السائل لا بد هو مقبل الراعي صاحبه في رحلة الفرار من ناسه وأرضه، فما عرف في عمره من يحمل هذا الاسم عداه، وقف مرتعشاً مشوشاً، دس قدميه في حذائه على عجل، هرول يقطع صحن المسجد فاسترعى انتباه الجالسين متحلقين في الزوايا، أو القاعدين إلى مجادلة، أو المصلين الذاهبين في النجوى، أداروا أعناقهم يلاحقونه بنظرات التعجب، مر مسرعاً بين حلقة المتصوفين عند الباب، تعمد أمير المتصوفين اللائم يحيى على موقفه من الأولياء، رفع صوته متعجباً ساخراً ممن يقطع المسافات جرياً إلى عرض دنيوي زائل، كيف لا يهرع إلى مولى يجيره يوم الحساب!!

لم يستوقف تعليق الصوفي يحيى، فقد داخله جزع وترقب ولهفة على تقصي هوية مقبل، وقطع الحدس باليقين، اندفع إليه وقد رآه يقف عند الباب ذاهلاً فاتحاً شذقيه على دهشة وخشوع، شده يعانقه، فصاح مقبل:

- يحيى... يحيى... حبيبي... يحيى.

بكى الرجلان يتعانقان ويتباعدان؛ يتأملان بعضهما بعضاً، كانت آثار ما نعم به يحيى من مدينة المحروسة بادية على نظيف ثيابه وجسده دون نحول وجنتيه، في حين ارتدى مقبل ثوباً رثاً وحمل عصا ملوية، وبرز شعره منكوشاً من تحت

عقال وكوفية مهترئة، اسودَّ وجهه وضاحت عيناه، وبدت ذراعاها كما لو أنهما فرعا
حطب عتيق.

التف جمع من المصلين وصحب يحيى ومن شاركوه أمسيات الخلاف
والاتفاق حول الزائر الذي بدا خاصاً للغاية، وهاماً للغاية، قال مقبل:

- جئت القاهرة لملاقاتك، ذهبت إلى الربيع، عمي الدواج صالح أخبرني
بالمكان، خفت أن لا ألتقي بك، أن تكون ضعت بين السهول والجبال أو
ناس البلد الكبير هذا.

أمسك يحيى بكف الراعي ضاغطاً، تنوب اشاراته عن كلماته في نقل انفعاله،
وتلجج مقبل وهو يتمتم كمن مسه خوف وحيرة:

- عمي صالح صار عجوزاً متعباً، لم يعد يسافر، عاد قبل شهرين متعباً،
فقلت أجيء أنا إليك.

هز يحيى كفيه وهاجت عباراته وهو يسأل عن مصير الحمل الذي كانت
شهاوي تحمله في بطنها يوم خرج من سينا، وهل صار الراعي أباً، طأطأ مقبل
رأسه، هناك كلمات تتقدم على استحياء ووجل بين عبارات الترحيب والاستفسار
عن الأهل، قال:

- شهاوي جنية، صاروا أربعة، أربعة أرانب لا يشبعون، تنفوني مثل الدجاجة،
نحمد الله، عمي صالح عاد من الكرك مريضاً بالحمى الصفراء، نجا
بأعجوبة.

ارتخت كف يحيى وهدر قلبه، هامساً:

- الكرك!

تغيب الكرك رديحاً ثم تعاود البزوغ كأنها دم يتفصد من جرح، تسقط بقلعتها
ورجالها ونسائها وغاباتها فوق صدره، وتشق فؤاده، بكى مقبل مرتبكاً متأثراً:

- الله يصبرك، أقولك، سامحني، أقولك، عمي، أبوك، عمي، عيسى أبو بكر الطحان، النحال، رحمه الله، قابل وجه ربه الكريم.
- الذين تجمعوا حوله ينتظرون مواساته عند الجزع، أصيبوا بالدهشة وهو يسأل ثابتاً كما لو كان الخبر لا يخصه:
- ومريم!! كيف حالها؟
- صعدت إلى الكرك، أهالي جلعول تفرعوا في الحُمى، لم يبق منهم كثير، حُمى ذبحت الكبير والصغير، حسرة على عمي، ما أمهلت يَوْمًا، جلعول صارت خرابة، ينقع بها البوم، مريم بنت مبروكة، محروسة بحماية الله، هي الآن في الكرك.
- وحيدة؟!
- لم يرد، أخبر صمته بما حل بالعائلة المنكوبة، جرجر يحيى ثوبه خارجاً برفقة صاحبه الراعي من بين جموع المصلين الذين تدافعوا عند اقتراب صلاة المغرب، جذبته برهان من رده سائلاً بلهفة:
- ماذا ستفعل؟
- لم يلتفت يحيى نحوه، علم أنه لو توقف لحديث أو وداع، فإن لحظات ضعف قد تعثر قراره، قال وهو ماضٍ في إثر مقبل:
- حائر.. حائر.
- صاح برهان:
- يا ولد، توقف، أنا رجل بدين لا أقوى على مطاردتك، يخرب بيتك، توقف واسمعني.

وقف الرجلان يتهاامسان، ونقل برهان غضبه الأساتذة وتباحثهم في شأنه، وما نما إلى علمه بامتناع أستاذه عن إجازته، ولعل الله أراد به خيراً رغم الفاجعة؛ ما

حدث من وفاة والده، واضطراره السفر للالتحاق بشقيقته، ربما كان إنقاذاً من بهدلة ينالها على أيدي المتمرسين في النزاعات، فضها أو إثارتها، همس برهان:

- اخرج من مصر قبل أن يخرجوك، رحم الله أباك، وعظم أجرك، عرف متى يموت، مات ليخرجك، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

لم يشهد يحيى الهرج الذي ساد طلبة الازهر وقد غادرهم مكلوم الفؤاد، ولا استرعى انتباهه التجمع الاحتفالي تحت شجيرة الدفلى في الربيع وهم ينتظرون ليلة القدر، وإن لمحوه يسرع إلى حجرته ويغلق الباب دونهم، فإنهم مع ارتفاع الأذان صافياً.. الله أكبر.. الله أكبر.. سمعوا ما ظنوه همهمة بكاء مختنق وراء الباب، وشاهدوا دموع مقبل تنهمر قطرات تتلاشى في ثنایا لحيته الكثنة المغبرة.

صلوا بصمت قبل خروج يحيى إليهم وقد بدا على وجهه رضا جديداً، لم يفه بكلمة متلقياً تعازي الجالسین، ولا حتى وميمون يضع رأسه في بطنه معانقاً باللفة غريبة، اكتفى بابتسامات حزينة ذاهلة، وهزات رأس متفرقة، لكنه عندما سمع صوت سنابك حصان عربة هفوف، ارتبك وبهت لونه، ثم طفرت دمعته وهي تعانقه خالية البال، تتبعها جمان ضاحكة، انقطعت البهجة التي تنشق عادة عند دخول المرأتين الربيع، أدركت هفوف أن في الأجواء وجيعة ما، وحامت جمان حوله مؤكدة على حقها بمعرفة ما يحدث؛ قاد يحيى هفوف إلى حجرته مختلياً بها باكيًا على صدرها، هي أيضاً اعتنقت زنده وبكت على الطحان العزيز، وإن أنكرت جزعها على أهلها وما أصاب البلاد من وباء، قالت:

- قلبي لا يكذب علي، أهلي بخير، الحلاق، عليم بالدواء لن يسمح للوباء بالوصول إلى باب بيته، أهلي بخير، أعرف ذلك.

اقترح يحيى على هفوف مرافقته والعودة بصحبته إلى أهلها، تيسر حلقتها وفغرت فاهها، ثم استعادت توازنها وبكت في حلقة الليل تبوح بمخاوفها:

- تركتهم زمناً؛ اشتقت كل يوم لوجوههم، أخاف أن افجع بمن يقول إنهم كانوا هناك، أريدهم في ذاكرتي كما عهدتهم، ولأبقى في ذاكرتهم كما يعرفون، فقد غيرتني الأيام وشوهتني الحياة وما عدت ابنتهم البريئة الطيبة. يخجل يحيى حين يلتمس قوه نفسه فلا يشعر بصلاية، ويدرك أن عوده ما اشتد في مواجهة الخطوب بعد، وأن طموحه بإجازة الأزهر اندحر كما لو لم يكن يوماً، وأن الشوق الذي غالبه إلى الديار وأنكره على الأهل؛ يعصف به، فكر ملياً بمريم؛ وحيدة في أرض بعيدة لا سند لها ولا وليف، تمنعه ذكرها الرقاد، يسترجعها تنوح وتجوح تحت الشجرة وتذرو الماء والشعير، وتحرق البخور حوله؛ تبعد عنه جنا متخيلين يرقبونه على سطح الأرض التي وقع فوق تراها، عاوده حنين جارف ولهفة للمكان الأول؛ ساعده على اتخاذ القرار في عزلة قصيرة.

أسر بقراره في مغادرة المحروسة إلى الحاج جعفر، الذي أشار عليه لتخفيف صعب الطريق مصاحبة محمل الحج المغادر مع انقضاء شهر شوال القادم، يمتلك من وقته شهراً كاملاً لترتيب شؤونه وتوديع أحبته.

بدا الزمن شديد الوطأة، ثقيلًا حينًا، متعجلًا حينًا، وبدت مرافقة المحمل الطريقة الأنسب والأسرع لسفر آمن يمر به في قلعة نخل، ليتمكن مقبل من زيارة عياله، والاطمئنان على حاله، ومن ثم يفارقان قفيل الحجيج قاصدين الكرك.

خفف إعلان قراره السفر هوج الشيوخ والأئمة، كفاهم الله الدخول في صراعات جانبية؛ قدموا واجب العزاء كأن شيئاً لم يكن، وعرضوا خدماتهم لتسهيل انضمام الرجل إلى المحمل، وما تمكنت هفوف من ثنيه عما أراده، بل كانت تذوب أسي كلما تلفظ باسم مريم، وتتوارى خجلاً لتملك الخوف من فؤادها، وتقصرها عن العودة إلى الكرك ملتحقة بعائلتها، تُكرّر في كل آن أمامه، وأمام مرآتها، أن أسرة الحلاق بخير، ولا بد أنها نجت من المرض، وارتحلت مع

مريم إلى الكرك؛ تطمئن نفسها لا المسافر، أما جمان، التي كبرت سنوات على حين غرة، فأطرقت، واكتفت بالقول في همس حزين، إنها ترافقه إذا وصل كتاب حريتها قبل رحيل المحمل، وإلا؛ تنتظر وصول كتاب عتقها ولو تأخر أعواماً، وتلحق به إذا كان مقدراً لها أن تصير زوجته.

مزيج من وجع ولوعة وتأهب ولهفة عصفت في ذهن الرجل؛ ما شعر بالعيد يمر مروره الحزين على حارات مصر، وانشغل في إتمام أوراق سفره المأمول، قاصداً ويوسف صبي النحاس منطقة الجمالية، وصلاً إلى دار الكسوة في حي الحرنفش، كان جعفر بانتظارهم في بهو واسع يحتشد فيه الخياطون والخطاطون وحرفيون ينسلون خيوطاً ذهبية من صفائح رقيقة، يرصعون بخيوط الذهب والفضة مسبلاً من الديباج الأسود ليصير كسوة لبيت الله الحرام، وينسجون سجادة الكعبة الشريفة، وآخرون يطرزون حواشي حريرية بالمذهبات والزركشة كي تصير كسوة للمقام الإبراهيمي، وستاراً لباب التوبة في مكة، وقر الأسى فؤاده على فقده العزيز، وعلى من سيفقد في مصر، لكنه بحث ورفيقه عن من يسهل له تسجيل اسمه في ديوان الحج مرافقاً لمحمل هذا العام، قال له الفتى الذي يعكف على تطريز كيس من الديباج لحفظ مفتاح الكعبة:

- لا تصرح بأنك ستقطع السفر في منتصفه، فأمر الحج سيردد إذا تيقن من مفارقتك لهم في منتصف الدرب، يُفَضَّل اصطحاب الناهيين إلى جدة فمكة.

بدا أمير الحج أكثر ليونة مما توقعوه، وإن لم يخف يحيى وجهته كما نُصح، فقد جاءته رسل أئمة الأزهر تؤكد ضرورة إيجاد مطرح للرجل المسافر، كما لم

يغيب عن باله أنه نصف أزهرى، وقد يكون لوجوده فائدة إذا ما تقاعس دوداره* عن تأمين مكاتبته، فهو قارئ متمكن من الكتابة، كما أنه قد ينقذ إمام الحملة العجوز، إذا ما حل به التعب في مهامه من إمامة الصلاة، أو دروس الوعظ.

تسارع الزمن عند أهل الربع وهفوف وجاريتها كأنما العمر يطير بأجنحة إلى انقضاء، بينما مر بطيئاً غامضاً لدى يحيى، شهر كامل وهو أسير صور تأتية من الماضي، وهو اجس تتعلق بحاضره وقادم أيامه، لكنه دارى ما يعتريه من قلق، وأبدى وثوقاً وثباتاً، عندما مدت إليه هفوف المشخص الذي رافق حياته ضماناً لا يستخدمه بتاتاً، مؤكدة أن المشخص حق لمريم دون سواها، وإليها تعيده، فاض حزنه، أوجعه أن يلمس المشخص بيده، ثم عاوده اليقين الأكيد من أن المشخص لا يفترق عنه وإن فارقه، قال:

- بل أتركه لجمان، يكون لها عوناً في الطريق إذا لزم، أو تعيده لي، إذا جاءني.

هبت جمان بغضبة عاشقة، صاحت في وجهه:

- إذا جاءني!! أنت لا تعرفني إذن!! سأجيثك، ستراني في كركك البعيدة هذه، وسيكون المشخص معي.

قبل جبينها بهدوء هامساً:

- إذا وصل المشخص إلى الكرك، فقد وصلت أرضاً، لكنك ما تبرحين الفؤاد أبداً.

في السابع والعشرين من شوال للعام الهجري الثامن بعد الألف، حمل يحيى بين متاعه قطعة من جوخ لف بها كتبه الأثيرة بحرص، ومضى.

* كاتب محمل الحج.

كانت كسوة الكعبة قد وزنت، وحُملت على جمل جهم رئيس، تعقبه قافلة
لسبعين جملاً يرافقون دواباً كثيرة لحجيج مصر وإفريقيا، جاؤوا على بعد
المسافات، وانتظروا موعد مسير المحمل، تحركت المسيرة من ميدان رميلة قرب
القلعة في مرتفع يطل على القاهرة، سار أمير المحمل خطوات داعياً الوالي لقيادة
الموكب، وارتفعت صيحات التكبير والتهليل، والجمل يتبعهم مثقلاً بحمل
الكسوة، في هودج زين بأقمشة خضراء وحمراء وسوداء، طرزت بخيوط الذهب
آيات قرآنية وزخارف بديعة، حرك الجمل رأسه المحلى بالعقود والشراشيب
الملونة ومضى، فتبعه رهط كثير من الشيوخ، لأول مرة منذ خرج المحمل من
مصر المحروسة، لا يرافق موكبه قضاة المذاهب الأربعة، ويكتفى بقاضي
الحنفية، وأئمة المساجد، ورؤساء الطوائف، والحرفيين، ومجاذيب الطرق
الصوفية، والعامة الذين يتكاثرون بينما الموكب يطوف شوارع المحروسة، وحملة
البيارق والرايات، وأساتذة الزوايا الذين تأكدوا من رحيل يحيى بين حجيج
المحمل، خارجاً من رميلة قاصداً الفسطاط وجامعها العتيق حتى باب النصر،
آلاف الناس تدفقوا يرقبون الموكب وبعضهم يلحق به، والنسوة يزغردن
منشدات:

- يا جمل يا جمل يا أبو خف زيني..
أشرق مشرق والله وأنظره بعيني..
ون مدحت النبي ياما خايل مديحه..
إن عطاني ربي لا صلي ف ضريحه*.

* مديح نبوي شعبي.

أحيط يحيى بجمع من الحجيج الأفارقة السود غلاظ الشفاه، يركبون بهائمهم
مبتهجين ومتقدين حماسةً وولهاً وراء كبار المحمل، الدودار، ورئيس الحرس،
والقاضي، ومشرف الجمال، والطباخين، ومسؤولي التموين، والبيطار*،
والطبيب، والخباز، والسقائين ومشرفهم، والبيرقدارية يحملون أعلام المحمل
المصري التي تميزه عن المحمل الشامي الذي سيلتقون به إذا ما وصلوا تيه سيناء،
الرجال الذين جلسوا على المصاطب وعند مداخل الحوانيت سمعوا النسوة
يرددن ببهجة:

- رايحة فين يا حاجة يامّ الشال قطيفة؟

رايحة أزور النبي محمد والكعبة الشريفة..

إللي عشق النبي يروح له ع الجريدة*..

والبخيل يقول: ذا طريقه بعيدة*..

لم يتمكن مقبل من إبعاد المجذوب الذي تعلق بفخذ البهيمة التي يمتطي،
وهو يصيح بشجن:

- من كان ضمينه النبي لم شق جسمه نار.

وصل الموكب باب النصر، وانفتحت الدروب أمامه، في حين أوقف الحرس
عامّة الناس عن الاستمرار في ملاحقة ركب المحمل، وأعادوا النسوة باكيات إلى

* البيطري.

* غصن النخيل.

* مديح نبوي شعبي.

الوراء، فرقوا المجاديب وردوهم بالعصي، وشاهد يحيى بوابة النصر تنغلق
وراءهم، وكان آخر ما سمعه نواح بك يتحشرج:
- ياللي زار النبي يجيب الأمانة..
دا المشاعل دهب.. وخضرا الستارة*.

الفصل الرابع

الكرك

1008 - 1014 هجرية / 1600 - 1606 ميلادية

وقف نبي الله سليمان على سرير ملكه، رفعت الریح عالياً فوق الكون، انحنى
ينظر مملكته متمتعاً بطاعة وانقياد الإنس والجن لعظيم هيئته، وحكيم قوله وفعله؛
تأرجح نشواناً، فاضطرب السرير، وأوشك أن يتقلب، أمر سليمان السرير:
- /استقم.

فنطق السرير شارطاً:

- /استقم أنت حتى نستقيم نحن*.

استيقظ يحيى قلقاً، حدس أن حلمه إشارة لما هو قادم، أو رسالة عما يجد،
ولعله مجرد خطاب يعبث بوجوده ليس إلا!
أدرك والحراك حوله يقوم ويقعد، أن الجمع يتهيأ لمغادرة كاتدرائية القديسة
كاترين في قلب قرية نخل حاضرة التيه العظيم، انهمك الحجاج في ربط ممتلكاتهم،
وإحكام شد حصائرهم وربطات الطعام فوق الإبل، تدافعوا من بوابة مسجد
الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله، الملحق بالكاتدرائية، كان الرهبان قد هيؤوا
المقام منذ الفجر الندي؛ ملؤوا جرن الماء الحجري بالماء المعطر بروح الورد
وهيؤوه للمتوضئين، وأقاموه بين الأشجار بانتظار الضيوف المسلمين المصلين.

* التبر المسبوك في نصيحة الملوك - بتصرف.

بسمل يحيى وغسل كفيه ثلاثاً، ثم تمضمض، وتنشق، ومسح وجهه ثلاثاً بالماء القراح متخللاً شاربته ولحيته الصغيرة، ثم أسبغ الماء في كفيه حتى المرفقين ثلاثاً، ومسح رأسه وأذنيه بالبلل المنعش، رفع قدمه يغسل كعبه، ومن بين أطياف المتوضئين التي تتحرك مثل الخيالات، لمح يحيى وجه مسافر جليل باسم استرعى انتباهه أكثر من مرة خلال السفر، شاهد الأربعيني المهيب جالساً القرفصاء عند باب المسجد، يبلل حبر ريشته بريقه، ويخط في قرطاسه.

نفض يحيى ما علق من قطرات على كفيه وتمتم:

- أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين.

تم اختيار يحيى إماماً، تلفت مرتين إلى الجمع خلفه؛ قلقاً لتأخر عودة مقبل من واحة نخيلة، رجح أن شهاوي حكمت رأيها، ومنعته من مغادرة الواحة كما فعلت منذ أعوام، استدار رافعاً ذراعيه مكبراً في صلاة الفجر، لم ير في التفاتته تلك صاحبه مقبل، ولا الوجه المهيب الذي لمحّه عند باب المسجد.

حمّل لوازمه فوق رحله، وعرج لوداع كاهن الدير، في الممر المعتم الرمادي الذي يفضي إلى حجرة المخطوطات حيث تفوح الرائحة الحريفة للجلد والورق المخزن، التقى بالرجل المهيب يتضحك مع الكاهن الواقف بقفطان الطويل وصلبيه الخشبي، فإذا ما لمحاه، صمت الرجل، وصاح الكاهن:

- يحيى.. صاحبنا من زمان الواحة، تعال.. ألم تلتقيا؟ تسافران معاً في قافلة الحجيج! ألا تعرفه؟

نقل الكاهن وجهه بينهما ملتقطاً إشارات النفي الودودة، ثم شد كف يحيى ييساره، وكف الرجل يمينه هاتفاً بحماسة:

- هذا الصالحى... محمد نجم الدين الصالحى، وهذا يحيى... يحيى الكركى.

تحركت قافلة الحجيج عابرة وادي الراحة صاعدة طريق تراجان العظيم، تلفت يحيى مرات وراءه عل أثراً يبين للرعى، ثم استسلم لغيابه، ومضى يؤنس تأمله المرهف صمت الصالحى، وقد انكشفت أطراف قرطاسه الجلدي من خرج راحلته.

ثقل الهواء برائحة الملح، فرجع يحيى اقتراب البحر، وغاص فؤاده متذكراً دمة جمان العالقة في أهداها، وضع كفه على صدره متوجعاً، حاول إرخاء جسده المشدود على رحله، نبض خفي حزين ينبئه أنه لن يراها بتاتاً، كأنها وهم، حلم رملي تذروه رمضاء ترحاله، أشفق على نفسه ولامها معاً، كيف ترك للحمقاء الغالية تقرير أمر انتظارها حريتها!! كيف استدار ومضى دون أن يدفع عن الحب مصير الفراق!! وهل حقاً أن ما يجري مقدر لا مفر منه؟ هل كان بمقدوره تغيير خطوه التائه الذي يقوده إلى مجهول؟

قارب الصالحى بين رحليهما، ومد ذراعه نحوه بلطف المسافر:

- تشكو من علة يا صاحبي؟

تنبه يحيى إلى انكشاف ضعف فؤاده ووجعه، فاستقام على رحله، واستعار ابتسامة الرجل الودودة هامساً:

- أبداً، أنا بخير؛ الطريق طويل، طويل.

- ما أقصر الطريق يا صاحبي! وما أسرع الخطى!

أيقن يحيى إنه لا يرافق عابراً، لأن فؤاده، وانتظمت زفرات روحه المتعبة، وتنبه ذهنه على شغف المعرفة المانع، قال:

- أأحار في طريق طال أم قصر، لكن حيرتي لا تتعلق بالمقاييس، إنما في معنى وجودنا على الطريق، مسيرون نحن أم مخيرون!
ضاقت المسافة بين عيني الصالحي؛ يعالج شعاع الشمس الساقط بقسوة وهم يشرقون متتبعين رحيق البحر المالح، سأل عارفاً:
- شافعي؟

هذه المرة الثانية التي يسمع فيها يحيى هذا السؤال، كانت المرة الأولى لغايات تسجيله في دفاتر الأزهر، أطرق مجيباً:
- نعم.. ألسنا كذلك جميعاً؟

- العثمانيون حنفاء.. وأهل الديار في مصر والشام من الشافعية، أنا دمشقي من الصالحية، لكن خيارتي أن أكون حنفياً.. أليس حرياً بالإنسان اختيار مذهبه ومعتقداه!

امتنع يحيى عن التعليق، لكنه منح ذهنه الحق في تقبل الرجل وسماعه على بياض تام، حابساً تساؤله عن أسباب المفاضلة بين الأئمة واتباع اجتهاداتهم، بداله كل تسرع في حديث؛ غير لائق في موقعه وزمانه، تراث الصالحي مائلاً إلى يمين رحله، مخرجاً قرطاسه من خرجه، قائلاً:

- على كل حال، تلك اجتهادات لا تصيب جوهر الدين، يالسعدي برفيق قاري! لدي ما أطلعك عليه فيما بعد، لكنك سألتني عن الجبر والاختيار، هذا سؤال الأطفال والشباب على حد سواء يا صاحبي، ولن تصل إلى جواب مهما جاهدت، لكن كل فرقة تبني سياجاً تحيط به اعتقاداتها، كأنه وحده الشرع اليقين، يرى الحنفية أن أفعال العبد مخلوقة لله عز وجل لا شريك له في الخلق، لكن تلك الفعال صادرة عن إرادة العبد، وإلا ما معنى

الثوب والعقاب! إنما أمر الحياة جلي، فلا جبر ولا تفويض، هو أمر بين أمرين.

- وماذا تقول في رجل وضع الله بين يديه ما تمناه، ومد له في اقتنائه، فأضاعه في غفوة أو سهوة؟ أو استهان به في صحوة؟ انسكب بين أنامله مثل دفع الماء فما أمسكه! أظن كان قادراً على تغيير قدره؟

ضحك الصالحى برفق حان، وقال:

- أنت الأستاذ الأزهرى في تلك القافلة على ما ظننت، لا أنا، ألسنت أزهرى فقيها!! فما بك تبلينى؟ أنا مجرد رجل حنفى لا أعرف أكثر مما علمتنى إياه كتب الأدب، ألا ترانى لا أصلي خلفك استجابة لتحريم صلاة الحنفى وراء الشافعى، ماذا تنتظر منى وأنا على هذا الاستسلام والإذعان لما تعارف عليه علماء الديار؟ دعك منى، إني شاعر أو شويعر، معلم غارق في النحو وبلغ الكلام، علام تستفتينى؟ مع ذلك أفهم حيرتك، تلك والله هلوسات عاشق مبتلى بالهوى.

أدرك الصالحى أن الشاب حيي؛ تتخرج وجتاه حمرة إذا ما رُفع النقاب عن قلبه الملتاع، شاهده متماسكاً ومجاذيب القافلة يقصدونه يطلبون تفسيراً لطقوس الحج المنتظرة، ومتأثياً، حلوا الروح إذ يمارون ويحتالون في توسل تخفيف المشاق التي لا تستقيم مع منطقهم، لا هو متعنت، ولا هو مغلق للاجتهادات على تنافرها، بل قادر على قبول المختلف فيه، متمكن من الكلمات التي تمنح سامعه يقين الراضى وإقبال المختار، شاهده دامعاً وقد أطل مقبل تخب به الناقه ربا عند رأس العقبة على البحر الأحمر، محتضناً ولداً نحياً يافعاً بين ذراعيه، يكاد كلاهما يطيران فوق السنام، وصياحات مقبل تتردد:

- هووووه... هووووه... يحيى...

لم يبد الحجيح مثل لهفة يحيى لعودة الرجل الذي انضم مجدداً إلى القافلة مصطحباً بكره سيف، كان الصغير نحيلًا، حاد النظرات مثل أمه، يتمتع بضحكة بريئة، وذراع قوية العصب كما أبوه، فرح يحيى بطفل السابعة الذي سيرافقهم الرحلة، وتعجب كيف ارتضت شهاوي إطلاق صغيرها زائراً للكرك البعيدة، ضحك مقبل عن فجوة في فيه وقد فقد أحد أسنانه، رفع كف الصغير كاشفاً عن خيوط صوفية رفيعة مربوطة مثلما الأساور حول معصمه، قال:

- الملعونة، الجندب، ربطت حول كف ولدها اثنتي عشرة ربطة بخيط من صوف، قالت: كلما ولد هلال شهر جديد في السماء، عليّ فك واحدة من خيطان الصوف، وهددتنني، إذا لم أعد إلى الواحة لتفك هي بيدها الخيط الأخير، ستهج بالبنات، وتأتيني سيراً على الأقدام عبر التيه دون أن تصحب معها ماء ولا زاداً، وإن هلكت وهلكن؛ تحمّلني وزر ما سيحل بهن في صحراء الله الواسعة.

هز يحيى رأسه، تلك شهاوي التي يعرف، مسدّ وبريا التي ما عادت فتية، لكن صبورة، حمولة، تتعرف على صاحبها، فترمش أهدابها بوداعة مستشعرة لمساته الحانية، سمع المستريحون على شاطئ العقبة الرملي تهليل قافلة الشام تقترب، فهللوا، وتراكضوا إلى إبلهم وحميرهم وجيادهم، وهمس أمير المحمل لدوداره وهو ينظم صفوفهم:

- لا تبج لأمير محمل الشام بأجرتنا، قد لا يكونون أعطوه ما أعطونا، رحلتنا أشق وأوعر، يعبر ملناً وقرى ومزارع، ونعبر الصحاري؛ يعترضنا الضبع وقاطع الطريق، القبائل البدوية وحدها تكلفنا ستمائة ألف غرش خاوة لحماية الحجيح، وإياك أن تتبرع لمن أراد الانفصال عنا براحة تنقله، بالكاد تكفيننا دوابنا.

لم يشعر أمير المحمل بالأسف لانفصال الأستاذ الصغير والراعي والشاعر الصالحي الدمشقي عنهم، فقد اطمأن خاطره، وحملة الشام تنضم إليهم يستكملون الرحلة إلى مكة الشريفة معاً، أئمة ومقرئين وعاملين، لا ينقصهم مدد بشري ولا مؤونة، مما جعله سخيّاً بتزويد المفارقين بالمؤن والشراب؛ وإن اقتربوا من مقصدهم، جلعول.

مضى الرجال الثلاثة والطفل متبادلين اعتلاء ظهر الناقة، وإن كان ثلاثتهم يتيحون للصغير أن يظل راكباً في المسافات الشاقة التي تصعد من الساحل إلى وعر الحميمة عبر جبال صخرية بركانية، لم يتعدوا عن طريق تراجان المعلومة طلباً للسلامة، اجتازوا الفردوخ، فالبصة، فأذرح، فالشوبك، بينما كان مقبل وولده يتأرجحان فوق الناقة، يمشي يحيى والصالحي إلى جوارهما، وقد يجلسان في فيء الرمان المتنامي حول السواقي الصغيرة التي تخترق الهضاب مثل شرايين تمد الأرض بالماء.

يفرد الصالحي أوراق مدونته العجيبة، فيقرأ يحيى عنوانها الطريف «سفينة الدر» ويرى اسم كاتبها خط برشيق الرسم، محمد بن نجم الدين الصالحي الهلالي الدمشقي، يقرأ له الصالحي ما جمعه وحققه من درر الشعر والنثر، وما خطه من هوامش حول طبائع الأمم التي رآها وشهد حياتها في الجزيرة العربية ومصر، وما استوقفه في أسرار الأهرامات المصرية، ويخرج يحيى بحرص كتاب «عيون الحكمة»، خبيثته الغالية، ومقتناه ودره، يمرر الصالحي كفه متحسناً الغلاف الجديد للكتاب ياكبار قائلاً:

- لكل زمان فكره، لا تحاسبني بعظيم ما جاء به الأوائل، ولا تضعني في ميزانهم، فما أنا بعلم مفكر، إنما شويعر على باب الله يجمع الكلام الجميل، ويوثقه، قد يأتي زمان لا تبقى فيه الجسوم ولكن يخلد القرباس، حينها سيعودون لكتابي المتواضع هذا ليتعرفوا على من أفنى الزمان أجسادهم؛ وما تركت زيارتي لمصر تنقضي إلا وقد خططت بيدي ما أسميته «سوانح الأفكار والقرائح في غرر الأشعار والمدائح»، أودعت فيه سوانحي وفيض النفس، وأمنت عليه تلميذي الخفاجي، ولو طال بنا الزمان وتراقنا؛ أودعك «سفينة الدر»، ولكن لا تقل لنفسك وأنت تتصفحها، أي كلام غر لا طائل تحته، ولا يأخذك غرور الأزهرى الفقيه المفوه، ذلك أن لكل زمان سوانحه..

إذا أبصرت في لفظي فتوراً وحظي والبلاغة والبيان
فلا ترتب بفهمي إن رقصي على مقدار إيقاع الزمان

لطفت لطائف الأدب والشعر طريق المسافرين، عندما وصلوا إلى وادي الحسا، سمع يحيى هدير شلالات المياه تنهمر فوق الصخور الصلبة، ولمح أعالي النخيل في مرمى ناظريه، قرع قلبه، تتهقرت سيناء والمحروسة، وغابت وجوه أهل الربع، ورفاق سوق النحاس، وتلاميذ الأزهر المبصرون والعميان، وأساتذته بعماماتهم وأحذيتهم المصفوفة عند البوابة الكبيرة، غاصت روائح الياسمين والخزامى، وخضرة عيني جمان، وتلاشت صيحات الباعة والقرد ميمون وصغار الربع، وصوت الأذان الشجي من منبر الأزهر، غرّب زمن كامل بقضه وقضيضه، كأنه لم يرتحل إليه يوماً، دخل يحيى حومة الروائح العابقة

لأعشاب مريم، واستطعم العسل الذي كان والده يلقمه إياه، كما لو أن لسانه لحس حلاوته تلك اللحظة، انسلخ زمان، وارتدَّ إليه آخر.

الرائحة النافذة لشلال نبع مياه عفرا الكبرى في أعلى الوادي؛ أصابت الصالحي بالدوار، توقفوا برهة ريثما يستعيد لياقته، واندفع صغيرهم سيف بشابه تحت دفق الشلال، وبدا يحيى غائباً وهو ينظر إلى غابات النخيل الطالعة من شقوق الصخر، يخفى عجلته رافة برفيق السفر الكهل، لاحق مقبل وولده الأحياء البحرية بأرجلها الرفيعة، وهي تهرب بسرعة بين الصخر والماء ضاحكين، وهبط في فؤاد يحيى أمان رائق، وما إن عاد الصغير يحمل سلطعوناً يحرك قوائمها المتعددة في الهواء، حتى أعلن الصالحي أنه تجاوز دوخة الدوار وبات قادراً على المسير.

انفتح الطريق؛ سهل يخترق الجبال، وعند نقطة بعينها، أدرك يحيى أنه في جلعول، استطاع والظهير تشدد لهيباً تحت أشعة الشمس المسلطة فوق الوهاد تميز المنظر الذي يعرفه تماماً، والطريق الغربي الذي نزلته مرات وشقيقته وأباه يقصدون القدس، كان يقينه أنه في جلعول لا يقبل الشك، وإن أحاطت به أرض مزروعة بالكامل، ارتفع فيها نبات أخضر بأوراق عريضة سيفية متراً في الفضاء، غرست أشتالها على مسافات متقاربة في خطوط طولية منتظمة، تشي بزراعة محترفة، علق الصالحي وهو يحك أنفه بقسوة:

- ما أمركم يا أهل الكرك؟ بلادكم عجبية، ماؤكم يعبق بالرائحة التنتة، وزرعكم ينث حمضاً مرّاً ويشير الدوار!

اندفع سيف شاداً شتلة من الورق الأخضر بعنف محاولاً قطعها، والتفت يحيى متوجساً؛ لم يأمن الورق المتموج بالريح، هتف محذراً:

- لا تأكلها.

غياب فزاعة الحقل كان مؤشراً على أن زارعيه لا يخشون الطير ولا البهائم، ودلل ابتعاد العصافير والحمائم والغربان الصغيرة عن الحقل بخضرته البهية ورائحته الحريفة على سمية النبتة الغريبة التي ما شاهدها أيهم قبل يومهم هذا، وإن تعرف يحيى على الشجرة التي جلس تحتها سنوات طوال تلميذاً فضولياً، ثم أستاذاً أكثر فضولية، تضاءلت فروعها ومهت أخضر ورقها، وبدا جذعها أعجف غارت في خشبته الجافة أسماء الأولاد المحفورة عبر سنوات طويلة لأجيال تعاقبت على تلقي العلم تحت الشجرة، ظن أن تلك النباتات المزروعة برعاية ودقة في خطوط مستقيمة غيرت أمراً ما في تربة المكان، واعتدت على حق الشجرة بالنماء، لم ييح بمخاوفه، وتجول مقبل في المكان يضرب كفيه تعجباً.

- هذه جلعول، لا تخفى عليّ ولو لم يكن هناك جدران وبيوت وخيام وأنام وأنعام، هذه جلعول ورب الكعبة، لست أحمق، أعرفها مثل كفي، ولكن..

تركوا الحقول الخضر الخالية من الناس وراءهم، أكملوا خطاهم إلى الكرك حزاني، عصفت المخاوف بيحيى، تذكر، كأنه كان ناسياً أن والده النحال لن يكون بانتظاره، وأن موته هو السبب المباشر لعودته تلك، بدا له أفول جلعول المكان، وفقد الأب مأساوياً، يثرثر مقبل واصفاً لولده الحياة التي كانت في الخبرة الغافية على سهل يقطع الجبل، في حين اختار الصالحي الانحياز إلى صمت صاحبه الأزهري وقد استبد به التعب، وفي نفسه توق للوصول إلى دمشق.

توقع يحيى جدران قلعة الكرك التي ستظهر حتماً وهم يقتربون، بأسوارها الملساء المواجهة للغرب، واستبشر الصالحي حين برزت أعالي الجدران الصخرية عند قمة الجبل، تنفس الصعداء لوصولهم إلى حاضرة تمكنه من إلقاء جسده المتعب فوق وساد وثير أوقاس، سيان إذا ما تمكن من إرخاء عضلات

قدميه الموجهتين، فإذا ما ظهرت للعيان بيوتات الكرك المشيدة من حجر جيري أملس، ودبت الحياة بمرور الناس، استوقف مقبل المارة سائلاً عن منزل مريم ابنة النحال، ولم يفارق الأستاذ صمته الذاهل.

قادهم صبي إلى البيت الطيني في ضواحي المدينة، يعرف يحيى أنه سيجد خلف الجدران شقيقته، أمه، وجذره العتيق، مريم، رأى حصائرها منشورة في الشمس لم تستكمل النسيج، وشاهد عند الجدار نقرة الحطب التي تغلي عليها أعشابها، شاهدها تجتاز الباب الخشبي المنخفض نحيلة ذابلة، وجهها مكذب لمشهده يقف قرب الناقة ينتظر إطلالتها، ظن الصالحي أن زمن الصمت والريية طال، فقد صبره صائحاً:

- لا حول الله.. أهكذا يلتقي الأحبة والأهل في الكرك!

وقفت مريم ذاهلة، ثم نهتها صيحة الغريب القادم مع أخيها، جمعت الحروف في حنجرتها، وأطلقت موالها خفيضاً يتصعد على مهل وهي تتقدم راجفة نحوه:

- نامت عيونك يا أمي وعين الله ما نامت.. وعمر شدة على مخلوق ما دامت... ايش هالقلوب اللكم قسيت وما لانت!! وقلوبنا اللينة بالعهد ما خانت... يا حادي العيس.. أنا اللي أتحمّل الموت، ما لي طاقة على
الفرقة*.

بكي الكركيون يتلمسون الأستاذ العائد ويهللون :

- يا مرحبا عشر التراحيب.. عدد ليالي غبت عني.. أهليك لي معازيب
ياليث.. ثم اتنهى واتريح..

أصاب مريم مس طفيف يمازج بين البهجة والعتب والغضب والغفران، بدت حائقة ثم حانية، هرمت كما لم يتوقع، تجعد وجهها، أنبت شقيقها على سبع سنوات عجاف لم ينقض منها عام ما قرح عينها بالبكاء، أجهشت على كتفه مستسلمة لمشاعر فرح وأحاسيس مضطربة، بكت حتى خافوا أن تعدم النظر، وضحكت حتى قالوا جنت، لكنها سرعان ما تخلصت من وابل الحيرة والتقلب، وعادت صلبة منطقية، بل بدت له أكثر منه احتمالاً وطمأنينة، تحدثت عن مرض أبيها في موجة الحمى الصفراء التي حصدت أرواح أغلبية سكان جلجول، ودفعتهم إلى مغادرة المكان لجوءاً إلى الكرك، كانت ملاستها الحائرة للحية الشاب النامية أكثر جلباً لمدامعها من وصف لحظة موت والدها، وشرح طقوس دفنه في المقبرة الجماعية التي أقيمت أسفل الحقل، علم يحيى ماهية النبتة التي غطت سهل جلجول، إنها التبغ.

تقاطر التلاميذ والنحالون والطحانون والرعاة والتجار والبنات النساجات إلى بيت مريم؛ يتفقدون الغائب كأنه عائد من العدم، وقف حائراً باسمًا بمقدار وهو يتلقى التعازي، فرح قلبه وهو يرى عائلة الحلاق الشلبي بأكملها أمام عينيه معافاة سليمة من كل سوء، ازداد عدد أنفارها بصغار جعفر يركضون بين الرجال، ابتسم ملقياً بخبره المفرح المبكى عليهم، هتفوا معاً:

— ہفوف!

في ليال طويلة طلع فجرها، شرح لهم ملابس لقاءه بهفوف، رتب تفاصيل الكلام مشيراً إلى زواجها كأنه بداية رحلتها؛ متجاهلاً واقعة بيعها جارية لكارنال باشا، متقللاً في حكايته إلى ترميها، وأسباب امتناعها عن مرافقته لمصالح تجارية ملحقة وقاهرة أرغمتها على البقاء في مصر، اخترع تفاصيل لم تكن، تجاوز عن وصف نمط عيشها، خشية خدش فرحهم وهم يسمعون بأذان صاغية وأعين

دائمة، وأكف راعشة، وابتهالات غامضة، مضى نهاران قبل أن يلتفت إلى زائره الصالحي.

حاول يحيى إكرام وفادة الضيف؛ وإن فجعته الحياة المتقشفة المتواضعة التي تعيشها شقيقته التي جعلت كل شقاء قديم يبدو كأنه النعيم قياساً لحالها الجديد، ما تزال مريم العنيدة، تحاول إيهامه بعيشها ترفاً مقبولاً، وأن ريع نسيجها يدر عليها ما يكفيها ويزيد، تتدبر حالها بطرائق فذة، فتعد لشقيقها وضيفه أطعمة مميزة، تجود بحشوة اللحم والبصل المقلي بالزيت في عجينة المكمورة، وتدسها في طابون آل الشلبي لتنضج، وتهبئ الرشوف من جريش القمح والعدس ولبن الجميد الخاثر، يضحك الشلبي معلقاً بأن مريم عادت تمارس أحب مهامها إلى نفسها؛ تدليل يحيى.

مضت الأيام القليلة في احتفال وتذكار وعتاب وفرح، وانقضت، وصار لزاماً على مريم وهي تقعي إلى جوار حفرة النار تتأمل وجه يحيى الصبح بصورة جادة، أن تشرح له ما كان من أمر الأرض.

- الأرض لله.

قال يحيى لشقيقته.

وقالت:

- الأرض لمن سقاها بعرقه، وتشققت فيها كفاه.

عام مريم مضى منذ وفاة عيسى أبو بكر النحال، وهبوط اليباب على جلجول، وهجيج الناس بأرواحهم، ثم وقوع من تبقى من أهالي الخبرة بين أيدي القساة الغلاظ أولاد الشيخ صايل، الذين وضعوا أيديهم على الأرض المهجورة مانعين عودة الأحياء من أهل الخبرة إليها تحت سطوة القوانين التي يتلاعب بها متعب

المختار، وشقيقه الداهية العقيم منصور، وساعدهما التابع مصعب وأنجاله الكثر، صارت جلعول ملكاً للإخوة الثلاثة، بموجب ما ختموه من سندات سليمانية في إستانبول، ووفق قانون نامة العثماني، إذ حملوا مذكرات خلو البلاد من العباد إلى المحاكم في الكرك وعجلون، فسجلوها أراضي أميرية، ثم نقلوها بأعطيات قانونية وأوراق رسمية، ووزعوها فيما بينهم، فما رجع أي فقير مستضعف إلى دياره، ولا تمكن من إثبات حقه في بناء أو زرع، وتحولت السهول الممتدة في القطع الجبلي التي اسمها جلعول برمتها إلى ملكية خاصة، نزلت أشجارها الحمضية واللوزيات والزيتون، وما عاد هناك مكان للخضار والحبوب، وتحولت بفضل حراك منصور وسفروه وتعاقده مع جهات كثيرة إلى مزارع للتبغ الذي بات يغزو العالم كتجارة رابحة، حتى إنه يحمل بضاعته إلى سفن هولندية ترسو في ميناء حيفا، وكان مما استقوى به الإخوة على نصيب مريم قانون دائرة الحشرية الرسمي، إذ وضع المختار يده على ما تركه النحال لابنته، بحجة أنها أنثى وحيدة انقطع عنها الذكور المجتمعون معها برابط الدم، وقد يكون غياب شقيقها لموت لحقه، وعليه فإن دارها في جلعول صارت ملكاً للدائرة الحشرية، كما أرضها، وكافة ما تملك، مقابل قروش يسيرة فرض عليها استلامها، فتمكنت بمساعدة الأهالي من رفع أربعة جدارن طينية، باب وشباك، تقع على شفير الجبل المطل على الوادي عند خاصرة مدينة الكرك، بدت حزينه هرمة ملتاعة وهي تعيب الموقع الجديد لبعده عن الناس، وكيف صار مثار متاعب للنساجات اللواتي انحسرن تدريجياً، وانقطعن عنها؛ فقل نتاجها من البسط، كما هجرها الباحثون عن الدواء والاستشفاء، وهم يستقربون بيت الشلبي، دوامة الصعاب التي عاشتها مريم تؤثر على دور بالغ القسوة والعنت لرفقة الماضي البعيد، أبناء الشيخ صايل، بدا العالم في عيني يحيى ضيقاً يتآكل وينهار دون هوادة.

اصطحب ضيفه الدمشقي يعودان المولى أمين الذي احتبس في داره وما عادت قدماه تحملانه تحت الشجرة لينقل علومه للصغار، كان الرجل ممدداً على فراش حقير، إلى جواره حق من لبن مترع بلبن المخيض وقد بققت فقاعات صغيرة على وجه السائل تشي بحمضه وقدمه، لم يتحدث المولى كثيراً، لكنه قبض على كف يحيى وهزها مرتعشاً، واسترخى الطالب والأستاذ يتبادلان النظر تحناناً واعتذاراً حبيساً لا يقال، وبدا كما لو أن الحجرة الطينية العظنة تفوح برائحة الصنان، لم يكن حول الرجل مريد أو ذو رحم يمد له العون، كأنما صار عبئاً على الحياة، ضرب الكرب فؤاد يحيى وهو يستعيد صورة المولى تحت الشجرة وهيئته ووقاره، وأصيب بعدوى الوجد واليأس الذي هد قامته شقيقته فهمس لزائره الدمشقي:

- سأغادر الديار، أصحب أختي إلى مصر، وأنسى جاجول والكرك ما حيت.

ابتسم الصالحي وقد هاله كم الحوادث التي تقع للمرء في سنوات سبع، قال مستنكراً تعاسة يحيى:

- كذاب، لا يمكنك نسيان مسقط رأسك، وإن حاولت، إذا تعبت، لا عليك، لا تسلم روحك للحزن يذبحك، فكر باستراحة تفارق فيها أسباب الوجد مؤقتاً، فتداوي الجراح، تعال إلى دمشق، تعال وشقيقتك، نحملككم بجفون العين، امكث بيننا ما تشاء.

استعادت مريم روحها المقاتلة بمجرد انتباهها إلى صبغة الحزن في نبرات صوت شقيقها، لم ترقها دعوة الدمشقي، وهمسات البعض متصورين أن يحيى عاد برفقة رجل يهيئه زوجاً لها، سخرت من فكرة مغادرة الكرك وعدتها من المستحيل، اتهمت شقيقها بالجبن عن المطالبة بحقه في محاولة لتحريضه

واستنهاض همته، وبدا ليحيى أن مجرد الاتصال بالمختار الجلف لتعديل ما تمت مصادرته من شقيقته، مشقة لا يمكن المراهنة على نتائج ركوها.

انشغل بترتيب حياة أستاذه البائسة، أرسل طلابه ليتناوبوا على إطعامه وغسل بدنه المشلول، وليرفعوا مخلفاته ويفتحوا النوافذ، ويجددوا الهواء، والفرش، والأغطية، كأنه لم يعد معنياً بأوجاع مريم الكثيرة، لاهياً متريثاً مستخففاً بحرقة فؤادها، يكظم الغيظ ويؤجل الحراك.

اختار مقرأً جديداً أسفل السور الشمالي للمدينة، قرب المكان الذي عثر فيه مقبل على «عيون الحكمة» بين الصخور؛ يستقطب تلاميذ صغاراً جددًا، ويجمع من كبر من طلبته وما زال راغباً في مزيد من العلم، ومن يحب سماع الصالحي يلقي بالقصيد العذب ويحكي قصص من فرقته الحياة في البلدان والأمصار، وسط كل هذا الصخب الملتبس بعماء كبير لما يمكن أن يكون، أيقن يحيى أن مصير الأرض مناط به، فكلمات الرجال والنساء تشي بآمالهم حول الأستاذ الذي عاد لحل مشاكلهم، وإن غمضت الوسائل والتوقيت؛ فإن أحداً لم يشك أن الأمور ستؤول إلى صدام علني، وإن أرجأ المطالبة بحقه وحقوق الناس.

تقصى يحيى التفاصيل حول تغول منصور على التجار الذين كانوا في بلدة القصر يطحنون ويبيعون، والمزارعين الذين هجروا جُلجول والخرب المجاورة وتشتتوا متفرقين على أراضي الملاك في الكرك يعملون بقوت يومهم، وكيف باتت أموال الكرك بمجملها احتكاراً على الإخوة، فكيفما وقف على تجارة أو زراعة، قفز اسم أحد الثلاثة أمامه، سمساراً، أو وسيطاً، أو ممولاً، أو محتكراً، في حين أن من تبقى من عامة الناس بالكاد يسدون رفق عائلاتهم، تُحمل المحاصيل على الدواب وتباع في مناطق بعيدة بأثمان عالية، وما زال المحصلحي العثماني

يزورهم، فيقتطع من الفقير الضعيف ضعف ما يقتطع من الثري القوي الذي يرشوه ويدلل وفادته، ويحمله الهبات والغنائم.

تحسر مقبل بأسى هامسًا:

- يا ريت ما عدنا، سأصحب ابني ونرد سينا.

وقال الصالحي:

- أرد دمشق..

من للكرك؟ تأمل يحيى الأرض تمور ظلماً، وسمع الأصوات مختنقة، ورأى الضعف في السواعد المعروقة، والوجع في العيون الذابلة، وانحناء الهياكل على أرواح مضنية، فأيقن أن لا مكان يهج إليه، وأن الكرك صارت العالم.

جامله الصالحي بكلمات صادقة، دعاه إلى دمشق في أي وقت يريد، أشار إلى الجامع الاموي كمكان محتمل للقاء المرتجى، وأكد أن بيته في الصالحية يتسع للضيوف، وكما تحملوه في بيتهم الطيني فإنه يفسح لهم في مدينته، وبيته الخالي من الزوج والولد، قال إنه ينتظر زيارتهم ديناً في عنقه، وتمنى لو منحوه شرف الانتماء إليهم أهلاً وأحبة، همس مقبل في إذن يحيى حول تلك المجاملات التي بالغ الصالحي في إسباغها على كلامه، قال:

- ربما كان يلمح، أو يجس نبضك، ويقصد الزواج من مريم.

استبعد يحيى الأمر، فالرجل الذي قضى شهراً يمتع الجالسين بالقصيد ويتحاور حول مكائيد اللغة وجمال الكلام؛ لم ينظر إلى المرأة الحزينة بعين، ربما قدّر أنها امرأة هرمة وهي غارقة في أحزانها، وقد عرف المشيب طريقه إلى فوديتها مبكراً، وجعدت الشمس والحزن جفنيها فبدت طاعنة، تذكر يحيى هفوف الفاتنة التي تجايلها؛ فزاد كربه، وعاهد نفسه على محو ما تركه الزمان من آثار قاسية في وجه شقيقته.

فك مقبل الخيط الثاني من الخيوط الصوفية حول معصم سيف، واعتلى الصالحي ظهر أتان ابتاعها بثمن رخيص من راع نفقت أغنامه، تدثر بالعباءة الصوفية الفخمة التي نسجتها وخاطتها مريم هدية كريمة للضيف، ووجه سيره شمالاً صاعداً طريق تراجان*، عائداً إلى دمشق.

واجه يحيى قدره، عند باب القلعة صفرَ منصور مطلقاً الهواء بين لسانه ولثته في تعجب واستخفاف، وهتف:

- صصصووووو.. معقول!! يحيى في الديار يا عيال!!

تجاهل يحيى الاستقبال التهكمي، وأبدى رغبته في لقاء متعب.

يشك يحيى فيما سردته شقيقته عن زمان بعيد كانت فيه مقربة لأولاد صايل، كانوا فيه صحاباً وأهلاً، بدا كما لو أن التنافر والصراع بينهم وجد هكذا منذ بدأ الخليقة، جلس متعب وقد اكتنز جسده كتلاً دهنية توسطت قامته وجعلته يزفر بين الكلمات، ويرجع إلى الخلف مفسحاً لكرشه، رافعاً رأسه يلتقط الهواء على شيء من الكيد واستظهار الأهمية والسلطة.

قال بنفس سخرية شقيقه ولكن بدربة أعلى وتصنع أكثر إجادة:

- نورت الديار، واجبك علينا، كان علينا أن نأتيك معززين بوالدك على الاقل، اعذرنا فقد تباعد الحدث، والمشاكل أكثر من أن تحتمل.

لم يذكر أي منهما واقعة خروجه هارباً في ليل من رجال الجندرمة الذين داهموا بيته يطلبونه لخدمة إستانبول، مرر كلاهما الواقعة كأن لم تكن، وتحدثا بحذر حول الأحوال الجوية، والوباء الذي حصد أرواح أهالي جلجول، وكيف

* اسم طريق السفر التاريخي.

اكتشف المختار وإخوته أن أرض الخربة صالحة للمحصول الجديد، الذي يسمونه التتن، شرح منصور المشاق التي يواجهها في إنماء النبتة الغامضة التي يجهل الأهالي طبيعتها وكيفية العناية بها، وسط تلك الأحاديث الباهتة، طالب يحيى بحقه الذي أسقط عند غيابه؛ ظناً بموته، فرد متعب بوضوح وقح مؤكداً أن حقه وحق مريم وصلهما كاملاً وقد ابنتت دارها به، وأشار منصور بصلف إلى أن الدار العتيقة التي كانت في جلعول وصادرها المختار بنيت أساساً بوجود والده صايل، بدا جلياً أن الأخوين لا يقيمان وزناً لحق عيسى الطحان في بيته الذي ابتناه من أجر عمله في الطاحون.

نغصت الجراح القديمة وجه الحياة، تذكر الإخوة المواقف التي أخرجتهم بها مريم وهي ترفض الاقتران بمصعب، وتذكر يحيى فعلة المختار في بيع هفوف جارية للعاير الذي قبض منه الثمن، كلما تحدثوا تقلبت الذكريات واتسعت الهوة، وأيقن يحيى أن الإخوة لن يعيدوا حقاً لصاحبه في جلسات حميمة خجلة مثل هذه، خرج صامتاً أسود الوجه مكفهرأ، صارت القلعة خلف ظهره وهو ييمم صوب بيت الطين، لف كوفيته بإحكام حول وجهه، فلم يظهر من الوجه الغاضب الملمش إلا عينان تقدحان شرراً.

يكره يحيى مشاعر الغضب والقهر التي تعتريه، حلم مطولاً بجلسات راقية تحت شجرة التعليم العتيقة، ظن أن لديه أفكاراً يريد الإفصاح عنها ومحاورتها مع أهالي جلعول والكرك، لكن جلعول لم تعد بقعة على وجه البسيطة، بل مزارع للتنن تمتد بلا انقطاع، والكرك تنوء تحت أوجاع أهلها.

تبخر حلمه بالسلام والأمان، وبينما الشمس تغوص عند قمة الجبل وتضرج جنبه وامتداد السماء فوقه باحمرار قان؛ فك مقبل خيطاً إضافياً عن معصم الولد.

في البداية، لم تسترع التجمعات عند باب بيت يحيى أو تحت سور الكرك حيث يلتقى بتلاميذه انتباه متعب وأشواقه، قدروا أنها استمرار لطقوس استقبال الولد العائد، وتغاضوا عن الفتى الذي هج بليل وعاد رجلاً أزهرياً، وتبادلوا بينهم على عجل كيفية التعامل معه، مجمعين على إهمال أمره والتقليل من شأنه، والالتفات لشؤونهم، مقدرين أنه لن يعاود الكرة في مطالبتهم بنصيبه من الخبرة، بل سيفعل مثلما فعل سواه من انصراف إلى معاشه، ومتابعة للقمّة العيش الصعبة المال، ظنوا أن استخفافهم به كفيلاً بإماتة مطالبه، فانصرفوا إلى ما هو أجدى وأهم من تحركات الأستاذ الصغير.

حل موعد وصول المخمن الذي ترسل به الجهة العثمانية المسؤولية عن رسوم التبغ، ورشا منصور المزارع الذي يرافق المخمن الموفد من الدولة العلية، ليضمن أن لا تتجاوز تقديرات جني المحصول التقديرات الأولية التي سجلها المختار والزرع ما زال أخضر في سهل الخبرة، مخفياً المنحدر الجبلي المجاور لها عن عيون العثماني، كان الأشقاء يعانون توتراً عالياً خائفين من وقوع فروق أساسية بين التخمين الأولي والوزن الحالي للمحصول الذي حمّله مصعب على الدواب بانتظار وزنه.

أعلن متعب وصول مبعوث «أمانت جلييلة رسومات»، وذبح منصور كبشاً أحاطه بالفريك واللبن الخاثر، يعرفان إن المبعوث يعاين المكان والأحوال بعين طامعة في فائدة جزيلة، لم ييخلا برشوته وإن كانا حريصين أن لا يزيد مقدار الرشوة والاحتماء بالضيف عن مقدار ما هرباه من تبغ يبيعانه سرّاً في القدس، أو يتسللان به إلى حيفا، كانت المساجلة مع المبعوث العثماني مبطنة بالتهديد؛ تحدث بعفوية مصطنعة عن التاجر الحيفاوي الذي حوكم ودفع ريع محصوله وفاءً لما تهرب منه في سنوات سابقة، تبادل الأخوان النظرات حذرين حين قال:

- رزق افرحوا به الآن، كل بخشيش عرب زنكيل لا ينفع بعدها، هولندا ستحتكر كل التبن في الأراضي العثمانية قريباً.

تظاهرا بالجهل، وتصنعا الغباء:

- من هو هولندا هذا؟ تاجر كبير في الدولة العلية؟

ضحك المخمن وهو يدس في فيه لقمة ضخمة من لحم وفريك سال لبنها ملطخاً لحيته وياقة ثوبه.

تحركت قافلة الحمير المحملة بأوراق التبغ العريضة اليابسة صوب فلسطين، تمايلت الدواب المثقلة تعبر وادي الموجب شمالي الكرك محاذية لوادي سعيدة حيث اقتربت القافلة من بحيرة زغر المالحة، تسلى المبعوث العثماني في طريق رحلته بدس كفه في جرابه قابضاً كمشاً من زبيب، لاهياً بملاحقة حباته التي يلقيها في الفضاء، ويلتقطها بفمه المفتوح، فرحاً باقتراب انقضاء الرحلة المعجزية، وجراب الذهب والفضة المربوط إلى خاصرته.

لم يصل المخمن العثماني إلى فلسطين، عوضاً عن ذلك، وصل إلى الغور مهرولاً حافياً، متعباً منهوباً عارياً، لا يحمل إلا خرجه وما تبقى فيه من حبات الزبيب.

طارت أخبار المبعوث الذي تعرض للاعتداء على قافلته إلى الكرك، فأقبل الإخوة وقد انضم إليهما شقيقهما منصور على خيلهم السريعة يستجلون الأمر، ولولا الهلع في وجوههم، والغضب في العيون، لرجح المبعوث شكه وارتياحه بأن المختار نفسه كان وراء الرجال المثلثين الذين اعترضوا قافلة الحمير وبعثروا التبن على الطرقات، وأفرغوا الخراج إلا من قليل يقيم الأود؛ غايتهم نهب النقود والذهب والفضة، أثاروا الهرج والفرع بين رجاله، فهربت الدواب متفرقة بين مزارع القصب، وإن تركوا له آثاناً تقوده إلى الشونة، حين لحق به متعب وأشقاؤه،

عاين وجوهمهم بالشك؛ لم يتصور البدوان والمزارعون أن أحداً سوى الإخوة ورجالهم قادر على اعتراض قافلة المبعوث العثماني وقد حصنت بشاويشين مسلحين، بينما توجس أبناء صايل من قوة جديدة تراحمهم وتحاول إذلالهم، بدا لهم الأمر أكبر من رعونة قطاع الطرق، قال متعب بخبث:

- الأستاذ وحده يفعل هذا، لا يحرض الناس سواه، وهم وحدهم أهالي جلعول الغاضبون بسبب زراعة التبن.

لم الجندرمة العثمانيون ما تبقى من رزم التبن وقد تناهبها الرعاة والجند البدوان، فأعادوا ربطها ودفعوا بها للمخمن كي يواصل رحلته مع ما جمعوا له من الحمير الهاربة، وألبسوا الشاويش الذي عراه اللصوص المجهولون، ثم أعاد متعب كتابة تذكرة مرورية للقافلة لتعبر بحيرة الملح إلى فلسطين؛ منذراً بالوبال من سيثبت تورطه في تلك الفعلة الشنعاء.

كان حادث قافلة الحمير شرارة أعلنت قيام حرب شعواء بين أبناء الشيخ صايل وأتباع يحيى، فالأستاذ الذي أدهشه ما حدث، كان أكثر هدوءاً واثراً من الوقوع في براثن الغضب، قال بهدأة حكيم:

- هذه ليست طريقتنا.

جن متعب واحمر أنفه المدبب، صائحاً:

- طريقتكم! من أنتم؟ ما هي طريقتكم إذن يا أستاذ الكتاب وفكاك الخط؟

لم تخف مريم شماتتها بالإخوة الذين اسودت وجوهمهم، راحت تثرثر بفرح وهي تكمل نسج البساط بين صويعباتها، أو تدق حبة جوز الطيب الصلبة في الهاون النحاسي، مؤكدة أن غصبة الحق لا تُربط، وإن تأخرت إلا أنها تأتي، ولا يمكن معرفة طرق بطشها بالظالم، ورغم يقينها من براءة شقيقها مما وقع، إلا أنها

رجحت أن أحاديثه أثارت حماسة بعض الذين اختاروا طريقه يعبرون فيها عن غضبهم واحتجاجهم، لكن يحيى وقد خبر تلامذته ورجال الذين يطلع فجرهم وهم يرهفون السمع لكلماته لم يوافقها الرأي، قال:

- الكلمات نار ونور، وما وقع للمبعوث العثماني لا ينم عن حوار النور والنار، وإذا ما كان صبيان جليجول ورجال الكرك قد تأثروا بكلماتي فإنهم قد لمسوا الحكمة، ووقفوا على أبواب الإنسانية النبيلة، ونبذوا العنف سيلاً لا تتزعزع الحقوق، ولا يمكن أن يكون هذا فعلهم، وإن ارتأوا حقاً لهم في نتاج أراضهم، لكن ما وقع؛ فعل من اضطرت أخلاقهم وحارت دروبهم.

أطفت كلماته نيران التشفي والهرج لدى العامة وأخجلتهم، وفترت حماسة مريم، إلا أن سؤالاً أرقه ليالي طوالاً، ما هي طريقتنا إذا لم تكن هذه؟ وأي الدروب نسلك فلا نحيد عن الحق في طلب الحق؟ ولا نتجاوز على الحكمة؟

في عتمة القلعة وسكون الليل، مال منصور نحو شقيقه في وشوشة لئيمة:

- لا تتعامل مع البحث عن اللصوص كأمر جاد، ولا تضن جهلك فيه، تشبث بما تبادر إلى ذهنك أولاً، وأسرع بتوجيه إصبع الاتهام ليحيى، وابطش به قبل أن يقود العامة إلى التمرد علينا، صدقني إن ابن الطحان سيطر على عقول الناس في فترة وجيزة، ولنا ما يشغلنا ونفعله، لا أن نشتغل بشأنه، اقض عليه في المهدي قبل استفحال أمره، أما اللصوص، فدع أمر عقابهم لربهم.

اعترض متعب وقد حار في تفسير الابتسامة الماكرة على شفتي شقيقه:

- إذا كان سواه الفاعل، نتركه يفر بماننا؟ أتهم يحيى علناً، ولكنني خائف أن يكون غيره من يلعب بنا ونحن لا ندري، لقد خسرنا؛ دفعنا ضريبة التتن ورشونا المخمن الحقيق، أنسكت على حقنا!!

فشخ منصور شذقيه موسعاً ابتسامته الجانبية، والتمعت عيناه حمرأين كما لو أن ذئباً يحدق في عتمة النفق، برزت أسنانه وهو يفح فحيح الأفاعي، ويخرج من جلبابه بقجة يخشخش بمحتوياتها من دنائير ذهب وفضة، شهق متعب شهقة المتفاجئ الغشيم.

تسج مريم خيوطها الصوفية وتلون البساط بالسواد مكثرة من حييات السماق الملونة، ممتعة عن مزج الألوان المشرقة، وينظر يحيى بطرف عينه إلى شقيقته تمارس صمتاً محايداً، يخيل إليه أحياناً أنها تستخدم صمتها في إيذائه على نحو خاص، لومه وتقريعه دون كلمات، تعبيراً عن رفضها لثريته، تبدو له وهي تدق في الهاون الخشبي أعواد القرفة فتفوح الرائحة العذبة منصرفاً إلى تفكير من نوع مختلف، الدقات الرتيبة الثقيلة في قعر الهاون أجراس تدك هدأة روحه التي يحاول الوصول إليها دون جدوى، لم تفهم أمه الصغيرة، شقيقته الوحيدة الغالية، دخوله في جدل طويل مضمّن مع الجالسين تحت السور حول حادثة التعرض للمخمن ونهب نقوده، أزعجها أن يحيى يشني مريديه عن تلك الفعال، ويتحقق مما إذا كان لتلاميذه وجمهرة محبيه المعلنين انتسابهم إلى تفكيره، أيّ علاقة بالأمر، همست في أذن جعفر الحكيم، ابن الشلبي:

- ما الفرق؟ لماذا يجعل يحيى الأمر مهمّاً؟ ماذا يهم ما إذا كان هؤلاء المظلومون هم من انتقموا لأنفسهم أم سواهم؟ يفعل الله ما ينتقم للمظلوم من فعل الظالم، سواء على يديه أو أيدي الآخرين.

ردد جعفر ما ذهبت إليه المرأة في همسها، طأطأ يحيى رأسه المعمم هنيهة، فأثقلته لفافة الصوف في العمامة، خلعها مريثاً، وقال بتأن نشف حلق المستمعين من حوله:

- لا تقاس الأشياء بعضها ببعض، لأن جوهر الناس أجل من كل جوهر، وإنما زينت الدنيا جميعها بالناس، ولا ينسب الخطأ إلى الباري تعالى، فهو واهب الصلاح لمن يشاء، يؤتي كل عبد ما يصلح له ويليق به، ولا يصير فعل النهب والضرب حلالاً إذا ما سلكه مظلوم، لا يمكن أن نرتضي الكون ساحة صراع بين مظلومين تحولوا إلى ظلمة، ونعاجاً تصير ذئاباً، فيتساوى التبر والتراب.

رد جعفر:

- وماذا على المظلوم أن يفعل إذن؟ هل نكظم الغيظ، ونسلم لطاعة أولى الأمر ولو جاروا؟

لا يملك يحيى رداً جاهزاً، ما زال يقلق ليله مقلباً السؤال على وجوه عديدة، يعرف في قرارة الروح أن الصمت والاستسلام ذهاب بالهمة ومرتع للظلم والظلام، لكنه لا يجد وسيلة تليق باليد لتغيير المنكر، يخاف على صحبه الخائفين من خوفهم، يخاف على المتحمسين من حماسهم، ويخاف على المستسلمين من التعفن في حوض الهزيمة المفجعة، يتأمل حالات الحياة، ويستيقظ مبلل الثوب معترقاً وقد يسمع في المنام ترتيلاً شجياً فخيماً لآية تكرر مرات من سورة عمران: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر».

يكي في العتمة، وإذا ما تقدم نور الفجر مخترقاً نافذته، خيطاً رفيعاً خيماً، وانفلش مثلثاً مضيئاً في أرض حجرته، احمرت عيناه هلعاً، ولم يعرف أي خير

يدعوه له، وأي معروف يرتجيه، وأي منكر يحارب، ولا وجد طريقاً يتصدى فيه للظلم، وازداد هلعاً كلما عاين تكاثر المجتمعين تحت السور، وأعينهم الملهوفة، وذلك الوميض الراجي الذي يتوسل منه الجواب، يرى مريم المتلهية بشأنها لا تكف عن إبطاره بنظرات التأنيب وملامة الصمت، يوشك على شدها من زندها صارخاً، ارحميني رحمك الله.

لا يعرف الأتباع والمريدون ما يحل بجسد وروح يحيى في عتمة الليل، يحاورونه نهراً فلا يقطعون بإجابات حاسمة، يفكرون معه ويرهقون العقل بالاحتمالات.

يراقب أهالي الكرك وجلجول السماء بلهفة منتظرين غيمة عابرة، وقد دخل الشتاء جافاً بارداً، ولم تقطر على الزرع قطرة رحمة، كما هزلت الدواب والأنعام، وتلاشى خرير الماء في الأودية والسيول، وراح مقبل يرصد تناقص الخيوط التي تحيط بمعصم ولده؛ يناديه خوفه، وهو مثبت مثل مسمار عصي الاقتلاع في مجالس الأستاذ، شاردأً، يتنازعه شوق بعيد، وحياة استسلم إلى حلاوتها المغمسة بالمر.

انتبه مقبل للخيل تحيط بمجلسهم، انهمرت خيل الجندرمة من كل الجهات فجأة، وأحكمت إحاطتها بهم، فزعوا وهبوا يستجلون الأمر متصايحين، ووقف يحيى بينهم وقد لامست كتفاه كتفي جعفر وزيد ابني الشلبي عن اليمين وعن اليسار، واقترب مقبل والشلبي ورعاة النوق وطلبة الكتاب، كأنهم يسورون يحيى بأجسادهم، كفوا عن الصياح وهم يسمعون ما يتلو شاويش الدرك فوق ظهر حصانه، فاردأً رفاقاً جليداً مستطيلاً:

- مرسوم حاكم البلاد الأمير حمدان بن الأمير فارس بن مساعد الغزاوي، حول عبد الله، الآثم، يحيى بن عيسى بن أبي بكر المعروف بالطحان أو

النحال، الذي يعمل مؤدباً أستاذاً للصبيان أسفل سور القلعة، البالغ من العمر قرابة السادسة والعشرين عاماً، المعروف أساساً من خبرة جلجول من أعمال كرك الشوبك، مطلوب للمثول أمام ديوان الحرب العرفي في عجلون، أمام قاضي القضاة مولانا عبدالله المدله، بموجب المحضر الثالث والثلاثين في اليوم التاسع عشر من رجب في السنة العاشرة بعد الألف هجرية، وعليه وجب تقييده وحمله إلى سجن القلعة بانتظار محاكمته، وعلى المتهم أن يمضي مخفوراً دون مقاومة، لسماع تهمته، وتلقي عدالة القانون بحق ما يجرم به.

ذيل المرسوم بتواقيع وأختام أعضاء محكمة ديوان الحرب العرفي، ورئيس ديوان الحرب العرفي في عجلون والكرك.

ترجل بعض الدرك عن خيولهم وشقوا الدائرة التي انفتحت فيها ثغرات لوصول الجندرية وسط تدفيس ودفع بسيطين تراجعاً وذراع يحيى ترتفع مانعة أي عنف مقاوم، مع انتهاء قراءه الشاويش، مُدّت ذراعاً يحيى أمام صدره، وأغلق أحد الجندرية حول معصميه كلبشات* حديدية كأنها سوار محكم، أطبق يحيى كفيه ولم تفارق ابتسامة الرضا شفتيه، وهو يخاطب من حوله مهدئاً:

- لا بأس... هو اختبار.. شدة وتزول.. لا بأس.. لا بأس.

للحظات، لم يعرف المحيطون به ما إذا عليهم أن يأتوا حراكاً، ولكنهم وحين تم رفع جسده مردفاً وراء الشاويش، ولمعت شفرات السيوف القصيرة التي شهرها الجندرية حوله في الهواء، صاحوا، تشبث مقبل برسن الحصان، فحمحم

الحصان وقاوم، وعكس أحد الدرك مقبض سيفه دافعاً به كتف الراعي الهلوع، وكرر يحيى بصوت واضح حاسم:

- لا بأس... لا بأس.. لا عليكم.. ساعات وأعود.. اطمئنوا..

ابتعدت الخيل كأنها زوبعة رملية، وصلت مريم إلى الجموع التي تصطخب بالغضب وتتشاور عما حدث، صاحت تلوم خنوعهم والدرك یرتحلون بیحی، جاحت باسم شقيقها، وشدت في هياج فتحة ثوبها، فانشق الثوب مصدراً صوت نشيج سريع كاشفاً لحم نديها المترهلين، زاد الهرج والاضطراب، وسمع تصايح وسباب ونصح باهت؛ أحاط ابن الشلبي بالمرأة المفجوعة برفق وسرعة، يحتضنان جسدها ساترين عورتها بصدروهم أولاً، ثم بعباءة خلعتها زيد ودثر بها المرأة التي بات جرها من بين الجموع عسيراً، وتدفق أهالي الكرك مستطلعين، في حين راح كل واحد يشرح ما حدث أو يتوقع ما هو آت، تعددت الأسباب المحتملة وراء هذا الاعتقال؛ قلة ربطت بين حادث نهب المخمن واعتقال الأستاذ، البعض قالوا إن دروسه تزعج مفتي عجلون، والبعض تذكروا زيارته للمختار ومطالبته بحقه من إرث والده في أرض جلجول، وآخرون لم يستبعدوا أن أمراً يتعلق بفراره القديم من خدمة استدعي إليها في إستانبول، في غمرة الهرج، صاح الشلبي:

- المهم الآن.. ماذا نفعل؟

غاب يحيى في القلعة ليلتين، وبسطاء الناس لا ينامون، يتجمعون أسفل القلعة نهاراً، ويتساهرون حول مريم المكلومة، وقد فجعتهم حين تذرعت*، فمسحت سواد القدر عن أسفله، وطلت ذراعيها بالسخام، وعلقت ردني ثوبها في رقبتها

* طقس تصبغ به النساء أذرعهن بالسخام معلنات عاراً لا بد من ازالته.

كاشفة السخام، محملة الرجال عارها ورفع أحزانها، دامعة مترنمة بين حين
وحين:

- ألا يا حمامتين فوق دوحة.. وراكن فرقتن* والحمام
ربوع*!! حمامتين جعل تبلى بنادر* قطوع*... وجاري له جوع...
وراكن ما تبكن عليا؟ لو كان ما يجري لكن دموع*.

سار خلق كثير وراء رتل الجندرمة الذين أخرجوا يحيى من القلعة
على ظهر ناقة حالكة السواد، وأحكموا الإحاطة حوله به بخيلهم
وسيوفهم، تذرعت نساء جلجول كاشفات سواد أذرعهن أسوة بمريم
التي أشرفت تنظر عن بعد شحوب وجهه، فيعتصر قلبها أسى ويموج
بكاؤها لوعة، وطأطأ رجالها الرؤوس وانحنت أكتافهم وهم يعبرون
وراء الموكب جبال الكرك صاعدين إلى عجلون، وكلما انفلت من
العسكر رجل نحوهم ولوح بسيفه في الهواء، تفرقوا واحتموا بالصخور
ثم عادوا وتجمعوا وراء الموكب، وكلما تعثر المسير ووعرت الدرب
وشهقت صعوذاً، وضعفت الأقدام وهي تغذ وراء الخيل، أكثرت النساء
من اللعنات، وصببن السباب على المختار والعسكر والقضاة والدولة
العلية في إستانبول، وبصق الصغار بجرأة وراء العسكر، أما الفتى النزق
سيف فقد حرض الأولاد على التقاط الحجارة وإمطار المسيرة

* تفرقتن.

* أسراب.

* صقر.

* ظالم.

* قصيد شعبي.

بضربات متتالية تركز على أطرافها خشية إصابة يحيى، لكنهم عندما وصلوا إلى عجلون وانحدروا إلى قلب القرية الصغيرة الواقعة في الانبعاث المنحدر بين الغابات، مُنعوا بحزم من إكمال طريقهم، وبعثرتهم السيوف اللامعات والسياط الملوحة التي نالت أكتاف بعضهم بضربات موجعة، تقافزوا مثل وعول مذعورين شاقين طرقاً متوزعة متفرقة بين أشجار السنديان الكثيفة، والبطم الشائك، والقيقب التي احمرت جذوعها في غابات جبال عوف وجلعاد*، متسللين إلى القرية المحمية من ثغرات لا ترصدها عيون العسكر.



استوى قاضي عجلون عبد الله بن المدله على مقعده في مجلس ديوان الحرب العرفي في فيء قلعة الرض التي تعتلي جبل عوف، هز رأسه ومصمص شفثيه مقطباً جبينه، وصورة المتهم تتراقص أمام ناظريه؛ لضعف بصره، وتعدد المرئيات أمامه، وزوغان التفاصيل، كان مصاباً بأمساك معوي يؤلمه ويجعله يهز جذعه مضطرباً بين الحين والآخر، لم يدهش يحيى وهو يرى المختار متعب يجلس إلى يمين القاضي، وإن كان جاهلاً بما سيتهم به، محاولاً التماسك وبدنه يخونه وهناً، فقد قضى ليلتين في القلعة لم يتذكره أحدهم بطعام يقيم أوده، ما عدا رشقات شحيحة من جرة ماء صغيرة.

تنحى القاضي، وأعلن بدء الجلسة لمحاكمة يحيى بن عيسى بن أبي بكر الكركي بتهمة قطع الطريق على الجابي والمخمن العثماني،

* الاسم التاريخي لجبال عجلون.

وسلبه كل ما كان بحوزته من متاع ونقود تعود للدولة العلية كخراج عن زراعة حقول التبغ في جلجول، إضافة إلى تهمة تجميع الرعاع تحت سور قلعة الكرك وتحريضهم على التمرد والعصيان، ونشر أفكار تحرض على تفسير آيات الله بغير ما جاء به المفسرون الأوائل.

أعاد القاضي مصمصة شفتيه، وصر أجفانه مستنكراً وقد اتضحت أمامه صورة جسد يحيى لوهلة ثم غامت، قال متفجعاً:

- لا اله إلا الله، تسرق وتقطع الطريق، معقول!! أأست أزهرياً يا ولد؟ هذا كوم، وما تعلمه للصبيان كوم، أتجرؤ على كلام رب العباد؟ استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم..

تمتم يحيى متحاملاً على ضعف جسده وتراجع أنفاسه:

- أعلم طالب العلم التفكير بالخلق للوصول إلى الإيمان، وما أنا بأعلم من أصغر طالب إذا ما تفكر وتدبر، لا أداري عقله كما لو كان قاصراً أو عبداً مسيراً، إنما خلق الله على شاكلته روحاً حرة تختار فعالها، وتستزيد من علمه الذي أشاعه في الهواء والماء وكل عنصر كوني.

حذق القاضي منزعجاً ثم رمش على تلاحق وضيق، وتحرك متشاقلاً ومعدته تضغط أنفاسه، توشوش الإخوة معاً، ثم تهامسوا مع القاضي، الذي لم يكف عن هز رأسه، أخيراً، تنحنج بجلافة وصاح بغلظة:

- تأدب إذا كنت مؤدباً، إنما نأخذ ما آتانا الله مسلمين، لا نماري ولا نحاجج فيه.

وصل العامة إلى جبل عوف بعد يومين من وصول يحيى، تجمعوا في سفحه متظاهرين أنهم من بعض عامة قرية عجلون، رافقهم محليون راقهم سماع

الحكاية، جاؤوا فضولاً، كما تعاطفوا مساندين ضعف المساكين المرتحلين
بضعفهم، قدموا ما استطاعوا، اقتاتت النسوة ببعض ما جاد به فقراء عجلون،
وشرب الصغار الماء، ووزع الرجال حصصهم على الضعفاء منهم، ولكنهم لم
يتوقفوا عن الحداء بأصوات جشة نافرة نخزت قلب القاضي في القلعة وهو يسمع
الترداد:

- ظليت أنادي وأضرب الباب بالسيف.. عيوا يا باب هلك ما يفتحونه...
وتسالني يا صاحبي واشو وقفك بالباب... قلت أنا حيف.. حيفن ما
تركته، تا ترفعونه*.

جزع القاضي وعامة عجلون يتكاثرون ويساهرون أهالي الكرك في السفح
الوعر الصاعد وقد أضأوا مشاعل الزيت والدهن، وأصواتهم تعلو تدريجياً،
ونسأؤهم ينقلن التين والخبز، يسندن جوع القادمين على أقدامهم قاطعين الغابات
والجبال الوعرة.

تقاطر رجال من عجلون يجتمعون بالقاضي فرادى وجماعات،
يتدبرون شأن الكركي الذي ينذر بوبال، استشعر منصور الخطر إذا ما
طال الأمر، خاف إفلات الزمام منهم وانقلاب الحال وبالأعلى عليهم، قال:
- لا تتركوه يموت جوعاً حبيس القلعة، ولا تطلقوه منتصراً
فيواقع العامة علينا، اجعلوه عبرة لهم ودرساً، صغروا شأنه
وانتهوا منه، شو هوا صورته في أعين صغارهم وكبارهم، ولا يتم
هذا إلا بتجريبه من هنا إلى الكرك وتوسطه* هناك.

* غناء شعبي.

* عقوبة تقتضي القتل بقطع الجسد إلى نصفين من خاصرته.

فزع القاضي، حتى إنه ارتفع عن مقعده رغم ثقله، ثم انهد محدثاً خبطاً عنيفاً، صائحاً:

- توسيط!! يا رجل، أعود بالله، هل تراني وحشاً؟ لا تحملني دمه.. والله لا أرى إن ما تدّعون به عليه قد ثبت عندي، ثم؛ الله أعلم به مؤمناً أم كافراً، لا تبتلني بذنبه، لا أقص جسده الرجل بالتوسيط، وأريق دمه، استغفر الله وإلا؛ لا أضع يدي في أيديكم في هذا الأمر أبداً.

نبه استنكار القاضي منصور وأخويه إلى صلف ما يطلبون، فراجعوا سريعاً، هتف متعب:

- لا يقصد منصور الوصول إلى هذا الحد يا مولانا، معاذ الله، فقط يدل على خطر الفتنة التي يحدثها الرجل بالمبالغة الكلامية، إنما؛ يكفيه التجريس* وزف المغاني، وجلدات لا تميت؛ لينزل عن عرش غروره ويندعن لأولياء الأمر.

تلا القاضي حكم التجريس والجلد على المتهم، وأخرج يحيى بعد أن دُفع إلى تناول ثمرات قليلة نقيم أوده فوق الناقة السوداء التي جيء بها حتى باب القلعة، خرج وجسده يتمايل وعيناه تزوغان فوق وجه نحيل شاحب؛ صاح الرجال في سفح الجبل وهللت النسوة واندفع الجندمة يمنعون اقتراب العامة، ثم رُفع يحيى على ذراع عبد قوي إلى سنام الناقة، وربط فوقها، ووجهه عكس سيرها، وظهره لرأسها، واصطف مرتزقة من الزط* يدقون الدفوف خلفها،

* عقوبة بالدوارن بالمتهم على دابة ووراء المغنيات يعلن ذنبه ويشتمنه.

* الغجر.

مهمهمين أصواتاً موحشة، خبت الناقة بالمتهم وسط حراسة مشددة، وتنفس القاضي الصعداء وهو يرى من فتحة الرماة الصخرية موكب التجريس يتعد عن أسوار القلعة باتجاه الجنوب.

أعولت مريم؛ حرضت النسوة المذرعات حولها لنواح أليم، إلا أنها على حين غرة، استوت جسداً فارعاً، ومدت خطواتها في موازاة خطوات الشباب الذين يتقدمون المسير، ثم في صفاء غير مفاجئ، غنت كما لو أنها ترافق عازف الرباب.

- أوصيك لا تقبل دروب التعدي... ولا ترافق الكبرى وتغيير الأحوال...
النبع نبع الما... يحب التحدي... يفلق قوي الصخر يا خوي بالحال...
ونت كما نبع يحب التصدي... ولو كان صخر الأرض بحجم الجبال*.

بعيداً في وسط الغابة، تأرجح رأس يحيى فوق نحره كأنه اقتطع، وانسدل جفناه متعبين فوق عينين تاه لونهما، هلوس سامعاً صدى الصوت، صوت مريم، مختلطاً ببديع ما تنشده هفوف، وشاهد في ضباب الغابة الكثيفة طيف والده محاطاً بنحل المنحلة يغترف العسل، وأحس بلمس كف جمان البعيدة، وفجأة؛ ركز تفكيره عليها بصورة محمومة، رائحة الياسمين، والملمس المترف الناعم، وخضرة العيون، وظلال ألوان ثوب قرمزي يخلع عن جسد مرمرى، وبلل الرضاب على الشفاه النزقة المتعالقة، تقلبت عيناه، واهتز جسده، نظره الشاويش بريية ووجل من أن يقضي الرجل نجهه على ظهر الناقة، شاهد أطرافه ترتعش، وسمع همهمة صوته وأنيباً خافتاً متصلاً، ولكنه لم يفكر ولو للحظة أن المُجرس سكران منتشٍ حتى الثمالة، يتزلزل جسده فوق الناقة السوداء كالذبيح، في حين

أبرقت السماء وأرعدت، ثم انهمر الماء مستجيباً لعطش أشجار الغابة وظماً البشر.

دبت الحماسة في قلوب التابعين للموكب والمطر يبلل ثيابهم اليسيرة، هموا، وتراكموا خلف مسيرة التجريس، ما إن نومت الناقة في قلب القرية، واصطف رجال المختار وبعض المتفعين والعثمانيين والدرك، حتى كان الناس قد وصلوا وأحاطوا بالمشهد صائحين زاعقين، احتبست أصواتهم والسوط الجلدي يرتفع في الهواء ثم يسحب محدثاً زعيقاً عالياً وشهقة هواء تتخلل سقوطه على ظهر يحيى عنيفاً تاركاً جرحاً غائراً في الجلد الواهن، وتبعته سياط أخرى مشققة ظهره في خطوط متوازيات متقاطعات؛ وتفصد دم كثير، سال مع سيلان ماء المطر إلى قدميه، وتجور في بقعة وردية غبتها الأرض العطشى من تحته تاركة احمراراً كأنه الشفق على التراب.

كلّ الضارب ومل، وارتمي الجسد المضروب متمرغاً بالوحل الأحمر، وسقطت عتمة المغيب على القرية المفجوعة، أُلقي يحيى على ظهره، ورفعت قدماء واستكمل السياط جلداته حتى عدها خمسمائة جلدة تركت خمسمائة أثر فوق اللحم الحي، لم تظن مريم الصامته كأنها الميتة أن شقيقها ينجو وإن تمت، وما فاه يحيى بأه.

أحاط به الرجال منكسرين خائفين غاضبين، وتوقفت النسوة عن الصراخ والعيول، ومع توقف المطر وارتفاع قرص البدر برتقالياً قانياً في الأفق، انسحب العسكر وردت السيوف إلى أعمادها، وسمع نشيج مكتوم لبكاء النسوة وهن يسندن جسد يحيى المحمول بين أذرع جعفر وزيد ومقبل الذين يجهشون ببكاء عال كأنه العويل، ويسجون الجسد كما لو كان جثماناً مقطوعاً في حجرة بيته، قرفصت مريم بصمت حقود، رفعوا مشعلاً خشبياً في أعلاه لفافة صوفية تشتعل؛

راحت تمسح بردن ثوبها ما تجلط من كتل الدم، وما اقتطع من نتف اللحم، وعيناها على صدر الشاب الذي يرتفع وينخفض بوداعة أقرب إلى التلاشي، انكشفت شقوق بدنه وجراحه، وانفجرت شفتاه على وهن، غائب الدهن، يهمس بين الفينة والأخرى.. ج.. ج.. ج... جمان.

لم يفارق أهل جلعول الجسد المصاب الدامي لأيام، يعدون الطعام ويأتون مريم الحزينة الصامته، يرفعون جسد شقيقها بين أذرعهم فتغسله بماء بارد من منقوع نخالة الشعير، مانعة تقيح الجروح، لا يتعبون وهم يتناوبون على رفع الجسد عن ملامسة الفراش أو الأرض، ظل يحبى معلقاً بين أذرعهم ليالي وأياماً طويلة، تغسله مريم في ماء الينسون حتى أعلنت أن خطر تقيح الجروح قد زال، وأن عليها وقاية الجسد من هجوم القمل والحشرات الباحثة عن وليمة آدمية، سافر بعضهم تحت المطر وعواء الرياح إلى عجلون والسلت باحثين عما طلبته من نبتة العنزروت الفارسية الشائكة، فإذا ما جاؤوا بها دقتها في هاون نظيف، ورفعت مسحوقها الأصفر، وخلطته ببياض البيض، رابطة حول جسده جبائر كثيرة متفرقات، ولبخة عريضة تلف ظهره، علّ تلك النبتة السحرية تربي ما اقتطع من لحم، وتسد ما فتح من جراح عميقة في الجسد، لم يعيها إرسال المتطوعين إلى الغور الدافيء يجلبون لها نبات الصبار المفلطح بأشواكه الدبابيسية، فتشق الورقة منه، وتلصق باطنها لبخة فوق الجراح، متفحصه، موازنة بدقة ما التأم من جراح، وما طال به أمد الشفاء.

انصرمت شهور قبل شفاء الأستاذ، ولكن الفوضى التي شاعت في القرية الصغيرة وما جاورها من خرائب لم تتوقف، أقتلعت في ليل أشتال التتن القصيرة قبل نموها، وسُرق مخزون الطحين من طاحونة أولاد الشيخ صايل في سفح هضبة الذراع، وتم التعرض لكل مار أو محصل عثمانى وتعريته ونهب ما يحمل من نقود

رغم الرجال المسلحين المحيطين به، وشبت النار في أكياس الخيش التي رصها منصور في مخزن بعيد يقايض بها الجياع، دبت الفوضى بالمكان، وليس هناك من رجل واحد يمكن رفع أصابع الاتهام في وجهه؛ فالأستاذ المسجى مروعاً صامتاً لا يقدر على تحريض الرجال على مثل هذه الفعال، والخراب اليومي لا يتوقف مهما تحرز أولاد صايل الذين أصيبوا بالفزع حد التفكير بالهروب بأملاكهم من البلاد، خاصة أن انحسار المطر وضياح موسم التتن لم ينبئ بموسم جديد، فقد فر المزارعون الذين اعتمدوا على سواعدهم في الماضي، وامتنع آخرون بحجج متناقضة، حتى الأجراء الذين جاؤوا بهم من الطفيلة والشوبك لتغطية النقص، حملوا متاعهم وردوا إلى قراهم بعد سماع حكايات الليل التي يديرها الرجال والنساء مجتمعين حول فراش أستاذهم كأنه أيقونة للصبر والعناد.

استهان العثمانيون بالتجار الثلاثة، أبناء صايل، الذين يأفل نجمهم في محيطهم، انصرفوا عنهم إلى مزارعين وتجار في عجلون والسلط، ولم يعد انضباط المختار يعجب موفدي الدولة العلية في إستانبول، وصار لغط عما إذا كان المختار قد هرم وأطال المكوث في منصبه؛ وحان الوقت لإعفائه من منصبه وتعيين بديل عنه.

عندما تعافى يحيى تماماً، وتمكن من الحديث دون هذيان الحمى والنوم المنقطع، كان أول ما قاله مخاطباً مقبل:

- أساور شهاوي الصوفية إلى نقاد، ارجع ديار أهلك يا مقبل.

بكى الراعي وولده اليافع، وزغردت النسوة وهن يذرفن الدموع، وتعانق الرجال داعمين، وقد أيقنوا أن يحيى فارق مرضه وبرأت جراحه وتغلب على محنته.

يمم مقبل وولده نحو بحيرة زغر قاصدين الدرب المعروف إلى سينا برفقة دواجين وتجار كثر عابرين، ونظر وولده يستودعان السلام قمة القلعة التي تلوح

لهما وهما مفارقان، كأنما الحياة لم تكن قبل تلك الفترة التي قضاهما برفقة الأستاذ؛ ثقل صدره وغمره الأسى، ثم فجأة ضرب عنق حماره ونكص، لم يجزؤ للحظة على النظر في عيني ولده العامرتين بالأسئلة، فقد اختار الانقطاع عن عائلته وصحبة الأستاذ.

سيبكي مقبل فراق أهله أشهراً، ثم يتناسى، مكتفياً بالاقتراب من سيف، طالباً من الله مغفرة، ومن شهاوي مسامحته على ما فعل بها.

رافق خروج الأستاذ من بيته إلى موقعه عند السور وطلابه ومريديه هرج عام، واشتد قلق المختار، فأخبار إستانبول تشغل باله، إذ وصلهم خبر وفاة السلطان محمد الثالث قبل أيام فقط من وصول خبر تنصيب ولده أحمد الأول على عرش الدولة العلية، وكان ذلك في عام أرقامه عجبية، إذ اصطفت الأحاد، مدلة على العام الهجري الحادي عشر بعد الألف 1011 الموافق ستمائة وثلاثة بعد الألف ميلادي 1603، مما كان له أثر في تمجيد البعض، ومثلت الأرقام المتكررة عند الصوفيين ظاهرة تفضي إلى انحلال السلطة لدى سلاطين الأرض، وتأكيد هيمنة الواحد الأحد.

لم يكن أعيان الكرك على يقين مما يعنيه هذا الأمر، وهل ستأثر مصالحهم به، قال منصور إن صغر الفتى السلطان الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة قمين ببقاء القوة في أيدي نفس المجموعة التي تقيم وتعزل وتنصب الموظفين العموميين في الأراضي العثمانية، ولم يخف متعب خوفه من نزق السلطان الصغير، وتسلب أمه الجارية العجمية المجلوبة من البندقية، التي ستختار حتماً مساعدين جدداً يكونون طوع يدها، ويأتمرون بأمرها، وأن لهؤلاء مصالحهم في عموم المحكومة

العثمانية، التي لا شك ستطالهم، لم يضحك متعب لتعليق شقيقه الساخر منصور وهو يدب كفه في خاصرته ينخره مقهقهًا:

- إلى أن يحدث أي شيء، ويكبر سلطاننا الولد الصغير، ويفضي بالعثمانيين لقريتنا البعيدة، ستكون أنت شخصيًا قد لحقت بربك، وتوفاك الله، فلا تتخوف أن يقييلوك ويأتوا بمختار جديد، ستتخلل وتتغن في موقعك.

لم يعد يحى مترددًا حول دور المرء في تحقيق العدالة، ولم يعد يلقي بنصائحه المتأنية إذا ما سمع عن هجمات الرجال على مراكب العثمانيين أو أولاد صايل على حد سواء.

عاد يُدرس طلابه «عيون الحكمة» وينهكهم في تدبر ما قاله ابن سينا، لم يكن من اليسير تفكيك الكلمات التي تبحث في دلالة الألفاظ، يقرأ يحى بتؤدة:

- «كل لفظ لا يمكن أن تدل به بمعناه الواحد على كثيرين يشتركون فيه فهو جزئي، الكلبي الذاتي هو الذي توصف به ذات الشيء في ذاته، كما توصف النار بالحرارة واليبوسة اللتين في ذاتها، والكلبي العرضي هو الذي توصف به ذات الشيء بعد ذاته، كالسواد والبياض في الإنسان، المقول في جواب ما هو: هو الكلبي الذاتي الذي يميز شيئًا عما يشاركه في ذاتي له. المقول في جواب ما هو بالشركة: ما يكون دالًا على كمال حقيقة أشياء يسأل عنها معًا، ولا يكون كذلك لأفرادها».

الظاهر المعلن لأستاذ معني ببطون الكتب، رسخ صورة عالم غارق بكل جوارحه في تفسير الحياة دون الانخراط فيها، إلا أنه مثل بحر رائق على السطح يموج عنيفًا في الأعماق، كان أشد اهتمامًا وولعًا بتبديل وجه الحياة، لم تعد أسئلة التردد تقف مطولاً عند بابه، بات مقتنعًا بأن التخلص من المنغصات

بأيديها زوايا النسيان والتسامح والتعالي؛ ليس من الحكمة في شيء، يتأمل رغبات العامة على دراية برسائلته واختيار واع، فقد وضعت جروح جسده وروحه نصب عينيه فكرة محاربة الباطل بأشد ما يتمكن المؤمن على حمل نفسه عليه، نبذ اعتراضاته السابقة على غضب الغاضبين، ولم يعد يرتضي بأضعف الإيمان، وإن لم يعثر على مسلك عملي بعد.

وجد مقبل عملاً عند واحد من مالكي الحلال، يسرح وولده في الجبال بقطيعه، يهرع الصغير سيف مع الكبش المرياع المشنشل بالأجراس مقرباً من القلعة، متظاهراً بالوجود في بقعة بعينها، ثم يتسلل إلى الجوار متلصصاً على الداخلين والخارجين من القلعة، ناقلًا إيقاع الحركة بتفاصيلها إلى يحيى، وتتحول مريم إلى مرسل خفيف الحركة نشطة دؤوبة متجولة في الأسواق تبيع وتشترى عطاراتها وبسطها الخفيفة، وتأتي بأخبار محصلي المكوس الذين يصلون من إستانبول، والبذار الذي زرعه منصور في سفوح جلجول، والبضائع التي غمر بها الإخوة السوق، فتسرب الأخبار إلى حلقة الدرس وتوزع المهام، يقلب الشباب ليلاً البذار من التربة، ويسكبون ماء الملح الحامض الذي يأتون به من شواطئ بحيرة زغر فوق النباتات التي أعدها أولاد صايل والمبعوث العثماني للتصدير إلى حيفا ويافا، لتصير رماداً، ويسطو نفر آخر على ما حصلته الدولة العلية بقطع الطريق؛ وإن وصل محصولها إلى حدود حوران، أو أسوار القدس، ويمتنع الناس عن شراء بواير الكاز التي يصنعها مصعب في حوران ويجلبها لتباع في الكرك، وقماش الصبايا الذي يستورده منصور من حلب، وحبوب القهوة التي يدفعون ثمنها غالباً للبواير القادمة من اليمن الراسية في ميناء جدة، تبور بضائع المختار وعائلته دون مشتر؛ يضرب متعب صدغيه شاكياً الخسارة تلو الخسارة.

هب يحيى بين طلابه فالتفتوا ينظرون من أتاهاهم وأوقف أستاذهم؛ تهللت أساريه، وتراعى جفناه في دهشة وإجلال، كان مشهد المولى أمين محمولاً بين رجلين يقتربان نحو مجلس يحيى غريباً، فالرجل لم يغادر مرقده منذ أعوام، وقد خذلته قدماه، وفترت روحه، وضاع ألقه، ويات في موقع المسكين المستحق للرافة، وتردت به الحال لولا تعهد تلميذه بالناية به مأكلاً ومشرباً، رؤيته يصل إلى المتجمعين عند الجدار حدث يستحق وقوف يحيى إجلالاً.

هرع نحوه ملهوفاً، وشاهد التلاميذ والمريدون والرعاة والأعيان أستاذهم ينحني مقبلاً ظاهر الكف المعروقة، ولمحوا دموع العجوز تترقرق في جفنيه، فإذا ما وضع الرجال حملهم في وجه المجلس المقام بالعراء، تنفس المولى أمين وتبسم عن فم أدر، وهمس بصوت مترجرج متهدج:

- قالوا: اطلب العلم... من المهد إلى اللحد... وقد جئتكم طالباً.

تبادل الشاب والعجوز دروس الحياة على مشهد السامعين، فكشف العجوز عن صدره مترهلاً مبقعاً بظلال بنية وأخرى صفراء، وكشف يحيى الأثلام التي تركتها ضربات السياط أخايد محمرة ومنتفاً جلدية، وتضاحكا من زمان يترك أثاره عميقة مؤثرة؛ مهما توخيت، قال المولى أمين:

- من لم يمت بالسيف مات بغيره، والله إن موت السيف هين رحيم عن مكابدة الشيخوخة المقيتة، والتكفير عما دفعتنا الحياة والأطماع إلى اقترافه من آثام.

اعترف المولى بغيره الماضي، وأبدى يحيى خجلاً وتواضعاً وهو يحاول منع معلمه أن يفيض في الاعتراف، مسامحاً مفسراً الخير الذي وقع له بالسفر، مرجعاً الفضل للأستاذ.

لم يكن انضمام المولى أمين إلى مجلس يحيى وإقامته في عريش قرب موقع الدرس؛ مصدر إقلاق عميق لمتعبي وأخويه، وإن لم يتمكنوا من تفسير تلك الردة التي دفعت العجوز وهو على أعتاب الموت، للجلوس مستمعاً لفتى يفتقر إلى الوقار! كثيراً ما يخلع عقاله وكوفيته، أو يرميها على كتفيه، غير مراعى لهيئته أو هيئته المعتادة التي يلاقى المعلمون والمربون التبجيل لوقارها والتزامها بالمتعارف عليه، فإذا ما ناقشه وجهاء القرية في مثل هذا الفعل، أجاب بجدية تامة، مشيراً إلى الرأس، مرجعاً العلم والوقار والهيبة إلى ما تحتويه الجمجمة، لا إلى ما تغطى به من منسوج الخيوط.

نصح المولى تلميذه النجيب، بالذهاب إلى دمشق إذا كان يبغي إغماض العين عنه، ومنع الجهلة من التعرض له؛ يستكتب علماءها على كلامه، وينال إقرارهم بأنه لا يخالف الإيمان في شيء، يجيزونه ويقرون بشرعية منهجه؛ فإنه لن يخشى فتاوى الشيوخ الصغار في القرى والنجوع، ولا بطش المخاتير، ذاكرًا له أفضال مفتي الجامع الأموي الشيخ شمس الدين الميداني.

كتب يحيى للمفتي الميداني كتاباً يصف ما حل بالبلاد، واستقواء كل من عمر جيبه، أو شرع سيفه، على كل من فكر واجتهد، طالباً مشورته، ومساندته، إلا أن بعد الديار، أو تجاهل الشيخ الميداني؛ ذهبنا بالكتب في مهب الريح.

مرر المختار وإخوته تحالف المولى وتلميذه باستسهال، وإن عاودتهم الشكوك، إذا لم يكن يحيى وجماعته وراء أعمال الشغب، فهل يعني هذا مولد عدو خفي لثيم يحفر لهم في العتمة؟

لم يعقلوا أن المولى يجروء على الاطلاع على ما يضر بهم من خطط وفعال؛ إن وجدت، دون موافاتهم بتفاصيل ما يدبر بالخفاء، ظنوا لفترة أنه ما زال رجلهم الأمين، فلم يراقبوا مجمل نشاطات مجلس يحيى، رجحوا أنه لا يزيد على تحفيظ

آيات القرآن وتجويده، وربما بعض تعاليم الفقه حول الشعائر وكيف تؤتى، خاصة أن جواسيسهم الصغار لم يمدوهم بأي معلومات تؤكد عكس تصورهم، وغاب عن إدراكهم أن الصغار الذين أرسلوا بهم يستطلعون كلمات الأستاذ، وقعوا في سحره، وافتنوا بتعاليمه، وانساقوا إليه، وفروا من خندق الظالم إلى مناصرة المظلوم.

استيقظ أهالي الكرك في صباح غائم على خبر وفاة المولى أمين، لفظ أنفاسه فجراً وهو نائم في عريشته في هدوء، ولما حمل الرجال جثمانه ووسدوه مسجد الكرك يصلون عليه، تقدم متعب أصفر اللون، وشد لثامه تحت سقف المسجد بنظرات عدائية نحو يحيى ورهطه الذين زحموا المسجد فلم يبقوا موقعاً للأوطة العثماني وهو يترجل عن حصانه عند الباب، صاح مصعب:

- أفسحوا الطريق.

تعمد منصور التحرك بعنف فardاً ذراعه، مرجعاً صفاً كاملاً من الرجال إلى الوراء، وتمتم متعب للأوطة الذي شق كتلة الواقفين للصلاة، قال:

- يصلي على الجنازة الكبير.. هل تؤمن يا سيدي؟
همهم الرجال وتهامسوا وتحركوا بضيق في المساحة الصغيرة المحدودة، فقد كان ظنهم أن الأستاذ أولى الناس بإمامة صلاة الجنازة على المولى، وجهر جعفر:

- يؤمن من يقرأ العربية، يؤمن الأستاذ.

التفت منصور متنبهاً للرجل، ونظر متعب بحق، وقال:

- ما بقي إلا الولد!! مقام المولى أن يصلي عليه الأكبر مقاماً وسناً.

نظر الأوطة بانزعاج إلى الجثمان المسجى إلى جوار المنبر، وتأفف من انحباس الهواء وسط الكثيرين، قال مستاءً:

- أنت المختار، صل عليه إماماً، وخلصنا، لن نقف هنا طوال النهار نتشارع.

لم ينسحب أي من المصلين والمختار يؤمهم، نظروا ما يفعل يحيى؛ ففعلوا فعله، وقفوا حريصين على الخشوع الذي يليق بالمولى، لكنهم انفضوا سراعاً بعد ذلك متهرين من دعوة الغداء التي أعلن منصور عن إقامتها في القلعة لتذكر مناقب الفقيـد.

لم يشعروا بالحاجة إلى من يذكرهم، وانقلبوا إلى درسهم تحت السور بصمت رائق يخفي غيظاً مكبوتاً، أدهشتهم الرسائل والإشارات التي يرسل بها المختار إليهم، الغداء الكريم، ثم الموظف الخصوصي الذي عينه لرعاية العريش، موقع وفاة الرجل الجليل، أدرك يحيى الحراك الشيطاني الذي يقوده منصور لتحويل العريش إلى مزار، بغية ابتزاز العامة وخلق خيالات لولي كان يقيم بينهم، عله يصدهم عن دروس تنشيط العقل وتصرف عن خزعات الغيبات، في عراق صامت؛ كانت عقول الناس تباع وتشترى.

لكن المزار الذي ابتناه الإخوة عند العريش، وأوفدوا إليه العسس يتسقطون أخبار مجلس الأستاذ، لم يمنع استمرار الأعمال المعادية لمتعب والعثمانيين والتجار الأعيان، فما إن سمع الرعاة عن حفل يجهز له في القلعة احتفاءً بمرور ثلاثة أعوام على حكم الصبي الصغير، حتى قر قرارهم على إفساد بهجة الاحتفال الذي سيدعى له شيوخ وأعيان ومتنفدون وقضاة وتجار في قلب القلعة الشاهقة.

رسم يحيى بعود قصبي مغمس بالحبر تصوراً لكيفية حركة الرجال وحركتهم حول موقع الاحتفال.

أضيئت القلعة بالمشاعل وترددت أصداء المغاني والدفوف، وقهقهة العسكر الثملين بشراب البلح المعتق، وتجول متعب في الأرجاء كما لو كان أجيراً يوزع أسمطة السميد المطبوخ بالسمن البلدي وسكر القصب، حين صاح منصور:

- هجوم.. أولاد الشياطين.. الله لا يكسبهم.. ادخلوا القلعة... ادخلوا...
أو صعدوا الأبواب.

تأخرت صرخته، فأهالي جلعول والكرك والقصر وخرب أخرى كانوا قد اجتازوا الأبواب ملثمين، وقفزوا على فتحات الرماة، وقلبوا أسمطة الطعام وأعملوا القناوي* في أجساد المحتفلين، ومزقوا البيارق الملونة للانكشارية والجنדרمة، وخرقوا دفوف الغواني وطارتن*، اختلطت الأجساد المتعاركة، وسحبت السيوف من أعمادها، وطالت أكتاف وأذرع الفلاحين على حذرهم وبراعتهم في الزوغان، وتبعثرت قطع السميد اللزجة ملطخة حيطان القلعة الداخلية، تلاها دم بقع الجدران الحجرية وسال على الأرض الصلبة، وصيحات وهتافات وتهليل وزعيق، اختلطت الكلمات عربية وتركية، نسي العسكر الثملون إيباد أبواب القلعة أمام الأهالي المندفعين كأنهم يطلبون الموت، هرع الممالك والأعيان ورجال القاضي والتجار إلى فتحات الرماة وأزاحوا من يعيقهم متوخين الفرار من تلك المعركة، وسعوا لأنفسهم مذعورين ثغرات يفرون عبرها، تساقطوا من فتحات القلعة مهشمين على الصخر البركاني الصلب.

فسد احتفال متعب الذي أقامه منافقة للحكام الجدد، والتعبير عن ابتهاجه وولائه، ولفت انتباههم واهتمامهم، لكن أهالي جلعول والكرك كانوا يعرفون تمامًا أن لجثت العسكر والأعيان التي تم جمعها فوق صخور السفح الوعر، ثمنًا باهظًا سيدفعونه من أرواحهم، فر من تمكن منهم إلى جبال السلت، أو بيداء رم

* عصى غليظة.

* دف يدوي مشنبل بالخشاخيش.

وكهوفها، وبقي القليل من الضعفاء والنسوة والأطفال، وفي موقع بعيد عن العيون
أسر جعفر ابن الشلبي للأستاذ أنه وشقيقه سيخرجان إلى حوران مؤقتاً، قائلاً:

- رافقنا، بل تعدّ إلى دمشق، اهرب إليها، ابحث هناك عن صاحبك
الصالح، يعينك؛ فقد أعتته في سفره، وجرب أن تلتنقي بشيخ الإسلام
شمس الدين الميداني الذي حدثتك عنه المولى عبدالله، عد منه بكتاب
يعلي شأن كلامك، وقيم النصاب على فعالك، لن نغيب إلا قليلاً، نعود
نحن وأنت، وقد انجلت الغمة.

تذكر يحيى فراه الأول من جلجول، فتوجس وأوجعه فؤاده، كما لو أن جراح
السياط التي شقت جسده تنزف مجدداً، قال:

- أحارب في مكاني لا أريم.
- هذا انتحار، لا تصد السهام بالصدور، ولكن بالدروع، أليس كذلك يا
صاحبي؟
قال جعفر.

زين الأخوان أولاد الشلبي الخروج له، وافقتهم مريم مضطربة خائفة متظاهرة
بالثبات والاستهانة، قالت:

- اخرج وعد مدعوماً بكتاب يزيد من رصيدك عند الناس، ويمنع أشباه
الرجال أولاد صايل من التعرض لك، اجعل صاحبك هذا العالم الجليل،
الصالح، أو العالم الميداني، يجيزانك على علمك في مواجهة جهلهم.
قال زيد:

- لا تردد، نحن معك، لو شئت أكملنا سيرنا حتى دمشق.
وهمست مريم بوهن وشجن:

- عندما تعود؛ لن تكون الكرك كما تركتها، سيرفع الله غضبه ومقتته عنا،
ويذهب بهؤلاء وأسيادهم العثمانيين من ورائهم إلى الجحيم، أنفذ الآن
بجلدك، لو أمسكوك، لا أقوى على رؤيتك تجلد ثانية، أو يقطع جسدك
متوسطاً، ارحم قلبي المتعب.

منع يحيى مقبل من مرافقته، ذكره بتهديد شهاوي التي قد تصل إليهم على حين
غرة، بل إنه حرضه على العودة إلى التيه برفقة ولده الذي تخطف الطفولة، كي تقر
به عينا أمه شاباً.

اعتلى يحيى ظهر حمار منحه إياه راع محب، وهمس في أذن شقيقته:
- قد تصل الديار فتاة اسمها جمان، قولي لها إني أعود، فلتتظرن، وأكرميهما؛
فإنها تؤام الروح.

شد ابنا الشلبي ويحيى العمامات ألثمة فوق الوجوه، وساروا محتمين بكثيف
الغابة، فلم ير يحيى ابتسامة مريم المحبة، ولا دمعها الجزوع تندرج على وجه
تجعد وشاخ.

ابتعدوا كثيراً؛ فما شاهد وصاحبيه المسافرين برفقته، أجساد الرعاة الضعفاء
تتطاير من أعلى القلعة إلى الجرف، ولا سمعوا صيحاتهم تعلو ثم تنخمد في
صمت، انتقاماً لمن قضوا من عسكر العثمانيين.

الفصل الخامس

الفيحاء

1015 - 1018 هجرية / 1608 - 1610 ميلادية

تنفس زيد الصعداء إذ لاحت مدارج سهل حوران، حوّل الربيع التراب الأحمر إلى مهرجان ألوان فاقعة بهيجة تلعب في خضرة يانعة، لم يكن في الأفق الممتد تضاريس يمكن الاحتماء بها من عيون العسس والمخبرين العثمانيين، فالسهل فسيح مفتوح متموج دون هضاب أو مرتفعات، لكن الثلاثة الفارين تصرفوا بهوادة واسترخاء، سحرهم الهواء العليل وظلال الألوان في الزهر الطالع، وطمأنهم بعد السهل عن اهتمام الدولة العلية، رجحوا أن متعب ومن والاه؛ حتى منصور ورجاله؛ سيترددون في تقفي أثرهم بمجرد تجاوزهم سيل عمون الذي تضرب الملاريا المارين فيه من البدو الرحل. بكل هذا الأمان؛ ارتمى ثلاثتهم فوق السهل الغزير بحشيشه المخضر النضر وزهره الملون، فرد يحيى جسده طلباً لرطوبة الأرض، وعلق عينيه في ما يعتليه من غيم يمر خفيفاً وسط زرقة فيروزية مشكلاً قبة سماوية منحنية الأطراف، ومرغ زيد جسده بجبور ملصقاً ندى العشب ورحيقه بقماش ثوبه القطني، في حين قرفص جعفر مرسلًا ناظريه في المدى الفتان، ونهق الحمار مستريحاً من حمل الرجال على كاهله، ثم انطلق حاشاً ما تحت قدميه من زاد أطلعته الأرض طريقاً ندياً.

- أين نحن بالضبط؟

سأل جعفر في أول إشارة للحيرة والارتباك، توقف زيد عن التدحرج بجسده
البدن قاطعاً ضحكته، مجيئاً:

- في الجنة، في بلاد الله الواسعة، المهم بعدنا عن العيون، ثلاثة أيام يا رجل!!
مؤخرتي تسلخت على ظهر الحمار.

ضحكوا جماعة، ورفع يحيى ظهره مستنداً على كوعيه وجعفر يمازح أخاه:
- ظهر الحمار اشتكى من ثقل عجيزتك، ألا ترى أننا صرنا أشولة لحم؟
باستثناء الأستاذ طبعاً، حاشاه الله.

قهقهوا، جال يحيى بناظريه في المكان معلقاً:
- مؤكد نحن في حوران، نهاية السهل وبداية جبل الريان، لم يتبعنا أحد،
يمكن الوثوق بهذا الفضاء المتسع، المهم؛ أين نتجه؟ درعا أم السويداء؟
واصل الرجال مسيرهم يمشون عشبة الحميض، ويعلمون زهور شقائق
النعمان، تخرج السهل وبانت هضاب طفيفة ارتفعت تدريجياً، ركب اثنان على
ظهر البهيمة، وسار زيد مترنماً بصفير متقطع، ثم ركض باتجاه ربوة نبت فيها
الصبار المكتظ بالأشواك اللثيمة الناعمة، تتغاوى ثماره برتقالية مصفرة، قطع
حبات الصبار العسلية بحذر مفرط وسكين صدى، شق لحاءها عن عصيدة
وبذور، ثم تذوق حلاوة الثمرة متلذذاً، وعاد يحمل لصاحبيه حبات مقشورة في
عب ثوبه المرفوع، وهو يتأوه توجعاً إثر وخز أشواك ناعمة خزقت كفيه ونفخت
أصابعه، وتفصدت بقطرات دمه، ابتسم يحيى مازحاً:
- لا لذة دون ألم.

واصل الرفاق درهم، رجحوا اقتراب العمران لدى مرورهم بطلع القمح
المزروع في السهول المترامية بين الهضاب اليسيرة، هشوا الحمار الأرعن عن
الزرع الأخضر، وقد هاج يطلب ما يلوكه، اجتازوا السهل إلى جبل الريان الذي

يرتفع بتدرج لا يجهد الصاعدين، لطفت الريح وتنشقوا صافي النسيم، بينما صبغت الصخور بسواد بركاني ناصع، ومن بعيد في أسفل السفح، وعبر فضاء صاف؛ شاهدوا رفعة قمة جبل حرمون مكلفة بالثلوج كرأس شيخ جليل يحرس السهل الحوراني، انتشوا آمين وهم يدخلون كرمة عنب مع هبوط الليل، استلقوا أرضاً مستمتعين بمص حبات الحصرم، وانتهوا إلى إغفاءة عميقة تحت شجرة تفاح مثقلة بثمار بغوة*.

أسدل يحيى جفنيه على رجع أنغام سمعها يوماً على أوتار القانون، انبعث صوت جمان في خاطره فأذاب جوانحه، وخاتله طيفها حتى أغفى مطمئناً رائقاً. لم يفزعهم ثغاء الأغنام وحركة الخرفان البيض التي تجمعت في شلية واحدة كبيرة حول كرمة العنب فجراً، ولا وجه الراعي الذي حلق في وجوههم، كما لو كان من معارفهم، وارتحالهم حلماً استفاقوا منه، تبادلوا تحايا الصباح، وجاءهم بطاس فخاري يطفح بحليب دافئ، ارتكز عند جذع الشجرة يراقبهم يشربون بالتناوب كأى مضيف بدوي؛ لا يسألهم، لكن يجيب عن أسئلتهم بإسهاب وتفصيل.

أعلمهم الراعي القادم من قرية ملح الصرار أنهم ينامون في حقل من حقول قرية عين عيشة، قادهم بأريحية إلى نبع الماء المتدفق، تقدمهم بشرواله العريض والفروة الصوفية فوق كتفه، فاغتسلوا وشربوا، وهم يسمعون تأكيدات أن السويداء صارت على مسافة قصيرة لا تتجاوز الوقت الذي تحتاجه الشمس لنضحي بالنهار، ولأنه طفق يتحدث عن قرية ملح الصرار الواقعة على طريق قوافل الملح، فإنهم لم يضطروا إلى التحدث بأسباب ارتحالهم، ولم يفزعهم مرور عدد من

* لم تنضج بعد.

الجندرمة العثمانيين يحملون مدفعاً على البغال، عابرين أسفل الوادي دون أن يلتفتوا نحوهم.

قال الراعي الصراري:

- في قرية الملح، تصر الأبواب الحجرية الضخمة بصوت مدو إذا ما انفتحت أو انغلقت، حتى ليبدو كل صوت أمامها صوتاً خفيضاً، نحن أحفاد أساقفة مؤمنين، نصارى، أسلمنا، فكسبنا الحسنتين. في بلدتنا، إلى جوار برج القصر القديم أقمنا مقام الولي الحداد، لا نقطعه ولا يقطعنا، تبرك به في كل ضيقة، هو مجير الخائفين والهاربين والمساكين، هناك يمكنكم أن تلجؤوا إلى بسطاء الناس، وتحتموا بهم من أي شرير صدكم أو خوف يحقق بكم.

تبادل رجال الكرك النظرات، لم يعرفوا إذا ما كان الراعي يتذكي لمعرفة أسباب ارتحالهم، أو أنه يجود بدعوة كريمة وحسب، وما إذا وجب عليهم تفسير خروجهم إلى السويداء، وحاجتهم إلى جهة تحميهم من خوف وشر يلحقان بهم، قال يحيى بامتنان:

- تشكراً أخي، نحن نقصد دمشق، لنا فيها صاحب يقال له الصالحي.

هز الراعي رأسه مستسلماً:

- على هواكم، لكن الولي العابد الصوفي الحداد لا يرد أحداً، والناس هناك كرماء على فقرهم.

قادهم إلى السويداء، مستكملًا ما بدأه في وصف مكرمات وليه الحداد، صاحب الفضل في شفاء العليل، وإيجاد الضائع، ورد الغائب، تسلوا صامتين بحكاياته وأدلته التي لا تقبل التشكيك في بركات الحداد.

على أن الزمن الذي حدده لقطع المسافة إلى السويداء لم يكن دقيقاً؛ انقضى النهار وأوشكت السماء أن تعتم عند وصولهم، ارتد الراعي إلى أغنامه، عندما عبروا اللوزيات التي ازدانت بزهر أبيض بهيج، انكشف لهم المسرح النبطي القديم في قلب القرية، ونفر من الناس يضربون الدفوف، ضربات يشيع صداها في الأرجاء باعثاً الأنس والطرب، وكلما اقتربوا بانث حركة الرجال الذين يرتدون مسوحاً من الخيش واللباد، يتحركون في دوران يتطوحن منشدين:

- يا رسول الله.. مدد.. مدد.. يا حبيب الله.. مدد.. مدد.. يا شفيع الله... مدد..
مدد.. مدد..

انضموا إلى الجمع وقد عقلوا الحمار في شجرة بالجوار، غاب المنشدون والراقصون في النجوى، وما التفتوا لحضور الأغراب المبحلقين، أعجبتهم العباءات المتطايرة مع دوران الرجال في منتصف الحلبة، والنشوة التي أخذت بتلايبب الجمع الذاهل تحت وقع نقر الدفوف المتواتر المتعالي، والحجارة الضخمة تتوسط مشهداً بديعاً لمربعات من الفسيفساء الملون والمرصوص بعناية؛ مصوراً حسناً مرسله الشعر تولد في الضياء. في غمرة انبهارهم باللوحة وما أضاف إليها جمع الدراويش من حراك، تبنوا كلمات الأناشيد وانسجم الأصوات التي ترددها:

- يا نبي الله يا سيدي.. أنت باب الله معتمدي... بدنيائي وآخرتي... يا رسول الله خذ بيدي... الله.. الله.. الله.. الله...*

اشتد الدوران، وأسبلت الجفون على عيون زائغة، واستشرت النشوة في الجمع.

* من أورد الصوفية.

قال جعفر مرسلًا ناظره هامسًا:

- لن أبرح هذه الأرض.

لم يدرك أي منهم ما الذي فتنه على وجه التحديد في قلب القرية التي اسودت حجارة منازلها، والتي انشغل أهلها بالذكر عن ملاقات الأعراب، وقد انزل قمرها على مهل حتى حاذى الأفق مع ابتهالات الله الله، تاركًا مسحة من فتنة حمراء على ذراعي تمثال آلهة الجمال فينوس التي تمطت فوق الفسيفساء منذ عصور سحيقة، متسيدة المسرح العتيق، وعابقة بأريج حصرم العنب الحامض.

بات الثلاثة عند سفح درج المسرح الروماني العتيق، وزيد ممسك برسن حماره، ربطه في معصمه في حرص، خوفًا من قطاع طرق محتملين، بينما فرح جعفر واسترخى، انطرح أرضًا كما لو أنه دائخ، وفُتنت عينا يحيى بخيالات الناس يتفرقون حول المدرج حتى غلبه النوم.

مع بزوغ شمس الربيع الحانية، وبرودة الندى المنتشر، استيقظ كمن نام دهرًا، شعر بحيوية عالية ونشاط تام، وبينما زيد يفك حبل الرسن عن معصمه، وقف الثلاثة يرقبون قدوم رجلين نحوهم، تعرف يحيى على المنشد الشيخ الذي قاد نشوة الليلة الماضية، كان ربعا على امتلاء خفيف، أبيض الوجنات، بلحية قصيرة وعمامة مهيبة ناصعة البياض، وقفطان من الصوف الرمادي ينسدل فوق ثوب كتاني، قال المرافق بحماسة:

- سيدي الشيخ، هؤلاء الضيوف.

بش وجه الشيخ، وهز رأسه يعتذر:

- نتميم بالعراء! يا عيب الشوم، سامحونا، سهونا عنكم.

المهابة والحضور الأسر أوحيا لزيد وجعفر مكانة الرجل، فتنحيا جانبًا يقدمان صاحبهما، سأل يحيى قبل تقديم نفسه وصاحبيه:

- أنت زعيم سودا؟

ضحك الرجلان بافراط، وتبددت المهابة التي تحيط بعمامة الشيخ الصوفي، وهو يردد :

- زعيم!! أنا زعيم! استغفر الله.. أنا خادم على باب الله.. قال... زعيم!!

مسح الرجل المهيب ما ترقرق من دمع عينيه معذراً، ثم يحنو قال:

- يا بني أنا على باب الله، سودا قرية لا تعرف الزعماء، كما ترى، بعض الشرکس والداغستان والتركمان والعرب، خليط أجناس، وأنا درويش من الشام، أمر بتلاميذي بين الحين والآخر، نحى ذكر المصطفى في القلوب الناسية.

هتف يحيى:

- الشام!! دمشق!

علت الابتسامة وجه الدرويش مجيئاً:

- دمشق، شامة الدنيا، الفيحاء.

ينما كان زيد وجعفر يسمعان حديث المرافق عن السويداء، وما جاورها من عيون الماء وقصائل الزرع وكرمة العنب، والقرى الصغيرة المتناثرة بينها وبين درعا، مستفسرين عن وسائل البقاء في حوران وأبواب الرزق فيها، عارضين خبرات الطبابة وفن الأعشاب، انصرف يحيى للشيخ علان الدمشقي، ولشدة ما أبدى من تبسط وانفراد ودود، كاد يحيى ينسى أن الرجل درويش يقود طريقة صوفية، وله من المريدين ما يجعله زعيماً حقيقياً، تشابكت ذراعاهما، سارا يتبعهما الصاحب نحو المعبد النبطي العتيق، مأوى الضيوف ريثما يجدون مكاناً يستقرون به.

دلف الشيخ وضيوفه بوابة المعبد التي انهار جانب منه، وارتفعت جدران في جوانب أخرى يلوذ بها الجالسون؛ وقف المريدون في جلايبهم القصيرة البيضاء في هبة واحدة، تراجع الواقفون خطوات إلى الوراء، وانخفضت رؤوسهم الحليقة بدرجة خفيفة، فانكشف سماط الطعام بينهم عن خبز وماء.

أمر الشيخ، فهرع مريد صغير أمرد يحضر حمصاً مطبوخاً للضيوف، تذكر ثلاثهم الجوع الذي توارى في غمرة فتنة الليل، فأكل زيد وجعفر بشراهة، غمسوا الخبز بمدمس الحمص، ولو ثوا أفواههم ثم مسحوها بالخبز الساخن الشهي، في حين استحي يحيى أن يستزيد، مكتفياً بلقيمات أشبعنه، وإن قرص جوع مختلف روحه، فيما راقبهم الشيخ علان بعين فاحصة.

- الصالحى!! تقصد الهالالى الصالحى الدمشقى؟

حار يحيى أمام جمع الكنى التي لقب بها علان الدمشقى صاحبه، وخشي أن معلوماته عن الرجل الذي رافقه في رحلته من القاهرة وسينا وحتى الكرك لم تكن وافية دقيقة؛ رغم إقامته بينهم شهراً، فهم علان تقلب نظراته الحائرة، فأسعفه:

- هل صاحبك هذا شيخ كبير شابت لحيته؟

- هو رجل في أواسط العمر.. كهل.

- إذن.. لا تعني الهالالى، فقد توفاه الله، تقصد محمد بن نجم الدين!

الصالحى، أخشى أنه يقيم في طرابلس الآن، ومن الجائز أنه عاد إلى دمشق في غيابه لسبب ما، من يدري! إذا نزلنا دمشق أقودك إلى من يدلك عليه، ومن لا يعرف الصالحى؟ ريحانة الأدب المقتدى، والبليغ الذي لا تثمر أغصان القلام إلا في رياض أدبه.

خجل يحيى لجهله بصاحب رافقه وما علم حق قدره، وندم على معرفة ضاعت منه وهي في متناوله.

رجح أن المختار وأخويه كفوا عن ملاحقته مؤقتاً، لكنهم قد يظهرون فجأة، وأشفق على صاحبيه زيد وجعفر وقد جرهما إلى قدره الغامض المريب، لهذا؛ وجد في وقوعهما في هوى السويداء ما أثلج فؤاده، ربما تمكنا من الاستقرار ومزاولة الطبابة في أرض جديدة، وربما تمكنا من استجلاب ذويهما إلى هذه السهول الخضراء فاستقامت لهما الحياة، أما هو؛ فما فكر لوهلة باستدعاء مريم، ولا باحتمال لقاء جمان، ظن لطرفة عين أن الماضي ابتلع غاليته إلى غير رجعة، وأن رؤيتهما لن تتأتى له إلا في مناماته القصيرة القلقة المتوجعة، إلا أنه سرعان ما استجمع شتات فكره ومضي يراقب إعلان ومريديه متأملاً متفكراً، التقت نظراته بنظرات الشيخ مراراً والأخير يحدث صحبه الذين تحلقوا في تبجيل قدسي حوله يسمعون كلمات متفرقات حول أسس الاقتراب من الخالق على جسر من محبة نبيه المصطفى محمد بن عبد الله.

جاء التركمان حاملين بيوتهم المستديرة من اللباد، بعض الميسورين منهم نقلوا بيوتاً من شعر الماعز وضربوا حلقة حول المعبد، انتشرت نساؤهم بملابسهن الفضفاضة الملونة وسراويلهن المكشكشة، وأطفالهن العراة، وهبط الشركس من الكهوف الجبلية المحيطة إلى ساحات الدرس في المعبد معتمرين القلب فوق رؤوسهم، مزهوين بصديراتهم الكتانية المزخرفة بالتطريز، يرقبون طقوس الذكر والنشيد والدوران في المسرح النبطي حائرين وقد استعصت عليهم اللغة، إلا أنهم يهتزون إذا اهتز الجمع مرددين.. الله.. الله...

وصل السعديون أنباع سعد الدين الجباوي من أعلى جبل الشيخ وبلدة جبا القنيطرة، بعمائمهم الخضراء الكبيرة، تتدلى جدائلهم الكثيفة خلف ظهورهم، وتهفف ثيابهم الكتانية المتسعة وأكمامهم الطويلة، يبدون في خضر الثياب مثل جمع شجر في غاب، يحيون ذكر شيخهم الجباوي الذي كان شيخ قطاع الطرق،

لكن نبلة وفروسيته غلبا شقاوته، فتاب وتاب صحبه معه، يجيئون موزعين حبات الثمر على الفقراء والدراويش، مشاركين في طقوس الحضرة والنشيد في مدح المصطفى، يدورون ويهللون، حتى يتساقطوا تباعاً مغشياً عليهم.

أما عرب السويدا فيجنون الزرع، ويرفعون القفاف العامرة بالثمر على أكتافهم، أو يشدون بها بربطات كوفيات متدلّية إلى الظهر، ويقصدون ليالي الذكر، يقشرون الفاكهة، ويتسامرون حول حلقة المتصوفين، يضحكون إذا ما انفلت منهم واحد وقد أصابته عدوى الدراويش، فانخرط في الصفوف مازحاً، ودار مجذوباً بقوة الجمع الذي يرج فضاء السويداء، حتى زيد وجعفر؛ اندفعا إلى مشاركة المريدين طقوسهم وأناشيدهم رغم انشغال نهارهما في جمع النباتات الصغيرة ذات الفوائد العلاجية حول البيوت الحجرية السوداء، وقد استخدما هاوياً نحاسياً جادت به امرأة تركمانية لسحق نبات العليق وأشواك العكوب، وتحضير عجينة تؤكل في مقاومة عسر البول الذي شكاه منه مريدو الطريقة، كما تمكنا من تحويل جرار الماء الصغيرة إلى قوارير يحفظان فيها مساحيق يذيبانها فيشربها العليل مستشفياً، وبات انشغالهما العملي يحول دون انتظام لقاءهما بيحيى الذي يجلس مطولاً إلى إعلان الدمشقي، يسمع كلماته الملتبسة، ثم يشهد طقوس الاحتفال المسائي مراقباً.

لم يخفَ على الشيخ إعلان أن الشاب الملتحي الوقور، القادم من الكرك، مختلف عن صاحبيه، قدر أنه أستاذ قبل سماعه، ورغم الشك الذي ساوره في أسباب خروج الكركيين الثلاثة إلى حوران، لكنه لم يسأل، بل بدا ودوداً متعاطفاً وهو يفسح لهم في مجلسه، ثم وهو يخصص ليحيى مكاناً إلى يمينه، كأنما يعلن دون جلبة انضمام مريد جديد خاص ومتميز، يستمتع بلعبة الفهم التي تدار بينهما دون كلمات، فكلما فاه بعبارة وجد لها صدى في عيني الشاب، والتقط اهتزازات

أنامله عند بدأ الأذكار المسائية، وفطن إلى إن انفعاله الغامض مع الإيقاع يكاد يكون أعلى من لحظات الشطح التي يعاني منها يريدون انصاعوا للحركة المعتادة. تذكر إعلان ابنته اليافعة خوله، طفلة الحبيبة، درته الغالية التي لم يجد بين مريديه من هو كفؤ للزواج منها، وحدث في قرارة نفسه أن الكركي يبدو لائقاً ومقنعاً، وأنه في غياب الأولاد من صلبه؛ سيتمكن من استدراج الرجل للانضمام إليهم، ومن ثم الاقتران بالصبيّة المليحة، وربما يورثه أسرار الطريقة ويمنحه شرف خلافته، تلك الأمنية الخفية باتت تشغل خاطر الشيخ، كلما تكلم يحيى حول مسألة في الدين أو الدنيا، تبدت علامات الإعجاب والتقدير في أسارير الرجل ونظراته، فسرّها المريدون في أن للشاب شأنًا مستقبليًا مع شيخهم، ازدادت الأمنية إلحاحًا في قلب الشيخ الذي أجل البوح بها ريثما يصطحب الشاب إلى دمشق، متمنيًا؛ لو يبادره الشاب قي الاستجابة لأمانيه، دونما اضطراب إلى تلميح أو إشارة منه.

بينما الرجل مشغل في تربيّات متمنة لابنته، وفي إشعال فتيل الحماسة عند المريدين، وفي ترغيب يحيى بالانتماء إلى جمعهم، وقع يحيى تحت سطوة مشاعر متضاربة هزت جنانه، ونسفت كل ما تلقاه في كتاب المولى، وما عاناه في تيه سيئ، وما عرفه من فقه وعلم الأزهر، أو حتى بين صحائف الوراق، وصفائح النحاس في سوق الحرفية في مصر المحروسة، بات يتقلب بين شك ويقين.

لم يزايله قلقه ولا فارقه طريقته في إلقاء الأسئلة دونما إجابات، لكن بساطته المذهلة في التعبير عما خبا من أسئلة لاقت هوى في قلوب الصبية والشباب المتحلقين حوله، حتى إن إعلان على محبته وإيثاره للفتى، أصيب بغيرة طفيفة وهو يرى توهج عيون المريدين إذ ينظرونه، وإقبالهم كما لو كانوا عطاشًا، تجف حلوهم ناسين الماء والزاد وأميرهم الدرويش؛ يسمعون أفكار الكركي حول

الكون الذي لا نعرف منتهاه، والذي يقض مضاجعنا، ويبلبل معرفتنا بالحقائق دونما تفسير حقيقي ناصع يذهب بالشك ويقودنا إلى اليقين، كأنما الفتى الشكاك أكثر بلاغة من الشيخ المفوه الذي يعرفونه ويمتلك حقائق اليقين، يسردها بين حضرة وأخرى.

في الحضرة، يغالي الرجال في غيبتهم، يتوسلون، ويتوصلون بالجهد إلى نشوة عالية، ينخرط يحيى في الجمع ويصل إلى مبتغاه من النشوة، ثم يفتح عينيه ويحقق في الفراغ، كأنما أفاق، يتتحي وحيداً مثل سر مقدس، هادئاً، محاطاً بهالة تقديس جمعت إليه الصحب في الأماسي، وجعلتهم يتركون الذكر في الصباحات ليتسللوا مغتمنين لحظات مع الرجل باسم الثغر الذي يتأمل الدنيا ولا يحمل النفس على الخوف منها، أو الطمع فيها، أو الزهد في مفاتها، يبعث الخليط الغريب من أفكار الشاب المتعة في أوصالهم، ويتوافق مع أغوار عميقة في أعماقهم لا يفلحون بالتعبير عنها جهاراً، ولا يجدون فيما يحيط بهم من يتعهدا أو يعترف بوجودها، بات تبجيلهم له يفوق سني عمره، ولولا حياء لقالوا إنهم وجدوا خلفاً لعلان المثقل بداء في قدميه.

أعد ابنا الشلبي الأعشاب والمراهم والمشروبات المداوية للشيخ، ولمن اشتكى من أهالي الديرة، وأهديا بعض ملح زعر الذي جلباه من بحيرة الملح إلى المتوجعين في عظامهم، فحظيا ببعض من الهالة التي شعت حول رفيقهما، كما لو كانا مباركين مبروكين، وصار العامة يقيسون الصحب الثلاثة بالتبجيل على اختلاف أسبابه، مما جعل المكان مأوى آمناً أثيراً.

ساير علان غيره نفسه من صهر مستقبلي محتمل، وسارع في ترتيب العودة، عل تلك المصاهرة تمهد لعلاقة متوازنة تضمن تبعية الفتى، فإذا ما أعلن الصوفي

التأهب للرحيل، تعجب الإخوان ويحيى يؤكد إنه مرافقه إلى دمشق، فقد خيل لهما أنهما مقيمان في المكان إلى الأبد، نسيا أمر الرحيل بتاتا، قال زيد:

- ماذا جد؟ تبدو الحياة هنا رخيّة هائلة!

حرر يحيى صاحبيه :

- أينما راقت لكما الدنيا، وطاب المقام، فأقيما، أما أنا؛ فإن الكون يناديني وأسمعه، أنا راحل برفقة علان.

تبادل الشقيقان النظرات، ودونما جدل أو تردد، تبعاه، ارتحلا وراء يحيى، رفيقين مريدين، حملا أعشابهما والقوارير، وشدا جرابهما على ظهر الآتان ومضيا.

تهادى ركب المتصوفة محاذيا جريان نهر بردى متجاوزا نبعه في مرتفعات الزبداني، والمريدون الذين اعتادوا تتبع علان، توزعت نظراتهم بينه وبين رفيقه الكركي، وهو يهمس له كم اشتاق إلى وحيدته الشابة خولة، مادحا صبرها على الفراق، وحفظها غيبته، وتحملها ظروف تصوفه وخياراته الصعبة، أطنب علان في وصف مزايا الصبية هامسا كأنه في حديث سري لا يريد للمرافقين سماعه، بينما كانوا منهمكين بتتبع تحركات يحيى، كيف يسير، وكيف يتحدث، ودلالة ابتسامته الودودة الغامضة، علق مريد لرفيقه وهو ينظر سير الكركي:

- كأنه يمشي على غمام.

سار يحيى على قدميه حيناً، وعلى ظهر الأتان حيناً؛ يرافقه الصمت والتأمل على امتداد الرحلة الهينة، الحافلة بأطياب ما يحصلون عليه من ثمر الفاكهة الناضجة في المزارع التي يلقونها على الدروب، توقفوا في منحدر الربوة باذخ الخضرة والظلال؛ يتأهبون لدخول دمشق، فتحوا صررهم يمتاتون، وغبوا ماء

النهر العذب بفرح، تشقوا النسيم ونعموا بجود الظل وأنسه، متحدثين عن القدماء الذين منحوا النهر اسم براديسوس طانين إنه قطعة من فردوس الله؛ اقتطعت وسقطت أرضاً، وكيف أسماه الإغريق نهر الذهب، وصار عند العرب، بردي. ابتعد يحيى خطوات وقد انطعج جيده وسقط رأسه على صدره؛ كاسراً جسده انحناءً يبجل الكون، ثم اعتدل رافعاً ذراعيه، ووجهه مبتهل أسير بما يحيط به من جمال لا حدود لفتنته وبهائه، تكسر الضوء نصلاً اخترقت الفجوات بين أغصان الشجر المتشابكة، واحتضنه الظل رؤوفاً بتعبه، انبعث خريز ماء النهر المنساب، فرش الرذاذ اللعوب المنفلت من حركة الماء السريعة صفحة وجهه، وضربته نشوة الجمال، ودخل في حضرة وحده، متشيئاً، واصلاً كنه الحياة، وشفتاه ترتعشان وتبتهلان.. ال.. له.. الله.. الله.

أحس بالكون يدور؛ فدار معه، قتل رأسه مع دوران الجسد، وتلبسه الوجد، شفت روحه وعلت، توحد بالكون، وانبعث في إهابه الصوفي العتيق السهروردي، أنشد قصيده:

أبدأ تحن إليكم الأرواح	ووصالكم ريحانها والراح
وقلوبكم أهل ودادكم تشناقكم	والى لذيذ لقائكم ترتاح
وارحمنا للعاشقين تكلفوا	ستر المحبة والهوى فزاح

على مشارف دمشق في الربوة المارة بوادي ظليل، وكما تلبسه السهروردي، جاءه رفيق الروح المتصوف الأكبر ابن عربي؛ يعلمه، فيتعلم.

- أدين بدين الحب أنا توجهت ركائبه، فالحب ديني وإيماني.

سمع الصحاب هتافات الفتى تتردد مع رجوع الصدى في الوادي.

- رحماك يا رب العباد رجائي، ورضاك قصدي، فاستجب لدعائي، الله..
الله.. الله.. حي.. حي.. حي..

وجد المتصوفون الشاب مغشياً عليه، مطروحاً فوق أغصان وأوراق الشجر
الوطيئة المتشابكة أرضاً كمهد وثير، ينساب الزبد من شفثيه، وتفتح جفناه بمقدار
على بياض غائم، وفي الجسد بقايا من ارتعاش يهز أطرافه هزاً رحيماً.

أسرع إعلان بالركب متلهفًا للحاق أهله، وتلقى صامتاً الحالات العجيبة التي
تصيب رفيق دربه الجديد الكركي، ووقر في قلبه أن الرجل وهو يقع في جبة
الانجذاب الصوفي، سيجاهد النفس ويضعف ما تبقى من حسّ يدفعه إلى الارتباط
بامرأة، ستتقد روحه وتحلق وينفصم عن العالمين، عندها ستكون مغامرة قرانه
بخولة محالة، سيخيب ظن إعلان وأمله، فقد تمنى في خفاء مصاهرة الرجل، إلى
جانب استقطابه مريداً له، ورغم جلباب تصوفه وزهده المعلن إلا أنه لم يكن في
أعماقه ينوي تيسير المشيخة للصوفي الجديد دون صفة حياتية متكاملة، تملكته
تلك الأفكار الخاصة بينما فرغ الآخرون لتأمل الكون، وأفزعه توحد الشاب
وغموضه وهو سه بفتنة غير ظاهرة، ولم يتمكن حتى من هزة رأسه الإيجابية حين
جلس إلى جواره معلقاً على فرح جعفر وزيد بفتنة الخضرة، وشذى الزهر،
وسلسيل الماء، قال زيد:

- هي جنة الله على الأرض، فيها سبل السعادة والخلود، كل ما حولنا جميل
وخير.

دمعت عينا يحيى، وقال كأنه يقرأ في كتاب الكون الفسيح:

- اعلما أن الكون لا يكون إلا بالقبح والجمال معاً، كما المرء السوي لا
يستوي إلا بخير وشر، نقضنا دلالة إنسانيتنا، وإن الجمال إذا فاض؛ أغرق

ماحقاً من وجهه ما عداه، موجعاً من فيه حد الفناء به، والله، إني لأرى
مصرعي بين فتنة الكون ومحراب الشك.

أربدت وجوه الرجال الداخلين إلى دمشق وانتابهم شك خفيف في أنهم أهل
الحقيقة الكاملة، وتنازع أفئدتهم مرير السؤال وهم يعبرون باب كيسان في الطرف
الجنوبي الشرقي للمدينة محاذين لحارة اليهود، مارين تحت سور الباب الموسوم
بنقش كوكب زحل، كما هو مألوف في أبواب دمشق التي حملت في أعلى تيجانها
نقوش الكواكب منذ أول الزمان؛ توزعت كواكب المجرة أعالي الأبواب، فكانت
الشمس على الباب الشرقي، والزهرة على باب توما، والقمر على الجنيق،
وعطارد على الفرايس، والمشتري على باب الجابية، أما الباب الصغير الذي
عبروه بعد كيسان جنوب المدينة؛ فتجلى في أعلى تاجه نقش حجري لكوكب
المريخ.

استراح الجمع خلف مسجد قلوس، وأكمل الشيخ دربه إلى بيته المتواضع في
ميدان الحصى القائم على أطراف بردى جنوب المدينة، تاركاً جماعته في رعاية
قبضايات وزكرتية الميدان الذين يحرسون الزوايا، مصطحباً الضيوف الغرباء في
دعوة كريمة، عند باب بيته، تنهد علان مفكراً؛ واضيعة لعيون خولة النجل إذا ما
شغل الفتى بالكون وجماله، دون سحر العيون وفتنة الأنوثة، لم يدر في خلده بتاتاً
أن حسناء أعجمية تتسيد خاطر الفتى وتذهبُ لبه إذا ما تمازج طيفها بالنسيم
والخضرة.

هرعت بنت الدرويش تعانقه بعد غياب، ارتبكت حياءً، وأسدلت نقابها تدعو
الغرباء لدخول حجرة الضيافة، بينما توجه والدها نحو السلاالم التي تشعلقها
الياسمين، إلى حجرة زوجته المقعدة، غص الرجال الثلاثة أبصارهم والصبية
تتناول جلايبهم التي تفوح بالتراب والعرق، أخجلهم فيض الود العائلي الرقيق،

أعادت الصبية ثيابهم بعد غسلها وقد فاحت بأريج الخزامى والبيلسان، وفي حين كان يحيى وجعفر يشكران باسمين، فإن زيدا تصنم، وجف ريقه؛ واقعاً في وله الصبية التي سرعان ما توارت بجلبابها الناعم يرفرف خلف خطواتها.

تلقى الضيوف اهتماماً عائلياً وتدللوا، تعامل إعلان معهم كما لو كانوا أمراء على درجة عالية من الأهمية، انقلبت صورة الدرويش الذي يعيش على كسرة الخبز اليابس في رحلاته، إلى رب العائلة الذي يفيض بيته بالخيرات، وتلك الأطياب التي خرجت من مطبخه، والطيف الرشيق الناعم الذي يروح ويحيى قبالتهم، ناقلاً اللبن طازجاً دسماً، واللحم محمراً مطبوخاً بالسمن والقلوبات من لوز وصنوبر مقلي، وكبب البرغل محشوة بالجوز والدهن، متوجة مائدتها العامرة بوربات القشطة المغمسة بالعسل.

لم ينقطع يحيى عن تأملاته وسط الأجواء المدنية المرفهة، ولا تلقى إعلان إشارة توحى بأمل طفيف في ما يتمنى حدوثه، وغاب عنه الروع الذي أدخل زيد في صمت وغياب عن المحيط، فلا يرى هاشاً باشاً إلا إذا حضرت الفتاة تنقل طعاماً أو شراباً، يهب؛ يعينها حاملاً الأقداح، أو مسرعاً إلى تعطير الشاي بنبته عطرية خبأها في جرابه، فتشم وتبسم له بود وعرفان ثم تنصرف، ليقع في صمت وخبل مؤقتين.

لم يعارض الأخوان رغبة يحيى في إيجاد سكن مستقل، والتخفيف عن المضيف الكريم الذي ساعدهم في العثور على حجرة رطبة بنافذة خشبية عالية في منحدر في حي القبيبات جنوب الميدان، قدم يحيى درساً مجانياً لابن مالكها، وخلط له أولاد الشلبي بعض الأعشاب للأوجاع العابرة، فاعتبر صاحب الحجرة ماناله من تدريس ولده، وتزويد خزانة الأدوية في بيته بالأعشاب المفيدة والوصفات النادرة، أجراً مجزياً، فكر الأصحاب الثلاثة في ضرورة وقوعهم على

مهنة يعتاشون بها، توفر احتياجاتهم وقوت يومهم، وبدت فكرة الالتحاق بالزوايا منفرة لا تناسب يحيى وصاحبيه، حتى بعد حالات الشطح الوجداني التي زلزلت أنفسهم في رحلة القدوم إلى دمشق؛ تحولوا إلى رجال يرغبون في الكد لئيل القوات وتسيير أمور الحياة.

في رحلة البحث عن الصالحي؛ قادهم علان داخلين المدينة إلى قلب دمشق، عابراً بهم باب الله، أسفل الميدان بعد أن أودعوا أتايم عند واحد من مكاري الدواب العكامة، لم يعد علان على ذات التودد واللفظ، تراجع وهو يزن الأمور، أوجعه أن حسن ابنته الفتية لم يحرك سواكن يحيى، وانقضت فترة الضيافة دون توثيق عرى المصاهرة بينه وبين الكركي، جرحه الإحساس بانكشاف أمنيته الخفية للعيان، وفسر إقلال يحيى في المعجىء إلى زاويته تهرباً، ولام نفسه على تمنياتها الغامضة، مع ذلك؛ قدم خدمات طفيفة من باب ترك الباب موارباً.

في الدرب الضيق لسوق جقمق، عاوده حدس حزين، رأى ترحيب العامة به يتقل إلى الشاب؛ فيكثرون من التحيات الودودة والعروض السخية لخدمات متفرقة، أيقن أن صاحبه سيغلبه في استقطاب قلوب الناس عما قريب، وابتسم مقهوراً من صحة حدسه حين دلفوا الدهليز المسقوف لخان جقمق، استقبلهم صاحب الخان في الباحة الواسعة التي تتوسطها بركة عامرة بالماء، وإذا بالتاجر الحريص وجود بإقامة مجانية للضيوف لليلة واحدة، مُرحباً:

- لأجل خاطر النور في وجه الكركي.

لم يكن الجود من فعله أو عاداته، لا يتذكر علان شخصاً واحداً تم استنائه من كروة الخان دون مبرر، ولم يلمس مصلحة منظورة مفهومة لصاحب الخان في مثل هذا التبرع السخي، ثم إنه تجاهل وقفته بجلبابه وعمامة الدرويش، وتحدث عن النور في وجه الضيف الغريب!

سقطت كآبة شديدة ووحشة في فؤاد الدرويش في حين راح يحيى وصاحب الخان يتباحثان حول الصالحي.

جاء صاحب الخان بالخبر بعد أيام؛ نقل إليه صبيانه الذين أرسلهم يبحثون عن الصالحي خبر انتقاله إلى جوار ربه قبل شهور قليلة، وفشل يحيى في إخفاء فجيعة؛ انهمرت دموعه مفصحة عن ألم وخوف وغربة، مما رقق قلب صاحب الخان مضاعفاً، فبالغ في ضيافته ومواساته، مؤدياً دور الأب الحاني والعم الرحيم، والجواد الكريم، جود أذهل جعفر وزيد وشملهما، وزاد في وزنيهما وهما اللاحمان.

تجاوز يحيى صدمة الحزن وطوى صفحاتها؛ مدركاً أنه أمام قدره في الشام وحيداً لا يحتمل التسويف، سرعان ما انصرف إلى الانشغال بالبحث عن حرفة تسهل حياته وحياة صاحبيه في دمشق.

قطن يحيى الخان بينما استقر الأخوان في حجرة الميدان، اكتشفا أن مسافة قصيرة تفصل سكنهما عن سوق الحبوب، وقادتهما الروائح الحريفة واللاذعة والمخفضة إلى الميدان التحتاني، حيث مخازن الحبوب وبوايك البهارات، والخانات التي تؤدي جموع الفلاحين القادمين إلى المدينة يحملون ما جادت به أراضيهم لبيعها، بداية؛ اقترشا أرضاً خلاء وراء حجرة للحياكة وحانوت للنشاء، حاولا تصفيف ما يملكان من أعشاب وقوارير تلفت النظر، لم يكن دخول السوق بين حيتان التجار سهلاً، لا بد لهما من إبراز تميزهما، وقدراتهما العلاجية، أسوة بالعطارين المتشربين في المكان، أما يحيى، فقد قاده تصوره عن المهنة التي يفلح بها إلى سوق النحاسين في درب جقمق، باعدته تصارييف الحياة عن رفيقيه، سكناً، وحرفة.

عبر الشارع الضيق المستقيم المرصوف بحجر البون، والمفتوح على السماء، وتجاوز البيوتات التي عكست ثراء أصحابها في تحف معمارية مزينة بالزجاج المعشق والزخارف الجصية والقباب، حاذى كنيسة بولس الرسول، وخان الحماصنة، دخل السوق المسقوف بالخشب، ماراً بحوانيت مزودة ببوابات عريضة وأغلاق خشبية ضخمة، حيث علقت العباءات والكوفيات ولفائف الأقمشة بصورة لافتة، وساد مهرجان من الألوان مغلباً اللون الصدي العاجي على الأقمشة الحريرية المطرزة بخيوط الفضة والذهب، ثم إذ وصل إلى سوق النحاسين، أعادته الأجواء إلى القاهرة البعيدة، وأوقعت أصوات الطرق والدق في صدره ذكرى حانية قاسية في آن، كان حرفيو النحاس الشوام يدقون على إيقاع دارج، أو مقام السيكا، متنقلين بين هواة الحزن وانبثاق الفرح، عاودته أشجان العشاق مع النغم، وانفطر الفؤاد أسى، بدت تلك الدقات تفاصيل حياتية موجعة، لن يتمكن من استعادتها دون تهدج صدره وغلبة الدموع، ارتد في دربه فزعاً من وجع يلاحقه، وجد بوابة كنيسة بولس الرسول مشرعة، فكر في الولوج إلى صحنها، عله يداوي جراحه العالقات، لكن قدماء توقفنا في الممر بين حوانيت النسيج والخياطة، رد سلام بعض من لفت انتباههم وقوفه المتأنى، زفر يداري حيرته، وانسل في ممر ضيق بين الحوانيت، مر بالقباضيات أصحاب العضلات المفتولة والشوارب المعكوفة، الذين يمنعون كل غريب من عبور الحد الفاصل بين أسرار صناعة الحرير وحياته وحوانيت بيعه المباحة للعامة، فلم يوقفه أحد، حتى انتهى إلى كرخانات* الحرير، وطغت الأصوات المنبعثة عن آلات الحياكة

* مشاغل.

اليديوية على دقات سوق النحاسين باختلاف أنغامها ورتابة تكرارها، في تلك اللحظة؛ فتن الجمال ذهنه وفؤاده.

عاوده شجن ذكرى شقيقته والخيوط تتابع في النول، وانساب قلبه فيضان حنان، سحرته شلالات الحرير المتداخلة بخيوط الفضة والذهب، ورغم ضيق العاملين على أنوالهم الخشبية بكل غريب يدخل حارتهم، أو يجروا على الاطلاع على تفاصيل وأسرار الصنعة المتوارثة، إلا أنهم لم يتوقفوا عن العمل والشاب ينظر، وعينه تدمعان ابتهاجاً وتأثراً للجمال الذي يصنع، فيصير منسوجات من البروكار* فاخرة فاتنة، ومثلما اقترب يحبى طفلاً من الحبر، وغط أنامله في المحبرة ملوثاً رؤوس أصابعه بالسائل الدبق، مديده في ذات الشغف، متلمساً رقع الدامسكو* الخارجة من سنارات النول، غزلاناً برية تتراخض على رقعة عاجية تميل إلى اخضرار خفي، توقف الحائك الكهل عن دفع السنانير المتحركة أسفل الألواح الكرتونية، حيث تنهمر خيوط حريرية من ثقب متجاورات لتنتهي طباقاً من نسج باهر، حار النساج الذي يرتدي عمامته الزرقاء في فهم التوق الذي فاضت به العينان اللتان ترقبان الصنعة دامتتين.

توقف الحج زيدون عن سحب إبرة التطريز بين أنامله، فأشعر يحبى بالخجل لتطفله، وفي لحظة تعالق عجيبة، فكر يحبى بممارسة تلك الصنعة، وفكر الحج النصراني الأشيب أنه واجد ضالته بالغريب الذي يراقب بتحنان، لمح في عينيه الشغف الذي فارق وجوه الصناعات البارعين لفرط التكرار والتعود على الجمال، ولما همس الفتى بدمائة أنه يبحث عن عمل يقتات برزقه، ويعينه على إقامته في

* نسيج حريري اشتهرت به دمشق.

* حرير دمشقي معروف عالمياً.

دمشق، أفسح زيدون له، وزين له أمر التحاقه بمشغله في زقاقه الخفي في قلب سوق جقمق، خلافاً لحرص المهنيين في صناعة الحرير بعدم توريث صنعتهم لغريب، ونقل أسرارها إلى أبنائهم، تسامرا حول مهنة الشاب السابقة، وبرم الرجل شفثيه ازدراءً إذا ما ذكرت صناعة النحاس التي تذهب بالسمع وتسمم الجسد، وإن حدس أن فتى أجاد قولبة النحاس قطعاً فنية، قد يضيف إلى ما يمكن للقماش احتمالاً من دروب الفن والبدع اللطيفة، وحين ذكر التدريس، قهقه زيدون مستكراً أن يكون لغريب زاد على مائدة المعلمين والفقهاء والعلماء الشوام الذين يغص بهم المسجد الأموي، ويفضون في الزوايا والتكايا المنتشرة في أرجاء دمشق متنافسين متدافعين بالمناكب، وإذا ألمح يحيى إلى توقه الصوفي، عدل زيدون عمامته الزرقاء، وانبرى يعدد هامساً قبائح ما تأتي به فرق المتصوفين، وغيوبة ما يعتنقون من فكر وسلوك يباعد بين المرء والحياة، ولم يتوان عن التلميح إلى تذبذب أحوالهم بين رضا عنهم من الباب العالي في إستانبول، حد منحهم كل مستلزمات حياتهم، إلى غضب عليهم، وملاحقة لهم، وتقدير يصل إلى حد الحرمان، مما يجعل دروبهم غير آمنة، والانتساب لهم غير مستقر.

همس في حذر وهو يرفع كفه عن وشم الصليب في معصمه:

- على كل الأحوال؛ أنا مسيحي، قد لا تقبل شهادتي في هذا الشأن، ولا تعجبك، ولكن صدقني، لقد حججت إلى القدس، مؤمن بحمد الله، وقد وضعوا وشمًا مقدسًا هنا، ولكنني أراقب الحياة بفهمي، وأعرف كيف يقع المرء صريع حالة روحية تفصله عن الدنيا، سواء كنت على دين محمد أو عيسى، لقد ضاع مني وحيدتي على تلك الصورة.

عمرت السكينة صدر النساج النصراني؛ تحدث بأريحية للشاب الغريب الذي يدرس الفقه، ويميل إلى التصوف كأنه من ملته، غير هباب من رد قد يخرجه وهو

المسيحي الذي خبأ صليبه الخشبي أسفل جبته، وإذا جرؤ في دكانه على خلع
عمامته الزرقاء بلونها المفروض على من هم في دينه لتفرزهم عن عامة الدمشقيين
المسلمين، فإنه لا يغادر الحانوت، أو يجلس في بابه مكشوفاً، ولا يمشى في
الدروب إلا وقد اعتمر عمامة التمييز تلك، ودس في ثناياها كتاباً رسمياً مختوماً
يفيد التزامه الدقيق بدفع الجزية المترتبة عليه، فإذا ما تعرض للتفتيش المفاجئ
الذي ينزل بالذميين بين الحين والحين، فإن وضعه سليم وقانوني، وواجباته
منجزة، هذا الحذر الذي علمه إياه واقعه، تبدد تماماً وهو يحادث الكركي؛
استخف بميله للتصوف، أو بحثه عن من يرتضي اكتراء براعته في طرق النحاس
وتشكيله وزخرفته، في حين زين له أمر صنعة الحرير؛ يستبقه.

لم يشك النساج الحذر أمر فقدانه الولد إلى أي من زملاء مهنته بتاتاً، لكنه
انفتح وتبسط مع الغريب بيسر، أخبره عن ولده حنا الذي لم يطاوعه في تعلم مهنة
الأجداد، وهرب من عمل يحني الظهر ويذهب بالعافية ويعلق الفؤاد دون أن يعمر
الجيب إلى رحاب الرهبة، منقطعاً للمسيح وكنيسته، مترهبناً أو متصوفاً على
الطريقة المسيحية، تاركاً والده وحيداً في السوق، يتأسى على مهنة ستموت بموته.
تردد يحى إلى حانوت الحرير مراراً، وأعمل زيدون ذكاه ولطفه لينزع من
قلب الشاب كل شك أو تخوف يبعده عن حرفة صناعة الحرير، أراد اصطفاؤه
رفيقاً وتلميذاً له بعد أن وهن ظهره، لم تكن حماسة زيدون وتشجيعه وما ذهب
إليه في التقليل من شأن المهن الأخرى المحتملة في دمشق، سبباً مباشراً لارتضاء
الكركي بالعمل في زقاق الحرائر، وقبول تحدي المهنة الجديدة، لكن تلك النمنمة
التي تكررت في تتابع فريد على سطح القماش الحريري بخيوط من ذهب وفضة،
الغزلان في المروج، وعيون النرجس على الحواشي، وعصفوران فضيان يلعبان
في رقعة عاجية، يعتليان فناً بالكاد يرى، ويلتقي مقارهما في قبلة خاطفة توشك

أن تنفلت، عاشق ومعشوق، يكاد الريش منهما أن يرف في النسيج محلقةً، قال يحيى في نفسه:

- سأصنع ثوباً من البروكار برسم العصفير العاشقة لجمان، فإذا ما انتهيت من ثوبها؛ حضرت.

غاب فؤاده في التمني، وهو يتعلم الصنعة على يد زيدون الدمشقي المحترف، فكأنما حل وجد جديد بدل الوجد الصوفي الذي ضربه وهو يدخل بوابة دمشق، وكأنما الأفكار العقلانية التي ترتب حياته، تجد لها حيزاً كلما غل إبرته في النسيج دافعاً بخيط الذهب أو الفضة، ليمتزج بالفراغ، فيولد على مسامات النسيج اللؤلؤي كل هذا الجمال المنمنم الأصيل.

السوق ضيق، خفي، هادئ، إلا من إيقاع أصوات المكائن، خلافاً لسوق النحاس، يتحدث العاملون في سوق الحرير همساً، يبالغون في الصمت وهم يكررون ما رسمه فنانون النسيج منذ زمن، ويتبادلون لفائف الدامسكو والأغباني* والبروكار المحلاة بزهور الطبيعة، التي تسرد حكايات معارك صلاح الدين، أو تصور ليالي أنس عمر الخيام، زاخرة بالفراشات والورد وبتلات الزهور الملونة.

لم يستنكر أساطنة السوق على زيدون الذمي معاونه الجديد، فزميل المهنة العجوز الذي فرط شاباً في إلحاق ولده بصنعتة مثلما فعلوا مع أبنائهم، وجد ضالته في عابر سبيل، وهو وإن خالفه في الملة، إلا أنه رصين، وغامض، غني الروح، ثبت حرفته كل يوم؛ يتقن سريعاً إعداد ورق لا يتجاوز عرضه الستمترات القلائل، وتنظيف سنابير النول الكبير، وتجهيز ألواح الجاكار الكرتونية، ورسم التصميم الجمالي المعتمد والمألوف، وما يتدعه من إضافات خاصة فاتنة، كتلك السوسنة

* نوع من نسيج فاخر.

الليلكية التي تلمع ببريق فضي، يجاورها خط رفيع متعرج، لو دققوا فيه قرؤوا كلمة الكركي، وإذا ما دار النول ونقل المكوك الخيوط مارة في طيقان مرصوفة بعناية، شاهدوا وجه الرجل يتتهج كأنه يُحلق.

كلما تقدم يحيى في صناعته، وطرح نوله نسجاً جديداً، تهامس رجالات السوق في أن الحج زيدون وقع على كنز، صانع ماهر عبقرى، أنامله ثابتة، وذوقه رفيع، وأخلاقه تسر البال، ثم راحوا يفارقون دكاكينهم المتقاربة عندما يلون الشفق السماء؛ يجالسون الشاب متفرجين على نتاجه، مستمعين إلى أحاديثه، حتى مجموعة القبضايات والزكرتية والجند التابعين لوالي دمشق، الذين يغلقون أبواب الحارات ويؤمنون سلامها وأمنها إذا ما انصرف أصحابها إلى دورهم، يلتفون حوله، يديرون مطلع الحديث بإمطة اللثام عن أسرار صناعته طواعية، فيقترحون ويناقشون المشاكل، يضحكون لنوادر الداخلين أو الخارجين إلى الحارة ومنها، ويفصلون في تفضيل أنواع الخيوط الواردة على السوق، وطرائق التحقق من أصالة الحرير، وأساليب الغش التي بدأت تستشري، وأحوال سوق الحرير الدمشقي الذي عرف في أوروبا وراء حدود دولة العثمانيين، وطبقت شهرته الأفاق، ولكنه لم يثرهم ويعمر جيوبهم بالذهب، إذ يتاعون رطل الحرير بعشرة قروش، ويعكفون عليه لتحويله إلى ملابس وفن، يخسرون وقتاً وجهداً ويقدمون فناً؛ لا ينالون إلا القليل من ريعه، ليصب الربح المعجزى في جيوب التجار الموردين والمصدرين والسماسرة على درب طويل ينقل الحرير الدمشقي إلى العالم.

تتسع الحلقة عند انكسار الضوء، وتنتقل الجلسة من أبواب الحوانيت إلى دخلة السوق، ينضم إليها من خارج أبناء المهنة أفراد يأنسون بالإضاءة المعلقة في فانوس في قلب الدرب، يتفرع الحديث ويختلف وتتشعب مواضيعه، بدءاً من تلك الأكداس التي يلقي بها أصحاب مصانع النسيج والخياطون والحلونجية

والجزماتية من مخلفات تسيح في نهر بردى، مفسدة على المتنزهين متعتهم، وعلى الماء جريانه، وانتهاءً بما يدور في المسجد الأموي من خلاف فقهي بين الحنفية؛ مذهب السلاطين العثمانيين، والشافعية؛ مذهب الشعوب والرايا العرب في مصر والبلاد السورية.

ينضم الشقيقان جعفر وزيد وجمع العطارين إلى السامر على مشقة مشوارهما اليومي من حارة البزورية في الميدان التحتاني حتى سوق جقمق، يسرهما سماع الاسطى دريد صاحب الصوت الجهور الصافي يطلق مواله مشتكيًا هم صنعته، بينما أنامله تداعب دفًا مشنشلًا بالصناجات؛ يصدر لحناً مرحاً والكلمات شاكية، يطلقها ممتزجة بضحكات المتحلقين:

- المطوية يا ناس.. حطت بقلبي علة.. والدف هدّ كنفاي.. وصار فيهن علة.. والنير غز بايدي.. ترك فيها علة... والدواس بحش رجلي.. وحط فيها ألف جرح ودمله.. وعلة.. والمكوك رايح جاي.. مثل هبوب الريح... ولما ييمسي المسا... بقوول: هلق بستريح... ولما يبصبح الصباح... بترجع علتني.. علة..*

الدرب المحفوظ بأسراره وهمسات عماله، الذي يسمح بالمرح بمقدار بعد يوم عمل شاق.. انفتح على إضافة غير معتادة، فعدا عن أصحاب المهنة الذين يتجمعون على الدوام بعد إغلاق الدكاكين، فإن الأزقة الواسعة نسيًا تحولت إلى تجمعات للسائلين والمستفسرين، بدا عجيبيًا أن أسئلة فقهية عصية يتم تحليلها والنقاش فيها والنصراني يراقب باهتمام، بل ويتطوع ببعض الآراء؛ فلا يجد صدًا

* من قصائد مهنة الحائك السورية القديمة.

ولا استنكاراً من الجالسين، وكأنما فسيح الفضاء ووداعة النفوس التي أشاعها الكركي؛ ألزمت الجميع بدمائة لطيفة، وتهذيب عال.

قبل تقدم غلالات الفجر الشفيفة، يعود الشقيقان مصطحبين الكركي إلى الخان، يعينانه على حمل ما عاد به من مخطوطات جمعها وهو يمر بضريح صلاح الدين الأيوبي، الذي يليه درب الحبارين والكتبة والوارقين، لم يفارقه اهتمامه بالكتاب، وإن كان كتابه الأثير «عيون الحكمة»، وقد حفظه في صندوق نحاسي، رفيقه الدائم إذا هبط الليل حالكاً، وكما اعتاد، يفتحه قارئاً منه كلمات يحفظها أساساً، خاتماً يومه مستعداً للنوم بقراءة آيات من القرآن يتدبرها على تمهل واستلذاذ ورهبة، قبل إطفاء شمعته في الحجرة الرطبة الصغيرة وتسليم رأسه للنوم.

يرى يحيى حلمًا متكرراً، عرض له الحلم يقظاناً لأول مرة في القاهرة المحروسة في دكان النحاس عندما صرعه فوح الياسمين، وتجلى له في دمشق نائمًا ويقظاً، بلبله إحساس النشوة الغامر، حالة لا مثيل لها ولا متعة تفوقها، وحيرة مسكونة بعجز عن الجواب، ونفس تنقبض وتنفرد، فإذا به يسقط في لحظات من أسى لا تفسر، تخالطها رغبة عالية باسترجاع ذلك الشعور البعيد عن المنطق والواقع؛ تهتز أطرافه في رؤاه المدهشة، تخفق أصابع قدميه كما لو كانت زغباً في مخلي طائر، ثم يرى ويشعر بكامل حواسه أن جسده الثقيل يخف ويعلو.. يرتفع رويداً رويداً.. يجوس فوق البقعة التي كان قابعاً فيها.. يرى ما يحيط به، وتتسع المسافة والمساحة، يحلق هويني وتكتشف دمشق مبتعدة مكشوفة، يرى المنائر والعمائر والقباب ورؤوس الأشجار وأسراب الطيور، يحاذي سفح قاسيون الشاهق، ويسمع حفيف أوراق الشجر، وأصوات البشر تهدر مختلطة بهدير ماء بردى، ثم يحط متأرجحاً معدلاً جناحيه، يستوي مجدداً مقرباً

من السطح الترابي، فإذا به في ضريح ابن عربي، وإذا بابن سينا واقف في الفناء الخارجي، إلى جواره رابعة العدوية، يلوحان له، وعند خوخة المدخل الصغير يقف ابن رشد والحلاج وابن عربي والسهوردي والجنيد وذو النون وابن الفارض والروذباري والششثري*، مخطوفي الوجوه في قفاطين بيضاء يطيرها ريح، ينتظرون بلهفة ملازمة قدميه الأرض بينهم، ثم، يقف؛ يتيقظ من منام أو شطح، فإذا العالم حوله كما كان منذ هنيهة، يشتاق حد البكاء إلى لحظة التحليق الممتعة الغامضة، والوجوه المتعبة الملهوفة إليه، ثم يجاهد ويحرص باكيًا على مفارقتها رأفة بعقله.



فتح سوق التحرير أمسياته للمسامرات الممتعة، وضاق عن الحجيج المتزايد ليلة بعد أخرى، عندما جاء إعلان يستكشف حال الرفاق، انحنى عوده وهو يجلس لصيقًا بالكركي، جاهد لتناسي حسده، مغلبًا الرضا بما قطع من أشواط في حياته وتصوفه، متهيئًا لتقبل الأجواء المحيطة، قال مجاملًا:

- المكان ضيق، يليق بك ساحة تجمع الجموع، وتلم المريدين.

لم يتوقف يحيى حول أسباب التفاف العامة حوله في مسامرات المساء، ولا عدّ هذا الجمع مريدين يخصونه، ولا تمناهم تابعين، قال:

- إنما أرمي عصاي كيفما سرت.

تجرع إعلان الرد متمهلاً كاتماً غيظه، خيل إليه أن العبارة تحمل زهو الأنبياء، ولعلها كثيرة على رجل! مع ذلك واصل اقتراحاته يداري مرارة تعثره.

* مشاهير المتصوفين تاريخيًا.

رفض يحيى الدعوة الكريمة بتخصيص أيام له في زاوية علان، وأعرض عن تنبيهه الجاف وتعجبه من عقد مثل هذه الحلقات في دكان نصراني! كما لم يستجب لمقترح التدريس في صحن الأموي، تذكر بأسى الأزهر، ورفاق الدرس، إيان كان طالب علم، وظن أنه فارق زمن العلم قاعداً، يُعلم ويتعلم، وأنه بات يطلب العلم ماشياً، كما لا يوافق زهو يعيده إلى موقع المعلم، تواضعت النفس حتى صغر كل ثوب تلبسه، وما احتواها وعاء.

في زحام المتحلقين، اندس زيد إلى جواره يهمس في أذنه، وشاهد المجتمعون أسارير يحيى تنبسط سروراً، شاهدوه يهمس بدوره في أذني علان الواجم وقد علت وجهه خيبة أمل حادة، ازدات حدتها كأن الخبر كان مفجعاً، همس علان في محاولة قدر فشلها مسبقاً:

- وأنت؟ ألا تفكر بالزواج؟ والله إن كل رجل يطمح لمصاهرتك، وإني كذلك.

- كل شيء مرهون بارادة رب العباد، المهم الآن أن نفرح بزواج أختنا زيد، فهل لطلبه عندك مكان؟

طعنت أمانى الرجل الخفية، أصيب علان بذلة إثر تمتع الكركي بذلك الحضور والاقبال، ثم بإعراضه عن رغبة أفصح عنها ولمح بها، تمنى لو أن أحداً من أتباع الطريقة سبق وتقدم للاقتران بالحسنة خولة فأعفاه من موقفه هذا، وغاظه أن زيداً لم يخاطبه مباشرة، ولم يمنحه فرصة رده ورفض طلبه، مفصحاً عن رغبته في الاقتران بخولة على لسان يحيى، جاهد الشيخ نفسه محارباً الشعور المرير، وتمنى لو أن خولة تعفيه من ذلك التمزق بين القبول والرفض، فتتبع، لو أن معجزة تحدث، فيميل قلب الكركي للفتاة، هز رأسه وكل تلك الأفكار تعصف به، وقال منكسراً:

- على بركة الله، إن وافقت الفتاة، على بركة الله.

لم تستجب خوله لأماني الشيخ المتصوف، هتفت وهو ينقل لها الخبر باستخفاف لين ظاهر مرح:

- زيد؟ العطار!! أليس هو ذلك الرجل المضحك الذي يملك عشة تعطر الشاي؟

بدت مستبشرة، داعبت خصلة شعرها، وانحنت قليلاً بدلال غير مسبوق أحق والدها، ورجعت خطوة إلى الوراء هامسة:

- لا مانع يا أبي.. أوافق، إذا وافقت أمي، أوافق.

أحبط الأب، ولفت انتباه زوجته المقعدة إلى أن ابنتها لن تتمتع بعيشة هنية رغبة مع العطار الغريب لفقره، آملاً أن تهز رأسها رافضة إذا ما سُئلت، لكن المرأة المريضة المقعدة أحست بفرح الصبية ونبضها، فابتسمت في إيحاء موافقة وترحيب.

تجاهلت خولة إشارات والدها إلى قصر وامتلاء خاطبها وفقره ووضاعة حاله وغموض أسباب مجيئه إلى دمشق، لم يعجبها كل ما ساقه من سخرية أو موانع تحول دون الزواج، وتعجبت منه وهو المتصوف المتكشف صاحب الرحلات الطويلة التي يقطع بها البلاد مقتاتاً وصحبه على بعض القمح والعدس يتحدث عن رغد العيش! لو أن الذي نبهها إلى تلك النقطة خالها، زارع الورد الدمشقي الميداني، لفهمت وتفهمت، فخالها أبو سندس، الذي لم يرزق بسندس، رجل مُنعم من أعيان دمشق، يسد احتياجات بيتهم في غياب صاحبه الطويل، ويحضر لها أقمشة الدمقس لترتدي ثياباً زاهية، وبتاع الأعشاب والأدوية لأمها العليل، وكم من مرة قام بترميم درج البيت المتكسر، ونقل في مطلع شهر رمضان سلال الفاكهة المجففة، وصفائح السمن والزبد والقشطة، وأشولة الطحين، وأشرف بنفسه على

البئر التي حفروها في قاع الديار كي يضمن لها وأمها حياة كريمة! في حين انصرف الأب لطريقته وزاويته، مستبدلاً العائلة بأتباعه المرئيين، توقعت الممانعة من خالها، وبدت طيعة وهي تضع مشورته في موقع حاسم لقبولها.

أطرق الخال أبو سندس وخولة تنقل له خبر الفتى العشاب الذي جاء من أقصى الجنوب من أعالي الكرك متقدماً لخطبتها، عدل عباءته الحريرية، فانزلت عن كتفيه مبرزة جاكيت الجوخ الفاخر فوق السروال وشيئاً من الحزام الفضّي الذي يرفع كرشه، انحشرت العباءة تحت فخذيه، سحبها ومسدها، تأكد من تعديل العمامة على رأسه؛ تشاغل بشيابه، يبدل في اتكائه ومسنده، وخولة تتحدث، فلم تتمكن من قراءة وجهه، وقد اختلط فيه استبشار وخوف وتردد، فالصبيّة التي عوضته عن سندس الذي لم يأت، والتي يعلم أنها وريثته، ولها من المحبة في قلبه، وسداد الرأي في عقلها ما يجعله ياتمنها على المال الذي شقي عمره وهو يجمعه قرشاً قرشاً، تظل أنثى رهيفة الفؤاد، قد تنساق وراء ملاحاة التقاسيم، أو عذب الكلام، أو نظرات الإعجاب التي تصطاد قلوب العذارى، كما أن الأجواء الغامضة في بيت الدرويش تنبئ الخال أن والد البنت ليس فرحاً ولا متحمساً لهذا الزواج، ظن في البداية أنه يخشى ابتعاد البنت عن أمها المريضة، لكن البنت اشترطت إقامة زوجها معها كي تتمكن من إكمال دورها المقدر في رعاية العجوز قعيدة الفراش، ما الذي يخفيه علان؟

أبو سندس فضولي بطبعه، يدور حول التفاصيل ليصل إلى إجابة مقنعة، ولقد صفن مطولاً في علان وهو يزيح الحجاب عن سره، ويفضي به بمرارة جعلته يتلع ريقه، قال:

- تمنيت لها زوجاً آخر.

- شاب تعرفه، من مرديك وتابعيك؟

- بل غريب، لا أظن أنه يصير مريداً لي أو لسواي، لكنه قادر على ابتداء طريقته وجمع المريدين لو أراد، متصوف من طراز نسيج وحده.
- متصوف!! اتق الله.. أتحبس البنت معك في حياة صعبة، لأنك أنت ترحمها وترعاها، ولا مريض أمها يريحها من مشاق الدنيا، ثم تختار لها رجلاً يضيق عيشها، على مقاسك ومذاقك!!
- حك إعلان رأسه الحاسرة بقوة، فخدش جلده أسفل الشعر القصير المحلوق،
تمتم :

- ليس متصوفاً درويشاً متعطلاً، إنه رجل عامل، على كل حال، كان مجرد تمنٍّ لا طائل تحته لأنه غير مهتم، ثم، لا تنقصني التقوى يا صهري العزيز حتى تنبهي لرحمة ابنتي، لا أحبس فلذة كبدي على ضنك، لكنني أخاف تصرف رجال الحشيرية*، الذين سيضعون أيديهم على ميراثي بعد موتي.
- أي حشيرية؟ هذا كان في الماضي، اليوم؛ فرض العثمانيون المذهب الحنفي قانوناً، تركك ابتك وزوجك، في غياب الولد الذكر يتقاسم أهلك وأولاد عمك ميراثك، لم يعد هناك ما يسمى الحشيرية يا رجل.
- اهتز إعلان نافيّاً:

- لا.. أنت لا تفهمني، أنا من علمت أتباعي ضرورة التشبث بمثل ذلك القانون، حرصتهم على ذلك، كنت أظن أني أرزق ولداً يرثني، ناديت طوال عمري بالشافعية، أوصيت أصحابي بتنفيذ ما تعارفوا عليه، وجعلتهم يشكلون فرقاً بينهم يكونون بديلاً عن الحشيرية، هكذا تعاملنا مع الراحلين من فريقنا، هؤلاء أنفسهم من سيتصرفون بميراثي، سيعطون

* نظام توريث شافعي يعطي نسبة لأولى الأمر.

ابنتي وزوجتي نصيبهما الشرعي، ويضعون أيديهم على ما تبقى، وهم على هذا قادرون ما داموا يعلمون بأمر أموالني.

نظر أبوسندس متعجباً:

- أموالك! تفضل إعطاء مالك لتلك الأورطة الهائلة على وجهها دون أقاربك! ثم!! أأست زاهداً متصوفاً على باب الله! من أين لك مالا تورثه ويستحق منك كل هذا الخوف والتحسب؟ الأولى أن أحسبها أنا؛ ولي مال كثير، ولا وريث من صلب ي يرثني، أم إنكم معشر الدراويش تكنزون مالا لا نظره! ولا تمتعون به أقرب الناس إليكم في الحياة؟ ثم تحسبون الحسابات لبعث موتكم! وما علاقة هذا كله بزواج البنت؟ في كل الأحوال ليس لها إلا نصيبها الشرعي، أراك تتعلل بالحجج.

لم يقدم إعلان إجابات صريحة، تخط في الكلام مناقضاً نفسه، تارة يقول إنه يفضل أن تكون البنت في رعاية رجل مؤثر قادر على منع مريديه من مشاركة البنت إرثها، وتارة إنه لا يملك ما يؤمن مستقبل البنت وابنتها فلا أقل من ربط مصيرها برجل ثقة، وإنه لا يميل للفتى العشاب السمين كثيراً، خاصة أنهم لا يعرفون شيئاً عن أهله وديرتة، لم تقنع مقولاته الخال الذي جرؤ على توبيخه وتسخيف أقواله، ونصحه بالتسليم لما تريد الحياة، فأسقط في يده.

استسلم إعلان لتوافق الجميع، أو تأمرهم كما أسماه، وشاهد منزعاً فرحة الشايبين في نظرات العيون وهم يقرؤون الفاتحة اعلاناً بالخطبة، دخلت الضحكات داره بعد طول وقار، مقهوراً؛ بات يتسامح أمام قضاء زيد وشقيقه فترة بعد الظهر في منزله، يتحدثان عن الترتيبات، ويحملان سرير الأم المريضة إلى أرض الديار، تحت شجرة النارج التي تلقي تحتها ظلالاً واسعة في النهار، فتشاركهم وهي الحزينة الضحك، وتشد كف ابنتها مشجعة.

التقى زيد بصاحبات خولة اللواتي توافدن على الدار يسترقن النظر إلى العريس متضاحكات من وراء أغطية وجوههن الجورجيت الشفافة، وجالس الشقيقان الخال الذي بدا مستبشراً وهو يرى فرحة الفتاة والتورد الذي داهم خديها، تلك الأجواء البهيجة التي داهمت البيت؛ طردت إعلان إلى زاويته، فلا يجالسهم إلا إذا جاء يحيى برفتهم، تفزعه اللفتة التي تستبد به لمجالسة الكركي، ولكنه لا يملك ردها أو التنصل منها، ورغم صلواته التي لا تنقطع وجلسات الذكر، والحضرات التي يعقدها؛ يدور مع الدائرين طالباً الإغماء، محاولاً إعادة الأمان والسلم إلى روحه، فإن مشاعر متضاربة تنشب أظفارها في فؤاده، مزيج من الإعجاب والغيرة، الحب والكره، النفور والإقبال، العتب والرضا، تمور كلها في صدره في آن واحد، كأنه ليس الشيخ الرائق صاحب المكرمات الطيبات.

طاشت سهام صبره حين التقى أبو سندس بالكركي، التقيا عند عقد الخطبة على عجل، ثم في مساء يبشر ببدايات ربيعية، والفتاة تقوم على خدمة زوار البيت بهمة، تسترق وزيد النظرات والبسمات.

أحضرت شالات صوفية من الكشمير الثقيل، أعطت خطيبها شالاً يدفئه، عطرتة خلصة بقطرات من روح الياسمين التي جلبها خالها، وجلست ملتفة بشال آخر مطبوع بزهور ليلكية كبيرة وأغصان خضراء، خيم الأنس على الجلسة، وتوارت مشاعر الوجد التي تعاود إعلان إذا ما انفرد بنفسه، فاحت كاسات الشاي بعطر الميرمية، حين دق الباب، وجف قلب صاحب البيت، وأصاب في حدسه أن الطارق يحيى، وسط الترحاب والاستبشار الذي عم الجميع، تقدم يحيى يسلم بود، وقال إعلان:

- أراك تركت مجلسك المعتاد.

أجاب الكركي:

- لا مجلس أعتاده، أو يعتادني.

لم يقصد يحيى دلالة عصبية، لكن إعلان أخذ يقلب العبارة وكأنها سر الأسرار، وانسحب من المجلس مضطرباً لاحقاً ابنته التي قامت تهيئ للضيف عصير الورد، انحنى لاطماً كتفها بكتفه، وهي تصب العصير الأحمر القاني في كوب زجاجية تتلأأ، همس بحدة وغضب:

- كفي وخطيك عن الضحك الرقيق في حضرة الكركي وخالك، احتشمي وانحجلي من وجودي على أقل تقدير.

فوجئت الفتاة بالتأنيب الحاد والغضب الحبيس في صدر والدها، وقفت مكانها لثوان تحاول فهم ما أثار حفيظته فجأة، لكنها لم تتمكن من إدراك ما يقصده، إذ اكتفى بعبارته وعاد إلى المجلس أسفل شجرة النارج، تلمست خولة غضب الأب تلك الليلة، راقبت بصمت احتقان وجنتيه، وتجمع تجاعيد العين في الجهة الجانبية لجفنيه، وتلك النظرة الغائمة وهو ينظر ويسمع الضحكات التي توشي كما لو أن أبا سندس صديق حميم قديم للكركي.

جلسا معاً منذ نصف ساعة فحسب، فإذا بهما يتحدثان بمرح عن زيد ونواده، وبتفصيل عن الأعشاب والحرائر، وبعثق عن الدين والدنيا، طوفا بالقاهرة المحروسة والأزهر، والكتب النادرة في الطب والعلم والفقه، وحديقة الخال المشهورة باسم تل الورد، وكرخانة الفبريكة* الملحقة بالبساتين والتي يُقطرُ فيها الورد، وحين قال الخال بأريحية تعودها، إن الزفاف لن يكون إلا في التل وفي قلب

* تعبيران تركيان يعنيان المصنع.

البساتين، أطلقت البنت صيحة فرح عارم و صفقت، ففطرت قلب أبيها، وأضرمت ناره التي يحاول جاهداً إبقاءها رماداً.

لم يُقدّر أبوسندس الدمشقي ماذا سيحل بالشاب الكركي وهو يقترب من بستان الورد في صبيحة تلك الجمعة، مرا بسوق الخياطين، ثم حاذيا بوابة محكمة القسم البلدية التي أغلقت رتاجها الخشبي بقفل فاخر، تنسم يحيى أريج الورد، وأصيب بخرس غامض، اعتقده أبوسندس هدوءاً في الطبع، فهو لكثرة ما تعودت حاسة الشم عنده على فضاء الورد وعبقه، لم يعد يندهش إذا اشتمه، لكنه يفتقده سريعاً في الأماكن البعيدة عن البستان والفريكة، أما الكركي؛ فقد التقط الأريج الذي يتكثف حوله كلما سار خطوات صاعداً التل؛ شيئاً من رجع مواد عطرية بعيدة، خزamy على ثوب هفوف، ياسمين على جيد جمان، بخار يتصعد في جرار مريم.

شقت الروائح الذكية صدره، وطغى رحيق الورد على كل رائحة قادمة من الذاكرة حين وقف الرجلان بباب البستان الشاسع، هرع صبية يفتحون الباب لصاحب عملهم، وآخرون يوافونه بتقارير عن حال الأحواض الشرقية التي تركت دون تقنيب وقص في الموسم الماضي، فلم يأت عطاؤها جيداً هذا العام، منهم من يحدثه عن احتياج الفريكة إلى حطب نظيف لإضرام النار في المواعد، وإلى بعض السكر لإضافته إلى ماء التقطير، وبينما هو يستمع إلى متطلبات بستانه ومصنعه الصغير، استحوذ المكان على الكركي، أوشك أن يصاب بإغماء مماثلة لتلك التي ضربته وهو يدخل دمشق عند بردي، لكنه تحامل مهتزاً برفق مثل أغصان الشجيرات البديعة التي أحاطت به، وتمكن من تشق العبق الثقيل شاعراً بقيمة اللحظة الماثلة.

يمتد البستان فضاء أحمر، ويتفتح الورد في الهواء الربيعي تحت أشعة الشمس الدافئة الممتعة، وتصطف الشجيرات في خطوط مستقيمة، يتغاوى على أغصانها الورد الأحمر القاني، باثًا رحيقه بكثافة، بينما تلاعب مساقط الضوء الجوانب وأعلى الشجيرات حتى لتشكك الناظر بسلامة عينيه؛ توهمه بحراك ما يرى، بدت الصورة المتناغمة بألحان الريح المارة بين الغصون أبعد ما تكون عن مشهد حقيقي، فإذا ما أرسل يحيى بصره إلى نقطة أبعد، فاجأتها الألوان المختلطات للزهور، تنوعت الألوان عن بعد، وشرح أبو سندس كيف يتقي الوردات الصفرة والبيض والبرتقالية، ليرسلها إلى حجرة تصنيع الصابون، أما الحمر من فصيلة الورد العادي فتفرز، وتنقل إلى غربي الفريكة حيث تحولها العاملات إلى شراب الورد وعسل الطعام، بينما يفرز الوردة الدمشقية المخملية الفارحة دون سواها لتصير عطرًا، في عملية تقطير دقيقة يقوم بها الشبان.

تتداخل أوراق الوردة الدمشقية في امتزاج فريد، ويلتحم كأسها الأخضر بقاعدتها، فتنفرد البتلات في اتجاهات متشعبة، وتستقيم على فروع مكتظة بمثلاتها، ملساء، مخملية، داكنة مثل دم نقي، خطفت بصر يحيى وأدهشته، بينما الورد العطار الدمشقي أبو سندس يختار موقع العرس المنتظر، فيفضل المصطبة التي تتوسط الطريق بين البستان والفريكة، مقترحًا أن تُضرب للنسوة خيمة على اليمين، وأخرى للرجال شمالاً، منبهاً إلى ضرورة الاستعجال بالزفاف كي لا يلحق الشتاء بهم ويفسد حفل البستان، وكي يستمتع الضيوف بمشهد الورد ورائحة أريجها قبل أوان قطافه، واصل الرجل شرحه مفاضلاً بين الخيارات كما لو أن العرس لولده، رغم الذهول البادي على وجهه يحيى.

ولجا بوابة مصنع عطر الورد، فغدت الرائحة كثيفة، ثقيلة، لزجة، تنشب عميقاً في صدور الداخلين، عبرا المكان وسط ترحاب الشبان العاملين، وانتبه يحيى.

أوقد الفتية نيران المراحل الكبيرة في الموقد تحت الآنية التي مزجوا فيها بعض السكر بورق الورد، وراحوا ينفخون بالكير كي لا تبرد النار ولا تنطفئ، بينما حمل آخرون الملاقط يحركون أوراق الورد الحمراء القانية في الإناء، ويقلبون، وتساعد بخار من آنية قطعت مرحلة متقدمة في الغليان، حبس البخار في إنبيق ينتهي إلى مقطرة، فبوتقة كبيرة يعبر فيها بانتظام بطيء مثل سحائب عالقة، واصلاً إلى ملف التبريد، وفي مساحة بدت كما لو أنها نهاية العملية التي تستمر لساعات طويلة ولا تكاد تنقطع دفعاتها، امتدت الأنابيب المبردة، وسال البخار مكثفاً إلى زيت عطري ثقيل بلون أصفر، انسكب فوق أحواض ماء بارد، وتخر متحولاً إلى دهن الورد وزيته النادر.

أسهب أبوسندس متذكراً كيف نقل شجر الورد من غوطة دمشق إلى التل خاصته، وتحدث مطولاً عن لون دهن الورد، مشيراً إلى تغيرات طفيفة في درجة اصفراره وميله إلى أخضر يوشك أن يصير زنجارياً، إذا ما استخلص من ورد الأحواض التي لم تسق لشح الساقى أو انقطاع المطر، أو طغيان الكلس على ترابها، كما شرح كيف يزيد عدد البتلات التي يقطف نتاجها كلما اعتنى بها وشذبها وتابع أمراضها، وسمدها بمخلفات الطير والحيوان، وكيف يصبره ولعه بتلك المهمة لجمع أطنان من الورد مستخرجاً منها مكيالاً واحداً من الزيت العطري، وكيف يختار القوارير الزجاجية الملونة والمذهبة بالنقوش، منها ما هو مناسب للبيع في السوق المحلية، ومنها ما كان خاصاً ثميناً يفرز للتصدير، تحدث ضاحكاً عن حسد وغيره نسوة دمشق منه لاقتنائه الأدوات المتفوقة التي تمكنه من منافسة شراب الورد الذي يعددنه في بيوتهن، فيلحق به التسكر أو العفن خلال فترة قصيرة، بينما يحافظ إنتاجه على جودته لعام كامل، وبينما كان يعرض لمرافقه

أكياس الزهورات التي أضافها مؤخراً إلى الفبريكة بغرض التصدير، عرج على الفوائد الطبية للوردة ودورها في تفتيت حصى الكلى العليلة، وطرده غازات البطن. بدا زارع الورد عاشقاً لورده في كل حالاتها؛ مجففة، وعطراً سائلاً، وطعاماً طيباً، وشراباً يروي، وفتنة للناظرين على الغصون، وفي لفتة حنونة منه، أكد أنه سيتكفل بتعليم صهر المستقبل هذه الحرفة، كان يعني زيداً.

تعرف يحيى على صنعة جديدة؛ حسد العاملين فيها على الأجواء المحيطة بهم، والروائح التي تخترق المسام إلى أعمق وأبعد نقطة في الجسد والروح، انشغل بالتفاصيل، ووثب إلى ذهنه القلق سؤالان لا إجابة عنهما:

ما ماهية الجمال الذي تبثه الأشياء حولنا، أهو منها أم منا؟
ثم؛ ما هي الحقيقة؟ إذا ما ذهبنا إلى لم الحياة كما تلم أطنان الورد، أي نسبة ستخرج من فوهة المبرد مكثفة إلى جوهر؟
كل ما خبرنا، وما تمنينا، كل ما كان وما سيكون، كيف يتقطر معرفة نمسك بها، ليفوح العطر وندوخ ونرتمي... ونصل؟



شوهده يحيى برفقة أبوسندس مراراً، يمتطي الوجيه التاجر الزارع بغلاً يدخله أول حارة الحرير، فيربط رسن دابته إلى مقبض الدكان الأول في الحارة، ثم يترجل متوجهاً إلى دكان زيدون الذي يقف برهج مرحباً بالوراد أحد أبرز أعيان دمشق، وأغنى رجالات الصناعة فيها، فيجلس الرجل في مدخل دكان الحرير دقائق مجاملاً، يتناول حبة حلقوم تفوح بالمستكة، ثم يصطحب يحيى بموافقة معلمه؛ متجولين في السوق يعدان العدة لزفاف زيد.

ييدي الكركي خجلاً في ما يتعلق بالشراء شارحاً إمكانيات صاحبه المتواضعة، فيضحك أبوسندس مؤكداً أن هذا العرس له؛ إذ كثيراً ما عدّ خولة ابنته.

ابتاع لها جهازاً لائقاً، بيرو* صُنعت بدقة وإتقان، وزُيّنت بالنقوش وأصداف متراصة بعناية، تعلوها قطعة واحدة ثقيلة ومتماسكة من الرخام الوردي الزاهي، فوقها مرآة عريضة بيضاوية الأطراف، ودوشك* منجد بالقטיפه الخضراء الزاهية، وبساط من شرائط مجدلة، كما ابتاع لها الخلاخيل الفضية، ومكحلة نحاسية لحفظ الكحل الإثمد، وعلبة صدفية تحفظ مسحون الحجر الأحمر لغندرة الوجنات، وقوارير ملونة ومذهبة لحفظ العطور، وخاتماً بحجر عقيق يمانى أصلي، وقطع أقمشة ناعمة، وقبقاب خشبي شبراوي عالٍ مشغول بخيوط الفضة وقطع الصدف.

يتصرف أبوسندس كأن الزفاف له حقاً، فيجود بالكثير في تجهيز ابنة أخته، ويسوغ مرافقة الكركي بأنه مستشاره في ما يبتاع من هدايا، يعرف يحيى أن الرجل الذي يفوقه معرفة بالبضائع الدمشقية، يصطحبه للحديث والمؤانسة، فأبوسندس لا يتوقف عن الكلام، ورغم كرمه وجوده؛ يميل إلى المفاصلة، ويخرج القرش الفضي مضروباً على وجهه بالعربية عبارة «سكة صاحب النضر وصاحب العزة السلطان العثماني»، فيفرطه إلى أربعين بارة، يشتري بها أضعاف ما كان سيشتري لو ترك المساومة.

حكى أبوسندس ليحيى كيف قضى شبابه هائماً على وجهه فقيراً، بعثه والده إلى الأستانة ليتعلم اللغة التركية في مدارسها، فلم يطل، وعاد محزوناً لوفاة أبيه، فالتقى زوجته التركية في قافلة الحجيج؛ ووقعا في الهوى، فلم تكمل رحلتها إلى مكة، وقذفها نصيبها معه إلى دمشق، لا يتحرج أبوسندس في وصف مشاعره

* خزانة قصيرة بأدراج.

* مقعد طويل.

الفياضة نحو زوجته، تحدث عن جمالها، ورجاحة عقلها، والسكينة التي يشعرها
تعمير بيته، وأفكارها الخلاقة العبقريّة التي قادتّه إلى رحلة نجاح عمليّة، وجعلته
يفارق رقة الحال إلى أن أضحي مالكا للنل الذي يعلو محكمة البلدية، فزرعه
ورداً، وأضاف إليه فبريكتة الشهيرة التي غمر بها أسواق دمشق، وصدر عطرها
وشراها وحلواها إلى بيروت وفلسطين والأستانة.

يجزم أبوسندس أن حياته كانت ستختلف وتتخلف؛ لولا تلك الصدفة التي
جمعتّه بشهناز، زوجته الغالية التي لم يفكر أن يجرحها بزواج جديد حتى والعمر
يمر دون رؤية خليفة وابن يقربه عيناً، يتسم يحيى حين يقول الكهل الوقور بوله:
- أحبها.. يا أخي، ذكية؛ الرجل الحقيقي لا يمكن أن يحب امرأة غبية، ولو
امتلك حسن الدنيا، الحسن حسن الروح والعقل، ومع ذلك؛ لا تظن أن
شهناز تفتقر إلى الجمال، إنها آية رائعة من إعجاز الخالق.

يفيض الكهل بعشقه، ثم يلتفت للوجه الذي شف هاتفاً:

- يا كركي، حالك لا يخفاني، أنت عاشق!! أنت عاشق.

يتمنى يحيى لو كان في مثل بساطة الرجل فيفيض مثله، ويتحدث عن رجوع
الموسيقى الذي ينبعث في وحدته فيزيده شجناً، عن الأسى الذي يعمر قلبه
والعمر يمر بطيئاً والسنوات تطوى بينما الأخبار منقطعة، والأمل يتضاءل ويتعذر،
عن انقباض صدره في الليالي الموحشة التي يكشف نفسه فيها بيقين ينبئه أنه لن
يطالع وجهها مجدداً.

يتحامل يحيى على لحظة الوهن المريّة ويتظاهر بالعافية التامة، ويرافق
صاحب بستان الورد مستأنساً بقهقهته البهيجة حين يضع طربوشاً عثمانياً فوق
حطته البيضاء داعياً إياه لتغيير زيّه، وارتداء طربوش الجوخ الأحمر لمزيد من
الوجاهة، ثم معتذراً متذكراً أنه يحدث رجلاً زاهداً أقرب إلى الفيلسوف منه إلى

صانع حرير البروكار، يكف أبو سندس عن مزاحه، ويربت كتف الكركي بود، ويمضيان إلى تهيئة بستان الورد وإقامة العرس.

هلت الجموع تحيط بالحنطور الذي تركبه خولة وعريسها، وبدأ شباب العراضة يرقصون عند مدخل البستان على وقع ضربات الدفوف وشجن المزممار، يقفزون برشاقة وفي أيديهم السيوف الدمشقية الفارحة بأنصالها القاطعة، والتروس الكبيرة المدورة تتقي الإصابات الخاطئة، ويرددون الأهازيج، انتحى يحيى بعيداً، ومن وراء شجيرات الورد بدوا له خلفية مشهد متحرك، ولأن الريح هبت باتجاهه، فقد غابت عنه كلماتهم، وغمره أريج الورد وتكثف في رتبته فغيبه.

أوحى غياب إعلان عن زفاف ابنته بأن هناك غيماً في الجو، وتقلب وجه خولة بين أسى خفيف وفرح تواريه، فهي لم تقتنع بحجة والدها في الغياب؛ لم تتوقع رحيله في يوم كهذا مدعياً أنه مضطر للحاق بصحبه في السويداء مجدداً، ظنت أن إسراف الخال، والعرس بطقوسه المعهودة لم يناسب طريقة أبيها الصوفية، لعله شعر بشيء من العار لمثل ذلك، أرادت إرضاء والدها بإخلاص، لكن حينها للزفاف وطقوس العروس جعلها تتبع مخططات خالها، ولم يخطر ببالها ولو للحظة أن الرجل أراد إخفاء حنقه من زفاف لا يرغبه، ومشاعر الغيرة والحسد والخوف التي تعتريه كلما واجه يحيى الكركي؛ أثر الابتعاد لاستعادة صفاء روحه وسلام نفسه، فتحجج برفاق الطريقة الذين ينتظرون، وأن العرس على هذا النحو الصاخب لا يليق به.

تنقل أبو سندس بين خيمة النساء ومصطبة الرجال، ووزع صبيان الشراب الملون في الكاسات، ورش الملابس والقضامة الناعمة والحمص المغبر، ولقمة الورد المتبل بالعسل على الضيوف، غازل العروس، ثم امتدح زوجته التي تعلمت طرائق الشاميات في إحياء الأعراس، فأسندت راحة كفها إلى خدها وأمالت

رأسها، ومطت كلماتها منشدة:

- رحت على الحمام لتفرج على طولي.. لقيت أربع صبايا من الشباك
نادولي.. لمن شفتهن قلبت على طولي... هاتو بنات العرب يبقوا
يغنولي...*

زغردت النساء وضحككن، وتشجعت امرأة ثانية فصاحت منغمة الحروف:
- رحت على الحمام ولتفرج على لبسي.. لقيت أرضو منفسج، وحيطاناه
عنب دبسي.. وحياء من زين السلطان على الكرسي... إن كان غيرك
عسل؛ ما تقبلو نفسي...*

كان الرجال يوقعون خطوات الدبكة متشابكي الأيدي يرددون:
- مربوع مربوع يا زين المرايعي.. وحنيت دبي وما حنيت صاييعي.. وكل
قعدة حد زين المرايعي.. أحلى من الشرب من روس المنايعي*.
دمعت عينا جعفر متذكراً والديه وزوجه وأبناءه وداره، وافتقد يحيى، فبحث
عنه بين الوجوه مستفسراً، غادر المصطبة ميمماً إلى الناحية التي أشار إليها
صبيان البستان، ثم وقف حائراً ما إذا كان عليه قطع خلوة رفيقه، وقد بدا نائماً
متمدداً بكامل جسده إلى الأرض فاتحاً ذراعيه مرخياً ساقيه، عيناه مغمضتان
وشفتاه تبتسمان، كأنه دائخ يحلم، نظر إليه بود واشفاق، فكر أن يقترب؛ فيقبل
ظاهر كفه، لا لسبب، ولكن الابتسامة البريئة الوداعة على شفتيه تبث سلاماً

* من الزغاريد الشامية العتيقة.

* من الزغاريد الشامية العتيقة.

* غناء شعبي شامي.

حولها، لكنه أحجم، وارتد إلى صخب العرس تاركاً رفيقه لشطحته المحلقة.



انشغل العريس بعروسه، وانصرف أبوسندس لقطاف الورد في أكثر المواسم أهمية، وانغمس يحيى في تصفح كتبه ليلاً، ونسج البروكار نهاراً، فإذا ما أوشك شهر رجب على الانقضاء، أعلن المنادي في السوق أن اليوم السادس والعشرين منه قد حل.

لبست المدينة ثوباً قشيباً، فزينت واجهات الدكاكين بأقمشة ملونة وسعف النخيل، وأضيئت بالثريات والقناديل والمشكاة، ولبس الناس أجمل ثيابهم، وتدفقت فرق المتصوفة من كل صوب وحذب إلى ميدان الخيل، واعتلى الحكواتي مصطبه يحكي كيف أُسري بسيد الخلق إلى الجنات العلى، وكيف عُرج به للقاء الأنبياء والصديقين، وسمع صوت تلاوة القرآن من التكايا والزوايا والمساجد وأبواب البيوت، حتى زيدون النصرائي، حرص على تجميل دكانه.

انصرف الناس عن العمل للاحتفال، متزاحمين في سوق الخيل وعند بوابة المسجد الأموي وعلى امتداد سوق جقمق، سُمعت الضربة الأولى لمدفع القلعة حين انقضى الثلث الأول من الليل، ورددت صداها ضربات عند كل باب من أبواب المدينة، وعندما انقضى الثلث الثاني، ضُربت ضربتان، وكَبَّرَ الناس، وعُلقت القناديل في منارة العروس في الجامع الأموي، عند انقضاء الليل، سمع صوت الضربات الثلاث الأخيرة لطبل القلعة، تلاها تسييح جماعي شجي استمر حتى مطلع الفجر.

ضرب المنشدون الدفوف مرددين:

وصل يحيى إلى التكية السلمانية حيث تجمع الفقراء والمرضى عند مدخل مطبخها يطلبون مرقاً وخبزاً وتعطفاً وإحساناً، ولاحت المئذنة العثمانية الفريدة للجامع السليمي، صارت الناعورة الخشبية القديمة على يمينه، تتحرك بكراتها رافعة الماء من فرع نهر يزيد، إلى الأعلى، حيث البيمارستان القيمري، اجتازه صاعداً، مع جهد الصعود ورجع خريز الماء ودقات الفؤاد؛ ثقلت خطى الكركي، إلى أن وقف بباب مقام ابن عربي، وقرأ في أعلاه «الحمد لله أمر بإنشاء هذا الجامع الشريف الإمام الأعظم ملك العرب والعجم، خادم الحرمين الشريفين، السلطان سليم بن السلطان بايزيد، بإشارة محمد بدرخان خلد الله ملكه وسلطانه، كان ابتداء عمارته في التاسع من شوال، سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، والفراغ منه في الرابع والعشرين من محرم، سنة أربع وعشرين وتسعمائة».

انزاح الباب الحجري الثقيل، ولاحت أضواء الفوانيس المعلقة بفتائلها المشتعلة تراقص فيها الأنوار، وظهر شيخ متربع على حصيرة يتلو القرآن خاشعاً بتمتمة متهدجة كأنه يحتضر.

رصع الفناء بالحجر الأبيض والأصفر مشكلاً نقشاً جميلاً حول بركة صغيرة، تناوبت في النقش أزهار القرنفل وعروق الرياحان، وزخرفات هندسية لنجمة ثمانية زرقاء، غرباً؛ قام رواق على أربع قناطر، وإلى الجنوب زادت القناطر واحدة، إضافة إلى أعمدة أربعة، إلى اليمين فاحت رائحة خبز يعد في مطبخ التكية، تعامد نظر يحيى نزولاً مع المئذنة الرفيعة المنقوشة، فلمح الدرج العريض في الزاوية الجنوبية الشرقية، على قلة عدد درجاته؛ نزله لاهثاً جاهداً مشفقاً أن يמיד وكأنه يصعد جليجلة، فإذا ما صار تحت القبو، وقف بمدخل حجرة الضريح المقبية.

كان الأندلسي ابن عربي، خفياً، مغطىً تماماً بألواح من القيشاني الدمشقي تخلب الأنظار، وتلتصع قطع السيراميك فيها مثل نتف مرمية، وقد أحيط ضريحه

لعبت الألوان والأضواء وأنوار القناديل على الجدران المحيطة، رسومات لأشجار السرو، ولون فيروزي ناصع اللمعان، وبلاطات يتكرر فيها نقش الله أكبر، وزخارف أرضية لمزهريات، ويميناً على الحائط رسم دقيق أنيق لسروتين عاليتين، كتب تحتها اسم عثمان، تكرر الرسم يساراً وكتب تحته اسم علي. تردد صدى صوت المقرئ الجالس في مدخل الضريح، وخانت يحيى قدماء تاركاً الضريح إلى الفناء؛ فما عاد قادراً على الوقوف، ارتكى عند الحائط حيث فوقه الآية المنقوشة والمظللة باللون الأسود محفوفة بالبياض: ﴿الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان﴾*.

— مفتحة له الأبواب منها.. يجاوزها إلى العرش ارتقاء...

وأكمل ذائبًا غائبًا:

- ما في الوجود سواك رب يعبد... كلا... ولا لا لا لا لا لا لا مولى
سواك فبقصد...

* القرآن الكريم - سورة الرحمن.

يا يا يا يا يا من... له رنت الوجوه بأسرها... وله جميع

يا يا يا من له وجب الكمال ... يا من له وجب الكمال بذاته ...

فلذلك تُشقى من تشاء وتسعد*.

تحرك المقرئ العجوز مشفقاً يحمل صحنًا عامراً بالثريد واللحم خرج لتوه من مطبخ التكية، اقترب من يحيى يتحسس الجدار بكتفه، قرفص إلى جواره، ووضع الصحن أرضاً قائلاً:

لم يتحرك يحيى من جلسته، ظلت قدماه في ترييع، تاركاً ذراعيه على فخذيّه، مسترخياً، هائماً، وإن نظر الصحن نظرة غافل، مستوعباً أن طعاماً يُدفع إليه، فلا يتجاوب؛ نسي جوع أمعائه وهو الذي لم يتناول طعاماً أو شرباً منذ صباح الأُمس، عَفَّت نفسه وأحس بامتلاء يتمدد في أحشائه كأنه الرضا التام، لم يصل إلى تلك المرحلة بسهولة، فقد انتصب جسده في البداية حتى أوجع ظهره، ورفع كتفيه وشد عضلات بطنه وراح يشهق ويزفر، متلمساً هواءً يعمر رثتيه ثم يتركهما خواءً، ولما تمكن بعد جهد من حفظ الهواء في رثتيه، ثم الاستغناء عنه لدقائق تزايدت، استرخى جل جسده، وتركز فكره في حقيقة الكون والإله الواحد، فما عاد عرض المقرئ للطعام مغرياً، ولا لشأن خارج عما أصابه أهمية؛ تلاشى الوهن،

313

والرغبات، واحتياجات الجسد، وحلت بالروح سعادة مطلقة، صار خياله غذاءه، وإن ظلت في النفس رهبة مما أتاح له الخيال كشفه وولوجه.

كان من الممكن بقاء يحيى حبيس الضريح على حاله من الغياب، لولا أن يوماً كاملاً انقضى دون وقوع جعفر على خبر منه، فأثار الهرج والصخب باحثاً في بستان الورد عند أبوسندس، وفي حانوت زيدون وبیت علان، تذكر أن صاحبه قال شيئاً بخصوص زيارة الضريح.

وجدوه هناك يرتجف مبتدأً مطروحاً إلى جوار المقرئ، لا يرد على أسئلتهم، حملوه متنازعين أين يوسدون الجسد المسترخي بين أيديهم كأنه بلا روح، وأمام اصرار أبوسندس المتعنت، نُقل يحيى إلى حجرة في طرف بستان الورد.

اختلطت رائحة زهر البستان برحيق تراب رشه المطر، وورد تفتت بين أيدي قاطفيه، وصهد ثقيل يندفع من بوابة الفابريكة، وأبخرة طعام يعد على أفضل ما يكون، استمر يحيى في تمنعه عن الزاد حتى وقع في إغماء طويلة أرعبت من حوله، ثم استفاق، نظر إلى وجوه الصاحب الخائفين المبحلقين، وابتسم، عندها أيقنوا أنه رُدَّ إليهم خارجاً من حاله الملتبسة، قال:

وجدت الله في أعماقي، وفي الأشياء، هو الأول، والظاهر، والباطن.

صارت الحجرة الصغيرة في بستان الورد محججاً، حتى إن صاحب البستان مد المصطبة بتوسعات طينية، وساواها وغطاها ببلاط القيشاني في مربعات عريضة رسم فوقها غزلاناً ترد الماء وأعصاناً تحمل الورد، فعلق يحيى وقد بات واعياً بما حوله تماماً، معجباً بجمال المصطبة:

- ورد على ورد، وورد على بلاط حديقة الورد.

ضحك الورد مازحاً:

- لا نعرف أستاذنا شعراً أم فقهياً! أم تذهب إلى غوامض ما يفوه به المتصوفة وقد صرعاك ضريح ابن عربي.

صار مكان يحيى موقعاً للجدل، وإن كان معظم المرتادين من صبية البستان، وبعض العطارين رفاق جعفر.

تعاطف الذين واكبوا اعتكاف يحيى لما حل به؛ نحل بدنه ونتاجت عظمته وجنتيه، وارتخى جفناه، لم يقدرُوا إن الرجل الذي ضربته النشوة وهو غائب يتقرب إلى خالقه حباً، ناسياً أمر شرابه وطعامه، سيشمر ساعديه للعمل، وقد خبروا المتصوفة متعطلين منصرفين إلى نجواهم، أدهشهم إصراره مجادلاً أبوسندس كي تكون إقامته في حجرة بستان الورد مأجورة عملاً، كأن يقطف الزهر، ويعبى الأشولة، وينقل العربات المدولة بين الأشجار إلى الفابريكة، وإلا فإنه عائد إلى سكنه وعمله في سوق الحرير، هاج صبية البستان يتوسلون بقاءه بينهم، ثم أذعنوا وكبيرهم الورد إلى مشيئة الرجل العنيد في توكيله بالقطاف ونقل الورد، وصفقوا مهللين وهو يوافق بهزة من رأسه، باعثاً جعفرًا لمعلمه صانع الحرير يعتذر.

واظب صاحب البستان على مرافقته إلى المسجد الأموي في كل صلاة متشيحاً مزهواً، فكان كل التقاء بالآخرين أو احتكاك معهم في سلام أو كلام يشي بمعدن الرجل الذي نحل وبرزت عظام فكيه، ولمعت عيناه كأنه ناظر إلى نجم بعيد، سموه المغاير المنطوي، وأشاع صبية البستان حكاية الخلوة ونداءات يحيى؛ روجوا له شيخاً يحلو الاقتداء به، واتباعه أينما حل، والجلوس إليه ومحاورته فيما خفي والتبس وحيّر العقول، تكاثر المهتمون في صحن المسجد الأموي، واتخذت الحركة اتجاهًا مغايرًا عن الماضي، المصلون الواقفون وراء الإمام يؤدون صلاتهم بخشوع، لا يتخرجون إذا ما انتهوا من ترك حلقة الشيخ أو الفقيه

الذي تعودوه تحت قبة النس، مختارين اللحاق بحيى الذي لا يطيل مكوثاً، وما فاته ضيق الشيوخ به وهو يسحب تلامذتهم يوماً بعد يوم، فيصعد إلى البستان، ويجلس في مصطبة العرس التي باتت تسمى زاوية يحيى، يلتف بفروة ثقيلة يتقي البرد، ويحدث الأصحاب بابتسامة عذبة وصوت رخيم، بات منشغلاً بدروس الفقه والفلسفة وخفايا العقيدة كثيراً، إذا ما شارك في قطاف الورد، وقف مذهولاً أمام الغصن المائل إلى الأسفل لثقل أزرار ورده، وتتبع ظلال الورد تهتز على تراب الأرض، قطف وردة، ثم ضم كفه يخفيها في قبضته، وتأمل ظله على الأرض، وابتسم قائلاً في ما يشبه أحجية الوجود:

- أرى ظل كفى، وفي كفى وردة، فأين ظلها؟ ظل الوردة مخبوء في ظل كفى، كما هي في خفى باطن يدي، أعجز أن أراها أو أدرك ظلها؛ لي وللوردة ظل واحد، ففي أي ظل عظيم ننطوي؟

تدفقت المخطوطات والكراريس من الوراقين إلى حجرة يحيى يقلبها في خلوته حيناً وبين صحبه حيناً آخر، فيقرأ الجامع الصغير في الحديث، وتفسير الجلالين، ويعيد ورفاقه قراءة الكتابين جهاراً، والوقوف عند التفاصيل بحثاً وكداً، ويعرضون لصحيح البخاري، ومسلم والشفاء، والمواهب، والترغيب والترهيب، والتذكرة للقرطبي، وشرح البراءة، والمنفرجة، والشمالك، والإحياء، إضافة إلى الرسائل والمؤلفات والمقدمات في أغلب العلوم، كالجزرية، والأجرومية، وشروهما المشهورة، والألفية لابن مالك، وما يتوفر من شروح الشاطبية كالجعبري، وأبي شامة، والهمداني، والفاسي، والأندلسي، وشعلة، وابن القاصح، ومقدمات الفقه، ودليل الطالب للشيخ مرعي الحنبلي، وزاد المتقنع للشيخ موسى الحجاوي، وكتاب منتهى الإرادات، وكتاب الإقناع، ومفردات الحنابلة، وغير

ذلك من كتب الفقه للمتقدمين والمتأخرين، ومن كتب الحديث يروون ويقرؤون ويحفظون ما جاء في صحيح البخاري ومسلم.

حتى قال أبو سندس:

- صارت مصطبتنا أشمل وأغزر من قبة النسر في مسجد بني أمية، حيث يقعد الشيوخ والمعلمون يفيضون على الطلبة بعلومهم.

في غمرة الانغماس ببدیع ما خط الفقهاء، وما دُبح في الصحف المزركشة بالحواشي والرسوم والهوامش، زالت مهنة نسج الحرير من بال يحيى، حتى وصل الحج زيدون بستان الورد بنفسه، لاهثاً مستطلعاً، جاراً ثوبه.

صاح صبي عند البوابة وهو يرى العمامة الزرقاء والثوب الأصفر مشدوداً بزناار الكتان الخشن مثل حبل غليظ:

- عواني.. نصراني.

تجمع الصبية وصغيرهم يأمر الرجل الذي دخل البستان بلا استئذان:

- اشمل* يا نصراني.

انزاح الحج زيدون شمالاً، شعر بالوجل كعادته إذا ابتعد عن متجره في سوق الحرير، أو مسكنه وحيه في القصاع، وإذا ما فارق الطريق القصيرة بين باب توما وباب الجنيق، قال بصوت متحشرج:

- جئت أسأل عن يحيى الكركي.

* سر على جهة اليسار، وفق قانون يطال الذميين.

وقع الاسم مثل كلمة السر، كما لو كان تصريحاً خفف عدوانية الصبية، وضاعف دهشتهم رؤية سيدهم أبوسندس يخف للقاء الرجل، تقديرًا لاحتفائه به في متجره في قلب السوق، بعث استقبال صاحب المكان السكينة في قلب النصراني الذي يسأل عن عامله.

وقف يحيى يستقبل الرجل بإجلال، وتعانقا بلهفة، جعلت المحيطين يتراجعون خطوة، ويستمعون إلى عتاب صانع التحرير، الممنوع من لبس الحرير بالقانون، والذي خسر عامله، ولم يقنعه الاعتذار الذي حمله جعفر إليه، فتحمل عناء المجيء والاستطلاع بنفسه، وإذا رأى الشاب محاطًا بالأتباع، سيداً، يأسر لب كل من جلس إليه، فإنه لم يأمل إعادته إلى حرفته، واكتفى بالهمس في أذن الكركي متحسراً:

- لا حظ لي، حنا تركني إلى الرهينة، وأنت تتركني إلى تصوفك وكتبك.

رغم الحسرة الظاهرة، داوم زيدون على زيارة المصطبة التي سورت بالجدران لتصير غرفة مع اشتداد البرد وسقوط المطر، ما من مجلس يتعامل معه لاغياً حواجز الملة التي تجلسه في أدنى المطارح خارج دكانه وربعه وملته، فلا تشفع له أنامله الخبيرة في غزل التحرير، لكنه في مجلس يحيى ينسى التصنيفات، وينسوها، يتحرر من القيود، ويجرؤ على رفع العمامة الزرقاء عن رأسه الأشيب، واحتضانها في حجره مسترخياً، بل إنه أكثر الجالسین جسارة على السؤال المنطوي على قلق عظيم، وحده استفسر عن طبيعة ذلك التصوف الذي يراه في يحيى، ولا يشبه ما يعرف عن دراويش يرتدون الثياب المرقعة والمسابع والخشاخيش، وقيمون حضرات جماعية يروح فيها الناس في غيبوبة، استقبل يحيى السؤال بفرح وابتسامة

ردعت الشكوك في نفوس الجالسين، فضمن له حقه في المجادلة والاستفسار،
وسمعوا معه صوت يحيى ينشد أبياتاً تفسر نهج تصوفه:

ليس التصوف لبس الثوب ترقيه ولا بكاءك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا تغاش كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر وتتبع الحق والقرآن والدينا*

صار للنصراني مكانة واحترام، وما عاد الصبية يسمونه العواني، أو يطلبون منه
الإشمال إذا سار، بل تراهنوا سراً على امكانية إسلامه في فترة وجيزة، كذلك باتوا
يتعودون انسلال عناصر غريبة متباينة من الناس، زط، وحرافيش، وشلق، وجند
من فقراء السباه في الجيش العثماني يقطنون دياالات المزراع البعيدة، يجلس هؤلاء
متساوين إلى جانب متعلمين من طريدي الأندلس ونازحي غرناطة، وعلماء
يعملون في الكيمياء والفيزياء، وحرفيين في صناعة القطران، ودبغ الجلود، وعمال
سوق الحرير، ونقاشي النحاس، والعطارين، والبزورية، وباعة الملح، ومحترفي
نقش الذهب والفضة، بل وبعض الصيارفة في بنك اليهود زلخا، وصبية كنيسة
ماربولس الذين يأتون عبر باب كيسان مشياً على الأقدام، وعمال المطبعة المذهلة
التي وصلت إلى دمشق للتو لتطبع بالعبرية كتاب العهد القديم.

جمع من الناس لا يجمعه جامع، ولا يلمه مهرجان، عود فتیان البستان قبول
الآخرين، فلم يعد سهلاً الانسياق وراء استنكار علان الذي جاء وقد اكتشف
تسرب عدد من أتباعه إلى بستان الورد، كما استنكف بعضهم عن رحلته الموسمية
الشاقة إلى السويداء وحلب، في الأيام الأولى جلس علان صامتاً، يغالب غيرته

* لاحمد البرنسي الشهير بزروق الفاسي.

القديمة، ويحدث نفسه كي تطمئن، فيحیی لا یبدي رغبة في التنقل والتجوال كما يفعل هو، ولا یقیم حضرة تهز جوانح المریدین وتمنحهم النشوة كما عود هو صحبه، ويكثر من التفلسف والتحليل والتفنيد وتقليب كل مسألة على كافة الوجوه؛ كأنه يساوم لابتیاع ثوب، مما قد لا یطیل صبر الناس علیه، ولعله يتعدى على اختصاص أئمة التفسير والفقهاء في الأموي، أكثر من تعديه على نصيب المتصوفة في استقطاب الناس.

تقلبت مشاعر علان بين استهانة ووجل، لكنها صارت عاتية كدرة؛ نغص علیه ترديد أتباعه حكايات الكرکي إذا ما تسامروا، وتسويفهم واختراعهم الحجج كي یطيلوا إقامتهم في دمشق، ملتحقين بهزيع من السهر في البستان، كأنهم یفترطون من قبضته، عدا عن انكشاف اضطرابه وضيق صدره لانضمام بعض الزط والشنكل* منفوشي الرؤوس مغبري الثياب الذين یقطعون المسافة من حیهم البعيد مارين بباب الشاغور إلى أن یصلوا إلى یحیی، یسمعون بخشية وتدير، كأنهم ليسوا أرباب التساهل والتهتك والسخرية من كل جاد أو روحاني، وإذا ما جاء النصاری واليهود وانضموا إلى المجلس سواسية مقدرين، فأكثروا السؤال، وضعوا الوقار، فقد علان أعصابه، وأعلن استنكاره في محاولة لتنبیه الجمع الغافل عن التجاوزات التي یحفل بها مجلسهم، فما أعاره أحد اهتماماً ويحیی یقول:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لا وئان وكعبة طائف	والواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت	ركائبه فالحب ديني وإيماني*

* الغجر.

* محي الدين بن عربي.

سمى علان ما يذهب إليه الرجل في تكراره لأقوال ابن عربي سحر الكلام،
ودارى شحنة الحسد التي أوجعت فؤاده، ويحيى يشرح ما يبتغيه من وراء التأمل
في عزلة.

قال يحيى:

- إنما أسعى لمعرفة ربي، وأراه حقاً في كل ما خلق، هو عين الحقيقة،
والكون يظهر على صفاته، ومن ذكره لا تكل القلوب.
- ماذا عن الذكر الذي يشيع بعبارات عجباً مرقومة أو مصفوفة في أورد
رجال أشبه بالمجانين، دراويش لهم تشيعاتهم ومريدوهم وأتباعهم؟
سال أبو سندس سؤاله هذا متجاوزاً عن حضور علان، متذكراً كتباً حول
الغنوصية، وأخرى قرأ فيها ما ظنه من البدع التي لم توافق عقله، أجاب يحيى كمن
يلج باباً ويسير درباً يعرف خطوه قدمه فيه، قال:
- الذكر أن تقترب من الله، تتلمسه في ما خلق، تتوسله بصلاتك وتلاوتك
ودعائك وعملك، لا يكبل كرقم أو لفظ مسحور كتبه سواك، تكتب لفظك
وتقصد معنك، فلا تخطئ بك الدرب إذا غفلت عن عد الكلام كما
تشرط فرق وطوائف وملل، إنما يقودك فهمك للمعنى، ولا تمنعك نفس
أمارة بالسوء أن تتوب.

هو سحر الكلام، فكر علان، لكنه لم يجهر إلا باعتراض خجل وهو يرى أكابر
الفقهاء يرتادون المجلس، احتج على جمع عوام الناس مع كبارهم، شقيهم مع
سيدهم، جاهلهم مع فهمهم، فيأتي الشاب محمد الخباز المشهور بالطنيني
الشافعي، تاركاً صنعة إعداد الرغيف باحثاً عما يسد جوع العقل والروح، لما لم
يشبعه ارتياده مجالس العلماء، يتبعه الفتى الحائر محمد بن أحمد الأسطواني الذي
وجد أسلافه على مذهب الحنابلة؛ فتحير، ثم اختار أن يصير حنفيًا، ثم انقلب إلى

شافعي، وأجيز ليُدّرس في زاوية في المسجد، ويأتي الشيخ نجم الدين محمد بن محمد الغزي حافظ كتاب الله، ربيب الأرملة وقد شاب منه شعر الرأس، وما استقر على مذهب، لكنه يأخذ من كل توجه ما طابت له نفسه، وقبله عقله.

يفسح الشبان في المجلس، حين يدخل عليهم علي بن إبراهيم القبردي الدمشقي الصالحي الشافعي، الذي لا يغادر حجرته في العمرية في الصالحية حيث يعيش خشونة الحياة ورقة الحال، يأتي مصحوباً برفيقه نقيب الشام، محمد بن السيد بن حمزة الثري، وطلبة وغرباء قصدوه فجاء بهم برفقته يحاورون الكركي في العلوم العقلية وأصول اللغة.

يدخل عليهم الملا الضرير محمود الكردي؛ يتحسس دربه بالعصا، فيناقشون بإسهاب ما أملاه على خطاطه في كتابه «المشكلات على التفاسير»، يتجادلون، بين موافق ومنكر، وإذا ما أطنب الشيخ أيوب بن أحمد الحنفي الخلوتي عن رؤياه في ملاقة ابن عربي، أو تجلي رسول الله في منامه، ينبئه أن «طوبى لعصر أنت فيه»، طالبه البعض بالمشاهدة العيان لكرامات يدعيها عن سفره في زمن خاطف من مكان إلى آخر بعيد، انقلب مماًزحاً، قائلاً:

- أنقلني يا كركي من فضوليك الغرر الأشقياء هؤلاء، الذين يتغنون لكل كلمة برهاناً.

يسألون كيف للكرامات وهي من خيال أن تكون في قلب الحقيقة، فيحاججهم بما خطه في صحيفة عَنّونها بـ«ذخيرة الفتح، وعقلية التغريد، وخميلة التوحيد»، يشرح ويفسر ويطنب.

يحشد النقاش غالباً، ويُفسح فيه للاختلاف والتصادم، فيستمر ساعات حتى تغيب شمس النهار، وتوقد المشاعل والمصابيح، فإذا ما قال الشيخ الغزي خاشعاً:

- اللهم اجعلني من الصالحين، فإذا لم يكن، اجعلني من المخطئين، الذين خلطوا عملاً صالحاً بأخر سيئ.

تعجب الجلوس، وتبسم يحيى معقياً:

- أما الصالحون فمقامهم بعيد المنال، شاق المسعى، شديد على الإنسان، وما يصله إلا قلة، أما أصحاب النار من المثقلين بالمعاصي، فبعيدون عن أصحاب العلم الذين يتفكرون بخلق الله، وما كان الصحابة الأ خيار والتابعون والرهط الأكبر من المسلمين والمؤمنين، إلا من المخطئين، ولسنا بأحسن منهم.

فهم الجمع ما يذهب إليه من قياس مرن لا يلون العالم بلونين متناقضين وحسب، عقب أبو سندس:

- رضىنا، إذا لم يصبنا وابل، فطل.

فزع علان أمام تلك العلوم الكثيرة المعقدة التي يتم تداولها كأنها جزء من الحقائق أو درب إليها، وظن فتنة وراء ما يقال، وما يرفض أو يقبل، لكنه لم يفلح في تعميم فزعه، ولا في استقطاب من ضاع من مريديه؛ وإن نبههم، ولا أفلح في تأليب آخرين على الرجل؛ وإن حرضهم.

ما يقال في المجلس كثير متنوع، يتقلب بين حديث في الدين واجتهاد في الفقه، وأخبار وحوادث في الدنيا والعصر وما يحيط بهم ويؤثر في معاشهم؛ يستقطب المجلس جمعاً من شبان يتلقون جل علمهم تحت قبة النسري في الأموي، ويتأهبون ليصيروا معلمي المسجد المنتظرين، فيتباحثون في علم اللغة والحديث والفقه، ويحكى الأندلسيون ما يتذكرون من معاناة رحيلهم الجماعي من الأندلس، ويصف الجند أحوال المزارع التي أوكلوا بزراعتها، ويروي سبابة الجند رمة البسطاء ما كان من تشرذمهم، وتحول كبارهم إلى أعيان يتعالون عليهم،

وما صار من تجبر الانكشارية وفساد فرقها، وتسلطها على الناس والولاة لجني المال بلا حق، وإبطال فتاوي أئمة المسلمين حول الدخان وتعاطيه، لا عن تدبر للأمر، ولكن لصالح أمزجتهم، كونهم أكثر خلق الله فيه استمتاعاً، ويتبادل المهنيون تنفّاً من أسرار صنائعهم، ويضحك الزط والغجر من محبي الاستقرار الذين لا يعرفون متعة الحرية، فيفتحون باباً لتقليب فكرة الحرية على جوانبها، والحدود بين الواجب والمسؤولية، وحق المرء في الحرية بلا تبعية ولا قيود، ويناقش الجميع بعض ما جاء به ابن سينا في الطب أو علوم الأرض أو الفلسفة، ورحلة الإنسان من الفطرة إلى المعرفة، وما يقوم به أصحاب الطرق والمتصوفة والمشايخ من نقالات حادة وتقلبات بين الركون إلى القادة والأمراء، أو الانسلاخ عنهم، وما يثيره كتاب الفقيه الشافعي الحصني من لغط، وهو يكفر اليهود والنصارى، ويلحق بهم إلى السعير وبئس المصير المتصوفة على اختلاف توجهاتهم، وعلى مثل ذلك الوثوق يُخرج ابن تيمية الفقيه الحصني من الإسلام.

يقول يحيى:

- والله لا يعرف مخلوق أين يكون موقع قدمه اللحظة، من منا يملك أسرار الكفر والإيمان ليوزع الحسنات ويجازي بالسيئات ويمنع غفرانه، فيقيم قصور الجنة، أو مهاوي الجحيم؟ رب العباد وتديره وغايته، فوق كل ما يجادلون.

بدا كما لو أنه مجلس اجتهاد وتأمل، أكثر منه مجلس شيخ بأتباع مسيرين لا مخيرين.

البسطاء الذين حضروا جلسات العلم في مصطبة بستان الورد، استمتعوا بتلك المعارف التي يجري عرضها وتفسيرها، فلدى كل جلس تجربة عرف بها الحياة

من زاوية مخالفة، يتجمعون تحت سقف المصطبة، يفتحون كتاب الكون الفسيح، والتجربة الإنسانية على اختلافها.

أكثرهم اثارة للدهشة؛ رجل يرتدي ثياباً غريبة تضيق حول صدره النحيل، جاكيت بأزرار، وبنطال معلق إلى الكتف بحمالات دون حزام، يطلق لحيته وشعر رأسه الأشيب ويشذبهما ملطفاً منمقاً، يقدم نفسه باسم الوليد.

وصل الوليد قبل أعوام إلى دمشق من غرناطة، حيث كان يعلم الطب فيها، الرجل الستيني الشائب الذي لا يهتم لتهامس الجالسين حول طربوشه الغريب فوق رأسه متتهياً بشر شوبة خضراء، والذي جاء مرات واستمع صامتاً إلى ما يدور، ثم كشف عن معرفته وخبراته حين اشتكى زيدون من نفخة في معدته، فوصف له الدواء، وعرض مداوته، فظنوه عطاراً، ثم أكبروه، إذ علموا أنه طبيب جراح مارس علم اليد*، وعلم في شبابه في مدارس الأندلس في غرناطة، ثم انتقل إلى قرطبة، وأرغم مثل كثير من العرب المورسكيين على التنصر والامتناع عن الحديث باللغة العربية، أو اقتناء كتب بحروف عربية، غُيرت الأسماء، وبُدلت الأزياء، وساد الفزع بين الناس وهم يتعرضون لحملات الاعتقال والتشكيك والتفتيش، فمن عاند منهم وفر بناسه إلى كهوف البشارات في جبال الألب، لقي مصرعه على يد الأمير دون جون في مذبحه جماعية، في تلك الآونة السوداء المريرة، تخلص الحكيم الجراح عن اسمه، ثابت بن محمود الأندلسي، وتنصر متظاهراً بمفارقة إسلامه، مخفياً هويته حتى شاب شعر رأسه، وهو ينتقل عازباً وحيداً تحت اسم سيرجو لابروتا، فيضع علمه في خدمة أول المشافي الغربية في مونيبلية الفرنسية، ثم ينتقل يُعَلِّم الطب في باريس ولندن ولشبونة وروما، يرى

* الجراحة.

عجائب ما وقع في بلاد الفرنجة، ويدخل مشافيتهم ليعالج الجراح ويستأصل الأوجاع، ويقدم للغرب وزنة دقيقة لسائل مخدر، تركيبة من المورفين والزوان والسيكران، برع في تحضيرها منذ يفاعته، إبان دراسته في غرناطة، يلج بيوت الأوربيين نديماً وصديقاً، يتحدث بلغاتهم، وقد أتقن منها الفرنسية والإسبانية والإنجليزية وبعض الإيطالية، مما جعله في عداد الطبقة العليا، يسهر في قصورهم، ويراقص نساءهم، ويرتاد مسارحهم، حتى إن رجال لورد تشامبرلين* الفنانين، استضافوه بصفة شخصية لحضور عرض لشاعرهم وممثلهم الأول، شاب موهوب يدعى شكسبير، كان ذلك قبل وفاة ملكة بريطانيا العظيمة إليزابيث بعامين، وقبل أن يتولى الملك جيمس الأول المملكة الإنجليزية، فألهب خياله عرض عطيل*، ورده إلى الليالي العربية؛ رابطاً بينه وبين العليج علي فارس البحار الأسود الذي طبقت شهرته الأفاق.

عاش سيرجيو حياته يخفي طقوس الحمام، واسمه وكنية والديه، يتمتع بمزايا الطبيب الفذ كيفما ارتحل، حتى نسي هو نفسه من يكون، فإذا ما اختير في مهمة رسمية لمرافقة السبايا والعبيد من أولاد المسلمين من ميناء بلنسية، ووقف بين آلاف الصبية والبنات الأيتام الذين لم يبلغوا الحلم يبعدون عن الأندلس، راكبين سفينة البكانت إلى قشتالة، كي ما يصيروا عبيداً وخدماء وسرايا لكبارها وأساقفتها، ارتعدت فرائصه، وذلت روحه، كما لو كان هؤلاء أبناءه، دب فيه جزع وألم دفعاه إلى الهرب، فتسلل إلى شواطئ بعيدة وهام في البحر وصولاً إلى الإسكندرية، ومنها إلى صور، حتى أسلمته الدروب البرية وقوافل الحجيج إلى فيحاء الدنيا؛

* فرقة شكسبير المسرحية.

* مسرحية شكسبير الشهيرة.

دمشق، فطاب له العيش فيها، واختار حظ رحاله، واستراح؛ مطلقاً على نفسه اسم الوليد الأندلسي، فقد ولد في زمان جديد، وإن شاب شعر رأسه، ونسخ كل ما مضى من عمره، ليعيش في هداة على ضفة بردى.

تكتظ حكايته الغريبة بالموانئ، والسفن، والقوافل، والمدن، والناس، والأوجاع، والمغامرات، كأنها طالعة من كتاب ألف ليلة وليلة، عندما يتذكر ململماً أشلاء حكايته الشائكة، تجف حلوقهم، وتدمع عيونهم، يرقون، ويحدثون على بعضهم البعض، فيجاملون ذميهم، وزطهم وفقراءهم، مصابين بإحساس جماعي أن الناس كلهم على سفر.

المصطبة المسقوفة بالجريد والتراب الممزوج بالورد والعشب ورماد الحطب، صارت مساحة واسعة للتألف الذي لم تعهده المدينة، كما صارت موقعاً يتبادلون فيه أخبار العلوم الحديثة، فبعدما ناقشوا جراءة الأندلسي عباس بن فرناس الذي اخترع الميقات المائي، على الطيران بأجنحة من حرير، خبرهم الوليد عن رجل إيطالي موسيقار وعالم في الرياضيات والهندسة والطب، يدعى جاليليو، يقطن مدينة البندقية البحرية، اهتز فؤاد يحيى عند ذكر البندقية مثل ورقة الشجر في النسيم، ولاح طيف جمان في خاطره؛ دامعة تنتظر صك حريتها.

تحدث الوليد عن مخترعات جاليليو العظيم، جهاز صغير يقيس درجة الحرارة، وأنبوب رصاصي ضخم في طرفه عدستان، يراقب عبرهما الفضاء، فإذا به يقول إن الشمس مركز الأرض، وليست الأرض مركز الكون الكبير كما هو معروف في كتب الكنيسة، وإن الكواكب هي التي تدور حول الشمس في نسق محسوب، والقمر كرة تلف حول الأرض في ميقات، وما من أجساد مسطحة في المجرة، بل آلاف النجوم وعدد من الكواكب يمكنه رصدها عبر عدساته السحرية، فقد رأى عبر عدسته العبقريّة كوكب المشتري وله أربعة أقمار بديعة

تدور حوله، شهق الجلوس تعجباً، واستنكروا فعل الكنيسة الكاثوليكية التي ترى في كشوفاته ما يتعارض مع الكتاب المقدس للعالم المسيحي، فتحاكمه وترغمه على إنكار أقواله، وتضيق عليه أبحاثه ورزقه.

عمرت الحكايات المصطبة، وتنوعت؛ أغنت كل صاحب سمع وعقل، وأمتعت كل جالس، وجمعت نفراً مختلفين كما لو كانوا أصدقاء، أبوسندس الورد، وصانع الحرير زيدون الذمي، والطبيب الأندلسي الوليد، والفقهاء الشيوخ، وكهول المعلمين، وطالبي العلم من الشبان، وأشقياء الزط والحرافيش، وعوام الناس، وصبية الفابريكة، بدت المعارف التي يسمعون، والحكايات التي يسردون، أشد فتنة من القصص المكرورة عن عنتره، والوزير سالم، وأبو زيد الهلالي، التي يُسهر الحكواتي الرجال على حوادثها في المقاهي المنتشرة على سفح دمر الأخضر، وضفاف نهر بردى.

لم يكن المجتمعون في المصطبة غافلين عن الأيام السود التي تمر بها دمشق، فقد تعاقبت أيام ثقيلة الوطأة، عاث فيها الانكشاريون فساداً في الأسواق، تعمداً الظهور بكامل عتادهم وزيهم الثقيل وعمائمهم المزينة بالريش، وسياطهم الغليظة تتطوح في الهواء محدثة أزيزاً مخيفاً، ينوعون في عرض التحدي الذي اختاروه للاعتراض على فتوى تحريم الدخان المنتشر بين العامة دون ضوابط، تحدى الانكشاريون أئمة الجامع الأموي، وعدداً من الفقهاء والمفسرين الذين قاسوا على ما يفعله الدخان بالمرء من تضییع المال والوقت، وحبس الأنفاس وخفة الرأس، وتقليب المزاج بين حدة وانسراح، فوضعوا نبتة التبغ اللعينة في مصاف الخمر، أو يزيد.

اتخذ الانكشارية من مداخل الحوانيت أمكنة يستعرضون فيها تحديدهم العنيف لفتوى قاضي القضاة الشهاب أحمد بن يونس العيثاوي الشافعي، وصار لغط في الأسواق بين الدمشقيين الشافعية الذين مالوا إلى فتوى قاضيهم، ونفر أحناف من أصول عديدة استقروا في دمشق، مالوا إلى مراعاة الانكشارية الذين يتبعون الحنفية أسوة بالعثمانيين، لم يتوقف عسكر الانكشارية عن إزعاج العامة، وفرض سطوتهم، والتدخين جهاراً بأراجيلهم النحاسية نافثين أنفاسهم في وجوه المارة، متناولين الأكل والشرب المجاني من الحوانيت والبيوت، حتى تراجع المفتي عن فتواه، وأصدر فتوى أكثر مرونة وليناً، تفيد أن تبغ الدخان أمر لم ينزل فيه نص ولا تحريم صريح، وأنه نوع من التلهي لا يضر ولا ينفع.

مع ذلك؛ لم يغادر الانكشاريون أسواق وزقاقات دمشق مباشرة، إلا وقد استوفوا الإتاوات، وحملوا الغنائم، وتحرشوا بالولدان، وغيروا دروب سير الحمامين والبعالين، وصادروا من الحوانيت ما يعجبهم من جميل الصنعة ولذيذ المأكّل، عاودت الأسواق حراكها على حذر ومهل، وحزن في العيون والقلوب، لم تتبدد مخاوف الناس ويرفع عن كاهلهم عبء ما وقع، إلا ما قام به القاضي الشهاب العيثاوي.

أعاق الأوحال المسير في الأزقة والبيادين، مع ذلك؛ خرج القاضي الشهاب بموكبه صبيحة ذلك اليوم، يتفقد الأسواق والمصالح في إجراء غير مسبوق، لم يكن الموكب مزداناً كما هو أيام محمل الحج، كأنما لا يريد القاضي استنفاز وجع الناس وغيظهم، وما رافقته كثرة من المرافقين والحرس، فالناس نفروا من مرأى الجندرمة بزيهم وخوذهم وسياطهم وعصيهم، ولكنّ جمع قليل من الفقهاء التفوا حوله ورافقوه كأنهم يؤكدون على مكانته، خاصة أن معاندة فتواه حول الدخان؛ أفسدت عليه كمال سطوته وهيئته على العوام، وكان الانكشارية قد

حرضوا الناس من قبل على بدعة تعاطي القهوة، فصارت توزع في الاستراحات، كما لو أن العيثاوي لم يفت بضررها وسلبها عقول الرجال.

كان القاضي بحاجة ماسة إلى استعادة مؤازرة الشارع الشامي، ريثما يرتفع عجاج المشاكل التي ورطه الانكشارية في التصدي لها، فهزموه وقللوا هيئته، لهذا؛ عندما رأى الشوام قاضيهم بردائه الواسع وعمامته العظيمة بينهم، يسلم على صغيرهم قبل كبيرهم، يواسي جراحهم وجراحه، أبدوا الفرح، وتنحوا في الطرقات يفسحون له، وانحنوا وهم يسلمون ويتحلقون حوله، وزگرد الصبية الظرفاء، وأعد البعض عرائض في احتياجات لهم، وهجم المهنيون يقبلون كف القاضي فيسحبها خجلاً متواضعاً، ومن زقاق جقمق دخل إعلان وصحبه، ضارين دفوفهم، مطلقين الأناشيد في حب رسول الله، ترحاباً بالقاضي، حامي العقيدة والدين، واحتشد الناس ينظرون، دار إعلان حول نفسه مطيراً عباءته في المساحة الضيقة التي يسمح بها احتشاد الفضوليين، والملاك، ورفاق القاضي وصبية المهنيين، صاح إعلان مرات متتالية: الله.. الله.. الله...

ظل القاضي مبتسماً رغم ضيقه، إذ استغرق عرض الدراويش وقتاً طويلاً يفضل لو منحه لتجار السوق يعرضون شكواهم ومشاكلهم، فيعدهم، ويحل لهم ما تمكن من حله، ويناقش مطالبهم، فينال رضاهم وثقتهم، ويستعيد مكانته في نفوسهم.

أنهى الدراويش عرضهم في منتصف النهار، فتحرك ركب قاضي القضاة مغادراً، وتبعه شيخهم بدأب لحوح، إلى أن سنحت له فرصة الاقتراب من القاضي حد الكلام المباشر، همس علان:

- أطل الله عمركم، في القلب غصة مما نرى، وعندنا أمر نشكوه لك.

أطنب علان في همس كالضحك بما يقع من تجاوزات في بستان الورد، وما يقال فيه، وما يكون من تنطح على العلم والفقهاء، فكأن لا فتوى تعجب الصحب المتجمعين من كل واد، فقراء وأغنياء، علماء وأشقياء، مسلمين وذميين، على كل مذهب، ومن كل طريقة، مما يجعل أمر الاجتماع مريباً ينذر بفتنة، فما الذي يأتي بالخباز الشافعي، ومحمد الأسطواني، ليجالسا الشيخين الأشيبين، الغزي، والقبردي؟ عدا عن التحاق الملا الكردي الذي يضيع باب بيته إذا خرج إلى المسجد لضعف بصره، لكنه باعجوبة يعرف درب بستان الورد جيداً! وكيف يتواضع شيخ مثل الخلوتي وهو يرى نفسه زينة عصره، صاحب الكرامات العظام، فيحضر مجلس الكركي كتلميذ، وقد بلغ من العمر أُرذله!

حاول علان زرع الشك في فؤاد القاضي الذي استمع بصبر وأناة، وظن أن جل ما ورد من أسماء هي لنفر يعرفهم، ولا يسيء بهم ظناً، لكن علان واصل فحيحه لافتاً نظر القاضي إلى انزواء مكان اللقاء حيث لا يمكن السيطرة عليه، لا من أعوان القاضي، ولا من درك المدينة، فكأنه بهذا أقام منبراً ينافس فيه قبة النسر، ويقلل من شأن منابر المساجد المعروفة التي تدعو الناس للخير، وتعلمهم ما احتاجوا من علوم.

نجح علان أخيراً في اقتناص اهتمام القاضي، وإن كانت عينا الأخير تبرقان بفهم حذر، قدر أنه يسمع وشاية رجل حاسد غيران، يخشى منافسة زاوية لزايته، لم يسترع انتباه القاضي إلا خطورة انعزال الزاوية في مكان قصي يجري فيه اجتهد على الفقه والدين، ثم وقد أصابه الملل، واستطال غيبته عن مهامه، واستعجل الانصراف، وبحصافة ما تدرب عليه عمرأ في إخفاء أفكاره وانفعالاته، والجهر بما أراد، وإبطان ما لا يريد منها، همس مطمئناً الشاكي أنه سيبحت الأمر، ويقطع دابره، ثم بقصدية، أضاف عبارة أفلقت علان وهو يعطيه ظهره سائراً:

- لا تشغل بالك فيما لا يفيد، وانصرف لمصالح مرديك يا شيخ، ثم إننا لسنا في وقت مناسب لنكش أعشاش الدبابير.

لم يكن الوقت مناسباً لأشياء كثيرة تقع في الفيحاء، فالناس الذين وقفوا في سوق جمجق قامة لقامة مع القاضي عند نزوله إليهم، فارقه، وانقطع عنهم، ولم يعد بإمكانهم ملاقاته، والأوامر تعمم في الأسواق على الحرفيين، للدخول في اختبارات وتصفيات لمن سيرسل منهم إلى القسطنطينية ليعمر مسجد السلطان أحمد في إستانبول، لم يكن الأمر اختيارياً طوعياً، ولا كان مجزياً مغرياً لفقرائهم، وقد نزل رسل السلطان الأسواق مزودين بقوائم لأسماء أبرز الحرفيين في النقش على الحجر والنحاس والمرمر، ومزخرفي الموزاييك، وطارقي النحاس، وخطاطي الحروف، والنجارين وصناع الجلد والورق والصباغين المهرة، بل ناسجي الحرير والدمقس، والطباخين، والعطارين النبهاء؛ يُدفع هؤلاء إلى خيام ضربت عند قاسيون، يقبلون كما تطلب السائمة، وتُدرس إمكاناتهم الفنية، ووضعهم الصحي، وقدرتهم على الاحتمال والمشقة، دون مراعاة لأحوالهم الأسرية ومسؤولياتهم الحياتية وخياراتهم، يمنحون وقتاً قصيراً لجمع حاجياتهم، والالتحاق بمن جُمع من الحرفيين المصريين والأتراك، كي يكون المسجد، الأثر الخالد الذي يريده السلطان لنفسه، نتاج عبقریات الشعوب التي تدين للعثمانيين بالخلافة.

تهامس صحب الكركي بما يحدث في الأسواق، ثم صاروا في قلب الحدث، عندما جاء حنا إليهم.

توهجت جمرات المنقل النحاسي الأنيق المرفوع على ثوابت طويلة، الذي يتوسط المصطبة ناشراً الدفء بين الرجال، تخففوا من معاطفهم المبطنة بفراء الخرفان، وعباءاتهم الوبرية الثقيلة على أكتافهم، وهم يسمعون مجادلة جعفر وزيد

والوليد حول شراب الزنجبيل وفوائده في البرد، ويضحكون لما يخالط العلم من جرأة العطارين والعلماء على التكلم بفوائد الزنجبيل للجماع ومواقعة النساء، حين دفع الباب صبي اتسعت حدقتا عينيه، لينقل تعجبه إلى الحاضرين، صائحاً:

- هناك زائر.

انشق الباب واسعاً وراءه، فداهمهم ريح بارد وضباب، واهتزت النيران في المنقل، وكادت تخبو، ثم تبين في غبش الضباب، جسد نحيل ممشوق مسربل بالسواد، عاري الرأس تماماً، خالٍ من الشعر، وإذ تقدم أكثر، دار الصبي يعيد غلق الباب خلفه، فانقطع الهواء والضباب البارد، وتأججت نار الموقد مجدداً، عندها؛ شاهدوا الصليب الخشبي على صدره بوضوح، وقدروا لالتصاق ثوبه بالجسد، أن مطراً لحقه في طريقه إليهم، كانت رؤية الراهب في مجلس يحيى مدهشة، وإن تعودوا حضور المسيحي واليهودي، إلا أن المجاهرة بالصليب على هذا النحو، وبمسوح الرهبان الرسمي ما كانت مسبوقة، الشاب المتعب الذي تكلف مهمة الطلوع ماشياً من كنيسة مار إلياس في قلب السوق إلى مكانهم، مسح وجهه بكفه وتنهد، واقترب.

لم يكن الراهب حنا بن زيدون يظن أن هناك فرقاً سيحدث في مجيئه إلى مجلس العلم الذي حدثه عنه أبوه كثيراً، كان يعلم أن اسم والده أدرج في سجلات المهندس محمد آغا الذي يجمع أهم الحرفيين من المدن العربية تمهيداً للبدء ببناء مسجد السلطان أحمد، إلا أن النساج اختفى، لم يعد زيدون يرى في السوق ولا في البيت، كذلك في بستان الورد، أثار الراهب الشاب اهتمام الجالسين بمخاوفه وحيرته، وتردده في نشر فتیان الكنيسة للبحث عن أبيه بعيداً عن أحياء المسيحيين، أراد الاستعانة بصحب أبيه؛ سرعان ما نسوا رقة حاله، وصلبيه الكبير المعلق على صدره الناحل، وتشاوروا في أمر العثور على رفيق جلساتهم ومؤنسهم ناسج

الحرير الودود الذي رعى يحى وعلمه في أول زمان إقامته في المدينة، وُزع الصبية على الحارات والأماكن التي يُحتمل وجود الرجل فيها، وزار أبوسندس الكاتب المكلف بجمع الحرفيين، لمعرفة إذا ما كان النساخ قد غادر إلى الحاضرة العثمانية حيث سيقام المسجد على مضيق البوسفور.

لم يكن اسم محمد آغا الصداغ، مهندس السلطان، غريباً عن الدمشقيين، ولا اسم أستاذه العظيم سنان، فقد زار كلاهما دمشق فيما مضى، وبني سنان جامع السلطان سليمان، وتكثته فيها، وحفظ الناس اسم آغا وهم يتحدثون عن تجنيد الحرفيين في بناء مسجد السلطان، فهو من أراد منافسة كنيسة آيا صوفيا، بفن المعمار، وهو الذي بُعث إلى مكة، فكسا الكعبة بصفائح الذهب، وركب لسطحها مزارباً ذهبياً، وأحاط أعمدة الحرم بحلقات من المعدن الأصفر النفيس، ورَّمم قباب المسجد الحرام، وقدم للمسجد النبوي مأذنة إضافية هدية السلطان، حتى لا يقال إن السلطان أحمد تطاول على مسجد النبي بزيادة عدد مآذنه، وقد أشيع أن مسجده على ضفاف البسفور سيزود بست مآذن رشيقة شاهقة مزخرفة، فلا يشبه أي مسجد سبقه، ويصير تحفة للناظرين في الجمال والتناسق.

لكن الكاتب الموكل من المهندس العبقري، الذي أشعل ناراً في خيمته، لم يثلج قلب الورد؛ أكد أن جمهرة الحرفيين لم يغادروا بعد، وإنهم ما زالوا في فترة السماح التي تتيح لهم ترتيب أوضاعهم في بيوتهم وحوانيتهم، وإنه لم ير الذمي منذ أول مرة سجل فيها اسمه، وبلغه فيها بالاستعداد للرحيل، كما هدد بإشارات مبطنة تفيد في ما إذا كان الذمي يحتال تهرباً من الرحيل؛ فإنه ملاق عقاباً صارماً، إذ لا يستحسن التلاعب بتكليفات السلطان الأعظم.

عاد الرجال صفر الأيدي مخذولين دون خبر، ولم تسفر أبحاث الفتیان عن أثر لزيدون، لكنها لم تتوقف، ازداد قلق حنا، بعث غياب أبيه على هذا النحو أفكاراً

سوداوية لا تنجح تأملاته وهو الراهب في التخفيف من وقعها على النفس، فإذا ما غابت خمس شمس، وحل اليوم السادس، ظهر الراهب مجدداً في المجلس رث الهيئة كسيراً، مخبراً عن العثور على والده، جثة جرفها ماء النهر البارد في الغوطة حتى اصطدمت بفرع تدلى من شجرة جوز ضخمة عتيقة تعارض المياه، وتعلق ما يمر عليها من أعشاب ومخلفات، لم يكن من السهل التعرف على الجسد وقد لحقه خراب سريع بسبب الماء الذي حمله إلى اليابسة، والطحالب والحشائش التي غطت جسده، والأسماك التي نقرت وجهه، وضياح صليبه وعمامته، وإن تم العثور عليهما فيما بعد مرميين تحت أكمة أشجار الرمان، وقد كُسر الصليب الخشبي، ونُثرت محتويات الجيب من العمامة، وقطعت شهادة الجبابة التي يحرص زيدون على اصطحابها كيفما سار دلالة على دفعه جزية الذمي دون تأخير.

تجمع الصحب في البقعة التي عثر فيها على الرجل، ونظروا عليهم يعثرون على أثر لقاطع طريق، أو سارق، أو عدو، فقد ضُرب زيدون ضرباً مبرحاً، وفُج رأسه بألة غليظة صلبة، وسُرق جرابه الجلدي المعلق في زناره، كان من الأكيد استحالة أن يكون المعتدي فرداً، أو نفراً قليلاً من قطاع الطرق المتاعيس، إذ تركت حوافر الخيل الكثيرة في المكان دلالة واضحة على جمع كبير، وما كان للبسطاء امتطاء الخيل على تلك الصورة الكثيفة قرب ضفة بردى، ولكن تلك الآثار تماثل الآثار التي تركها حوافر خيل الانكشارية الثقيلة والمحملة بالرجال والعتاد.

ساد الأسى قلوب الرجال؛ يقلبون الأمر فلا يجدون منفذاً، لمن الشكوى وليس هناك من دليل؟! وكيف يكون للذمي حق والناس منصرفون إلى حقوق لا يحصلونها؟! خرس يحيى ذاهلاً، حزن لخسارة الرجل الذي رعاه واصطفاه، واستعاد كلمات برهان شيخ زاوية العميان في الأزهر عن دنيا يسود فيها الجور،

وفيتري فيها القادر على من لا يقدر، فلا يقام عدل، ولا ينصف مظلوم، أصابته
لوعة شككت بكل ما يعيشه من فكر وتعبد وخلوات وتعلم، لم يكن غريباً سماع
بكائه في الليل وصوته يتهدج مشدداً:

- إلهي... تعطف يا رؤوف بموقفي.. عند بابك العالي مقامي ووقفني...
إلهي يا من لا يجاوزه الرجاء، ولا تتعداه ظنون الخليفة... إلهي... يا منتهى
خوفي وغاية خشيتي.. ارفع طمعي إلا منك... وافرح منه روعي
وروعي،.. أبشك من سري ضميراً علمته.. خشوعاً.. فأؤمن يا رؤوف
مخافتي..

اختنقت آهات حنا وهو يسمع إجهاش الرجال بالبكاء متواصلين مع نشيد
يحيى، وتذكر مكلوماً ما سمعه يوماً من والده حول الكركي الذي اصطفاه مثل
ابن، وأحب لو يورثه صنعته، فيبقى على حانوته في حارة الحرير.

أراد الراهب مخلصاً ترك أمر الحانوت ليحيى ينظر فيه، ويديره كما يشاء،
عملاً برغبة والده ونيته، لكن الكركي رفض بكياسة، أشار عليه الصاحب بالقبول
لغاية وقف الحانوت على فقراء المسلمين، لكنه أثار حيرتهم، وهو يرد عطاء حنا
ويساعده في تدبر أمره، ويدله على أسماء صبية نابغين في النسج ليتولوا تشغيل
أنوال زيدون، على أن يمنح ريع نتائجهم للولد ينظر فيه، يأخذ حاجته، ويعطي ما
تبقى لمدرسة الأيتام الملحقة بكنيسة مار بولس، اختلفوا فيما إذا كان يحيى محقاً
بمنع الوقف عن المسلمين وإعادته للنصارى، ثم تبنوا الحق في فعلته، وعدالة نقل
إرث زيدون الذمي لملته وطائفته.

طال أمد الكدر والحزن في المصطبة، وتعددت الحكايات عن بطش وجور
أعوان السلطان وجنده، ومظالمهم في عرض البلاد وطولها، وسيرة السلطان

الصغير في إستانبول وهو يحاول جاهداً إطالة قامته أسوة بالسلطين الأوائل، فيعظم من العمران، مخفياً ضعف دولته بوجود يصل حد الإسراف.

لم يتم السلطان العثماني أحمد الأول التاسعة عشرة من عمره، كان محاطاً بأمر عنيده، وجدة في مقبلة الكهولة قوية الشكيمة، تشد كل واحدة ذراعه في اتجاه، إضافة إلى مستشارين قصيري النظر، وانكشاريين شرهين لا يشبعون من مال ولا سلطان، وحروب طاحنة في الشمال والشرق.

حتى معاهدة الصلح «ستفاتوروك» التي أبرمها مع النمساويين لم تترك صدى يذكر في دمشق، فأن يحكم العثمانيون قبضتهم على البوسنة وغرب الدنيا، أمر لا يعني بسطاء الشام، ولا يواسي وجع حنا الذي قُتل أبوه وما أنصفه أحد، ولا يقدم حلاً للحرفيين الذين سيُهَجَّرُون إلى إستانبول تاركين ديارهم وعيالهم، ولن تعفيهم المعاهدة من هجمات رجال المكوس والوكر والانكشاريين الطماعين الذين يتلاعبون بقوت الناس، أما معاهدة إستانبول للصلح مع الصفويين في فارس، وإن تسببت في هدنة، فإنها لم تكن ذات بال، فالناس شكوا باستمرارها لكثرة ما تقلبت من معاهدات مزقت وتجاوزتها الحروب، في حين رمى البسطاء وراء ظهورهم سنوات العدا مع الشيعة، تلك التي كان أوجهها في عهد بعيد إبان حكم صلاح الدين الأيوبي، لكنها ظلت تجر ذيولها في حرب طاحنة ممتدة زمنياً طويلاً في شرق آسيا، بدا المجتمعون في المصطبة أكثر تخوفاً وخشية مما يجري من فتن داخلية، في حلب أو لبنان، وما يصل أخباره من بطش ومطاردة ومظالم لا تنتهي، ليس آخرها الحملة التي هزت جبل لبنان حين حوصر الأمير الدرزي فخر الدين المعني وأنصاره من مسيحيين ودروز.

شعر يحيى بمخاض الدنيا الصعب لولادة الأفكار، ويرغم اشتداد عوده، وإحساسه بقدرته على مناكفة المفكرين وجدالهم، وامتلاكه رؤية رحبة سمحة

للحياة، عكس حاله حين فر من المحروسة إثر مأزق لم يتسلح له، وما كان بمقدوره الثبات فيه، إلا إنه خاف كسر أرواح جفت وهو يحرض الناس ويحملهم ما لا طاقة لهم به.

بكل الخوف الذي وقر قلبه راح يحيى يسمع أكثر مما يقول، ويقلب شؤون المظلومين أكثر مما يفعل لنصرتهم، وهو الغريب.

فكلما ضاقت به سبل الإحاطة بما يدور، وسقط قلبه في مهوى الألم، ردد قول ابن الفارض:

وجهٌ تعدد في المرائي	وبه تحير كل رائي
فالكائنات بأمره	موج على صفحات ماء
والأمر أمر واحد	فيه التقارب والتناهي

صار قطرة في الموج العظيم، يهرع إلى عزلته، يجلس في خلوة منتصباً وقد دلى ذراعيه، وشهق حابساً الهواء في صدره، ثم شد جسده واسترخى وزفر الهواء.. بعد صمت طويل، يعلو صوته متمهلاً في ترجيع خفيف:

- يا من له رنت الوجوه بأسرها، وله جميع الكائنات توحده، يا من له وجب الكمال.. وجب الكمال بذاته، إنك تشقي من تشاء وتسعد، ربنا.. رب القلوب، ربنا إليك أنبنا، أجرنا من نار دنيانا، ومن حر السعير...

تبعث حلاوة الصوت الخشوع في قلوب الجالسين على المصطبة، يأتيهم صدى الكلمات متناغماً مع صوت الريح التي تمر بين الحجرة المغلقة وموقع جلوسهم صامتين؛ يذرفون الدمع في دعة، ثم يعاودون حمى المجادلة حول واقع ثقل وخوف جاثم.

انتشر الانكشارية بهراتهم الثقيلة على طول الممر الذي يقود إلى ساحة مسجد أمية، فظن المارون أنهم خارجون من صلاة الفجر، إلا أن أحذيتهم الثقيلة تشي بتحفظ أمني، لا مشوار عبادة، ولم تكن الشمس قد صعدت في الأفق بعد، حين راقب الانكشاريون صبية الكنيسة يماشون الراهب حنا، وفي لحظة مثل خطف البصر، رفعوا عصيهم وضربوا الصبيان، ففر من فر، وعلق الصغار منهم، وجُرَّ حنا مسحولاً خارج السوق، أما التجار الذين فوجئوا بالواقعة، فقد ران عليهم حذر وخوف، تبادلوا النظرات زائغة، ثم حلوا أقفال حوانيتهم متعوذين من الشيطان متحسرين، ودلفوا إلى مأمئهم والجند ينصرفون دافعين أو جارين من قُبض عليه من الصبية أمامهم.

وصلت تفاصيل الحادثة إلى أبوسندس أولاً، فقد بكر بالمجيء إلى الساحة برفقة زيد قبل رفع البيع، يقصدان اختيار مسبل حريري لخولة التي أعلنت أنها حبلى، وإذ هُمس لهما بالخبر المفجع، نسيا أمر شراء هدية الخال، ووقفوا في غيظ ينتظران وصول يحيى الذي وافهما خالي البال عما جرى. علم، فاربذ وجهه، لكنه لم يرافق أبوسندس الذي اعتزم الإتيان بنقيب دمشق والذهاب إلى القاضي شاكيًا ما حل بالراهب دون جريرة وهو المكلم أساسًا، أكمل يحيى صامتًا سعيه إلى المسجد الذي بدأت فيه استعدادات صلاة الجمعة.

مر المصلون به مقبوض الفؤاد، لم يعد في نفسه متسع للصبر على المظالم، اتخذ له ولزيد وجعفر وآخرين تبعوه مكانًا في نهاية صفوف المصلين الذين احتشدوا في صحن المسجد تحت السماء الزرقاء التي يلعب فيها غيم قليل لا يعد بالمطر، لاذ بعضهم بالظلال تمددها الواجبة المحلاة بالفسيفساء، بينما تمكن الذين جاؤوا مبكرًا، أو من كانوا من الأعوان والأغوات من احتلال الصفوف الأمامية خلف الإمام، تحت السقف الخشبي المزخرف، وقد سقطت على

وجوههم لطخات ظلال أضواء هندسية كأوراق الشجر، مخرمة، ملونة، تنعكس من النوافذ الزجاجية الملونة والمثبتة على الجص في نوافذ الحرم.

اتخذ المصلون أماكنهم وسوا صفوفهم، رفع يحيى رأسه من سجدة تحية المسجد الأخيرة، والدموع تغمر وجهه، وعيناه مسبلتان على وجع، سلم يميناً وشمالاً، فمد جعفر ساعده يعينه على النهوض وقد أعياه ألمه، واتخذ الإمام موقعه في المنبر يستعد لخطبة الجمعة، لم تفارق عيون جعفر وزيد وجه صاحبهما الذي بهت لونه وارتعشت شفتاه، إلا أنه لم يكن غافلاً عن تدبر كلمات الإمام وقد شرع بعد حمد الله، والصلاة على نبيه بالحث على التقوى، والطاعة، والزجر عن المعصية، حتى قال:

- عن ابن يحيى بن أسعد قال: قال رسول الله: من سمع النداء يوم الجمعة فلم يأتها، ثم سمعه، فلم يأتها، ثم سمعه فلم يأتها، طبع الله على قلبه، وجعل قلبه قلب منافق.

وجفت قلوب المصلين، وارتعدت فرائضهم، ورفع يحيى كفيه المكتفتين فمسح دمه، وفتح عينيه مستذكراً حديث البخاري ومسلم حول صلاة الجمعة، عن رسول الحق، قال:

- فيها ساعة لا يوافقها مسلم وهو قائم يصلي، يسأل الله شيئاً إلا أعطاه. بحث يحيى عما يسأله من كثير كثير يبتغيه ويرغب في نواله، ثم استحي أن يقف بين يدي الله متسولاً وقد غمره بكرم ونعيم الحياة، رفع انتهاء الخطبة السكينة المرة عن قلب الرجل، وأعاد له غضبه، كان الإمام يختم خطبته بالدعاء المعتاد للسلطان:

- ربنا انصر سلطاننا، الحضرة المقدسة، والسدة التي على الجهاد والدين مؤسسية، سدة مولانا السلطان الأعظم، والخاقان الأفخم، مالك ممالك

العرب والعجم، ومجئى الخلافة العظمى، والحصن الحصين الأحمى،
المؤيد للدين الحنيف، الذي علا نجمه على الملوك، وأضاء بدره
الحلوك، ونام في ظله الغني والصلعوك، سلطان البرين، وخاقان البحرين،
صاحب الممالك الرومية، ومصر والشام والعراق والحرمين، السلطان ابن
السلطان*.

وقف يحيى وانفلت من المسجد مخترقاً الصفوف، لافتاً الانتباه، تبعه
صاحبا في عجب، فمأرد على سؤالهما، هرول مجتازاً صحن الشام وأسواقها
متوجهاً إلى حجرته، وقد كف صاحبا عن الإلحاح بالسؤال وتكرار الاستفسار
عند منتصف الدرب، لكن القلق لم يفارقهما، دخل يحيى حجرته وأغلقها وراءه،
بينما وقفا حائرين مقطوعي الأنفاس لطول المسافة وشدة المشقة التي تكلفها.
لا توجد أسباب تفسر فعل يحيى في مغادرة الصلاة فور انتهاء الخطبة، لم يكن
هو نفسه معنياً بتوضيح أسبابه لصحبه، لكنه انثنى إلى قرطاسه الكتاني، وأخرج
ريشته الحبيسة في جيب من الجوخ، غطها في دواة الحبر، وكتب:

- بسم الله الرحمن الرحيم، إلى قاضي القضاة، حامي حمى شريعة
المسلمين في معاشهم وعبادتهم، في دمشق الفيحاء، مولانا الشيخ شهاب
الدين أحمد بن يونس العيثاوي الشافعي؛ وقد سمعنا عن حذبكم على
الناس، وتجو الكم بينهم تتفقدون فقيرهم، وتواسون مصابهم، وعلمنا
بوافر علمكم، وميزان عدلكم، فإننا يقض منامنا سؤال لو تحييون عنه، لما
كانت حال المسلمين كهذه الحال، ضعفاء أذلة، وقد وقفت على ظلم
أولي الأمر لمن لا يملكون الأمر، الذين يدخلون بيت الله في المسجد

* ختام خطبة الجمعة في الزمن العثماني الأول.

الأموي، يصلون، ويدعونه رجاءً وأملاً، يبتغون فرجاً ومرضاة على صبرهم ويؤس حالهم؛ فما غيّر مولانا الإمام وهو يخطب في صلاة الجمعة قوله وما اعتاده من مرصوص العبارات، وقام يدعو كما هي الحال دائماً لسلطان البلاد العثماني، ويهبه صفات المؤمنين العارفين، وينزّهه، ويرفع مقامه، ويقدم له الولاء الخالص دون شرط! فكيف هذه الحال يا مولانا ترضي الله ورسوله؟ وهل تصح الدعوة للسلطان الجائر على منابر الهدى؟ وفي موقع الدعاء والتقرب إلى رب العباد؟ وهل تجدد بيعة المسلمين لمن ظلم، وأفقر، وبطش؟ هل لأفواه الأئمة أن تباع دون إجماع العامة المظلومين وموافقتهم؟ إنه السؤال الذي يمزق الروح ويدمي الفؤاد، فكيف بنا فاعلون؟

«يحيى أبو بكر عيسى الكركي»

مثل جعفر بين يد القاضي يرتعش، كان الحرس قد أطالوا وقوفه عند باب المحكمة النورية، ودخل متخاصمون كثر، وخرج مكبلون بالأصفاد يصيحون مدعين البراءة، وتبعهم مفرج عنهم يغنون ويعلنون عدالة القاضي في حقهم، وتتابع دخول وخروج قضاة وولاة، وفقهاء، وعسكر، وأصحاب حاجات، وهو واقف نهراً كاملاً يحمل رسالة يحيى، لا يرده عن تسليمها طول تجاهل لوقفته عند الباب؛ لم يتيه إلى صبره أحد حتى قارب الوقت غروب الشمس، وانفض الناس تباعاً، وسأل قاضي القضاة عن الرسول بالباب، ثم قلب عينيه محاولاً تذكر المكان الذي سمع فيه اسم يحيى الكركي، فتمثلت صورة الدرويش علان يهمس له في السوق بعد فتنة الانكشارية، راجع نفسه في تلك الوشاية التي بدت صادرة عن حسد وضغينة، ودفعه فضوله لإدخال الرجل عليه، لكنه ما إن انتهى من قراءة

الكتاب، حتى داهمه الغضب، ورجح أهمية الشكوى التي تجاهلها في الماضي، وأكدت له الكلمات المطلوبة أنه يتعامل مع رجل يفتعل المشاكل، ولا يتوانى عن الخوض في ما لا يعنيه ولا يخصه.

فكر القاضي بحبس جعفر، ظن أن مثل هذا الإجراء كفيلاً بإقراء الكركي رسالة موجزة وحاسمة تعلمه عدم التطاول على ما لا يتعلق بشأنه الخاص، لكنه عاد عن تفكيره بسرعة، ورجح أن تحجيم الرجل يتم ببساطة ودون إحداث ضوضاء لا مبرر لها، قال لجعفر بحسم واضح:

- ارجع لصاحبك، وأخبره أنني أنتظره ولو دخل علينا الليل، دعه يأت إليّ هذا المساء، ليحضر وحده، تفهمني؟ لا أريد مرافقين، لسنا في يوم عيد.

أسرع جعفر يوصل الرسالة للكركي، وحرص القاضي على استكمال معلوماته عن الرجل، قالوا له: إنه يُكفّر الفقيه تقي الدين الحصني الشافعي، ويعيب عليه إقامة زاوية له في حي الشاغور، وإن كان ينفر من أفكار ابن تيمية، فإنه يجادل في أحقية الحصني الذي يحمل على ابن تيمية، كما يحمل على الصوفيين، وإن الكركي المذكور لا ملامح واضحة له تضعه في مقام الصوفيين المتعطلين، ولا أولئك الورعين، لكنه يجمع حوله طوائف ونحلاً وبشراً لا يجمعهم جامع، ويلم معهم فقهاء وطلبة علم ولغة ودين يعتنقون منهجه في الشك، يراجعون كل ما توارث عن الأسلاف، وما لحق به الناس وأقروه، يصير تلامذته على شاكلته، وهو الذي لا يعجبه العجب في شؤون البلاد، رغم كونه غريباً قادمًا من حوران أو عجلون، تسري الشائعات بخلافه مع شيوخها، وفراره من أحكام استحققت عليه، كل ذلك التناقض في التصور؛ جعل القاضي العشاوي يحمل عليه قبل ملاقاته، ويتنظره بهدف قياسه وضبطه.

لم يرض صاحب يحيى عن رسالة القاضي، خاصة طلبه بذهاب يحيى إليه فرداً، تخوفوا ونزلوا من بستان الورد برفقته، ثم اختاروا مكاناً آمناً عند باب المدرسة النورية مقدمين قارورة من شراب الورد للحارس الذي وافق على مسامرتهم، وصاحبهم يقطع الدرب إلى المحكمة للقاء قاضي القضاة.

تأمل العيثاوي الرجل الذي دخل عليه بتحية الإسلام، أسمر، نحيل، مربوع في ميل إلى طول، ملتج، في وجهه لطف، وفي عينيه انصراف عما يحيط به من أهبة المكان وفرش وعتاد القاضي وحرسه، في مشيته ثبات وتواضع، لا يرتعش مثل صاحبه حامل الرسالة، مستكين كأنه نذ للقاضي، لا يشعر بهيبة لقاء الرجل، الأمر الذي يجبذه العيثاوي في العلماء؛ إذا ما خدم أهدافه في ضمان سكون الناس وانسياقهم معه، ويكرهه في خصومه؛ إذا عني إخلالاً في طاعة نواهيته وأوامره.

في ذلك المساء لم يشعر العيثاوي أن ندية الرجل تريحه، بل تعيب سلطته، وتقلل هيئته، قال على نحو ساخر:

- مرحباً، مرحباً بمن أعطى نفسه الحق في مطاولة السلطان، وحكم عليه بصفات البطش، وتمنى حرمانه من دعوة المؤمنين.

عندها أيقن يحيى أن استدعاء القاضي لم يكن للسمع أو التشاور، لكنه لم يتراجع عما انعكس في وجهه من ثبات، قال:

- إنما مارست حقي في السؤال، واستنكار ما نحن عليه.

دار الحوار بين الرجلين كراً وفراً، وتراجع القاضي عن سخريته كأنه يشاور ويناور، سألهم عن مجتمع في مجلسه من شيوخ وأعيان ومساطيل وذميين، فلم ينكر أحداً، تعجب القاضي من التقاء الطنيني والإسطواني، والغزي، والقبردي، والكرددي، والخلوتي، في مجلسه، ورأى الكركي فيهم خير فقهاء الأمة علماً وأوسعهم اجتهاداً، لا يعيون ولا يعابون.

فإذا لامه في ما يقال في مجلسه من تكفير الشيوخ والعيب في الزوايا، والإشادة بالتصوف، رد بإعلاء شأن العمل، دون تصوف متعطل، مع الوصول إلى نشوة المتصوفة في معرفة الذات الإلهية، وتواضع الفكرة حتى لا يحق لامرئ تكفير سواه، ولو اختلف في المذهب أو الطائفة أو الرسالة، دافع عن حق كل عاقل على اختلاف مقامه وثرائه، وعلمه وذمته، في حضور مجلس العلم، أسوة بمن يعلوه ويتقدم عليه، دون تفرقة ولا طبقات ولا مراتب، وجادل في قدرة قاضي القضاة على محاسبة الانكشارية في مقتل ذمي، أو القبض على راهب أعزل.

قارب يحيى بعض ما قال الشيوخ من الأئمة الأربعة، أو السلف، أو الذين حصلوا على إجازات تفيد بعلمهم وتكرسهم فقهاء، وجادل فيما لا يخاطب العقل، فلم يأخذ منهجاً كاملاً مسلماً بجمل أمره، محيلاً كل شأن إلى عقله ليختار ويفاضل، مستخدماً حقه في الاجتهاد، فإذا ما ناقشه القاضي بمسألة الفتنة التي تنجم عن مشاركة أهل العلم، ومقارعة أهل السلطان، فإنه لا يلين.

لم يكن العيثاوي صبوراً مثل تلك الليلة، وإن ظن أن عليه حشد ما يحفظ من معارف لمواجهة الرجل العنيد في دقة حفظه، وسعة خياله، واقتداره على المنطق وإعمال الفكر، والذي يحلو له تفنيد كل رأي، قال القاضي مقطباً جفنيه كما لو كانت الرؤية عسيرة أمام ناظره:

- أَلَمْ تسمع حديث ابن عمر رضي الله عنهما: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: على المسلم السمع والطاعة فيما أحب وما كره، إلا أن يؤمر بمعصية؟

قال يحيى:

- إنما نجاهد النفس لتصل إلى الحق، وليس الحق ما تعلق بتلك النفس
الفانية فحسب، ولكن نريد العالم فاضلاً، ينعكس وجه الحق في مرآته،
فكيف لنا إذن أن نشوّهه أو نسكت على من يعيث فيه إفساداً؟
قال العيثاوي:

- ليست هذه مهمتنا، نحن نتحدث تحديداً في عدم جواز التناول على
السلطان، إن نفسه منزّهة معصومة.

عندها، نظر يحيى في عينيّ العيثاوي نظرة تشكيك طويلة، صامتاً، فانقطع
الهواء في صدر القاضي، وأشاح بناظريه عن مواجهة الكركي، وتنفس نافذ الصبر
كمن أصابه الملل، قال ملوحاً كفه اليمنى مقبوضة إلا من الإبهام:

- اسمع يا هذا، كأنك تلومني وتشكك في ما إذا كنت أصدق ما أقوله لك،
الرجل منا عقل يعي ما يدور حوله، فلا تعلّ علينا بمنطق، كأنك تعرف ما
لا نعرفه، وترى ما لا نراه، اختصاراً لكل أمر أقول: والله إنه ليس في صالح
الأمة مقارعة ولاية الأمور باسم الحق والعدل، ذلك أن الحق والعدل
والخير قيم نسبية، وصالح الإنسان فوق كل اعتبار، وصالحه؛ سلامة
روحه، وقوت يومه، وأمن معاشه، تذكر حديث سلمة الجعفي حين قال:
يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم، ويمنعونا حقنا، فما
تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، وفي الثالثة، جذبه الأشعث بن
قيس، فقال: اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حملوا، وعليكم ما حملتم،
من خرج من الطاعة، أو فارق الجماعة، مات ميتة الجاهلية.

أرخی القاضي يمينه في حجره، وصمت، تمت يحيى بالعبرة التي يثبت فيها
جناحه كلما أصابه فرق:

- يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

ثم ابتسم بدماثة سائلاً:

- أما كانوا يعرفون ذلك؟ أقصد الخلفاء، أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، الذين فاقونا علماً، وصاحبوا أعلم البشر قاطبة، كيف إذن تفسر ما قاله أبو بكر في مطلع خلافته: إن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني، أطيعوني ما أظمت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، أو قول عمر: أيها الناس، من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومني؟

اخترق نور الفجر كوة نافذة المحكمة الشرقية، فتراجع نور المصباحين الزيتيين المعلقين أعلى العمودين المحيطين بمجلس القاضي، وزهق صبر الرجل، فمط ظهره وثنى جذعه يمنة ويسرة مطرقعاً فقراته، ثم وقف ساحباً عباءته عن كرسیه، ملتفتاً بها، معدلاً عمامته، وتقدم خطوات من يحيى الذي لم يتعبه الوقوف الطويل، همس كما لو كان يفضي بسر خطير:

- اسمع يا رجل، تعرف، وأعرف، أننا سنظل نجادل دون جدوى، ولو مرت بنا أيام أو سنون، فلا أنا راجع عما أعتقد، ولا أنت تنوي على حل وسط نلتقي عنده، لهذا اسمعني وأنا أخاطب منك العقل، لا يفوتك أن الشافعية يملكون زمام أمورهم في دمشق، وأنا ما وصلنا إلى هذه الحال بيسر، فسلطاننا العثماني حنفي، لكنه فتى صغير يريد لنفسه الاستقرار وإطالة زمان حكمه وأمان صولجانه، لا يحتاج إلى مقارعة البلاد الواقعة تحت حكمه، وليس من العدل له، أولنا، كمسلمين تتبع المذهب السني فتح معسكر نقتل فيه، فيراق دم كثير، بينما هو يحارب الصفويين الشيعة في فارس، والنصارى في النمسا، ولو ذهبنا إلى شد وجذب وتعت، تقطعت البلاد، وما أفلحنا في نيل ما نسعى إليه، وخسرنا سلطاننا على الأرض

والعباد، ترى بعينيك، كان أبي رحمة الله عليه القاضي يونس يصدر فتواه بشأن ضريبة الوكر أو اليسق مثلاً، وهما شأن كبير، فلا يُناقش بفتواه ولا يُراجع، وتسير فتواه على العباد كحد السيف، اليوم اختلف الأمر، تراهم يعارضون، ولو كان ما نقوله يخص الدخان أو القهوة، وهو شأن حقير، ليس في صالحنا ونحن في موقع الضعيف، تنبه المتربصين بنا في مركز السلطان في القسطنطينية المسماة إستانبول، خاصة أننا نحظى بحكم مركزي، للقضاة والفقهاء الشافعية فيه اليد الطولى، لماذا إذن نجر على أنفسنا الوبال؟ ألا تعرف ما حل بفقهاء مصر؟ سُنمّنع حقنا في الهيمنة إذا ما تركنا الحبال على الغارب لكل مجتهد أو مخالف، لهذا دعك من البلاد الفاضلة التي تحلم بها، وأغمد سيف منطقك المنقوص وانسأه، وفكر على حجم واقعك، ولا تسمح لعقلك أن يشطح بك حد الوقوف في غير موقعك، فلست المهدي المنتظر، ولا حلال العقد، وأعلم أنه لا يضير الناس بطش قليل، أو فقر قليل، أو دعوة خير على المنابر لإمام جائر، ولكن يضيرهم ضياع سلطة فقهاءهم عليهم، وبطش أكبر قد ينزل بهم فيسحقهم.

- هذه مصالحكم إذن لا مصالح الناس.

جاء رد يحيى القصير على مطولة القاضي ثقيلًا قاسيًا، أصاب العيثاوي في الصميم، فندم على ما أفاض به من تفسير للكركي، وتنبه أنه أخطأ في المجادلة، وما كان يحتاجها أساسًا، فقد فترت همته، ولم يصل إلى منطق أو وفاق، بل اتهم وفتح اللهجة مقيت، ثم إنه تذكر موقع الرجل منه وهو قاضي القضاة، بينما الرجل غريب لا قبيلة له تنصره، فلام نفسه على استقباله ومناقشته الطويلة وصبره عليه، وقدر أن

الرجل محرض الناس على فتنة لا محالة، وتذكر ما نقل إليه عن الرجل، وما أثير حوله من خزعبلات تتعلق بتصوف يجترح الاختلاف.

ثم، في لحظة، والقاضي يشاهد أول شعاع صباحي يدخل القاعة الواسعة بوهن، وقع على إلهام؛ وصل إلى قراره الأفضل الذي يزيح من طريقه رجلاً عنيداً مشاكساً، قال ساخراً:

- والله، إنني أظن كل الذين يعتقدون باستمداد جبروتهم ومنطقهم من أنوار تنير دروبهم إذا ما جلسوا في خلوة، وادعوا معرفة الحق وحدهم، فوصلوا الجنان بمنامهم، وزارتهم الرسل والأنبياء، وتقافزوا بين البلاد إثر تعاطي حشيشة خسيصة، ثم راحوا يتطاولون على الفقهاء والعلماء، والسلاطين، ظناً أنهم في حمى التصوف وأنوار الله لا يأتهم شر أبداً، هؤلاء هم المجانين، وأنت، وإن أبديت نهجاً تدارى بالمنطق، وتقنع بحفظ الكتاب والحديث، وتلاعبت بالكلمات في براعة، فما أنت إلا أحدهم، بل أميرهم، مجنونهم الأكبر.

قبل بدء أعمال اليوم التالي في المحكمة النورية، وقبل انصراف قاضي القضاة إلى بيته في ذلك الصباح مرهقاً، أناب الشيخ القاضي الحسن البوريني ليجلس إلى مصالح الناس بديلاً عنه وقد أضناه الجهد والسهر والمجادلة، ووقع كتاباً موجهاً إلى الطبيب منصور بن رسلان حكيم المجانين، ساعور* البيمارستان* القميري، والقائم على شؤون، لتحويل المعتوه يحيى الكركي للعلاج والإقامة في مشفاه،

* كبير الأطباء.

* المشفى.

وفحصه وعلاجه من مس أصابه، فخلط ذهنه، وضيع صوابه، على أن يحبس فلا يغادر مكانه أبداً.

دفع الحرس يحيى مصفداً، والكتاب مدموغاً بختم قاضي القضاة، قاطعين الطريق إلى البيمارستان القميري أمام سمع ونظر رفاقه المنتظرين ليلهم مع الحارس على باب المدرسة النورية في الشارع المقابل.

الفصل السادس

الزلزلة

1018 هجرية / 1610 ميلادية

نشط إيقاع النهار في الصالحية، وأزيلت آثار الليلة المنصرمة لسوق جوال انتهى توقيت إقامته؛ مخلّفاً ساحة متسخة بالبقايا والخضار العفنة؛ والفاكهة التي هرسها الأقدام، إضافة إلى قطع صناديق مكسّرة، وحبال مقطّعة وخيش ممزّق.

حين خرج الركب من المحكمة ماراً بالميدان الواسع، أعمل الزبالون مكانسهم في الأرض تحت نظر شرطة الجندرية المنزعجين الذين يستعجلونهم، وقد أحاط بيحيى الكركي أربعة رجال أجلاف بشوارب مبرومة، عنفوا زيدا وجعفر وهما يلحقان بهم يتبينان وجهة صاحبهما، فوقف أحد الحرس يمنع تقدم الشقيقين؛ ساحباً سيفه من غمده ملوحاً به.

اندفع الشقيقان بنزق، وسأل زيد:

- أين تأخذونه؟

استدار رافع السيف زاجراً متوعداً:

- إلى حيث ينتمي، مشفى المجانين؛ البيمارستان القميري، وإن تبعنا أي منكما، شققنا جسده نصفين بسيوفنا، قد أعذر من أنذر.

نكص الرجلان أدراجهما مفزوعين يصعدان التل، وقد عزموا على نقل الخبر إلى الوجيه أبوسندس، فهو وحده قادر على حل المشكلة، بينما قطع ركب الجندرية ساحات الصالحية وحيسهم مغلول الذراعين بالأصفاد الحديدية، حاذوا ضريح ابن عربي جنب التكية السليمانية، ثم توقفوا هنيهة أمام بوابة مبنى البيمارستان القميري الموصدة.

على تعبته ونعاسه؛ وشعوره بالاستهانة بما حل به، تمكن يحيى من قراءة حروف الخط النسخي المتقن الجميل على اللوحة الحجرية في أعلى المدخل الرئيسي للمبنى: «نحن، الأمير الكردي، سيف الدين علي بن يوسف القميري، أقمنا بإذن الله هذا البناء وقفاً لمسلمي دمشق، وبیمارستاناً للعلاج، في زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب، ووقفنا مزارعنا والبساتين المحيطة والقرية القريبة لخدمة هذا المكان، وفاءً لذكرى زوجتنا الشريفة ابنة الأمير عز الدين بن المحلي، وبما ورثنا من صداقتها ومصاغها، نشيد هذا الوقف وندعو لها بالرحمة».

شرعت البوابة للواصلين، دلف يحيى مدفوعاً إلى حوش الییمارستان، أوجعته قبضة الشرطي التي وقعت في منتصف ظهره، أغمض عينيه وفؤاده يهتف:

- يا مثبت القلوب.

سار ثابتاً على حجر ممر مزروع جانباه بالريحان يفوح بعطر شذي، رقت نفسه فأغمض عينيه مجدداً، وترنم في خاطره خاشعاً:

- يا من لا يجاوزه الرجاء، إلهي سد خطوتي؛ وارفع روعي وروعتي، آمن يا رؤوف مخافتي.

لم يكن دخول الجندرمة ساحة المشفى أمراً معتاداً؛ فغر المرضى الجالسون عند أحواض الريحان وتحت أشجار اللوز المزهرة أفواههم دهشة لسماع أصوات المشي الثقيل، وصليل الحديد في أحزمة الجندرمة وأغماد سيوفهم والخناجر، وإن ظل عازف القانون الجالس على عريش معتل غافلاً عن مقاطعة عزفه، منصرفاً إلى صندوقه الموسيقي المرفوع على ركبتيه، محرّكاً في يسراه سبابته المتهية بالكشتبان والريشة مداعباً الوتر.

توقف الركب متبادلاً نظرات دهشة وفضول مع جمع المرضى، فالجندرمة الذين وقر بالهم أنهم يقودون المذنب المعتوه إلى عقاب يتناسب وجرمه؛ وإن لم

يقعوا على طبيعة ذلك الجرم، لم يتصوروا رفاه المكان؛ وهم شرطة المدينة القادمون من ثكنات عفنة يساكنهم فيها فتران النهر، كأنما دخلوا حديقة للتسري والأنس، تتشر فيها الأرياح الطيبة من عقب الياسمين وفوح الرياحين، وتختلط فيها نغمات الموسيقى وخيرير البحرة ودفق ماء النافورة التي تتوسطها، والمشغولة بالفسيفساء الأزرق.

لولا الحجر عند البوابة، ووجوه المرضى التي حملت إشارات الفزع والريبة؛ وبلهاً زائغاً في العيون يعكس حزناً وغضباً وفرحاً وخوفاً وغيباً للإدراك، لظنوا أنهم تاهوا عن مقصدهم.

تجمد يحيى وقد عاودته ليالي القاهرة في الأزبكية، إذ لم تتع عينيه على جمع يوقع لحناً على تلك الصورة منذ فارق الجو المترف هناك، في حين تقدم ساعور بیمارستان منصور بن رسلان مسدلاً فوق قفطانه رداءً أبيض، يلحق به الطبيب الشاب سيف الدين السلتي* بردائه الكتاني وصندله المجدول الذي لا يناسب برد الهواء في ذلك الفصل، وقد خلع غطاء رأسه وسار حاسراً كما لو أنه في بيته.

تنحس الساعور لما أمسك بكتاب القاضي، وحده يلهمه أن آخر مرض يُظن بالرجل المصفد أمامه هو الجنون، لكن الأمر الصارم الصريح باستبقائه نزياً في بیمارستان، عنى الكثير لمتمرس في استقبال المرضى عن طريق ذويهم أو جيرانهم، أو المتعطفين على حالهم، ختم قاضي القضاة على كتاب يأمر بإيواء المريض إلى الأبد؛ شأن مختلف! مع هذا، تصرف الساعور بحرفية عالية، أصدر أوامره لحكيمه سيف الدين بتهيئة المريض وتقييد اسمه وتعيين مرافقين لخدمته كما درجت العادة، وبألية تامة؛ أشار إلى التعجيل بكتابة تقرير يصف حالة

* نسبة إلى بلدة السلط.

المريض ويصنف مرضه ويوصي بطرق علاجه، ثم هز الساعور رأسه للجندرمة وهم ينصرفون، كما لوح لعازف القانون الذي توقف هنيهة وقد انتبه لما ساد من لغط، انحنى الأخير إلى قانونه هازاً أوتاره مستعيداً انتباه وأسماع المرضى.

كأن لم يحدث جديد؛ يمم الساعور صوب المطابخ يتفقد الطباخين، وسار الحكيم ويحيى في اتجاه مختلف نحو الحمامات.

أزال الحمام الدافئ المعطر بزهر الخزامى تعب يحيى، حتى أوشك على النوم في الجرن الحجري الكبير، انتعش تماماً وهو يغادر برفقة الحكيم إلى مهجعه، تبادلاً حديثاً؛ كان بالنسبة للطبيب الحكيم تقديراً أولياً يراقب مستوى الحالة، وما إذا كانت أميل إلى العنف أو السكون، وبالنسبة ليحيى؛ دردشة يقطع فيها الوقت؛ مطمئناً لسماحة وجه السلتي وألفته، وما بين الحمام والمهجع ووجبة الطعام الشهية الطازجة، انفرجت أسارير الحكيم وهو يسجل في أوراقه معلومات تخص المريض، فكتب في خانة البلد، - كرك الشوبك من أعمال الأردن -، مسترجعاً أطياف طفولته في جبال السلت المشرفة على واد ينحدر قبل الصعود مجدداً إلى الكرك.

هشت أسارير الطبيب الحكيم في وجه مواطنه الغريب، رجح أنه بما سمع منه عن واقعة وصوله إلى المكان، بعيد كل البعد عن المرض العقلي، أو؛ هكذا تمنى.



ينقسم مبنى البيمارستان القميري إلى جناحين رئيسين، تشغل العيادة الخارجية شمال المشفى، هناك تعالج أمراض الجسد وأويته في أقسام متخصصة، يداوي الكحالون أمراض العيون، والطبائية أمراض البطون والجسد، والجراحات ما يصيب العظام من كسر ووجع ووهن، ملحق بالقسم الرئيس عنبر للجراحة، وآخر للمنامة إذا ما طال العلاج، مفصول مطبخه وحماماته وحجرات أطبائه عن سائر

المشفى، لكنها تصل جنوب المبنى عبر ممر باذخ البناء بأعمدته ونقوشه، حيث جناح علاج الممرورين من مرضى النفس والعقل، يفتح الممر على إيوان داخلي زود بثلاث نوافذ تسمح لنور شمس النهار بالمرور عبرها، يغلق مساءً، فاصلاً غرف المرضى المحيطة بالإيوان عن الحديقة وأقسام المشفى المختلفة، هناك، خصصت ليحيى حجيرة متواضعة بشباك داخلي يطل على الإيوان.

لم يكن عسيراً على يحيى الحافظ لقرآن الله كحروف اسمه، إرجاع الآيات في الشريط الأزرق المحيط بالإيوان، والمكتوبة بماء الذهب وخط النسخ إلى سورها في القرآن، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، من سورة يونس، وعلى الحائط المقابل، ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ من سورة الإسراء، ثم سورة الشعراء تمنح الجدار المزخرف واسطة آيات الشفاء، «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ».

رغم سماكة جدران الحجرة، إلا أن الفتحات الداخلية في النوافذ والأبواب وانفتاح الإيوان على الممر الطويل يردد رجوع الصدى، في الليل تتعالى أنات الموجهين، وصراخات آخرين من المهلوسين والممرورين، فإذا ما بدأ الترتيل الشجي للمقرئ الجالس في قلب الإيوان، همدت الصيحات وتناقصت تباعاً، كانت الأجواء تمهد ليلية نوم عادية، وساد صمت بانصراف المقرئ عند منتصف الليل، لم يعد هناك إلا صدى خافت، مسح خفيف على الأرض يسببه المطمنون والمشافون بأحذيتهم القماشية السمكية وخطوهم الهادئ، ليلتها؛ صعد من حجرة يحيى رجاءً وكلماتٌ ملتناعة اتضحت على مهل، وغمرت الإيوان بالخشوع:

- يا نور.. نور النور... بنورك نورني... وهب لي مراتب اليقين.. ومزق
حجب طبعي وظلمتي... بنورك أوقفني على غيب باطني.. فمعرفتي إياك
عرفان رتبتي... يا نور..

رويداً، انسحب الصوت، وعلا من ذات الحجرة صوت مغاير عميق كأنه قادم
من غياهب بعيدة، ترنم بكلمات العلاج:

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمينا

فجراً، لاحظ المشافون الوجوه مرتاحة زایلها الغم والكرب، وتوهجت
بالرضا والدعة، وانتبهوا إلى التفاف المرضى حول النزيل الجديد، وسمعوا بعضاً
من الكلام المتناثر، ورجع الضحكات، شوهده المرضى يصطفون للصلاة تحت
الأشجار، بينما عازف القانون يبدأ نهاره بلحن طروب استدعى العصافير التي
تنفض أجنحتها من بلبل نداوة الفجر، لتقف على الأغصان المزهرة مشاركة
بالتغريد والزقزقة، عمت الحديقة هزيمة خفيفة، وانبعث في الكون فرح جديد،
وارتفع صوت الأذان.

في تل بستان الورد، نشط الحراك، وفارق العاملون مساكن التقطير
وكرخانة التعب، فلم تتسع حجرة المصطبة لجمعهم، وقفوا يستطلعون أمام
الباب المفتوح وتحت رذاذ مطر خفيف، مفسحين لكبارهم الدخول، وعلى
كثرة ما سرد زيد وجعفر وصف تفاصيل المشهد الذي شهده به خروج يحيى
مع الجندرية من باب المحكمة إلى المشفى، فإن الجمع يطلب تفسيراً أكثر،
اضطر الشقيقتان للتكرار كلما وصل إلى البستان أحد الجلساء الذين طارت
إليهم الأنباء في بيوتهم وحوانيتهم، شرحاً لأبوسندس، ثم الوليد الأندلسي،

ثم الخباز والأسطواني والملا الكردي الضرير، والقبردي، ونساجي الحرير والعطارين وبعض الوراقين، وكثرة من الحرافيش والزط والسابلة والدراويش، وصبية الكنيسة، في منتصف النهار تنبه أبوسندس إلى توقف العمل تماماً في البستان، فأعاد ترتيب الأوضاع؛ طالباً من صبيانه العودة إلى مهامهم، صارفاً بصبر كبير المتجمعين على وعود بنهاية ملائمة لما وقع، مغلقاً باب الحجر على صفوة من الجلساء يتدارسون الوضع وما يمكنهم عمله.

أحبطت مساعي طلبة الأموي الذين طمحوا للقاء قاضي القضاة الشهاب أحمد العيشاوي، وأسفر دأب الخباز والأسطواني ونقيب الشام عن لقاء الأستاذ الشمس الميداني في صحن الأموي، تذكر الرجل رسالة الكركي القديمة التي وصلته قبل أعوام تستنجد به، فسكت عنها وما أفصح بشأنها للسائلين، مرجحاً أن في الرجل لوثة ستورثه المشاكل التي يتفادها، غمغم وتمتم وما وعد بحل، بينما رد الشيخ تاج الدين التاجي زميليه القبرديني والغزي، معتذراً عن التدخل، مشيراً إلى ضرورة عدم الخلط عندما يتعلق الأمر بإجراء قام به قاضي القضاة؛ وإلا تبلبل التشريع وضاعت مرجعياته، وفستت على الشيوخ صلاحياتهم في الفتوى وإصدار الأحكام.

سعى أبوسندس والوليد لترتيب زيارة خاصة إلى المشفى يستطلعان فيها حال الكركي، ويتأكدان من إكرامه وتقديره وحسن التعامل معه، ماطلهما القائمون على المشفى في وعود متكررة، رغم ما لقيه اسم الوليد الأندلسي صاحب الصيت في مجال الطب والحكمة من تقدير وإجلال، لكن موعد تلك الزيارة المأمولة ظل يتغير ويتباعد باستمرار، دون تفسير.

مع تقدم الشتاء، ساد البستان حزن وانتظار مبهم، وتوقعات متضاربة، وتنامى غضب دفين لقلّة الحيلة وتراجع الأمل في إيجاد منفذ أو حل، في حين غيرت الفترة اللاحقة يوميات المشفى بصورة يمكن تبينها لكل العاملين والمعالجين المشافئين والمرضى؛ فالإقبال على الدواء يتم ببساطة ودون نوبات غضب تصيب الممرورين والممسوسين، كما أن المنطوين على أنفسهم تشجعوا، ساروا على حذر في البداية، ثم اطمأنوا، وانضموا إلى الجمع، نطق الصامتون منهم مدلين بدلوهم، وعمر الإيوان جو من الحميمية ليلاً، فخرج المرضى من حجرهم وهم أقل استجابة لأدوية الترقيد، جلسوا مع الجمع الذي انضم إليه السلتي وعدد من الشيوخ المطمنين الذين يحفظون الأدعية، وإذا ما نمت إلى علم الساعور ما يحدث في المشفى، وتأمل الوقائع كما وصفها الناقلون ومعاونه قال ضاحكاً:

- والله صار القميري جنة تفوق بجمالها جحيم الدنيا خارجها، أتمنى لو كنت نزيلاً فيه.

لم يشعر الساعور بالاطمئنان، فمثل ذلك السلام لا منطق فيه لمشفى يعالج المصابين بعزل الجسم والنفس والعقل، مما أحوجه إلى تقصي ما يحدث، أغلق بابه على السلتي مستفسراً؛ مذكراً بالتقرير المعتاد الذي طال انتظاره حول حالة الكركي، مرتاباً في أمر تساهل الحكيم، موحياً له باقتراحات تفسر حالة المريض، وهو يشرح أنواع الوسواس التي تصيب المتعبدين، الذين يكثرون من العبادات، فتصرفهم عن شؤون الدنيا في وسواس هو أحد طرائق الشيطان للتسلط على عقل الإنسان، إلا أن الطبيب الشاب ناقش بنديّة أزعجت الساعور؛ وإن لم يبع بانزعاجه، دافع الطبيب عن مريضه مستبعداً معاناته من وسواس شيطاني، فلم يره من المغالين في العبادة

حد الوسواس، ووجدته يهتم بشؤون الدنيا كما شؤون الآخرة، ودلل على ذلك بالإفصاح عن اعتقاده بأن أفكاره حول الدنيا لم تعجب القاضي، وتسببت له بالإيداع في المشفى، ولو كان حقاً رجلاً متوسوساً منصرفاً إلى عبادة يغالي بها، تفني جسده وتغيب عقله، ما كان للقاضي أن يسمع به، ولا لحججه وقوانينه أن تطاله.



يعالج الساعور قضايا المشفى بحصافة شديدة، ويعلم علم اليقين أن مصلحة بیمارستان الذي يشرف على كل صغيرة وكبيرة فيه؛ تقتضي تهميش كل ما من شأنه إثارة الخلافات، والإبقاء على عناصر التهدئة والسلام، خاصة أن جريات المشفى وجامكيات العاملين فيه، تأتي مباشرة من وقف خصصه السلطان لهم، مما يعني ضرورة إبعاد المشفى عن كل فوضى أو تقصير. كان يمكن للسلام الذي أشاعه الكركي بين أوساط المرضى على اختلاف عللهم أن يصب في صالح المشفى، لكن مسألة القاضي وموقعه من الأمر، شأن وجب معالجته على وجهين، في وجهه الأول؛ لا بد من إقصاء سلطة القاضي وبطانته عن شؤون المشفى، إقصاءً لطيفاً حكيماً، وقد يتطلب هذا إجراءً يرضيه ويكف أذاه، ربما مجرد تقرير بسيط حول حالة مجنونه هذا تكفي العياوي.

على الوجه الثاني؛ لا بد من علاج زهو حكيمة الذي ينفرد بالرأي دون الرجوع له، متناسياً أنه الأعلى رتبة، والأكثر خبرة، عدا عن مجادلته وغمزه وتلميحه إلى غياب مصداقية القاضي، وتسفيه ما يقوله رئيس مشفاه جهاراً، فإذا ما كان الحكيم المشافي يعتقد بكفاءته التي لا تمارى، فإن المريض النزيل حالة يمكن من خلالها إثبات السلطة لمن تكون، وقد يستلزم الأمر إعطاء دواء يخفف من نشاطه الدائب بين المرضى والعاملين في المشفى أو يشكك طبيبه في تشخيصه السابق.

كتب الساعور تقرير المريض بنفسه، شارحاً للقاضي: «إن النزيل المدعو يحيى الكركي الذي وصلهم بناءً على تحويل ذكي من قبل المحكمة يعاني من - مانيا - الجنون السبعي -، وهو مرض يصيب مقدمة الدماغ، وإذا لم يعالج فإنه يورث - المناخوليا - . يحسب صاحبه نفسه من العباد، وهو بعيد عن منازلهم، قاصر عن إدراكهم، مضيع نهاره فيما لا يجدي من كلام، يلوم نفسه على التسويف في شأن حياته، لكنه عاجز عن استنهاضها للعمل، مصاب بفتور وغفلة لا حيلة له بهما، وهذه كلها من أعراض - مانيا -، وعليه؛ فإن أطباء المشفى عاكفون على تركيب دواء يساعده على تجاوز اضطرابه وعبثه، وتغيير نظره الذي لا يشبه نظر الناس».

في ختام كتابه، وضع الساعور نفسه وعلمه وخبرته في خدمة القضاء، منصاعاً لما يراه القاضي في خير الناس وصالحهم، داعياً للسلطان العثماني في ولاء تام لا شروط فيه.

احتفظ الساعور لنفسه بسرية التقرير، وما أعلم به أيّاً من الحكماء أو المظنين الذين خفت مهامهم بعد أن أشاع الكركي تلك الروح الإيجابية بين المرضى، لكن استدعاء شيخ شرباخانا* المشفى، أمر لم يكن من السهل إخفاؤه، فالصيدلي الجالس بين مساحيقه ومراهمه ومعاجينه وقوارير الدواء ولفافات التجبير، لا يغادر عادة مكانه لعلاج، ويمر طلب الدواء من شرباخانتة عبر الحكيم المشافي، لكن الساعور بنفسه طلبه هذه المرة، وأمره بإعداد خلطة الأفيون والبنج والخشخاش، والحرص على دسها في طعام الكركي.

* صيدلية.

غضب السلتي معتبراً هذا الإجراء تدخلاً في صلاحياته، وتعارضاً واضحاً مع ما يتطلبه العلاج، فإذا كان الأمر مجرد إجراء علاجي يتوافق مع الحالة التي تشبه حالة كل إنسان عادي، فإن بعضاً من المفرحات كالعطورات وجوقات الموسيقى وشم الرياحين، والجلوس إلى الصبح، وسماع القرآن سيكون كافياً.

أصر الساعور على إجرائه، وتمسك به؛ يمتحن استجابة عامله لأوامره، خاصة الطبيب، فقد تيقن أن تمرد حكيمة سيذهب بهيته في إدارة المشفى، ويشك بقدراته التشخيصية والعلاجية والإدارية، فإذا ما ارتفعت حدة مجادلة الأمر انقسم العاملون إلى فريقين، وقال الساعور غاضباً متحدياً:

- قاضينا على حق، أينما حل هذا الرجل ستكون فتنة، وليس من مكان يمكن فيه السيطرة على توثبه مثل المشفى، وعلى يدي أنا تحديداً.

استجاب الطباخ لأوامر إدارة المشفى، كذلك شيخ الصيدلية، وتذوق يحيى الطعام بإحساس مختلف، استطعم مرارة الخشخاش، وحلاوة الأفيون في لسانه، واجتاح الخدر جسده، فارتخى في الفراش دامعاً.

انتظر الجمع في الإيوان إطلالة صاحبهم المعتادة، فإذا ما تأخر، شق المظمن باب حجرته مستطلعاً، وأدرك أنه أمام جسد انهدمت طاقته بفعل عقار، عاد هامساً للحكيم الذي قام غاضباً، فأوقع كرسيه، واشتد تحديق المرضى.

تيقن الساعور أن الطبيب سيراجعه في حاله مريضه، لم يكن في نيته إطالة أمد العلاج الذي أوصى به، واعتبره مجرد شوكة صغيرة حادة ينغز بها كف طبيبه، أو فرصة تلوي أذنه، فيؤدبه ويوجهه ويعيد السيطرة عليه وإلجأه، ثم ترك مريضه له؛ لهذا طيب خاطر السلتي وتساهل أمام غضبه، ورفع أوامره عن استكمال ما أوصى به من علاج، لكنه كان بحاجة ماسة إلى تقعيد الطبيب الحكيم الشاب أمامه تلميذاً

يتعلم، وإسماعه كلاماً حول انتظام العمل بالنظام والترتيب، والتوثيق والرجوع إلى المرجعيات الأكثر خبرة، هداً السليتي واستكان لوعد الساعور بوقف العلاج، واستمع راضياً لكل تفصيل سواء تعلق في سير أعمال المشفى، أو ناقش حالات بعينها، لم ينكر الحكيم أنه وقد رجح وقوع يحيى بشطح خاص؛ شعر بمتعة كبيرة في مناقشة كبير الأطباء الساعور حول الشطح؛ وإذا ما صح تصنيفه من ضروب الجنون، أم هو طريق للاقتراب من الحقيقة؟

أفسح في سؤاله للساعور منصور بن أرسلان الذي نفخ صدره شارحاً بأستاذية يستعيد فيها موقعه:

- إن الحس يورث الشطح ويقصي الفكر، وإن ثقل الفكر يذهب بالحس، والإنسان المتزن الطبيعي يأخذ بمقدار من هذا وذاك، ولا يجنح لطبيعة دون أخرى، مما يمكنه من عيش حياته وفق الطبيعة البشرية، فلا يحسب على جانب دون آخر، ولا يسلم جسده وروحه وعقله لثقل أحد الجانبين، أما إذا حاد عن الصواب، واختار الذهاب بعيداً في هذا أو ذاك؛ فسمى ذاته عقلاً، أو شطح بروحه، وادعى كشفاً؛ فاصلاً الرأس عن الروح؛ فإنه من المجانين لا محالة.

تدبر الطبيب أمر الكركي، فما حسبه في أي من المراتب التي ذكرها الساعور في ثقة عالية، وقطع لا يداخله شك؛ فلا هو منكر عقله، ولا مُقصٍ حسه وإحساسه، ولا عاكف على موازنة دقيقة يصير معها مثلما كل الناس، لكنه رجح عند طبيبه؛ كقلب مُسلمٍ كامل إحساسه للشطح، كما هو مُفتح دروب عقله جميعها للفكر، فما ذهب هذا بذاك، ولا أضعف جانب الآخر.

ابتسم الساعور لاجترافات وملاحظات طبيبه المتحمس، وأنهى جلستهما، دون إخباره بأمر مكاتبات صاحب الفابريكة والطبيب الأندلسي التي ما انقطعت

ليفوزا بزيارة الكركي، وإذ مضى السلتي لطمأنة صحبه إلى إيقاف العلاج المهدئ المثبط، فإن الساعور نفّض يده من المسألة، واثقاً أنه أوصد باب الريح بخنكة وبراعة يحسد عليها، شاعراً بإعجاب غامر بنفسه الذكية وخبرته الحكيمة.



بكى أصحاب القلوب الواهنة تأثراً عندما تمكن يحيى من رفع جفنيه على ناظرين صافيين، وبما لديهم من فهم بسيط، علموا أن الرجل استفاق؛ سقاه الطبيب محلول الليمون بالعسل والزنجيل، وأحاط فراشه بالرياحين العابقة بالشذى، وسهر عازف الربابة عند بابه ليلتين متتاليتين، يوقع على الوتر إيقاعاً رقيقاً بترجيع وتنغيم حنون، دون أن ينقطع قارئ القرآن عن ترتيله.

طمأنت ومضة عينيه جزعهم، وسمعوا فرحين شجي صوته هازجاً:

- عسى نفحات اسم الرحيم وروحه... تهبُّ على ضُرِّي.. فتورث رحمتي..
عسى نفحات اسم الرحيم.. حنانها قريب.. على قدر البلاء والبلية.

عاد يحيى إلى الإيوان محاطاً برعاية الجميع، وإن لم يتمكنوا من قضاء فترات النهار في الحديقة لتقطع المطر، فإنهم يتحركون على صورة مدهشة، كما لو كانوا تروساً في عجلة ذات إيقاع منتظم، فعازف القانون، وجار الربابة، وضارب الدف، يجلسون في مقدمة الإيوان، والمرضى يحيطون بهم، يتناغم العازفون في أداء واحد متسق، ويردد المرضى الكلمات التي حفظوها لطول ترديد الكركي لها:

- عسى نفحات اسم الرحيم وروحه... تهب على ضُرِّي، فتورث رحمتي..
عسى نفحات اسم الرحيم.. حنانها قريب.. على قدر البلاء والبلية، عسى
نفحات اسم الرحيم.. وشيكة... تعالج بالتفريح همّي وظلمتي.. عسى
نفحات اسم الرحيم.. تملّني بضم وغفران ولطف وعصمة.. عسى
نفحات اسم الرحيم... تواردت بعارفة الحسنى على حل عقدي.. عسى

نفحات اسم الرحيم تعيلني.. فوالله ما ضاقت بأَيّ فطرة... عسى نفحات
اسم الرحيم تعينني.. فوالله ما ضنت بأَيّ قطرة... يا رحيم.. يا رحيم.

تردد الصدى يستجدي الرحمة، مُوزعاً ترجيع الغناء بين الإيوان والممر،
مُنفلتاً في الحديقة، واصلاً حجر التمرّض والمنامة، وتوافد مرضى من أقسام
أمراض الجسد يطلعون على ما توهموه في البداية حضرة صوفية، فإذا بهم أمام
جمع يتمايلون بمقدار طفيف، ولا يتطوحن في المكان، وعازفين مجيدين كما لو
أنهم في تخت موسيقى محترف يعزف في حضرة السلطان، لم تنحصر رغبات
الجمع في الطقس الإنشادي الذي أحب كل المرضى المشاركة فيه، بل انفتحت
على الاستفسار والجدل، ويحيى يتواضع في الاحتكام إلى معرفته، حتى أمام
أسئلة من ضيع رشاده، وفقد عقله؛ فما ظن، ولو لوهلة أن العقول تلغي ما للقلوب
من طاقات وكشف، وما كان معنياً بعله ما وقع له، وإن سألوه، ظن أنه في اختبار
لقدرات العقل والرشاد، لا أكثر، دائم التردد أن القلب موقع الفكر والهوى،
والعقل يسير الجسد، ولكن العمى عن الحق، يصيب القلوب التي في الصدور،
وأنه اجتاز خطوات مجهولة في مسافة ظلماء عمياء من زمانه.

وحده لم يكن ينظر للمحيطين به على أنهم مجانيين، وبدورهم؛ تمكنوا من
كشف سريره، وشاهدوا في عينيه كرامتهم، وهو يعلو فوق تجربته وآلامه، فمالوا
إليه، واصطفوه، فإذا لم يجلس إليهم محاوراً، تبعوه مثل أفراخ زغب لم ينبت
ريشها، حتى إذا دخل بيت الراحة وأغلق باب، ضحكوا مستأنسين، وانتظروا
خروجه صابرين.

طال انتظار خولة لعودة والدها، وساءت لها نظرات الأم المريضة والخال؛ تشكك
بيقينها حين تعد الجميع بفك أسرى يحيى على يد والدها، فهو قريب من قاضي

القضاة؛ ألم يقف معه في سوق جمعق لساعة منفردين يتهامسان في شؤون الدين والدنيا عند وقوع فتنة الانكشارية!

إيمان خولة وآمالها لم تجد صدى عند الآخرين، واستقبل زوجها نبأ حملها بفتور حزين وكآبة، تمنى لو كان الكركي من يُكبر باسم الله في أذني وليده إذا ما جاء إلى الدنيا، وبدت عودة الدراويش قريباً احتمالاً بعيداً، خاصة أن سفره إلى السويداء هذه المرة أحيط بالغموض، لم يكن توقيت ارتحاله معتاداً، فقد غادرهم كمن يفر ممن يلاحقه، وسط أحوال الهواء والمطر المضطربة التي لا تناسب المبيت في قلعة مهجورة، أو تحت الأشجار في العراء، وكان من الأولى لو أقام وأسرته في بيته في الميدان حتى ينصرم الشتاء.

لجأ إعلان ونفر من المريدين الصغار إلى الكهوف في جبل العرب، لم يتمكنوا من عقد حلقات الذكر المعهودة، كما قلت مؤونتهم مع وعورة الدروب إليهم، تقلبت السماء، وترك عنف الريح والمطر الأرض طيناً، والأفق ملبداً بغيم أسود يتحرك متاقلاً بين الجبال، مما جعل رؤية القافلة الصغيرة التي تصعد الجبل أمراً مستهجناً، بدا من الجنون أن يقطع أحدهم الطريق المخيف متوجهاً إلى الكهوف في الأعالي، وقد تراكمت حجارة سحبتها السيول المتتابة فسدت الدروب السالكة، كلما تقدم المجهولون وسط غبش الضباب، كشف المشهد عن بغل وحمارين، وأجساد بشرية ثلاثة تركب البهائم مترنحة تحت دفع الهواء، فإذا ما وصلوا، تدافع الدراويش وفي أعينهم دهشة واستفسار، كان راكب البغل واحداً من أبناء السويداء تطوع للمهمة العسيرة، فاصطحب الحمارين إلى كهوف الدراويش، أما الراكبان الغريبان، فلا شك أنهما مغامران أحمقان، رجل أشعت ضعيف الحال، قليل الثياب، يرتجف، لا يحمل قنوة ولا سوطاً ولا سيفاً ولا خنجراً، يخاطر في طقس مكفهر، وبلقع منعزل لا يخلو من قطاع الطرق واللصوص،

مصطحباً وراءه صبية حسناء شحب وجهها وارتعش جسدها من صقيع الهواء،
تعصر بلبل قفطانها دون جدوى، في حوزتهما جراب لم يتيق فيه سوى كسرات من
خبز تفتت، وحبات من قطين التين الممعس، أثار منظر الفتاة الدهشة، وانعقدت
ألسنه المتصوفة عندما سألت بصوت واهن عن الشيخ علان، كأنها كانت تعرف
بوجوده في تلك النواحي، سارع الدليل موضحاً أنه مد المسافرين بمعلوماتهما عن
علان وصحبه، كما أخبرهما أنه قادر على مساعدتهما فيما يقصدان.

خرج علان من الكهف، وترجلت الصبية عن حمارها المتعب، أسندت
ظهرها في خاصرة البهيم موشكة على الوقوع.

توهج الجمر في قلب الكهف، والتفت الصبية ترتجف في فروة جافة منحها
إياها الدراويش، شربت نقيع الزهورات الساخن، رشفت حساء العدس وقد نقع
فيه رغيف من شعير بلهفة جائعة، وهتف الرجل الذي يرافقها:

- أدعى مقبل، من صحراء التيه، ولكنني جئت من الكرك، أصلاً جئت من
التيه، الفتاة جاءت من المحروسة، جئنا معاً من الكرك.

استوقفه علان طالباً إيضاحاً لا تختلط فيه الأماكن والأزمنة، فضحك مقبل
منتبهاً إلى الارتباك الذي أحدثته كلماته، اعتذر عن خلطه، محملاً شاق الرحلة
خطيئة فرار العقل منه، مظهراً امتنانه لتلك الجلسة الدافئة، ثم محاولاً الإيجاز
والإيضاح، قال:

- اسمي مقبل، وهذه جمان، جئنا من الكرك لملاقة صاحبنا يحيى الكركي،
وقيل لنا، إنكم تعرفون مكانه في الشام.

وقع علان على سبب مباشر يبرر عودته بصحبه إلى الشام، ففي الفترة التي
عانوا فيها من سوء الأجواء ونقص الغذاء، سهر متفكراً بالأسباب الخفية التي
تمنعه من الالتحاق بأهله، وخيل له أن هناك مرارة تعتريه إذا ما تذكر رفقة أهله

وصهره، وأدرك في أعماقه أن الامتناع عن حلقات الذكر وإن بدا بسبب المطر، إلا إنه يرتبط بالعكر الذي أصاب نفسه، والكرب الذي يعصف بقلبه، حتى إن مناجاته في الليل لم تعد تجدي نفعاً، كما أزعجه الشعور بأنه عرض صحبه للمشقة بسبب مرارة تعثره، وفاقم أوجاعاً يحسها في برد الكهف هروباً من مواجهة مشاعره، ولكن الصبية ذات الملامح المليحة، والشعر الكستنائي الغريب، وصاحبها الأسود النحيل، يعيدانه عنوة إلى ذكرى من يحسد، فالفتاة لحقت به من قاهرة المعز، مجتازةً التيه، ثم مقيمة بين أهله في الكرك زمناً، لا تصبر لانقضاء الشتاء، جاءت دون حرس ولا حماية ولا زاد كاف، قاطعة سهل حوران الطيني، ثم مرتفع جبل العرب، جاءت هو تحديداً دون البشر؛ ترجوه أن يقودها إلى درب وليفها، فزادت حنقه، لا بد أنها سر الكركي الدفين الذي منعه عن التجاوب مع أماني الشيخ وتلميحاته حول المصاهرة، ورغم انكشاف ذلك الجانب من حياة الكركي، وانبعاث الغضب مجدداً في قلب علان، إلا أنه اطمأن إلى أن وجود الفتاة يساعد على تصوير الرجل كبشري مثل الآخرين، له أسرار و نساؤه، وربما خطاياه؛ ليس ملاكاً متطهراً سقط سهواً من السماوات العلى، وما يستحق كل ذلك التبجيل والانصياع الذي يحصل عليه من الأتباع والمتأثرين بسحر كلامه.

مزقت الحيرة فؤاد علان، لكنه أعلن في قرار مغامر بطولي، أنهم عائدون إلى دمشق لاصطحاب الفتاة إلى رجليها قبل اشتداد غف المطر، لم يناقش المريدون التابعون الأمر، وإن كانوا لا يتوقعون زمناً يكون المطر فيه أعنف مما هو عليه، لكنهم بما تعودوا من انصياع وافقوه، وأظهروا امتناناً وحماسة فائقة وهم يتزودون ببعض المؤونة من السويداء، ويكثرون من خبز الشعير وجمر النار في زكائبهم، ثم يصلون صلاة المسافر، ويسرون وراء حماري المسافرين والبغل الذي أعاره الدليل للشيخ.

المخاطر ماثلة، والصعوبات جمّة، إلا أن الركب يتقدم كما لو كان شراع مركب في الريح، مدفوعاً بالوجل من سوء المصير، أو غضبة لا تحتمل للطبيعة، يعرض إعلان على شفاهه كاتماً الألم المتزايد مع اشتداد البرد والريح، بينما يسلي تابعيه أنفسهم بأوراد المتصوفة.

أنحلّ العناء جمان، وقد سارت في درب صعب منذ شهور طويلة لا تحصيها، فكلمما طلع هلال أقنعت عقلها أنه الهلال الأول الذي يرافق رحلتها منذ خرجت من المحروسة، أو أنه سيكون الهلال الأخير قبل لقائها به، ربطت في طيات ثوبها عند البطن صك عتقها والذي ما فكته إلا لاغتسال، أو لترات عيون مريم في الكرك، فتشاركها البكاء وسهر الليالي.

وصل الركب إلى باب كيسان المفتوح، مر بين عسكر ينظرونه، توقف الدراويش، وانبطحوا أرضاً يقبلون الطين باكين، كأنهم ناجون من بلاء محقق، أيقنت جمان أنها حطت رحالها أخيراً، فدمعت عيناها، وشهقت، وإن مرت سنوات لم تُغنّ فيها وتطرب، إلا إنها ترنمت على ترجيع خافت:

وحرمة عهد بيننا، عنه لم أُحلّ وعقد بأيدي بيننا، ماله حل*

سُمع صوتها على تبعه صافياً رقراقاً، ورفع المريدون رؤوسهم ينظرون، وقد اكتشفوا أن لها صوتاً شجياً مطرباً.

باتت الرحلة إلى حي الميدان قاب قوسين، ونسي المغامرون فيها مشقة ما مضى، وكما يفترون كل مرة، ودع إعلان صحبه الذاهبين إلى الزاوية، أوصاهم بمقبل على وعد اللقاء، ثم قصد بيته في الميدان ترافقه جمان.

* ابن الفارض.

مهما كانت الأفكار التي قفزت إلى ذهن خولة حول هوية الصبية التي دخلت البيت وراء والدها، فإنها لم تتصور بتاتاً أن الفتاة امرأة للكركي، أو أنها ستكون كذلك، لكنها وقد سمعت تنفّساً عما جاء بالمليحة إلى دمشق، اشتعل فضولها؛ استعجلت خدمة أبيها وإطعامه وتهيئة الدار لعودته، وأخبرته على عجل وحياء بحبلها، وأرسلت تستدعي خالها من بستانه، وزيداً من سوق العطارين، فعلت ما يتوقع منها والابتسامة غائبة عن محياها كأن شراً وقع، ثم سحبت الضيفة الغربية من كفها وقد استحمت وانكشف حسنها، فصعدت بها بسرعة درج العلية، وغلقت الباب تسمع لتفاصيل عشق الكركي، والرحلة المخيفة لمحبوته.

أرجأت خولة إنباءهم بترحيل الكركي إلى اليمارستان، فقد חדست بحس الأنثى أن الفتاة مستبشرة ومتعبة في آن واحد؛ لا تحتمل أخباراً تعكر صفوها، كما لم ترغب في الارتباط بخبر السوء، تاركة أمر النبأ الموجه لزوجها أو شقيقه أو الخال، معتقدة تماماً أن والدها يملك مفتاح الباب الموصد، بينما كان إعلان متعجلاً للإطلاع على ما وقع في غيابه من أحداث، متوقعاً زيادة مريدي خصمه ومنافسه، حانقاً على رحلة الشتاء المريعة التي تبرع بها طوعاً لإيصال الصبية الغامضة إليه، فقد احتدت أوجاع عظامه التي شعر بها أثناء إقامته في الكهف أعلى الجبل، واشتد النغز الذي رافق رحلته في ربليتي قدميه فمنعه الراحة، مع ذلك، ما إن هرعت الصبيتان إلى العلية، حتى تحامل على وجعه، وغادر البيت إلى الأموي.

ارتفع أذان العصر، وعلان يجالس بعض المشايخ الذين وجدهم تحت قبة النسر ملتفين بفرواتهم تقيهم برد الريح، ولم يكن الأموي مكتظاً كما هو عادة، انفض الناس سريعاً بعد صلاة العصر للاحقين بدفء بيوتهم، ورغم أن الشيخ الحسن البوريني اقترح الدخول من لسع البرد في صحن المسجد إلى منعزل في القاعة الصغيرة الملحقة بقاعة علي بن أبي طالب، حيث يكون المقام الصغير

الذي يضم رأس الحسين أكثر دفئاً لانعزاله، إلا إن الشمس الميداني استحسن فكرة إعلان بزيارة قاضي القضاة الشهاب أحمد العيثاوي، سار الشيوخ ومعهم التاجي، لم يكن أمر الكركي في بال أحدهم؛ عدا الدوريش الذي ما غالب أوجاع قدميه وغادر منزله في تلك الظهيرة مهملاً ألمه وتعب السفر، إلا ليسأل عن الكركي ويستقصي أخباره، مما جعله مضطرب الحركات في مجلس القاضي في المحكمة، ساهي البال عن شراب اليانسون الساخن الذي وزع عليهم، منشغلاً بتجميع شجاعته ليسأل على حذر:

- مولانا العيثاوي، أعزك الله وأيدك، هل جد جديد مع ذلك الكركي الذي أخبرتك عنه؟

راح الشيوخ المتجمعون حول أكواب اليانسون الفخارية يتذكرون من جاءهم من أعيان ورجال يتواسطون في شأن الكركي، فلم يعطوا فرصة لقاضي القضاة ليحجب، وبدا كما لو أنهم أجمعوا على أن الرجل استحق أكثر من حقه من اهتمام العامة، ولم يخفوا تخوفهم من ذلك الالتفاف الغريب حوله، والمصطبة التي تدبج فيها الفتاوى ويجروا أصحابها على الفقه، ويختلط فيها كبارات المدينة بأشقيائها، ومسلموها بزميبيها، وكلما أوشكوا على الانتهاء من أخبار الكركي، اندفع إعلان يؤجج ذكره مشيراً إلى ارتحال الرجل من بلاده في ظرف مريب، بعد أن تعرض لعقاب «يستحقه في الأغلب» من قاضي عجلون.

تذكر قاضي القضاة الليلة التي أشغله فيها الكركي بحوار سقيم، وكيف تمكن الرجل النكرة من استجلاب غضبه وتحديه، وعادوه الرجل من فنة يمكن للرجل إيقاعها بين شيوخ الشام والسلطان الذي تجرأ عليه في مكتوب مستنكراً الدعاء له في مساجد الله.

اختار قاضي القضاة الاحتفاظ لنفسه بالكلمة الأخيرة، والخبر المؤكد، باتراً الحديث، وهو يرثشف كوبه الذي برد تماماً، قائلاً:

- «والله لقد أزلتم عني كربة بت فيها، وشبهة قامت عندي، أسأت الظن بها في علماء هذه البلد، لأنني تأملت كفریات هذا الملعون وإعلانه بها، وقد قبضت عليه واستودعته البيمارستان دون السجن، خوفاً من أن تغلب العامة علينا وتستخرجه، خصوصاً وقد بلغني أن بعض أكابر الجند وأشقاهاهم يعتقدونه».*

استحسن الجالسون إجراء القاضي وقطعوا الحديث حول الرجل، ونزل الخبر برداً على نفس علان، لكنه إذا ما دخل الليل وهو في فراشه، يسمع بكاء جمان في العلية، وهمسات زيد وخولة في الحجرة المجاورة، فإن النوم جافاه تماماً، واشتد نغز قدميه، كما لو أن عظامه تتفتت، تحرك الألم يجوس جسده، ثم يضربه في منتصف نافوخه، لم ينجح في مداراة أوجاعه حتى الصباح، فصاح بأخ وجيعة عالية وآهات متتالية شقت سكون الليل، وأيقظت أهل البيت وأفزعتهم قبل دخول الفجر.

انشغلت عائلة الدرويش علان بمرضه، وامتلأت ساح البيت بالمريدين، وراحت خولة تستجيب لتعليمات جعفر، فتعد لبخات العرعر الدافئة، تذيب فيها بعض ما جاء به زوجها وشقيقه من ملح بحيرة زغر، فتضعه على قدمي والدها وتدفعه بالأغطية، فينام الرجل وقد تلاشت آلامه لساعات، ثم يصبح مجدداً إذا ما تجدد الوجع، لم تكن الفرصة مواتية لجعفر وزيد للجلوس إلى الضيفة المليحة مطولاً للسؤال عن أخبار أهليهم، وباتت هي نفسها قليلة الكلام ساهمة النظرات

* النص كما ورد في «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي».

كثيرة بعد معرفتها بمصير يحيى، أخبرتهم باقتضاب أخبار ذويهم في الكرك، وأنباء ولادات نفل المتتالية، والمرض الذي أصاب عيني مريم فأضعف بصرها، كما أربكتهم فرحاً واشتياقاً بخبر عودة هفوف إلى البيت، سيل من الأخبار جعل الواحد منهم يحس كما لو أن الدنيا شطرتهما وغيتهما في بئر بعيدة، وفككت عرى حياة كاملة إلى شظايا لا يربطها رابط، إلا أن الفجيعة الأكبر كانت من نصيب جمان.

تنظر إلى مرآة خولة المدورة فتطل عليها امرأة لا تعرفها، ترى شحوب وجنتيها، وسواداً يميل إلى ظلال بنية تحت جفنيها، والحسن قد ولى، وحل خوف في العيون، وعمر يفيض بالذكريات، مذ كانت جارية هيفاء تجيد الغناء وتكثر الضحك في إستانبول أو مصر، إلى أن سرقت عواطفها عصريات حديقة الصنفاف، وأمنيات ليالي الربيع، وزهرة الليلك المنقوشة على الآنية النحاسية، والقلق الذي عاشته في المحروسة وهي تنتظر وثيقة عتقها.

خبلت الفرحة عقلها وقد وصلت إليها الوثيقة وصارت طي ثيابها، عاودتها ذكرى الأيام الهائلة المفزعة التي تلت سفر وليفها، وتشقبت فيها حال مصر فبطش الوالي بالمماليك، وانتشر الانكشارية يقضون على ثورة السباه، يحرقون ويقتلون، ويغنمون أملاكاً هجرها أصحابها، إذ هجَّ العوام من حوانيتهم والساحات العامة، مختبئين في بيوتهم، وعُلِّت رأس الوزير على باب زويلة فما عاد لقانون قيمة، ثم انضم غضب السماء إلى غضب الإنسان، انتشر الطاعون وحصد أرواح الناس، مستهدفاً الشبان والأطفال، هرب البعض إلى الجبال، أو الصحاري الجافة بحثاً عن ملاذ من القشعريرة التي تقتل في أيام، فكانت وسيدتها هفوف تركبان آخر عربة خرجت مسرعة من الأزبكية قبل وصد الأبواب وعزل الحارات عن بعضها بعضاً، لا تزال تذكر الروع الذي هزها وهي ترى جماعات

يحملون الجنازات المتوالية ويدفنون الموتى في ساحات خلاء، ودموعها حين لم تستطع ولوج الربع للاطمئنان على أهله، وكيف سارعت وسيدتها ترتديان ثياب الرجال في مغادرة المحروسة مع الهارين، واكبت رحلتها وصول الوالي الجديد محمد كرجي الخادم الذي قطع رؤوس الفتنة، وقاضيه قول قران محطم العبيد.

لم تكن الرحلة نزهة أو تسلية خالية من المتاعب وقد استغرقت ما يقارب العامين، بين حر سينا وبرد الشام، ومرافقة القوافل وأطماع الرجال وسلب ونهب قطاع الطرق، والجوع والعطش، وفيض المشاعر الموجه الذي ما فارقها في الكرك وهي تستقر لزمن تواسي آلام مريم مستترة على آلامها، وكم من ليال سهرت يخامرها الشك وتعبث بها الظنون في ما إذا كان عشقها يستحق رحلة العذاب الطويلة هذه، بل إذا ما كان الرجل الذي تكبدت من أجله المشقة يتذكرها، ويحفظ عهدا؛ وهو الذي اختار دربا صعبا، ربما لم يعد للنساء فيه مكان أو موضع!

واهنة، سمعت أسئلة الفضول التي حاصرتها بها مضيفتها الشابة، وهي تستنكر تحمل امرأة لكل تلك العذابات باسم العشق والهوى، ابتسمت جمان بسمة حزينة تقنع نفسها، وتغنت:

- هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل... فما اختاره مضنى به وله عقل.
ضحكت خولة غير هازئة بوجع العاشقة، ولكن التقاطها قصيدة ابن الفارض التي حفظتها كاملة في كتاب خالها، جعلها شريكة حوار لطيف، أكملت القصيدة في أداء متواضع تحاول فيه محاكاة التنعيم الذي أبدعته الفتاة:

وعش خالياً فالحب راحته عنا فأوليه سقم وآخره قتل

أعجبت لعبة مناوشة المعاني المغنية التي سهت عن الشدو زمنًا، فرفعت
عقيرتها وحركت عُرب صوتها المنسية، وشدت بانسجام:
ولكن لديّ الموت فيه صباية حياة لمن أهوى عليّ بها الفضل

طوقت خولة جيد الصبية من خلف بود، وهي تجرؤ على رفع صوتها، وإن
افتقرت لطلاوة الصوت:

- نصحتك علمًا بالهوى والذي أرى... مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو.
جاراتها الصبية ضحكا، وعاد لصوتها جلاؤه، ورهافة التقطيع، وعذوبة
الاسترسال، فانطلق صادحا:

فإن شئت أن تحيا سعيداً، فمت به	شهيداً؛ وإلا فالغرام له أهل
فمن لم يمت في حبه لم يعيش به	ودون اجتناء النحل، ما جنت النحل
وقل لقتيل الحب وقيت حقه	وللمدعي هيهات.. ما الكحل الكحل

شهقت خولة وزفرت؛ فما سبق لها سماع صوت كهذا ندي رائق، وبكى زيد
وجعفر في الخارج مستعدين رجوع صدى غناء هفوف التي عادت إلى قريتها وما
تمكننا من ملاقاتها، إلا أن الشجن الذي عمر بيت الدرويش شقته صرخته المتألّمة
مجدداً وهو ينادي غاضباً ابنته الملتفتة للغناء دون مراعاة واجبه، لم يغب عن بال
الأخوين وخولة أن الرجل يخلط بين غضبه وألمه، لكن حيلتهما في العطارة بدت
محدودة، استشارا الطبيب الأندلسي الذي قلب جسد المريض، متحسّساً
بأصابه الخبرة مواقع الألم، مدلكاً، ورغم استحسانه لبخات العرعر علاجاً، إلا
أنه فوجئ بالملح الذي يخبئه جعفر العطار على هيئة أحجار كريستالية بيضاء
لامعة؛ إذ على علو علمه ومعرفته إلا أنه لم يسمع في الأندلس أو أوروبا بمعجزات

ماء زغر، ورجح أن ارتفاع المعادن في الملح المجفف قد تساهم في العلاج، فجأة، والجمع متعلق حول سرير علان؛ خطرت ببال الأندلسي فكرة أثارت الصخب، كأنما هي كوة في العتمة وفرج بعد ضيق، قال الأندلسي:

- لنحمله إلى بیمارستان القميري، هناك يتكفلون بعلاج صحيح، وإذا لزم كئي أو حجامه، تهيات لها ظروف مواتية وصحية، عدا عن توفير سبب لا يثير الانتباه لنا لدخول بیمارستان، فقد تعبنا من تسويق الساعور ومماطلته، قد تكون تلك طريقة نلتقي فيها يحيى ويطمئن بالناس.

في معمعة الفرح الذي أصابهم للفكرة، والوجع الذي نغص على علان نشوته، أسرعوا إلى اكتراء حصان للأندلسي، وبغل لجعفر، وآخر حملوا عليه المريض، مستبعدين النساء بقسوة، وقصدوا القميري والأمل رفيقهم.

كانت الحديقة خالية تماماً حين ولجوا البوابة الكبيرة، ساروا وراء المرشد الذي لاقاهم بحذر ممتنعين عن أي سؤال يفصح نواياهم، ناظرين في كل جهة كأنهم يستطلعون المكان المبلبل بمطر سابق، قادهم المرشد شمال القميري، وأدخلهم في صالة متسعة تعددت فيها الأسرة وانتشر المشافون يرتدون مرايل من الكتان الأبيض، ومرضى على الأسرة أو الطراحت يعالجون من كسر أو التواء أو وجع دفين، عاين الطبيب الشاب حالة علان باهتمام، ذلك صدره وجس عضلاته الموجوعة في نفس الخطوات التي سبقه إليها الأندلسي، ثم استدعى فتى يحمل دفتراً وريشة، وراح يسأل والفتى يسجل، متى بدأت الأوجاع، متى تشتد؟ وعلى أي صورة تكون؟ ماذا تناول من دواء وأي علاج خضع له؟ وعندما ذكر ملح زغر، قفز حاجبا الطبيب الحكيم دهشة، وهتف:

- من أين جئتم بملح زغر؟

انتبه جعفر للاهتمام الذي يثيره دواؤه، وكأي عطار تاجر، أحاط دواءه بالغموض مشيراً لصعوبة تحصيله؛ لعل الطبيب يقصد الشراء.

انتقل الاهتمام من المريض إلى الدواء إلى أشخاص المرافقين، إذ إن ذكر اسم الوليد الأندلسي أحدث تغييراً غريباً في تصرف الحكيم، مديده بحفاوة وفي عينيه بريق إعجاب، انحنى بنصف جسده وهو يعرف نفسه:

- تلميذكم المتواضع هاشم الحموي*.

يمكن للأندلسي التباهي بسمعته التي سبقتها، وتصنع تذكره للطبيب الذي يقول فخوراً بأنه تلقى على يديه درسين في مدينة البندقية إبان كانوا ينادونه باسم سيرجو لابروتا، تضرجت وجنتاه خجلاً، فذاكرته لا تسعفه بزم من اللقاء؛ لكثرة من مر تحت يديه من طلاب وأسماء ومدن. هرباً من حرجه، لفت انتباه الطبيب برقة إلى حال المريض، تراجع هذا خطوة، وفرد ذراعه كأنه يدعو الأندلسي ليحل مكانه، وهو يقول:

- لا يفتى ومالك في المدينة.

شاعت أجواء الترحيب والاهتمام، ولقي المريض عناية كبيرة؛ تمت إحالته للعلاج سريعاً، بينما انصرف الرجال الثلاثة وقد تعارفوا وتداولوا في غياتهم الجانية، تاركين المريض يُتمم علاجه على أيدي المشافين، فاجتازوا الممر الواصل بين الجناح الشمالي والجنوبي في المشفى، دون أن يثير فضول الطبيب الحموي السبب وراء رغبة أستاذه في زيارة جناح الممرورين بعلقة النفس والعقل، بل إنه قطع بهما الدرب ملهوفاً لتحديد ميعاد يجمعه بأستاذه مجدداً، وإبرام صفقة يتناع فيها ملح زغر من العطار الذي يرافقه.

* نسبة إلى مدينة حماة.

في ذلك اليوم، وعلان يتلقى حماماً دافئاً، وتجهز له إبر لوخز ركبتيه وكاحليه، وتلف قدميه بعجينة من الزنجبيل والكر كم و حبة البركة المسحونة، أسهب المشفى في الحديث عن صحب يحيى الذين عادوه ناقلين له أخبار وصول محبوبته إلى دمشق.

تطائر رماد النسيان، كما لو أنه ما نسيها لحظة، ووقعت رحلة الصبية العسيرة موقع الألم في فؤاده، لم يعد من السهل قراءة عينيه، وخلجات وجنتيه المرتعشتين، وهو يغالب البكاء أمام الصحب والمرضى الملتفين حوله، ما ظن يحيى لو هلة أنه يستحق الحجيح والسعي الذي تكبدت المحبوبة عناء لملاقاته، وعاتب الروح لانغماسها أعواماً في دنيا خلت من جمان حتى جفت ينابيع التذكر، كأنها ما كانت أنسه ومبتغاه وتوأم روحه ولون جلده، هزه عشق المرأة مجدداً، وقال وهو يسلم جوانحه للشوق ويدوب وجداً:

- أبلغوها سلامي، وأني على العهد، وما شئت لها تكبد ثقل وعد يضمني ويميت.

شاع أمر الزيارة بين النزلاء والمشافيين، ووصل إلى أسماع الساعور بسبب حماسة الطبيب الحموي لاقتناء أملاح زغر، إذ اقترح على الساعور شراء تلك الأملاح الناجعة في علاج أمراض العظام والعضلات، مفصحاً عن الرجال الذين جاؤوا المشفى، وبينهم أستاذة الأندلسي الذي رغب في زيارة مريض فسهل له الأمر.

وقع الخبر موقعاً سيئاً عند الساعور، وأفقد صبره، خاصة أن ميعاد استيفاء جامكية الحكماء قد اقترب، وأنه موعود بصفة شخصية برفع جامكيتيه من خمسة عشر إلى عشرين ديناراً، أحس بالاختناق، وأن عودة الفوضى إلى المشفى ستزيد اللغط، وقد توقف الجرايات؛ وقد يُراقب هو شخصياً، ويحرّم من حقوقه، وإن

أفنى عمره بجد بين المرضى وتعليم الحكمة، ظن أنه لا يستحق أن يفسد امرؤ عليه هناءة نجاحه، ويؤخر قطاف غنائمه.

استدعى منصور الساعور كل من السلتي والحموي معاً، مصدراً قرارات عقابية توقفهما عن العمل لثلاثة أيام؛ إذ تجاوزا في تصرفاتهما أوامره التي تمنع الزيارة إلا بالرجوع إليه، وبتصريح مدموغ بختمه.

تحدث منصور بن رسلان بعصية عما يلمسه من تسبب وتجاوز لا يرضاه، كما أصدر أمراً بالتعجيل في علاج الدرويش الذي احتل حجرة في الجناح الشمالي، والتسريع في إخراجه من المشفى دون السماح له بالتنقل كما فعل أصحابه، معتقداً أن تهاونه السابق مع الطبيب السلتي جر عليه تطاول الحموي، وأن الحل يكمن في وخزة قوية توقف العبث الذي يطيح بأنظمته، كما تحجم المشافين الصغار الذين يسمحون لأنفسهم بتجاوزات تعيث فساداً في المشفى، وفي إجراء علني اتضح فيه التحدي، أعلن الساعور إشرافه بنفسه على علاج المريض.

عزله في حجرة جانبية في نهاية الممر الجنوبي، أوقف على بابها حارسين غليظين عوضاً عن الرفيقين المطمنين اللذين كانا يرافقان النزول، وشطب من ملفه الذي يسجل فيه ملاحظاته على المرضى عبارة «الكركي، مصاب بمس طارئ»، وخط بريشة راجفة بدلاً منها عبارة «الكركي، مصاب بمانيا حادة أورثته مانخوليا خطيرة، أفسدت ظنونه وفكره، فصار غاضباً على كرب ووحشة، نقوم بعلاجه في معزل وفق خطوات تضمن تثبط نزواته والتحكم بجنونه».

دبت الفوضى في الجناح الشمالي إثر إيقاف الحموي، وتهامس الأطباء المشافون والمطمنون والمرضى في الإجراءات الجديدة، متواصلين مع الغضب الواقع جنوب المشفى عبر الممر والحديقة المفتوحة، فالذين أغضبهم اقتياد يحيى

إلى حجرته المنعزلة أوقفوا أشغالهم، وتباحثوا سرّاً، وفي الإيوان افتعل المرضى المجانين ورديات صراخ وعويل متكررة، لم يعلموا كيف سيكون العلاج الجديد المقترح للكركي، وحده مشرف الشرباخانة حمل أدواته وأخلاقه، وتبع الساعور والحارسين إلى الحجرة متلفّتا بجزع، وإذ أُغلق الباب بمفتاحه الحديدي الكبير من الداخل، فإنه فتح جعبته وأخرج قواريره وأخلاقه، وراح يمزج تحت نظر الساعور نقيع البابونج والخشخاش، ثم اقترب متهيباً من يحيى الذي راقب ما يدور حوله صامتاً هادئاً جالساً في سريره، وقد غمر وجهه سلام عاشق نال ما أحب؛ غارقاً في النشوة متذكراً أن المحبوبة قريبة منه وراء السور، بإمكانه تنشق شذا عطرها، وإن كان يقينه باللقاء محتاراً قلقاً مترقباً.

غمس الصيدلي كفيه في المنقوع السائل ثم مسح رأس المريض به، ونظر بطرف عينه إلى أحد الحارسين، فوقف كجدار خلف جسد المريض الذي أُجلس في سريره، رفع الحارس ذراعين لاحمتين وكفين خشنتين يثبت كتفي المريض، ظل يحيى ساكناً كأن ما يجري لا يخص جسده؛ وإن رأى الصيدلي المعالج يخرج موساً حاداً من لفة الكتان، ثم يقطع جديلة شعره به، ويمرره بين ما نفر من خصلات تبقت، يحلقها بسرعة وحرفية، فيتطاير الشعر الأسود متناثراً.

ما ظن الساعور إن يحيى يحافظ على سكونه، ويظل مستسلماً صامتاً لا يسأل عما يفعلون به، وأزعجه لوهلة أن المريض لا يبدي دلائل الجنون المطبق، ليتأكد؛ رفع بنفسه الكوب الطافح بالملح والشحم ومغلي بزور الفجل، مراهنأ على تحفيز رفض المريض، دفع الكوب إلى شفاه الرجل مرجعاً رأسه إلى الخلف بشدة عنيفة تنم عن غيظه، وصب السائل بجرعة وافرة في حلق المريض الذي غرغر متفاجئاً، ثم كرع السائل دون أن يعتري وجهه امتعاض أو إشارة لتقرز أو نفور، تبادل الرجال النظرات، وعاد الصيدلي إلى ترطيب الرأس المحلوقة بماء

الخشخاش مضيئاً الحليب الساخن، سال الخليط على وجه الكركي محدثاً حرقة في العينين، ارتعش جفناه في اهتزازات متسارعة، فاطمأن الساعور متشيئاً لأول استجابة جسدية، وأحكم الحارس إمساكه بكتفي الرجل وساعديه، بينما أكمل الصيدلي صنيعة فاتحاً قارورة فاحت برائحة زنخة منفرة، سكب منها ماء غلي الكراعين فوق الرأس الحليقة، التي اهتزت هزة لا يمكن تفسير فحواها، إذا ما كانت رضا مستسلماً، أم استكراً حزيناً؛ في تلك اللحظة تجمعت كل أخلاط المحفزات التي تكرر عليها يحيى والتي أحاطت به، شعر بانقلاب يضرب أحشاءه، وتقلصات لا يتمكن من ضبطها، حاول ضم جسده وهدل كتفيه فوق بطنه، فلم يوفق، والحارس يشد ظهره بقوة إلى الخلف، اجتاح الغثيان كل حسه، فتأرجح راجفاً بين يدي الحارس، ثم فغرفاه قاذفاً بكل ما حوته أحشاءه، عند أول اهتزازة، ابتعد الصيدلي والساعور، ومد الحارس الآخر سطلاً أمامه؛ كأنما الاستعدادات مهيئة للقيء الذي لم يفاجئهم، بل إنهم استجلبوه قصداً، وواصل الحارس شد جسد المريض الذي اسودَّ لونه وشحب، همس الساعور منصور متصراً:

- خرج الخبيث من الجسد.

لم تكن تلك الإجراءات إلا بدايات المداوة الأساسية، إذ مُسح الموس الذي حلق الرأس بالملح، وجفف بخرقة قطنية، وربطت ساعدا يحيى بحبل غليظ، وأحكم شد ظهره إلى صدر الحارس مجدداً؛ رغم تهالكه إثر ماء غريب تجرعه يفوح برائحة منعشة، وطعم حراق حذق.

تحسس المعالج جبهة المريض بضربات خفيفة من إبهامه، مثيراً شرايينه والأوردة، ويمناه مرر الموس سريعاً على الجبهة، فتفصد دم غزير، لم يمسك

يحيى صرخة الألم، خرجت متحشجة واهنة، وقد تخذرت أطرافه لفرط ما كرع من شراب الخشخاش الميثبط.

رُمي يحيى للفراش مشدوداً بالحبال، غائب الوعي، متسخ الرأس والجسد بعفونة ماء الكراعين وما تفصد من دمه، وما علق من قيء على شعر صدره وعند فتحة جلبابه الكتاني، واندلق السطل الطافح بالقيء أرضاً، والمعالجان يسرعان في مغادرة الحجرة كأنما يفران من سواد يلاحقهما، لم يتبادلا الحديث، وافترقا ووجهاهما ممتقعان بخوف خفي، بينما انتاب الحارسان حزن مفاجئ مجهول، تجاهلاه كما تعودا، وخرجا سريعاً ليقتفا وراء الباب الموصل مثل صنمين.

عبر الحديقة، مرت أطياف ثلاثة تتحرك حذرة، تسلت وراء أشجار عراها الشتاء، انتقل المتسللون من شمال اليمارستان إلى جنوبه، في الأحوال العادية؛ ما كان للطبيين الحموي والسليتي التصرف كدخيلين، ولكن ما أحاط بهما من غضبة الساعور وإجراءاته دفعتهما لدخول مقر عملهما تلصصاً، حريصين على السرية، وقد رافقهما في تسللهما السري مريض جناح العظام وهو يعرج، أفلحت اللبخت الساخنة في تشيطه، ورغم علمه اليقيني أن الساعور شَمِلَةٌ بتعليماته، وحرّم عليه الانتقال إلى الجناح الجنوبي، إلا أنه يشعر بتحدّ ظريف، وفضول واسع للقاء يحيى؛ والتأكد عياناً أن منافسه الذي أيقظ في فؤاده كراهية ينوء بحملها، ولا يستطيع فهمها، سيبتعد عن ساحته أخيراً.

لمعت في ذهن إعلان فكرة عبقرية؛ سيقنع الكركي بمغادرة الشام كلها، والعودة إلى الكرك، سيقول له إن من حق البنت الشجاعة التي قطعت البر والبحر للقياء الاقتران به بين أهله، سيزين له حياة رخية بعيدة عن دمشق، حياة يكون له فيها زوج وولد وخلان، سيفلح هذه المرة في إبعاده بطريقته الفذة تلك، ويسدي له

خدمة حقيقية، فيريحه ويرتاح، فقد شقي الرجل بينهم، وشقوا به، ولا بد أنه باحث عن الخلاص.

تلجج الحارسان عند الباب، وتبادلا النظرات كأنما يستشير الواحد صاحبه في ما إذا كانت تصرفاً سليماً استجابتهما لرغبة الطبيين ومرافقهما الدرويش في الدخول إلى يحيى، فالحزن الذي تجرعه إثر حضورهما جلسة علاج حبسهما ما زال ماثلاً، لمعت قطعتان فضيتان دسهما السلتي في كفيهما، تمنعا وجللاً في البداية ثم تلفتا بفزع، وهمس أحدهما:

- دقائق فقط، دقائق، لا تنسبوا في أذيتنا.

دخل الرجال الثلاثة على الكركي، شهق الحموي وجحظت عيناه قبل أن يسد أنفه ويرتد خطوة، بينما اندفع السلتي في لهفة نحو الجسد الممدد يفك وثاقه ويعدله، ويتأكد من تجلط الدم في الجرح المتشقق في مقدمة الجبهة، وهو يلعن ويهذر بكلمات غاضبة، ووقف علان متصبلاً.

تبادر الموت إلى أذهانهم، إلا أن الحركة الضعيفة التي لمحها الطبيان المتمرسان في صدر الرجل، دلت على الحياة، وقف علان في رعبه صامتاً، وهما يعدلان السطل، خلع الحموي عمامته، مسح بها ما علق في الوجه من دم وقيء، ولم يمسك السلتي لسانه عن السباب، بينما تمالك الحموي نفسه، واقترب يساعد في مسح وجه الرجل، وإسقاط كتل القيء المتخشبة عن صدره وجلبابه، دون أن ينقطع عن ذكر الرحمن الرحيم والتضرع إلى رب العالمين، مضت دقيقتان كأنهما دهر قبل أن يتحرك علان بخطوات قصيرة ثقيلة مقرباً من مرقد الرجل، طأطأ رأسه ينظر الوجه الغارق في الغياب، وغالب نفسه هنيهة؛ ثم انحدرت دموعه.

ليس من السهل فهم ما وقع لعلان، لم يكن مشهد جسد يحيى ممدداً كما الجثمان المقتول في ساح الوغى وحده الذي استدعى ملاكاً قادراً على البكاء على

عدوه في تلك اللحظة، لكن الملاك الذي أتعبه حبال الشيطان في الدرويش، وتوارى عندما كان علان يقسو على الزوجة المريضة، أو يتنصل من مسؤوليات البنت، أو يوافق الانكشارية ومبعوثي السلطان، أو يحيك المكائد في همساته وشراكه الصغيرة ينشرها هنا وهناك، هذا الملاك المتواري الغائب، نفص جناحيه واستجمع شجاعته، وبسط نوره فوق الظل الأسود المنتشر في ضمير الرجل؛ فقد تجاوزت خطاياه المشاعر والأفكار والشكوك، إلى الحيلة والتحريض وإيقاع الشر بالمحيطين، وإيقاظ الأذى، تمكن ملاكه من اختراق ظلام يكبل الروح، وحضر قوياً لا يقبل الهزيمة، في لحظة عابقة بروائح الدواء وعفن القيء وانتصار الخبث الأسود، حضرت ملائكة الرجل؛ أيقظت فيه المؤمن المداوم على ذكر الله في حضراته، وفي السر والعلن، فانتشلت من غيه، وبعثت ضميره، وقدحت زناد الندم. انهمرت الدموع سخية على صمت أولاً، ثم خر الرجل النادم على ركبتيه ناسياً وجعهما، تشبث بكفيه في سرير المريض الذي أخذته الغيوبة، وأجهش بالبكاء عالياً، فبات هم الطبيين قبل العناية بالكركي إخفات صوت بكاء علان منعاً لتنبه من في الخارج، سحباه عنوة وهو يمد ذراعيه متوسلاً طالباً الصفح والغفران من رجل مسجى في غيوبة، لا يسمع، ولا يرد.

انقلبت حال البيمارستان تماماً، تصرف العاقل والمجنون بغضبة رجل واحد، وتدفق المعالجون والمشافون من كل جناح إلى جنوب المشفى، وتبعثر الحرس عند البوابة الخارجية أو في الممرات وعلى أبواب الحجر، حتى الخدم والطباخون غادروا مواقعهم يستجلون الخبر، في معمعة الفوضى وانكشاف تسلل الطبيين، أسقط في أيديهما وما عادا يخشيان ملامة، بل إنهما ظهرا بين الجموع التي احتشدت في الإيوان، ووقفوا على صندوق خشبي كي يتمكنوا من مخاطبة الآخرين وهما ظاهران للعيون، وعلا صوتهما يشرحان تبعاً ما شاهدها، ولم يتردد السلتي

في تفسير واستنكار ما قام به الساعور من باب مجاملة قاض ظلوم؛ لا من منطق حكيم حلف قسماً مقدساً تجاه الإنسانية، وجأر المجانين ملوحين بقضائهم، من يعرف منهم ذلك النوع من العلاج، قدر رغم جنونه انتفاء العدالة في تطبيق ذات الألم على رجل عاقل، جروا الصيدلي عنوة، فوجد نفسه في حالة دفاع مريبة حين أكد أنه ليس مسؤولاً عن تشخيص، لكنه تلقى أوامره من كبير الأطباء، وأوهم أن الحالة تستحق مثل هذا العلاج، وفي سبيل اتقاء الغضب الجماعي راح يخلط أخلاطاً جديدة تخلص الجسد مما وقع له، وتنقيه من سموم أصابته بالإعياء، وتركت العقل ذاهلاً أسيراً لهلوسات تخلط الحاضر بالماضي، وخيالات تخلع الرجل من مكانه إلى فراغ.

عاد إعلان إلى الصباح مدعيًا ألماً لا يقوى على تحمله، مثيراً شكوك الأطباء الذين تهيئوا لإخراجه من المشفى، ثم أحجموا متفحصين حالته بعجب ودهشة، دبت الفوضى في المكان وأتت أكلها، دعر الساعور وتسلسل من باب أفرد لدخول المؤمن خلف المبنى، فر الرجل من هلاك محتمل على أيدي المرضى الغاضبين، ساعياً إلى لقاء قاضي القضاة، والاعتذار عن استكمال علاج الكركي.

وقف الساعور أمام قاضي القضاة العيثاوي باحترام كبير، لكنه لم يتردد في إظهار جزعه واصفاً حال البيمارستان، فرك كفيه خائر العزم راجياً القاضي إخراج الرجل من مشفاه طلباً للسلام بين الأطباء والمرضى، مدلاً على ولاءه في الإجراءات التي تطوع بأدائها كي يُحجّم ثورة الأطباء، ويحفظ سير العمل في أمان، ولعله استجدى مقهوراً لإرسال المريض إلى الحبس، فإنه لو حول إلى البيمارستان النوري مثلاً لأوقع الفوضى كذلك وأثار أشد الفتن، لكن مكانه؛

حبس يسجن فيه وراء القضبان، ويحيط به حراس أشداء، لا حكماء ومطمنون ينصاعون للعواطف.

تأمل قاضي القضاة الرجل أمامه، ورأى في وجهه صورته، وومضات من نفسه في خوفه وجزعه، فالرجل فزع من اختلال قبضته على أتباعه، وضياح سطوته في إدارة مشفاه، وربما حريص على رزقه وعمله، تعاطف القاضي مرجحاً الاستجابة لطلب الساعور والانتهاه من أمر هذا الرجل الذي سقط عليهم فجأة من العدم، لكنه بما أوتي من تدبر وحكمة؛ لم يستعجل الأمر، تخيل الخطوات السليمة لمثل هذا الإجراء، ونصح الساعور الخائف بالعودة إلى مشفاه رابط الجأش، واعداً الغاضبين بتنفيذ مبتغاهم، مسترضياً أطباءه ومجانيه إن لزم الأمر، كما أمره بالتوقف عن علاج الرجل على نحو يذهب بعافية جسده، فإذا ما تعافى واسترد زهوه في المجادلة والحوار، أُستدعي لمحكمة يشهد عليها علماء دمشق، فيثون في شأنه جماعة، إن شاؤوا نفوه عن البلاد، وإن شاءوا حبسوه، ولا يكون لأحد الاعتراض إذا صار الحكم عليه في جمع.

لم تكن عودة الساعور ولا جلسته مع العاملين في المشفى هينة عليه، فما تعود الاعتذار، أو ترك الشأن لسواه وقد أخذ به أولاً، لكنه أراد مخلصاً تنفيذ اتفاقه مع القاضي، فأفلح في تبريد نار الغضب، ورصد تصديق عيونهم لوعوده، بل إنه في الأيام اللاحقة ترك المشفى لإدارة العاملين فيه كيفما اتفق، والمداواة لكل طبيب واجتهاده، جالساً في حجرته يراجع أوراقه ودفاتره كأنه لا يعلم ما يدور، يسمع عودة الموسيقى في الإيوان، ويرى المظمنين يقطعون الحديقة مسرعين متدثرين من البرد القارص الذي رافق انقطاع المطر.

حرص كل من الطباخ والصيدلي على عيادة الكركي مرات في اليوم، أما السلتي الذي يشعر بنشوة الانتصار لدى عودته للعمل وتمكينه من أداء مهامه دون

تدخل، فقد راقب حالة مريضه على مدار الساعة، جالساً على كرسي في حجرته، فاتحاً بابها للزائرين من نزلاء المشفى، ولصوت القانون الذي نقله العازف إلى الممر الأكثر دفئاً، فما إن بدأت استجابات يحيى تميل إلى أوضاع طبيعية، حتى زفَّ الطبيب النبأ إلى صاحبه نزيل جناح العظام؛ فجاء إعلان جارا قدمه بعض الشيء في حركة خفيفة تلمحها عين المتمعن بسيره، مخطوف الوجه وقد جفَّ ريقه، ألقى يحيى جالساً في سريره يتسم بدعة ويهز رأسه مرحباً، خر إعلان على ركبتيه كما فعل سابقاً، متعمداً نخز جسده بألم كبير، واحتقن وجهه متلوناً بحلقة، واغرورت عيناه بالدموع، ثم أجهش أنيناً متقطعاً ويحيى يمسك كفيه في دهشة، تصاغر الدرويش الذي عاش شيخ جماعته ورأس حكمتها، ومرجعها العالم بكل شيء، وهو ييوح بشنيع وشايته، وحسده الدفين؛ لكنه منذ انتصرت ملائكته على شياطينه حصَّن النفس من كل شر، واختار درباً تقود إلى الجنة ولا تحرقه بنيران الضمير ولا نار الآخرة؛ مثل رجل يختلي بربه، اعترف إعلان بذنوبه، وتوسل الصفح.

صمت يحيى هنيهة، وما حمل وجهه دهشة ولا استنكاراً ولا عتباً، وظلت الابتسامة تعلق شفثيه في حنان بالغ، ووقف الطبيب حائراً مستنداً إلى الباب مُكْتَفٍ الذراعين، وأطل الحارسان ينظران في عجب موقف الظالم يستجدي عفو المظلوم، وتقطعت نغمات الموسيقى التي يوقعها العازف على الأوتار، بينما تزايد عدد الواقفين فضولاً، وكست اللوعة وجوههم، حتى رفع يحيى رأسه وأرجحه قليلاً مغمضاً عينيه، وخرج صوته رائقاً حانياً منخفضاً، يعلو كلما تقدم في ورده:

- يا غَفَّار.. إلهي.. أظهرتَ الجميل تفضُّلاً، ومحوتَ يا غَفَّار كل قبيحة...

إلهي.. يعيش العبد ما عاش عاصياً، وأنت إلهي ستار للخطية... يبارز

بالعصيان مولاه عالمًا، بأنك محصي ظهره والخفية... إلهي.. كما

أرسلت فضلك سابقاً، فُجد لي بمحو السيئات، قلبها وعظيمها.. يا
إلهي... يا غفار.

لم يفلت يحيى كفي علان اللتين اهترتا كما لو أن برقاً ضرب الجسد، دخل
الرجلان في ارتعاشات متتالية، ومشية الغفران بينهما تحولهما إلى حضرة كاملة،
وتمايل الواقفون عند الباب، ودمعت عينا السلتي وعازف القانون يوازن بين
ترجيع دعاء يحيى وأنغام الوتر.

ترك علان برفقة صاحبه لحظات، وقاد الحكيم المرضى الذين دخلوا الحجرة
إلى الخارج برفق هامساً في أذني الحارس، فأكمل تفريق من تبقى، وأغلق الباب
على الرجال الثلاثة، فإذا ما انتهى علان من نحييه، وصمت يحيى وما فارقه
الابتسامة، جلس الحكيم هامساً بجديّة:

- جاءني من حارس استأمني على اسمه، أنه عشرين أوراق الساعور على
فرمان أصدره قاضي القضاة، يطلب ترحيل يحيى إلى المحكمة. الذي أثار
انتباهي أن الترحيل سيتم غداً يوم الاثنين، وقد حدد ساعة غروب الشمس،
كأنه أمر سري لا يريدون للعامة أن تكون طرفاً فيه، فالأسواق المحيطة
بالمحكمة توحد حوانيتها في تلك الساعة؛ والمحكمة تنهي أعمالها، ولا
يجتمع القاضي مساءً بآخرين، أو ينظر في قضاياها إلا لغرض مريب!

لم ينتظر علان رؤية حكيمة الحموي، أو أوراقاً تمنحه الحق في مغادرة
البيمارستان، خرج من بابه الرئيسي قاطعاً الطريق إلى أقرب تجمع يعثر به على
كرائي البغال، امتطى بهيمة، إذ إن الوجود يبطئ من خطوته، ودربه طويل متعدد،
كما أن صعود هضبة بستان الورد سيكون أمراً شاقاً، ولن تتيسر عودته إلى بيته في
الميدان راجلاً.

أحدث وصوله البستان تجمعاً منع كثيرين من الانصراف ريثما يجلون الخبر، وأسرع الفتيان يستدعون صاحب عملهم أبوسندس، وتطارت أنباء خروج يحيى المحتمل في كل صوب، وصلت أسماع الدراويش، وناسجي الحرير، وعطاري سوق البزورية، والشيوخ، الخباز، والغزي، والكردى، والأسطواني، كما الوليد الأندلسي، وتجمعات الزط، وأسباه الجند، ورهبان الكنيسة.

عند المساء وصل الخبر إلى جمان.

لم تنم المرأة ليلها الطويل كله، تقلبت تجر غطاءها وترخيه، ما بين حمى تعصف بها وبرد يبعث على قشعريرة تهزها، مشت في ظلام البيت، وجلست تحت سماء حالكة غاب نجمها بغيوم سود كثيفة، والصقيع يرش الموجودات بالندى، وعلى كثرة ما ألحت خولة عليها كي تنعم ببعض النوم، إلا أن النعاس جافاها، كانت متيقنة أخيراً من لقاء الحبيب، مزعة على انتظار مروره عند باب المحكمة ومناداته، والتنعم بإشراقة جبينه، شغلت ليلها بتمشيط شعرها وتجميله، وفرك ساعديها برحيق الورد والزعفران، ورش قطرات الياسمين الشحيحة التي حفظتها في حُق صغير بين ثيابها من أيام القاهرة، كأنما تتغندر لعرسها، منتظرة دخول الفجر كي تقف مع خولة وشهناز ونسوة أخريات جئن يشددن أزرها، صلت النسوة ركعتي الفرض، ولأول مرة وقفت جمان بين المصليات، تركع وتسجد وتترك جبهتها تلامس بارد الأرض، تتضرع لرب السماء، ولا تمنع دموعها من تبليل صدرها، وقد ابتلَّ شعرها برطوبة الحناء وندى الليلة الطويلة التي قضتها في ساحة البيت الخارجية، وهي تقبض بفرح يخالطه جزع على مشخصها الذي لا بد أوصلها للقاء.

مع أول شعاع لشمس النهار تحرك جمع كبير من البستان قاصدين المحكمة في أسفل الهضبة، كما تجمعت النسوة مغادرات الميدان يحف بهن رجال من أبنائهن

وأخوتهن، وقاد جعفر جمعاً من العطارين، وتبعهم نساجو الحرير الذين تواعدوا في درب جمجق مع الخياطين والدراويش وأسباه الجند، لم تفتح الحوانيت أبوابها كما لو كان يوم عبادة لا يوم بيع وشراء، بينما خرج المصلون والأئمة من صحن الأموي مسرعين في دفعات متتابة، فإذا ما صعدت الشمس يخالطها غيم أسود كثير؛ اكتظ الدرب بالناس.

الهابطون من بستان الورد، والدالفون من زقاق جمجق، والقادمون من الميدان، احتشدوا جميعاً بعباءاتهم ودوامرهم، عمامات بيض بشاشها الأخضر فوق رؤوس المسلمين الوجهاء، والقاووق اليهودي بشريطه الأحمر لوجهاء اليهود، والقبعات الحمراء دون حواف لعوامهم، وعمائم الأسباه المماليك، وربطات الزط الملونة، وعمائم النصارى الزرقاء، جاء تركمان من الميدان، وأكراد من الصالحية، وزط من محلة الخراب، وعسكر من الميدان وساروجا.

اكتظت معابر سوق الخياطين المفضي إلى بوابة محكمة القسمة البلدية، حيث توارى حراسها من شرطة الجندرية أو عسكر الانكشارية مخلوعي الأفتدة أمام الجمع الكبير الذي سبقهم إلى السوق، فربطوا بين الحشد والأوامر التي بلغتهم قبل الفجر بتعليق منشورات إغلاق الحوانيت، وفتح باب المحكمة قبل الغروب بقليل، وزيادة عدد الحراس، والتأكد من حملهم سيوفهم في أغمادها، وخناجرهم في أحزمتهم الجلدية، اتخذت النسوة موقعاً متقدماً قرب درجات المحكمة يتفادين فيه الاختلاط بالحشد؛ وإن قصدت جمان الاقتراب من البوابة للتأكد من رؤية الحبيب عن كثب، وجلب أبوسندس سلال الثمر وخبزاً في الأشولة، فوزع صبيانه الأرغفة وحبات الثمر على الجمع مرتين، وجاء الرعاية بزكائب من الحليب الخاثر، فطعم الناس وشربوا حتى العصر، وما دخل المحكمة

كاتب أو قاضي أو صاحب حاجة، كأنما عطلت القضايا في ذلك اليوم، وإذا دارت الشمس دورتها وافية من مشرقها حتى قرب المغيب، أطل موكب القاضي. تقدّم الموكب الوقور محاطاً بالحرس، وعند رأس الحارة التي تقود إلى المحكمة، ترجل رجال الركب عن ظهور الخيل، شقّ لهم الدرب انكشاريان يلوّحان بعصيهما المزخرفة فينزاح الرجال إلى الجانبين، سارا وقاضي القضاة الشهاب العيثاوي يتوارى خلفهما، يخبّ في خطوة سريعة، بينما لحق به متأخراً بخطوة الشيوخ؛ الشمس الميداني، ثم تاج الدين التاجي، والحسن البوريني، فتحت بوابة المحكمة على قدر دخول رجل واحد، وهروا رجال الموكب داخلين، وما إن دلفوا جميعاً حتى صك الباب، وسمع الناس صوت الرجاج يحكم إغلاقه، فتصايحوا.

أنيرت القناديل في داخل المحكمة وخارجها تبعاً، مودية بالحلقة التي هبطت مبكراً في ذلك اليوم الشتوي الغائم، وقد تباحث القضاة والجند في شأن تكوين ما يشبه السد البشري، يفتح درباً إلى المحكمة من الرجال المسلحين توقعاً لوصول ركب الساعور ومجنونه، وندم القاضي وهو يرى الحشد، إذ فاته منذ الصباح إصدار فرمان يمنع فيه التجول بعد المغيب، اصطفّ الجند وتكاثروا، دافعين بالناس إلى الخلف، عندما خط اللون الأحمر زوايا الغيمات في الأفق، ظهر الركب محصناً بمزيد من الحرس، يمكن رؤية الساعور يتقدمه، بينما يصعب لمح يحيى الذي يدفعه حراسه بينهم، اخترق الركب مسرعاً الدرب وسيوف الحراس مشرعة، وسط ضوضاء وصياح وتهليل وتكبير.

شُقت الخوخة* الصغيرة التي تتوسط بوابة المحكمة، كان أول المندفعين إلى الداخل حارس مد ذراعه يُسهّل للساعور اجتياز فتحة الباب، دُفع يحيى دفعاً، في غفلة، وعلى مستوى منخفض، بين أجساد الرجال والحرس المتدافعة، امتدت يد ناحلة راجفة تائقة، ولا مست كما برق خاطف كف يحيى المغلولة خلف ظهره؛ فتحت الأنامل النحيلة الباردة أصابعه التي تكورت في قبضة يمينه؛ ودست فيها شيئاً بارداً مدوراً، قبل أن ترتد اليد منسحبة بين أجساد الحرس، تحسس يحيى الاستدارة الفضية الباردة، وتمكن من تمييز الخطوط المتقطعة الممسوحة قليلاً لرسم العذراء، فأغمض عينيه متشياً، متيقناً أن المشخص وقع في كفه، وأن اللحم الحي المترف الذي لامس خشونة أصابعه كان أنامل الحبيبة، ورائحة الياسمين التي دهمت شمه؛ عبت من طيات ثوبها، لم ترها عيناه؛ لكنه امتلأ بوجودها، فعبّ من الهواء تنشقاً وسّع صدره، وولج باب المحكمة باسمًا، مستبشراً، محلّقًا، كأنما يطير.

- هانحن أخيراً نلتقي.

قالها قاضي القضاة، لبدأ جلسته التي أضفى عليها ضياء القناديل سحراً غامضاً، وجلس فيها الشيوخ متراصين حول القاضي على أرائك الجلوس الخفيفة، بينما جلس كاتب المحكمة إلى كرسي عالٍ أمام طاولة مربعة، وقف الساعور يبدي احتراماً للمقامات حتى دعوه للجلوس، أحاط الحرس بالحجرة الواسعة التي طقطق في وسطها حطب منقل* مشتعل بجمرات كبار، ومع كل تلك الإحاطة العجيبة فإن يحيى الواقف بين أيديهم، بدا منسلخاً في نشوته الخاصة.

* بوابة صغيرة منخفضة.

* وعاء نحاسي لاشعال الحطب.

تغاضي القاضي عن استيفاء يسق* المحكمة، إذ لم يتكلف عناء تعيين من يمثل المذنب؛ وكان مستغنياً عن نقود يمكنه تحصيلها من المتهم، ومستعجلاً انقضاء محكمته لهذا النهار الغائم، التفت إلى الساعور؛ وبإشارة من كفه دعاه لتقديم تقريره، فانتبه الشيوخ.

حمل الساعور ورقته مرتبكاً، فلم يتعود -على حصافة شأنه في مشفاه- الوقوف مثل هذا الموقف المهيب، ولم يسبق له قراءة تقاريره جهراً، وإن أحسن ديباجتها، ابتلع ريقه مرتين؛ واعتذر عن ارتبائه مرتين، بينما كاتب المحكمة العارف بالعربية والتركية والفارسية يهيم السجل المربع الصغير، ويغط ريشته في محرته؛ خاطأ عبارة «فتح السجل مولانا قاضي القضاة الشهاب أحمد العشاوي في محاسبة يحيى الكركي الأردني القادم من - كرك الشوبك»، مناوئاً سجله للحضور يختمون اختامهم أسفل الصفحة شهوداً، ثم بصوت خفيض قرأ الساعور ورقته واقفاً:

- السلام على من اتبع الهدى.

تمتم الشيوخ يسلمون ذاكرين الله والرسول، وأكمل الساعور هيباً:

- هذا خطابي لكم، أضعه أمانة في أعناقكم؛ للنظر في شأن مريضنا الذي أحلتموه إلينا، فقلب حالنا في البيمارستان القميري؛ وساد عبث لا طائل له، وفوضى لا قبل لنا بها، وألب قلوب الرجال بعضهم على بعض، وحرص على العصيان، وأفشى أفكاراً ملحدة والعياذ بالله، وهذا عن علة أصابت يافوخه، وبدلته بين فتور وهلوسات عديدة، فما نفع فيه دواء، وإلا ما كان يقف بين أيديكم وقد بدت عليه علامات العافية، أحيله إليكم؛ عسى أن

* رسوم القضية المالية.

تكشفوا عن ضر عقله وشياطينه، فما عاد بالإمكان أن يقدم له اليمارستان
أكثر مما قدم، من فضلكم أن تمنوا علينا بانتقال شأنه إلى حكمكم السديد؛
وتقديركم الرشيد.

خط الكاتب التركي ما التقطه من المعاني بلغته وبحرف عربي - خط الرقعة،
بينما ختم الساعور كتابه بالصلوات والدعاء، فما نسي شيخاً حاضراً ولا خلط بين
المراتب، تاركاً الدعاء الأكثر لسلطان البلاد وسدة الحكم؛ السلطان العثماني.
سمع الشيوخ بوضوح تمتمة يحيى:

- تجليت في جمالك فانبسط بساط الرحمة.. أنت راحة الأرواح.. أناديك..
أناجيك عبداً كسيراً.. واقفاً ببابك أسألك ما تفيض به.. اجعل حظي منك
إشراقاً يجلولي كل خفي..

نظر الشهاب العيثاوي بعينين يسكنهما الشك، وتبادل الشيوخ النظرات، تنحج
الشمس الميداني؛ يستأذن فتح الكلام، موجهاً خطابه ليحيى:
- نفهم من كلماتك أنك من المتصوفة يا رجل؟ هؤلاء الذين يدعون صلاة
بالله دون البشر، ويشاهدون ما لا تراه العيون!
قال يحيى:

- من يُقيم معراجهم؛ لا يشاهد إلا الحق بعين القلب والبصيرة.
سأل الميداني بفضول:
- ألم ترأسلني يا رجل في ما مضى؟ ثم أتيت إلى دمشق من بلدك الكرك كي
تلقاني وتنال إجازتي في ما تقول! فعلام تفاديت الحديث معي؛ وقد التقينا
مراراً في الأموي؟ وكيف رحّت تروج لفتاويك دون إجازة من شيخ؟

جاء صوت يحيى أشد ثقة مما توقع الشيوخ، فما أنكر أنه كان يقصد الميداني،
لكن الوقائع بدّلت رحلته إلى مهنة وأصحاب انشغل معهم في مجالس حوار

وتفكر؛ لكنه ما أقر بتجرئه على الفتوى، وسمى ما كانوا يتداولون من أفكار؛ اجتهادات تقبل الصواب أو الخطأ.

حاول العيثاوي تصويب مسار الحديث لافتاً إلى أن القضية التي يجتمعون عليها اليوم، تتعلق تحديداً بتناول الكركي على السلطان، فماذا هو قائل؟ قبل أن يجيب، ردد الكركي في سره: إلهي العليم... أزل جهل نفسي يا عليم. ثم نظر إلى العيثاوي مجيباً بأناة:

- لسنا والله أعلم من الخليفة أبي بكر إذ قال: إن رأيتُموني على حق فأعينوني، وإن رأيتُموني على باطل فسدّدوني. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله؛ فلا طاعة لي عليكم.

زفر العيثاوي الهواء من فيه، وعادت إليه ذكرى ليلة المجادلة العقيمة، إذ بدأه الرجل بذات الحجة والكلمات، لكنه وبحضور الشيوخ تريث مبدئياً صبراً وتلطفاً:

- ليس لدي شك بأنك حافظ لكتاب الله وسيرته وأحاديثه، وقد تلقموني الحجة وراء الحجة، ولكنني أقولها لك صريحة واضحة، إذا ذكرت سيرة أبي بكر أو عمر؛ أو سواهما من الأوائل، فإن السلف الصالح كان ذا همة عالية؛ تبين لهم الحلال من الحرام، ونجوا من الفتن، ونالوا المراتب العلية، لكننا في زمن؛ لا ترخى فيه المرس للعامة؛ ولمن أحب التقول على أولي الأمر، دون ذلك مخاطر كثيرة، كان رسول الله عالم بما سيحل بنا، لهذا قال صلى الله عليه وسلم: «لا تنابذوهم بالسيف ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولا تكم شيئاً تكرهونه؛ فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يداً من طاعة».

كان يمكن للحديث النبوي أن يصير حجة دامغة تنتهي إلى تسليم يحيى بما أرادوا، لكنه وقد غفل عن ما أعد من ترتيب، وانقاد إلى طابعه في تقليب الأمور، والبحث عن الخفي وراء الكلمات، راح يتلو على مسامعهم أحاديث موثوقة لا تحتمل الريبة أيضاً، فيذكر بحديث عن علي قال فيه ينصح عثمان: «تعلم يا عثمان أن أضلّ عباد الله إمام جائر»، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في جهنم، فيدور فيها كما تدور الرحي، ثم يرتطم في غمرة جهنم».

تأمل العيثاوي المجادل الذي جربه، وارتحى في مجلسه تاركاً تبادل الكلام يجري دون تدخله، كعادته حين يقرر الاستماع والإمام بالصورة كاملة، وإعطاء نفسه الفرصة لتبدو مريثة حكيمة، في حين أدرك التاجي أن الرجل سيدخلهم في متاهات لا قبيل لهم بها، وقف هاتفاً بغلظة:

- يا هذا، إنما حساب السلطان وعقابه وتقويمه، شأن من شؤون الله، ولا برهان لنا على حقنا في انتزاع ما أراد الله بتحكيم أحدهم على البلاد والعباد، وجل ما هو مقبول الدعاء للإمام بالهداية والانصراف لشأن هداية ذاتك من الوقوع في الخريطات والهلوسات، واعلم أن نفس ذات الحضرة السلطانية مقدسة وغير مسؤولة أمامك أو أمامي، وإذا ما ذهبنا إلى التفرع واستعداد العامة، فإننا نقود الناس إلى فتنة، ونسمح بظهور البدع والخزعات.

أمّن الحسن البوريني على مقولة صاحبه وزاد:

- ما نصب الله الأئمة إلا واصطفاهم واختارهم لقضاء حوائج الناس، وهو يرث الأرض وما عليها، فإن فسدوا - وهم بشر - ندعولهم بالهداية؛ وإلا

كان هرج ومرج ومضرة، وأن تكون الناس تحت حاكم فاسد لزمان طال
أو قصر، لخير من فراغ يوم بلا قائد، فيقع نزاع وتراق دماء.

تخفف العيثاوي وانشرح صدره؛ والشيوخ يكفونه ثقل جدل الرجل العنيد،
فما أراد وهو في موقع شيخ الإسلام امتهان حجته جهاراً مع صوفي أرعن مثل
الكركي، ولا ابتغى فقدان حلمه وحكمته وما عرف عنه من صبر؛ وهو في مرتبة
توازي الصدر الأعظم، كان حريصاً على صورته المهيبة، فلم يكثر من
المحاجة، رغم أن الأسير المدان لم يتورع عن الغمز من قناة الأئمة والفقهاء،
معرضاً بالفتاوى التي تناقض العقل، ولا تتوافق وقيم الخير والعدل التي شاءها
الله للبشرية، لخنوع أو جهالة أو مطمع في منصب أو أعطيات، حتى جعلوا الدين
سيفاً في غمد السلطان، وخيمة تحجب شمس الحقيقة.

أظهر الميداني صبراً ورزانة فائقة في مقابل نزق التاجي، بينما تحدث الحسن
البوريني كمن ينصح غراً؛ لا يأخذه مأخذاً جاداً، فانبرى يقول بأبوية متكلفة:

- لو جاءنا في التوعدو، كافر، أو صليبي، أو خارج عن المسلمين، لكنك
أنت أول من نستدعي للجهد، فهل تفر من فرض فرضه الله؟ يا ولد، اعلم
أن الجهد ماض مع الإمام، براً كان أو فاجراً، فإذا كان الجهد بالنفس،
وهي أعلى ما يملك الإنسان، واجباً؛ لا يبطله جور ولا يحتمه عدل، إنما
هو قرار أصحاب الحل والعقد، كيف إذن ترفع عليهم سيفك؟ والله لا
يحل لك؛ حتى لو غلبوك بالسيف، فمن صار خليفة بإرادة الله، حلت
طاعته؛ وحرمت مطاولته، فلا تكن يا هذا من أهل البدع، ولا تمنح صكوك
الإيمان والكفر كيفما اتفق، فتحلل وتحرم.

استمرأ يحيى النقاش، وذهب في حوارهِ إلى التفسير، وإن رد على الشيوخ تصنيفهم لكلامه على أنه من باب التحليل والتحرير، قال بذلة مشفوعة بثقة العارف:

- أنا العبد القليل الجھول، أَكْفَرُ أو أَمْنَح صك الإيمان! معاذ الله، ما يريد المؤمن العابد من وراء الكلمات، أكثر مما وقر في وجدانه من شغف وتوسل للخالق، لكن التأويل المغلوط الخطير في أثره، يقع من إمام ظن أن سيف الله وقع بيده دون سواه، أو سلطان تسلط على المعاني يسوقها أينما وَجَّه رسن خيله ونصل سيفه، فإذا بالعامّة يتبعون دروب هوى سلاطين الدين، وسلاطين الحكم، فيفسرون على منوالهم؛ مضيعين لحظات الوجد والكشف والنور والحقيقة والمعرفة، ضارين حول عقولهم وقلوبهم أسيرة من تحریم وتحليل، وتكفير وتسليم، كما شاء لهم سلاطينهم، وربما أكثر مما يراى منهم، في سعيهم المحموم في سباق إرضاء السلاطين ونيل أعطياتهم بالحق والباطل.

صفق التاجي واقفاً، وخلط حديثه بقهقهات خفيفة ساخرة:

- أحسنت يا ولد، هه، أحسنت، عافاك، لك من زمام الكلام كثير، لكننا لسنا من العوام السذج الذين تنطلي عليهم أحابيلك، أعرف أن تلك ألعيب المتصوفة، وأنت منهم؛ تظنون الحقيقة من نصيبكم دون الناس، وتلعبون بالبيضة والحجر، تؤلهون أنفسكم بكلام حول الاتحاد بخالقكم، ومن ثم تعتدون على أئمة المسلمين وأصحاب الشأن الذين يعدمون النظر وهم يدرسون كتاب الله وكتب السلف، فترفعون كلامكم سيوفاً في وجوههم مستهينين بهم.

حدق يحيى مندهشاً والشيخ يكيل اتهاماته، راجع ما صدر عن لسانه موحياً بتلك المعاني الملتبسة، واطمأن إلى براءة عقله ولسانه مما أورده الشيخ، فرد بنفس الدعة السابقة:

- الذين يقولون بالاتحاد يا شيخنا، هم نفر صغرت اللغة عندهم وأعجزتهم عن تصوير وجدهم، فاختاروا أشدها إيحاءً ووقعاً، أرادوا قولاً تفنى به نفوسهم، وينكرون بكلماته أنفسهم، هي طرائق لغوية مثلما يقول المسيحيون بعيسى بن مريم: «اتخذ ناسوته* بلاهوته*»، وإن التبس الأمر على العامة، فإن هذا لا يدينهم، لقد رافقت «عيون الحكمة» لابن سينا في عمري كله، أتلمس كلماته ونفحاته، وعلمت أن الكلام لم يحمل وجد قلبه كما أراد واشتهى، وتتبع أسرار ابن عربي المخبأة في الحروف، فما وجدت الكلمات إلا لغة الألسن، بينما الإيمان لغة القلوب، ما من امرئ لا يدرك عبوديته، ولكن المرء يشتهي الفناء بالكلمات أو الوجد، كما يفنى الوهم في عين الحقيقة.

أشار الميداني لصحبه بكفه كأنما يطلب الرد على المتهم دونهم، صمتوا، وتنحى الميداني قائلاً:

- لو اختار الإسلام الصوفية طريقاً؛ لوافقناك، إنما تتبع درب إمامنا الشافعي الذي لم يجد لدى المتصوفة منطقاً يقارع به، فقال رحمة الله عليه: «صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين، أو ثلاث كلمات، قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم: نفسك إن لم تشغلها

* إنسانيته.

* كتاب رب المجد.

بالحق شغلتنك بالباطل، وقولهم: العدم عصمة». وكلها كما ترى، إذا كنت
ليبيًا، ليست إلا أمثالا وأقوالاً تفتقت عبقریات الشعراء وعوام الناس عما
هو أهم منها وأبلغ، فلا تشغلنا بكلام لا يفيد، وليس كثيراً أن تتواضع
نفسك تلك التي تدعي أنك سقتها إلى الكمال.

قاطع يحيى كلمات الشيخ متعوذاً:

- معاذ الله أن ادعيتُ لنفسي كمالاً.

أراد الميداني بتر المجادلة العقيمة، والوصول إلى حل عملي لا يريق ماء وجوه
الشيخ، وينهي تلك الليلة الباردة الطويلة، قال بضيق:

- لا تقاطع يا رجل، كنت أقول؛ ليس كثيراً أن تتواضع بين أيدي العلماء،
فتعذر عما بدر في رسالتك، وفي كلامك، وتكف عن إشغال العامة
ومطاوله السلاطين، وتنصرف إلى عيشك عارفاً بموقعك، ممسكاً عليك
كلاماً؛ لم يُجزك عليه فقيه، ولا أنت أهل له، وليس من ورائه إلا الفتنة،
وقدر صبرنا عليك، وضياح وقتنا في مجادلتك، دع إلهامك أو خيالك الفذ
يقودك، تصور؛ ماذا يكون مصير من يعارض السلطان؟ أو من يعيث بأمن
الناس، وينبه المتربصين، ويعيث فساداً وإفساداً؟ وإلا فإننا نرفع شأنك إلى
الوالي الحافظ، لا تمنعنا عنك رحمة، ولا تصيبنا بك رافة، ونخرج من كل
ملامة قد تصيبنا بسبك، ونمنع فتنة قد تندلع بسبب أفكارك.

عقب يحيى بما حضر ضميره من تفنيدات أستاذه ابن عربي، قال:

- الفتنة في السكوت على الأذى، وأكبر الأذى ما يوقعه سلطان جائر، الله
عادل؛ لا يعطي الظالمين حق المساكين، وقديماً قال ابن عربي: الحكم
نتاج الحكمة، والعلم نتاج المعرفة، فمن لا حكمة له لا حكم له، ومن لا
معرفة له لا علم له.

ظن التاجي أن إصرار الرجل على الجدل والتعريض بالسلطان، وقاحة لا يجدر قبولها، وعلى الرغم من غضبه، فإنه حاول السيطرة على الجلسة بهدوء متشبهًا بقاضي القضاة، مكتفيًا بهذر خفيف قائلاً:

- هه.. ستبدأ الآن في سرد خزعبلات المتصوفة، قلنا لك إننا لا نتبعهم، نعلم تلاعبهم باللفظ، وسقوطهم في الهيام والإلهام المنسلخ عن الواقع. تصدى يحيى للفكرة ثابتًا:

- خير من أعلى من شأن الواقع إمامنا الغزالي رحمه الله، لكنه أراد يقيّنًا نصل إليه بعد تجاوز رحلة الشك، أما قال: «من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر يبق في العمى والضلال»، والله ما شاء ولا تشاؤون أن نقيم في العمى والضلال، وإن رحنا أولاً نتصور العالم عبر الإلهام والخيال، فالغزالي الذي يحكم العقل ويحتكم إليه لا ينكر الإلهام ويقول: «الإلهام ضوء من سراج الغيب، يسقط على قلب صاف لطيف فارغ»..

ضحك البوريني معقبًا:

- ماذا تفعل يا هذا إذا سقط إلهامك المزعوم هذا على قلب فاحش شرير!! فالقلب لا يكون فارغًا، فإما يعمره ذكر الرحمن فلا يقع فيه إلهام، ولكن تسليم لما جاء في الكتاب، وإما تسيطر عليه وسوسة الشيطان فيكفر أو يدعي، أما القلب الذي تحدّث عن فراغه؛ فليس عندي إلا صنفًا من الجنون.

هز يحيى رأسه ممتنعًا عن الموافقة على ما يقال، مستعينًا بما تذكر من كشوفات تراءت له في أنصع لحظات صفاء وبراءة قلبه، مذراح يتتبع النور ينغمد

سيوفاً في حلقة فضاء الخيمة الأولى إبان طفولته، موضحاً ما يفسر له تلك الحالة على قدر معرفته وحده:

- القلب قلبان، قلب تقلبت فيه الشهوات واستحكم الغي، وعميت نواظره عن العسف والتجبر، فهو قلب لم يولد بعد، وقلب خرج إلى فضاء المعرفة، وعلم أن الجسد حبس الروح، غالب شهواته وانتصر للخير، لا سبيل للشيطان عليه، هو قلب أحيأ صاحبه بعد الموت، قال تعالى في محكم آياته: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾*.

ظن الميداني أن خيط الحوار صار في يده، قاطع يحيى، هاتفاً:

- رويدك، ولو كنت لا أحب أن أقطع حديثاً يتلى فيه كلام الله، وإن خرج من فمك المدعي، نزلت هذه الآية في عمر الفاروق وقد تبين له النور من الضلال، وأسلم وجهه لله، ولم تنزل في متصوف يدعي ويتوهم، رويدك، أما ترى تناقضاً في كلماتك على عادة أهل الدروشة والتصوف الذين لا يُعرف عقلاهم من جنونهم؟ تستعين بمقولات الغزالي وهو الذي أرجع التحكيم إلى ما جاء به السلف! ورجح أن الحق الصريح الذي لا مرأى فيه لكل ذي بصيرة، إنما هو مذهب الصحابة والتابعين، وهو من كان عنده العقل الميزان الذي قيضه الله للإنسان محدوداً بإرادته وحده لا شريك له، والله؛ لا أذكر أن الغزالي أو نبي من الأنبياء بشر بك وبأمثالك تأتون بدين جديد.

* القرآن الكريم - سورة الأنعام.

ضحك الشيوخ معاً باقتضاب، وابتسم يحيى بمقدار وقد نال منه التعب،
وتمايل جسده واقفاً، فما وجد له متكئاً، حاول موازنة تمايله؛ وتذكر بخشوع
مقولة رسول الله وهو يمتنع عن رياش الدنيا ونعيمها: «ما أنا في الدنيا إلا كراكب
استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها».

مع انقطاع ضحكهم واعتدال وقفته استنشق نفساً وقال:

- لا يأتي أحلنا بدين جديد، والإسلام طوى ما قبله وما بعده، لكنه ليس
مغاراً ضيقاً مغلقاً، كلما حاد فيه المرء أنملة خرج عنه.
عاجله البوريني بالرد:

- وهو ليس عبادة تضم كل رداء يثير الشقاق ويأتي بالوبال، ويدعي صاحبه
الإسلام فيغض الطرف عنه، ليس من الحكمة التفريط بثواب الدين باسم
اختبار كل جديد.

تنحج الشيوخ مستعدين وقارهم وهيئتهم، وأقسم التاجي:

- والله، لو طار رجل في الهواء، وتربع على الماء، وأتى من الكرامات ما لا
يصدق عقل، وما رأته عين، لما سلبنى تفكيري، وما منعني من تقويمه بما
شرع الله من ثواب وعقاب، فليست كرامات المتصوفة حجة على الشرع.
كأنما دارت الحجة ووقعت مجدداً في لسان يحيى، رد مستبشراً:

- ما اختلفنا يا شيخنا، فما نظرتُ لطريق البشر إلا أنها رحلة تطهير من الشر
والفسق والمظالم، وسالك الطريق عبد تاب عن هوى نفسه وشهواتها،
واستقام في مجاهدة وطاعة وإخلاص، إنما نقطم النفس عن عاداتها،
ونعرف أن لا ظفر لمن لا صبر له، وما كانت الكرامات التي تحدث بها
غايتنا، بل إننا ننكرها، وننكر تمتع الأولياء بها، فمن خرق عوائد نفسه لا
حاجة له بخوارق العادات، صغرت دنياه واكتفى بأعظم الكرامات، وهي

الاستقامة على شرع الله والإمساك بالدين، إمساك الكف بجمر متقد في قبضة اليد، ولنا أن نستشهد بالغزالي مرة أخرى، فهو من قال إن من لا تكون بصيرته ثاقبة، وباطنه على نور، لن يعلق به من الدين إلا القشور.

تنبه قاضي القاضي إلى أن الرجل بات يستخدم صيغة الجمع كأنه ما عاد فرداً، وأن كلماته تُفخّم من معتقده، متناسياً مخاطبته لفرد يفوقونه في العلم والمقامات، تنهد العيثاوي، وعب قدراً وافراً من الهواء، وعدل متكأه، كما لو أنه يوعز للشيوخ بإحكام قبضة الكلام على الرجل، التقط الشمس الميداني دلالة تنهد القاضي واتكأته البليغة، تفحصه بطرف عينه ثم وجه نظره حادة نحو يحيى، وتبادل كلاهما الحديث سجلاً:

- لا تخلو من خبث يا كركي، تنتقي وتختار ما يحلوك من شرع الله، تستنبط الدلالة التي توافقك، كأنك صاحب الشأن، تتبسط حيناً وتجدل كلماتك حيناً حتى تُصيِّع المعنى، وأنا أقول لك، نحن أصحاب الأمانة الموكلون بالعلم والشرع، لا يخفى علينا ما قال به الغزالي الشافعي عن العقل يا رجل، لقد حكّمه في الأشياء، لكنه لم يملك جرأة لسانك، وهو العالم الجليل، عندما وصل الأمر إلى الإله، علم أن لا دور للعقل إلا القبول والتسليم، فلا تدخلنا في سفسطة لا طائل منها، وتعلّم كيف تخاطب من هم أغزر منك علماً، فتأدب، ومن هم أدنى معرفته، فأقصر، فقد أمرنا، ونحن العلماء، بمخاطبة الناس بما يفقهون، ليس كل خفي يوضع بين أيدي العوام، وليس كل ما يقال يصل إلى العقل الغافل.
- خطابي للعقل والقلب معاً، فإذا تعقد المعنى وحرار العقل في الوصول إلى دلالة الكلمة، فهم القلب، وتلذذ واستكان.

- أليس الجنيد المحسوب عليكم معشر المتصوفة من قال: أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم؟

- قدر العقل يزيد أو ينقص بما يتدبره، وكلما جلوت العقل بالمجادلة وأمعنت في مرانه فكراً ومعرفة، شكاً وأسئلة، كبر واتسعت آفاقه، واستدل على الطريق، كمن يتعهد طفلاً؛ ينقله من الحبو إلى المشي، إلى أن يطير.

- يطير! إذا سلمنا أنه تعبير مجازي، مثل ذلك التدرج والتفقه يكون مع نضر قليل، أما ترى تحريم كتب التوحيد والفلسفة إلا على الخاصة، ممن حباهم الله فطنة ومعرفة، وزودهم بإيمان يقيني يقيهم خطو الزلل؟ فحُجبت معارف العارفين وما خطّوه عن عوام الناس؛ توقياً للخلط وتضييع المعاني عند من لا فطنة له، وأنت؛ وما أجازك عالم أو فقيه تتحدث في مجالس اختلط علماؤها برعاعها، يظنونك ولياً أو ما شابه، وإلا أيّ حماقة جاءت بحشد غريب عند باب المحكمة اليوم! إذا كنت مؤمناً حقاً كما تدعي، ازجر النفس عن غيها، وأعلن توبتك صادقة نصوحاً في مجلسنا هذا فقد نعفو عنك، وعمّا أتيت من فعال تطالها حدود الشرع الشريف، أما تتوب؟

وقع صمت لهنيهة، تحرك خلالها التاجي ملولاً، وانحبس نفس البوريني، وتلمظ العيثاوي باحشاً بناظريه عن كوب الماء وقد جف ريقه، عندها شاهد الساعور الذي داخ واسترخى في مجلسه طيف دمع يجوس خلال عيني يحيى ولا ينهمر، لم يكن من الممكن تمييز السبب الذي غشت الدموع لأجله عينيه في تلك اللحظة، لكنه تنفس بعمق ممسكاً انهمازها، وأسدل جفنيه في ضعف وذلة وهمس، وناجى ربه بكلمات ترتعش:

- أتوب.. أتوب.. أنا العبد الذليل في المسير والمقيل، أتوب عن كل ما يشغل قلبي عن الله، أتوب عن كل ما يصم أذاني عن أنات عبيده المستضعفين، وكل ما يعمي ناظري عن عسف متجبريه، وظلم الذين ظلموا أنفسهم والناس.

نهض التاجي من مجلسه مثقالاً وقد تيسست عضلاته لطول الجلوس المهيب، تمطى قليلاً إلى حد لا يحقر فيه هيبة الشيوخ الجالسين، وقال ضجرًا:

- قد أفريت أكبادنا يا رجل، إن المرء ليقول بلسانه كلمات تخسف به الأرض، تنقله من المشرق إلى المغرب، وتطيح به من الجنان إلى قاع الجحيم، أولئك هم المتطعون، هلك المتطعون، الأصل أن يكون لك سند في قرآن أو حديث، وأنت تقفز بنا مثل الجندب بين أقوال الغزالي وابن عربي ومن شاكلهم، وإن تمايزوا أو اختلفوا.

- سالك الدرب يصاحب في مسيره كل من مشى يقصد غاية الحقيقة، فيأخذ منه غرضاً، ثم يمضي، ليلقى سواه.

استشاط التاجي غضباً، وعلا صوته دون حساب للقاضي الأكبر، فشوح بذراعيه ملعباً أصابعه صارخاً:

- ها!! مثل الحواة والبهلوانات، يجمع سالكك هذا في جرابه ما وافق نفسه وغيه وهو!! ما كان لنا أن نفسح لك في الكلام، كأنك صنولنا في علمنا أو مقامنا! وإن أنت إلا واحد من عوام الخلق، وما ظننت أن الاجتهاد حق لمن نقص علمه، وأنت تحدث كلاماً يتعامل معه العامة كما الفتاوى بشؤون دينهم ودنياهم، ومثلك يعرف أن لا فتوى لمن لم يكتمل علمه، ولا اجتهاد لمن لم يحيط بعلوم الدين كافة فضلاً عن اطلاعه على علوم الدنيا، وإتقانه اللغة وأساليبها وفهم الحقائق وحسن التقدير، فهل تراك

أهلاً لذلك؟ وكما جاء في مذهب السلف، ليس لك إلا ما وجب على
سواك من العوام، التقديس، والتصديق، والاعتراف بالعجز، ثم السكوت،
والإمساك، والكف، والتسليم لأهل المعرفة.

تمتم يحيى ذاهلاً:

- والله؛ إنه سيف يرفع.

نهره التاجي معنفًا:

- أيّ قحة يا ولد!!

بنفس الهدوء والتبسط أجاب يحيى:

- الاجتهاد سلم ترقاه الخلائق، لا ينقطع عند صحابي أو فقيه أو شيخ دون

سواه، وهو حق لكل مجتهد له عقل فيرى.

صفق التاجي كفيه مقلبًا صائحًا:

- الرجل يوزّع الحقوق ونحن جلوس!!

نهض العشاوي من مجلسه بعد ملازمة صمته منذ بدأ الجدل، عدل عباؤه
وسار خطوتين، وقف إلى جوار التاجي، لاسمًا كتفه برفق يهدد غضبته، أرجع
البقية رؤوسهم وسووا قعدتهم ينتظرون كلمته، ارتجف الساعور زائغ العينين،
طقطق الحطب المشتعل وتوهج الشرر يحول أسوده إلى رماد، واعتدل الحرس
في وقفتهم المترامية، وغط الكاتب ريشته في المحبرة ونفضها برفق مستعداً لكتابه
ترجمة ما يفوه به قاضي القضاة، بدت لحظات الانتظار الصامتة، طويلة مبهمة.

خرج صوته وقوراً وهو يتعمد خفيض النطق وبطيئه قائلاً:

- بسم الله، قال إمامنا الشافعي، رضي الله عنه وأرضاه: «الذي يطلب

الحديث بلا إسناد، كحاطب ليل يطلب الحطب وفيه أفعى؛ وهو لا

يدري»، وأقول؛ الذي يتجرأ على الفقه، يضع كفيه في جحر الأفعى وهو

مدرك لها، وليس خفياً أن ما كتب علماؤنا حتى المبجلون العظماء منهم قابل للمقارنة، ولا نذهب في اختيارنا إلا إلى ما اتفق عليه جلهم دون الفروقات الصغيرة، ولهذا نحتمي بشرع القرآن مرجعاً، ونرفض اجتهادات ممن لا صفة له، وقد ذهبت بعيداً يا كركي وأنت ترتدي مسح العالم؛ وما أنت بعالم، وما أرى تلك الجلسة إلا ضياع وقت، وتفلسفاً في غير موقع، لهذا؛ كفانا تسويقاً، نمهلك حتى الصباح، تفكر بخالقك، وصوابك وخطئك، وتعتذر عما بدر منك، وتتوب عن تماديك، ستداول في أمرك هنا، ولو قضينا ليننا كله، فلا يقول قائل إنا تعجلنا مصيرك.

أمر الحرس فاقتادوا يحيى مكبلاً بأغلاله إلى حجرة جانبية، وقف بعضهم عند بابها وآخرون قرب نافذتها نعسين، بينما تخفف الشيوخ من جلستهم الطويلة المتعبة، مددوا أكتافهم على الوسائد مسترخين، وفردوا أقدامهم على طولها كما لو أنهم يستعدون للنوم، وأخرج كل من الساعور والكاتب إلى حجرة أخرى فرشت لهما ليناما قبل طلوع الفجر بقليل.

حرك الحارس الهواء فوق الجمر المتقد، وزاده حطباً عليه يغلب شدة البرد في صالة المحكمة الرئيسة.



الناظر إلى الجموع المكدسة على باب المحكمة يحسب موتاً جماعياً حل بالقوم، لولا حركات طفيفة توزعت هنا وهناك، فقد تذرثوا بدوامرهم وعباءاتهم متقين أي حركة تمكن الهواء من قرص أبدانهم بصقيعه، تلاصقوا باحثين عن دفء دماء بعضهم البعض، اصطكت أسنانهم، واشتد الصقيع يسفح وجنات كل رأس يرتفع، كما لو أن المكان وقع في فجوة كونية باردة.

تحامل أبوسندس على نفسه، التفت يتفقد النسوة اللواتي تعانقن ملتويات كما الأجنة، وفك صدراته الجوخية مدثراً بها قدم علان التي لم يعد يشعر بها، ووقر في نفسه أن قدمه ما عادت منه، لعلها قطعة لحم ميت تلتصق بجسده بغشاء جلدي واحد، فقد اصفرَّ وجهه، وأطلق أنيناً كالمواء متألماً في البداية ثم أمسك خجلاً، شل منه الوجع؛ فسكت عن الشكوى والأنين تماماً، فكر لو أن تلك الليلة المشؤومة انتهت بموت رجله وبترها، فإنه لن يشعر بالظلم والإجحاف، لعله يسدد حساب خطاياه وذنوبه فيتطهر، ويعود كما ولدته أمه ناصعاً لا آثام تثقل كاهله. سأل الوليد الأندلسي محتاراً:

- ماذا تظنهم فاعلين به؟

طغى على أبوسندس حدس غريب بحتمية انتصار يحيى مهما وقع، أجاب بهدوء:

- ما عرفت يحيى إلا سيد عقله وقلبه، كيف يكون لسواه حكم عليه إذن؟ لا ينالون منه وإن أرادوا؛ فما ملكوا نفسه الحرة أبداً، إنما هو في اختبار، إذا خرج بجسده سليماً من ذلك الباب؛ فقد غلبهم وأعجزهم، وإذا انتقموا من جسده وعاقبوه كيفما كان العقاب؛ صار فكرة حية لا تموت، وانتصر. تنهد الأندلسي نافثاً الهواء، فتشكلت من حر أنفاسه غيمة ضبابية في مواجهة وجهه، دعك كفيه في دفء بخارها، وسرح بناظريه متأملاً الأجساد التي أحكم البرد هدأتها، تتمم بخشية عميقة:

- قال الفيلسوف اليوناني سقراط وهو يتجرع سم إعدامه: «اللعنة على كل من يُعلم الناس أسرع مما يمكنهم أن يتعلموا»، أخشى أن الناس لم يفهموا فحوى ما يذهب إليه يحيى من قدح شرر التفكير والتدبر في شؤون الدنيا

والدين، إنها لعنة متصلة، تصيب كل من يفكر أو يجتهد، إنه اختبار عسير يا صاحبي.

وذو العقل يشقي في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم*

تيقن يحيى أيضاً أنه أمام اختبار عسير، لم يعتقد أنه يجتازه بكلماته وجدله العنيد، لكن برحمة تنزل على فؤاده، وتدله على السبيل، كان في برد الحجرة الجانيية القارص عالماً بذلك الحشد في الخارج، سامعاً هسيس النار في قاعة المحكمة المجاورة، يرى في حالك فضاء غرفته خيالات الحرس يتميلون عند الباب، ويسمع لمرور الهواء بين الحجرتين صريراً خافتاً ينذر بالوبال، مع ذلك وقف وركبته تثقلان عن رفعه، اتخذ وضع الصلاة، ورفع كفيه إلى أذنيه مكبراً، ثم صلى صلاة الاستخارة.

صوته خافت، إلا أن صفاء لف فضاء المحكمة منح حروفه نقاءً مسموعاً؛ أسكت الشيوخ في القاعة، والحرس المتوزعين في المداخل، وهو يترنم بالدعاء:

- اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، أنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن جميع ما أفعله من هذه الساعة إلى مثلها؛ في حقي، وحق غيري، في ديني ودنياي ومعاشي ومعادي وعاقبة أمري، عاجله وآجله، هو خير، فاقدره ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن جميع ما أنويه، في حقي، وحق غيري، من هذه الساعة إلى مثلها، شر لي، في ديني ودنياي

* المتنبي.

ومعاشي ومعادي وعاقبة أمري، عاجله وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به، إنك على كل شيء قدير*.
تبادل الشيوخ النظر، وهمس البوريني آملاً:
- سيعتذر، سيعتذر.

انبعث صوت الريح فجأة كما جبل دك في الجوار ينه قلب يحيى؛ فما وجد في ضميره خطيئة يعتذر عنها، ولا ظن أن اجتتهاده وأفكاره تنقص من الخير والحق، لكنه تحسس إرادة مسعورة تسعى بإصرار لامتهان عقله وحده؛ ساعة لنيل رضا الأئمة والسلاطين، وحماية الكراسي والعروش والمكتسبات، تعرف في إيهاب نفسه الوداعة على محارب شرس ظل يعالج حقه بحلم المؤمن، وحلو الدعاء، بلغت ترانيمه الساحة في الخارج، مخترقة صفيح الريح:

- العليم..العليم...أزل جهل نفسي يا عليم وزكها.. بسلطان سراسم العليم... وثبت.. أفضني علماً يا عليم.. مقرباً إليك.. بك.. وقدس يا عليم إنيتي... وهب لي نوراً يا عليم.. مبصراً بأنوار سر العليم بصيرتي... بأنوار ما أودعت من سراسمك العليم... بأسرار النفوس الزكية... ينبوع سراسم العليم.. أمدني.. واجعل لعقلي كنه كل حقيقتي... إلهي.. عبقتني بأثير اسمك العليم... إلهي حققني وقورباطتي وطويتني.. يا عليم.

بهت انعكاس النار الأحمر وقد خبت الشعلة في الجمر، واتقد والحارس يهشها مطيراً شررها، رسمت النار خيوطاً ملونة على ملامح الرجال

* صلاة الاستخارة.

الجالسين على الأرائك في القاعة الرئيسية، وكشفت عن إرهابهم وضجرهم، وباحت بالوجوم الذي اعتلى وجوههم، قال البوريني:

- لعل الساعور منصور نام، أسمع شخيرته، أو أنه شخير الكاتب.
هز الميداني رأسه معلقاً:

- محظوظ من ينام، والله قد أطار الرجل النوم من العيون، لم أعرف
عنيداً كعنده، ولا بارداً يققع القلب والمرارة مثله.

فحج التاجي محرراً حبات مسبحة كبيرة بين كفيه، وقال بضيق:

- مثل هذا الرجل لا يؤخذ على حسن النوايا، عندما قال لنا قاضي
القضاة أطل الله عمره بعض التفاصيل، لم أتوقع كل تلك الوقاحة
والفجاجة، مثله لا يترك شأنه في ليلة تنتهي بمزيد من شغبه وعبثه
فيقتض مضاجعنا كل ليلة، ولا أظنه يراجع نفسه ويتوب، ما دام قد
احتكم إلى المتصوفة على كل مشرب ولون، مساوياً بين كتبهم
وتلفيقاتهم وكتاب الله وحديث نبيه، يتحامى وراء ابن سينا، وفكر
الغزالي أو ابن عربي، رفاق قابلهم على الدرب ومضوا عنه! هه! كأنه
يريد أن يخط لنفسه درباً وحده يمزج فيه كل ما عثر به على الطريق،
وإنني أرى أن نطبق فيه ما أقره إمامه الغزالي؛ حين دعا إلى إلجام العوام
عن علم الكلام، وإلا؛ فهي فتنة.

دار حارس على الشيوخ بكؤوس زهورات الورد المحلى بالعسل،
فانتعشوا قليلاً وهم يرشفون ما يعيد لهم حيويتهم وقد ذهب بها الليل، وإن
ظلموا يتداولون في شأن الأفكار التي ألقاها الرجل المجنون دون الانتباه إلى
صمت قاضي القضاة يتجدد، مكتفياً بالاستماع، فإذا ما عاب البوريني ما
يدعيه المتصوفة من اتحاد وحلول، وعده كفراً صريحاً وزندقة معلنة، نبهه

الميداني إلى التراجع عن استسهال القول بالتكفير لكل من قال لا إله إلا الله، ثم عرجوا على مناقشة أمر ابن عربي وتمسح المتصوفة بجبته، وأخذهم بكلماته، وقال التاجي مذكراً:

- وأسفاه على زمن مضى، عندما أوصى الشيخ كمال زاد قبل مائة عام بمنع كتب ابن عربي، وعده متزندقاً، ووافقه المماليك، والله لا أعرف أي غي أعاده للنور، إلى حد أن يكتب الشيخ المكي ابن المظفر اعتذاراً له، معظماً لفكره، هذه هي النتائج، يتبرك به الهوام والعوام والسذج كأنه ولي من أولياء الله الصالحين، حتى من أصابه من العلم جانب، مثل هذا الكركي، يستشهد به، ويحاجبنا بحججه، فما نقول عن كل ضعيف العقل والفهم!! لا بد تزل قدمه ظاناً أنه يفك أسرار كلماته المبطنة الخفية، هذا والله تضييع للعقول، مع هذا؛ يقيمون له زاوية وضريحاً..

قاطع الميداني وهو يحاول أن يكون أكيسهم وأكثرهم منطقاً، قائلاً:

- ليس الأمر على هذا النحو تماماً، فإقامة المقام لابن عربي، أو الرفع من شأنه في مثل احتفالات الدارويش التي يحضرها أئمة وسلاطين، ما هو إلا استرضاء للعامة، وتوسل للدرب مفتوح بمقدار بين الناس والسلاطين، وتطبيب للخواطر، وتخفيف من احتقان النفوس، كأنما يجتمعون على تقديس أمر معاً، لكن مثلنا يعرف تمام المعرفة أن أصحاب الشأن، والحريصين على الشرع والفقه والدين، يتكفلون بحجب جوهر تفكير ابن عربي، ومقاصد كلامه، ووجهة دربه عن العامة، والعوام معذورون، يخالطون في فهمه ويلون؛ لأن الصورة خفية في معظمها، فتراهم يختلفون ويتوهمون.

استنكر التاجي تبسط رقيقه، واعترض:

- لا أظنك تدافع عنه، فما لعاقل مشرع فقيه الأخذ بما جاء به، ما هو إلا مرواغ بالكلمات وخارج عن الإسلام، زنديق.
رد الميداني برهبة:

- أعوذ بالله، إن كل من خاف الله عز وجل؛ استعظم القول بالتكفير لمن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والكفر ليس إلا التكذيب الصريح وهذا العمري من الجنون، أما التنطع والجهالة؛ فتعصمها عن التكفير شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا شأن صاحبنا وغيره من المتصوفة، ولا يخفى عليك ما قاله ابن مالك: «من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد نفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق».

احتقن وجه التاجي ونفرت أوردته، وجحظت عيناه وهو يجيب مقهوراً:
- ابن مالك! وأنت الشافعي! أرايت!! أرايت ماذا يفعل بنا رجل مثل هذا! في ليلة واحدة، ونحن العلماء! أما كنت تلومه وتؤدبه منذ هنيئة؟ والآن! والله إنه لفتنة، صرنا الآن نتجادل؛ كأننا لسنا على قلب رجل واحد، صرت تبحث عن مثالي، ناسياً وزره، أرايت ما أوصلنا له الرجل في ليلة واحدة؟ فما عساه فاعل بالعمامة البسطاء لو ترك يصول ويجول بينهم؟ علينا أن نتنبه فلا نصير ملاعب يعبث بنا الرجل كيما شاء، وعلينا فض علينا هذا على قرار، فمن تنطع واعترض على السلطان؛ لا يمنعه مانع من الاعتراض على المشايخ في أحوالهم وأفعالهم، هذه ردة؛ والردة والله تستوجب القصاص، ﴿ولكم في القصاص حياة﴾*.

- ارتبك الميداني وخطف لون وجهه اصفراراً وهلعاً، همس بحروف راجفة:

- الردة في ضمير المرء، لسنا كاشفين عنها، وتكفير امرئ أو طائفة، أو أي إنسان على الاطلاق حمل ثقل يكسر ظهر صاحبه، وفتنة تحيل الحياة إلى خراب.

انفعل التاجي صارخاً:

- الخراب أن يطلق العنان لكل مستبطن غرور أن يدلي بدلوه.

أثر الميداني الرجوع عن المجادلة وهو يلمس حدة طبع رفيقه، وانصرف يرتشف من كوبه، فعل البوريني فعله، لكن قاضي القضاة تتحنج، ووضع الكوب أرضاً، ثم قال:

- جعل الله علومنا في خدمة ديننا، فقد قال عمر رضي الله عنه: ثلاثة يهدمن الدين: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون.
تنهد الميداني مستأنساً قائلاً:

- هذا ورب الكعبة ما يرقق قلبي على الرجل، أخاف أن يكون المنافق الذي يجادل بالقرآن، لكنني أخاف أكثر من زلة وضلال يمسننا ونحن غافلون! هل نحل دم وعرض ومال رجل، ونحن مثله بشر خطاؤون!!

نظر التاجي منزعجاً فاغراً فمه استنكاراً، حرك قاضي القضاة كفه يهدئ روع الرجلين، وخاطبهما تباعاً:

- أفهم لينك وأخذك الرجل بحسن النوايا يا ميداني، كما أوافقك جزعك من هول القول بكلمة فصل تحكمك بحياة إنسان، ولكنني أعرف دقة وحرص الموقف الذي يشارك يا تاجي، وأعرف أن الرجل بليغ، أحاط بالكتاب والسنة، وقد يعجبنا في حفظه أو منطقته، فقد قتلنا جدلاً، وصبرنا عليه كراً

وفراً، لكنه مثل كل أرباب القراءة الذين لا يقنعون بالسند الثابت وحده، ويتوهمون أن عقلهم بئر لا قرار له، يقدفون فيه كل ما يمر بهم، وهذا، قد وزع عقله بين كتب الضلالات والبدع، لم يكتفِ بالأثر الذي يغنيه، إلا أن الخطر الذي أراه ماثلاً أمامي لا علاقة له بفكر الرجل إن تصوف أو تزندق، أو جن حتى، فاستحق الحبس في اليمارستان، فما هو إلا فرد تسهل إزاحته، لقد انصرم الليل ونحن نتباعد عن جوهر المشكلة، لقد سمعتم عسى أن تكفوني عسير ما سأقول، ولكنكم انسقتم إلى هوامش الجدل الذي أرادته اللعين، وتركتم اللب، الآن أضع بين أيديكم المسألة كما هي. حرك العشاوي كوبه أمامه ولم يرفعه، تنشق جرعة وافرة من الهواء وعادوا الحديث على وقع هادئ متريث، قال:

- ليس زمن التكفير لمن تشيع أو تصوف أو اجتهد باختلاف وانزياح هنا وهناك بعيد، فما انتقضت مائة عام على قتل ألوف العوام والناس في كل ركن من أركان السلطنة، لكننا ننسى، وليس بعيد عنا ما عجل به السلطان في المحروسة بإلغاء أئمة المذاهب مكتفياً بإمامة المفتي الحنفي، وليس سراً أنهم غضوا الطرف عن الشام لوافر خراجها، واستتباب الأمن فيها، وحكمة شيوخها وولاتها وأئمتها الذين يعالجون حياتهم بكتمان، ويسترون كل شأن ينغص على السلاطين، لا تنسوا أن أباءنا استجاروا بالعثمانيين من المماليك، جئنا بهم بأنفسنا، وخرجنا في استقبالهم فرحين مهملين، أعطيناهم عهد الولاء، وأعطونا عهد الأمان؛ ليس في صالحنا أن نترك لفرد أو جماعة إفساد حالنا، وإثارة غضبة السلاطين على بلادنا، وليس خفياً أيضاً أن السلطنة تضطرب في بقاع كثيرة، فالصفويون رغم الموائيق المتجددة يحشون كل مرة، وتتجدد المعارك وتراق الدماء، وقد

يكون أولادنا وقود الحروب القادمة إذا غضبوا منا وعلينا، راق لهم إذلالنا
بترحيل أبنائنا إلى أصقاع الأرض البعيدة، خاصة؛ والانكشارية والسباه
يتحولون إلى أعيان ثقلاء الهمة، نهمين للحياة، لا مقاتلين شجعان، كيف
في مثل هذا الفضاء الملبد بالمخاطر والمخاوف؛ يترك رجل كثير الكلام،
متقول، قادر على جمع الناس وتحريضهم، طليقاً! أهذا ما تراه مناسباً يا
ميداني؟ أظنك تفهم ما أقول!

نكص الميداني والأفكار تتنازعه وتحير قلبه؛ شعر بالعجز والخجل وهو يذعن
صامتاً حزيناً، وانقطعت أنفاس الرجال وهم يدركون أن المسائل التي يعرضها
قاضي القضاة لم تخطر لهم في بال.

تنهد العيثاوي مستعزضاً حكمته التي فاتتهم بابتسامة خفية، وقول جاد قاطع:
- ليست المسألة رجلاً مجنوناً نزع به في المشفى، أو شقيّاً نلقيه مغلولاً في
الحبس، لكنه مثل ناقوس العواني، إذا دق؛ جمع حوله الكثيرين، إذا دق؛
أسمع من قلب دمشق حتى أذن إستانبول، وإذا أسمع؛ التفتوا، وبتنا نرتق ما
فتق رجل جهول، ونخيط ما مزق، قد يكون طيب السريرة خالي الذهن
عما يوقعه من ضرر، وقد يكون مسكيناً على باب الله، أو عالمٌ علامة لم
يجد الزمان بمثله، لكن زماننا لا يحتمله، ومكاننا لا موقع فيه لقدمه، إذا
أفلتنا رجلاً يقف ندّاً للسلطان؛ أكثر السلطان من أعوانه بيننا، وبث عيونه
على رزقنا وشرعنا وزرعنا وتجارتنا، إذا تعاملنا معه كمتعوه خفيف العقل؛
لم يتعامل مع ذاته بمثل ذلك، واستمرّ التهاون معه ولم يرعو، إذا كفرناه
وأوقعنا به القصاص؛ نكون قد استأصلنا جذوره التي تفتن الأمة، وأبعدنا
نظر السلطان عنا، ووجهنا رسالة لكل من تسول له نفسه بالجرأة على
الثقفة والفتوى، وترويج الأفكار دون إجازة نعتمدها، فنؤكد على هيئة

الإفتاء والقضاء، وعلى شرعية ما على الناس أن يسلموا به، بعيداً عن
اجتهادات المراوغين، وخربطات المتفلسفين، فالسيادة للشرع وليس
للأمة، والمشرع هو الله، ومن أناب من خليفة، وليس للشعب أن يسن
قانوناً أو يتخطى شرعاً، وما ذلك إلا بدع وجبت محاربتها.

انخفضت الأصوات في المجلس، وما عاد الحرس قادرين على سماع
الأحاديث التي تدور في جمع الشيوخ الذين تقاربوا، وأحنوا الرؤوس قليلاً
مشكّلين حلقة من عباءات وعمائم تخفي الأصوات والأوراق التي حبروها
بكتابهم للوالي الحافظ؛ يطلبون ختمه لتوقيع القصاص على الرجل إذا لم يعلن
توبته النصوح، توافقوا على العبارات التي تشير إلى ما بذلوه من جهود لرد الرجل
عن كفره وإلحاده، وأشاروا بذكاء إلى تماديه على السلطان، وإلى تجميعه العامة،
وما أحدث من فتنة في المشفى، وطالبوا بعبارات صريحة لا تحمل الترجي، ولا
الاحتمالات، ولا تترك الأبواب مفتوحة لاجتهاد مغاير، إنما تستأذن لتوقيع
قصاص القتل على الرجل الذي لم يعرف حدود دينه، وعرض الناس إلى المفاسد
وخراب العقل والنفس.

تخيلوا ما سيكون ترسيم الوالي، أيجازيه بالخازوق على عادة الترك؛ فيترك
الرجل للموت البطيء؟ أم يطوف؛ فيجمع وراءه العامة ويزداد الضرر؟ أو يوسط
في الساحة العامة؛ فيتناش تابعوه ومريدوه لحمه، ويحولونه إلى ولي وشهيد؟ كل
الاحتمالات بدت مرعبة، جعلت الأختام التي طبعوها على كتابهم، باهتة، مهتزة
عن مواقعها، وتركتهم ساهين مثقلين، لم يتبهاوا إلى انطفاء النار في المعجرة، وإن
كان قاضي القضاة ملزماً بالحراك الذي عجز عنه البقية، مستدعيًا أحد الحراس،
وهامساً بأذنه، واضعاً كتاب الشيوخ في كفه، ثم مستدعيًا سواه، هامساً مجدداً
بأمر خفي.

خرج الحارسان المكلفان من الباب الخلفي للمحكمة إلى ممر الخدمات المؤدي إلى الإسطبل، وسقط صمت كثيب على القاعة، وناست الأضواء متأرجحة في القناديل.



لم تنقش عتمة الليل والحارسان يتسللان إلى حصانيهما في إسطبل المحكمة، راعهما حراك الخيل وراء القواطع الخشبية وهي تحمحم وترفس في موقعها وتتململ يمنة ويسرة، احتاجا إلى مساعدة السائس وهما يفكان حصانين بينما عيونهما على شطط بقية الأحصنة التي تعاند أرسانها، تعودا باسم الرحمن من الشيطان الرجيم، وخرجا في مرور سريع محاذين لتجمع العامة، الذين تململوا رغم الصقيع وأنوفهم تضيق برائحة كبريتية خفيفة تدوخ رؤوسهم، رجحوا أن تلاصقهم طلباً للدفء تسبب في تنافر الأبدان التي ضاقت بمقعدها، لم يلفت انتباههم مرور الحصانين مسرعين.

كان الظلام دامساً في الطرقات، لكن الحارسين انطلقا لا يلويان على أمر، عارفين بوجهيهما ومقصديهما، يحمل الأول رسالة الشيوخ إلى الوالي، ويسوط حصانه كي يصعد إلى القلعة، متخوفاً من الصدود، فما تعود نقل الكتب والمراسلات في مثل هذا الوقت، ويجتاز الثاني حي ساروجة باحثاً عن منزل السيف.

صرخت شهناز مستشعرة لجسد ملس حلس يتسلل بين قدميها، فأر لا يمكنها تقدير حجمه في مثل تلك الليلة الدهماء، قفزت إلى الورااء مصطدمة بصاحباتها راجفة، تصايحن معاً، وأفسحن ممراً ضيقاً بين الأجساد لجمع الفئران التي انسلت فارة متتابعة من جحرها في أسفل حجارة المحكمة العتيقة، لا يردعها خوف ولا اعتبار لأقدام البشر المحيطين بالبوابة، تسربت الجرذان السمينة

والفئران الصغيرة بين الجمع متسارعة قلقة، والتقطت أذنا الأندلسي خفق أجنحة تتخبط، وإذ حدق في الفضاء المدلهم، تبينت لناظريه المدربتين على الدقة أسراب الحمام المبعثرة في غير انتظام على عرض الأفق؛ أو جس خيفة، وصمت متفكراً. اخترق حارس الجندرمة حي ساروجة بحاراته الضيقة الرطبة، مستعيناً بمشعل يطفئه عصف الرياح كلما أوقده، توقف مرات يعالج شعلته، ويثبت طربوشه الطويل فوق رأسه، ولعن الشوام الذين لم يحكموا إغلاق أقفاص الأرناب، وأحمام الدجاج، الذي يتقافز في الدرب على غير تعيين معثراً الحصان، في حين أن الليل أولى بحبس تلك الكائنات في أقفاصها، تمتم غاضباً:

- عرب تمنبل*، ترالالي*.

ما أراد دق الأبواب ولما يطلع الفجر بعد، لكنه راح يفاضل بين البيوت بحثاً عن باب يعرفه تماماً، لا يخفاه لو أن ضوء النهار يعينه، خيل له أن الباب الخشبي الوطيء الذي لا خوخة تتوسطه قد يكون باب السياف الذي يعرف، ترجل عنده، وشد لجام حصانه، وضربه ضربة غاضبة في عنقه ليخفف من توثبه الذي يتجدد بين الحين والآخر، جر الرسن يمينه مثبتاً إحكام قبضته عليه، وطرق الباب بعنف ييسراه، فلم يطغَ مرور الهواء وصفيره في الدرب الضيق الطويل على صدى الطرقات التي وقعت كأنها الطبل، استطاع تمييز الخطوات المتعجلة التي خرجت تستطلع، وميز وجه السياف عند انشقاق الباب؛ فتنهد، وحمد الله أن لم يقع في الخطأ في تلك العتمة، تبادل الرجلان كلمات قليلة موجزة، وتأفف السياف مستكراً توقيت استدعائه، وإن خطر في تفكيره أن الشأن عظيم لا يحتمل التأجيل،

* كسول.

* غبي.

ارتدى عباءته على عجل، وأحكم ربط عمامته، ودس سيفه المصقول في جرابه الجلدي المتين، ثم عاد مرة أخرى داخل بيته حين عاود الحارس الهمس، رجع وقد انتفخت عباءته على الجانبين، ممسكاً بمقبض سيفه في يمينه، لاويًا في يسراه سلة جلدية انبعجت وطويت مسطحة تحت العباءة، تذكر كم من مرة تذلل حتى يسمح له بارتداء لباس الجندرية الذي يبرر حمل سيفه ويقيه انكشاف مهنته أمام المحيطين به، لكنهم استكثروا على عبد أسود ارتداء زي الجراكسة والأرناؤوط.. أفكاره، وصقيع الليل، وعرقلة الطيور الداجنة لخطواته، أسباب معقولة للغضب، ركل الدجاج الهائج عند الباب، ونادى زوجه كي تلم الدجاج إذا كان يخصهم، وصاح بنزق يشتم الكلاب التي تتصايح عواءً في الحارة. أردف الحارسُ السيف، وانطلقا، وقلب الأخير وجلَّ ممَّا ستأتي به تلك الليلة التي بات على يقين من شؤمها.

عانى الحارس الآخر من هيجان حصانه حتى ظن به الجنون، وفقده عند بوابة القلعة، أفلت الحصان منه مختفيًا في الظلمة بمجرد ترحله عند البوابة؛ أزالَت الرسالة التي يحملها من قاضي القضاة كل الحواجز أمامه ليصل إلى الوالي الوزير أحمد الحافظ باشا الذي تولى منصبه للتو خلفًا لمراد باشا.

في الردهة المؤثثة بالأرائك والثريات والدواليب والمرايا، والمضاء بالقناديل، وقف الحارس ينتظر تسليم رسالته يدًا بيد كما أوصي، متوجسًا من تعنيف الوالي له على إيقاظه في مثل تلك الساعة، لكن الوزير الحافظ لم يكن قد أغمض جفنيه للنوم ليلتين متعاقبتين، فقد هتمته وقدرته على التويخ، خرج لرسول القاضي متورم العينين مقطب الجبين متراخي الأوصال، تحول غضبه إلى كآبة، وإن كان لديه أسباب كثيرة للغضب، ليس آخرها أن أوامره وتراسيمه بعزل سنجقي عجلون

وحوران، نُقِضَتْ وَضُرِبَ بِهَا عَرْضُ الْحَائِطِ، إِذْ تَمَكَّنَ الْأَمِيرُ فَخْرَ الدِّينِ الْمَعْنِي مِنْ إِعَادَةِ السَّنَجَقِيِّينَ الْمَعْزُولِينَ بِقُوَّةِ السِّلَاحِ، مَجَاهِرًا بِأَنْهُمَا مِنْ أَعْوَانِهِ وَرَجَالِهِ وَتَابِعِيهِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْمَحُ بِالْتَّعَرُّضِ لِرَجَالِهِ، وَيَحْمِيهِمْ بِالسِّلَاحِ وَالدَّمِ إِذَا لَزِمَ الْأَمْرَ، كَانَ الْأَمِيرُ اللَّبْنَانِيُّ الْمَعْنِي يُولِّمُ وَيُوجِعُ إِذَا ضَرَبَ وَيُجِودُ وَيَفِيضُ إِذَا رَضِيَ، إِلَّا أَنَّ الْحَافِظَ عَدَهُ خَازِقًا فِي مُؤَخَّرَتِهِ، فَبَعْدَ الْمَوَاقِيقِ وَالتَّحَالِفَاتِ الَّتِي قَامَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَالِي الْأَسْبَقِ مَرَادَ الَّذِي صَاحِبُهُ فُغِمَرَهُ بِالْهَدَايَا وَالْأَعْطِيَاةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي عَدَّتْهَا إِسْتَنْبُولُ رِشَاوَى مَكْنَتِ فَخْرِ الدِّينِ الْمَعْنِي مِنْ اقْتِطَاعِ بِيْرُوتَ لِنَفْسِهِ، مَعَ الْجَبَلِ وَالضُّوَاخِي، انْقَطَعَ حَبْلُ الْوُدِّ بَيْنَ الْمَعْنِي وَالْعُثْمَانِيِّينَ.

تَعَثَّرَ حَظُّ الْحَافِظِ؛ فَحَرَّمَ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي يُوْزَعُهَا الْأَمِيرُ فِي شِرَائِهِ الرِّجَالَ وَالْأَعْوَانَ، إِذْ تَسَلَّمَ وَلَايَةَ دِمَشْقَ وَقَدْ انْكَشَفَ أَمْرُ تَعَاوُنِ الْمَعْنِي مَعَ فَرِينَارْدُو الْأَوَّلِ مَلِكِ فَرَنْسَا، الَّذِي أَوْفَدَ سَفِيرَهُ لِيَتَأَمَّرَ عَلَى إِمْدَادِ ثَوْرَةِ اللَّبْنَانِيِّينَ بِالْبُنَادِقِ، كَمَا أَوْفَدَ خَبْرَاءَهُ يَعْنِيُونَ الْأَمِيرَ الدَّرْزِيَّ عَلَى صَبِّ الْمَدَافِعِ وَفَقَ أَحْدَثَ طَرَازَ، وَحَرَضَ مَسِيحِييَ لُبْنَانَ عَلَى تَشْكِيلِ مَقَاوِمَةٍ لِلْحَكْمِ الْعُثْمَانِيِّ، فَصَارَتْ مَرَاكِبُ السِّلَاحِ تَقِفُ فِي وَضْعِ النَّهَارِ فِي مَرَاغِي صَيْدَا مَزُودَةً الْمَقَاوِمِينَ بِالْبُنْدُوقِيَّةِ الْقَدَاحَةِ الْمَخِيفَةِ، عَائِدَةً بِالْحَرِيرِ وَالزَّيْتِ وَبِالْبَهَارَاتِ.

وَجَدَ الْوَالِي نَفْسَهُ فِي خُضْمِ تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ، وَلَا مَتَسَعٍ لِلتَّمَتُّعِ بِرِفَاهِ الْوَلَايَةِ وَامْتِيَازَاتِهَا، مُحْمَلًا وَزَرَ الْمَقَاوِمَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ فِي شَامِ الْعَرَبِ، وَصَرَاعَاتِ الْعَشَائِرِ وَالْعَائِلَاتِ، وَمَلَا حَقَّةَ فُلُولِ التَّابِعِينَ لِلصَّفْوِيِّينَ، وَإِنْقَاذَ الدِّينَارِ الشَّامِيِّ الَّذِي نَهَارَ قِيَمَتُهُ، وَيَخْفَ وَزْنُهُ، كَمَا أَنَّهُ مَطَالِبٌ بِرَفْعِ تَسْعِيرَةِ السِّلَعِ وَالْبَضَائِعِ الَّتِي لَمْ يَعُدْ النَّاسُ قَادِرِينَ عَلَى احْتِمَالِ الْمَزِيدِ مِنْ غَلَاثِمِهَا، وَمِنْ ثَمَّ إِجْبَارُهُمْ عَلَيْهَا، وَشَكْمُ كُلِّ

اعتراض أو تملل في صفوف الانكشارية أو عامة الناس من العرب، كانت لديه أسباب كثيرة للسهر والغضب والضجر والتفكير، وقد بلغه للتو تمرد العلماء في المغرب على سلطانهم الذي أهدى مدينة العرائش المغربية لملك إسبانيا، فاسقطوا بيعته وأباحوا دمه، وألقوا جثته في البرية تنهشها الضواري، وأعلنوا حداداً يخلعون فيه أحذيتهم الصفراء، ويلبسون كما اليهود، النعال السود، إلى أن تعود العرائش للمسلمين على بعد الديار؛ كان ذلك الحدث إنذاراً لا يصح تجاهله، لم يدرك الحافظ إذا ما كان حداد شيوخ وعوام المغاربة نصرة للدين يعجبه، أو أن تمردهم على سلطانهم يخيفه ويؤرقه.

يموج العالم بالمتناقضات والكوارث والدماء؛ واعداءً بمزيد من الولايات، وتحققن حدقتنا عيني الوزير محمرتين، وينسدل جفناه متغصتتين. في مثل كل تلك المحن التي تحيط به متضاربة تنهش عقله، وتطيح بهدأة تفكيره، وتعكر صفوه واعتداده بمنصبه الجديد، يأتيه رسول القاضي بأمر لا يتظر حتى الصباح! وتطن أذناه بأزيز واهتزاز خفيف يكاد يفلق رأسه وجعاً. دس بنصره في أذنه ورجه بعنف مقطباً.

حلق الحافظ في الرسالة التي مهرها شيوخ الأموي بأختامهم، ثم دفع بها إلى يد مترجمه الذي تبعه متعثراً، تأتأ المترجم معيماً على الشيوخ تصدير كتابهم بالعربية، كأنما يحقرون الوالي التركي، ثم ترجم إجمال ما جاء في الكتاب، من شرح قضية الغريب الكركي الذي استفرد بأفكار صوفية أقرب إلى الكفر، فترندق وما أخجله منحه فرصة ليتوب على أيدي الشيوخ، بل إنه قرعهم، وجادلهم بغلظة، وكان من قبل قد أفسد أجواء اليمارستان؛ لخلل في مزاجه وعقله، ثم وصلت به

الحال إلى أن استنكر حق السلطان في نيل دعوات المؤمنين المسلمين على منابر
مساجد الله، وجادل في استحقاقه تلك الرحمة التي خصه الله بها.
عند هذا الحد؛ تغضن جبين الحافظ، وتلاصق حاجباه استنكاراً، وأزبد بضيق
قائلاً بالتركية:

- سيس*..

خط المترجم كتاباً موجزاً لا يحتمل التأويل، يهدر فيه دم المجنون الذي جاء
خبره، ويكل أمر قتله للقاضي، لكن الوالي أضاف عبارة أراد بها أن ينتهي من تافه
الشأن الذي قطع انشغالات ليله، أشار بسبابته لكاتبه قائلاً:
- أكتب.. يطوف، ويشهره، ثم يقتل؛ قطعاً لدابر الفتنة.

قبل دق ختمه على الكتاب، أضاف المترجم آية من القرآن الكريم ارتأى أنها
مناسبة للحال، تفنن في خطها وإمالة حروفها، كاتباً ﴿ولكم في القصاص حياة يا
أولى الأبواب﴾.

ثم دق الوالي الوزير أحمد حافظ باشا ختمه.

في الفضاء غموض عجيب، حلكت الكون خالطتها صفرة كابية، والهواء السريع
النقي حمل أتربة وذرات سناج خفية أثقلت صدور المتنفسين.
عاد الحارس بكتاب الوالي على ظهر فرس وفرها له الجندرمة في القلعة، قطع
الطريق المحاذية للساحة المكتظة بالنائمين أرضاً، والقائمين تتحرك زوالاتهم

* قلة أدب.

بوتيرة متكررة كأنما يتدفؤون بحراك أجسادهم، وتمكن من سماع هرمة خفيفة
لصوت امرأة تشدو بالغناء وسط جمع الناس، يرتج الشدو غاصاً بالدمع مختقاً
بالنشيج، ثم ينفرد:

يا عين عذرك في حبيك واضح سحي لوحشته دماً أو أدمعاً
سهل، إذا لمس الصفا سال الندى صعب، إذا لمس الأشم تصدعاً*

ولج الحارس الإسطليل يودع فرسه، فوجد السائس خائفاً يضرب رأسه
بقبضته متشكياً، وقد حطمت الخيول مصاريع وأقفال حظائرها، ولم يتمكن من
السيطرة عليها، ففرت مفزوعة، وتسببت في رعبه من أسباب هيجانها الذي بدأ في
أول الليل وتصعد على نحو مربك، كما خاف ملامة القاضي وعقابه جراء تفريطه
بالخيل وفشله في لجمها، لم يتوقف الحارس لمواساته، فقد سبقه الحارس الأول
وواساه مطبباً كتفه، وإن أسرع كلاهما بعد ذلك هارين من الريح والصقيع
يتقدمهما السيف وهو يحكم شد عباءته يداري سيفه وسلته، شقت لهم في البوابة
الخلفية فتحة ضيقة، احنوا رؤوسهم ودلفوا منحنين، بينما كان الفجر يميز سواده
ببياض شفيف خط الأفق عازلاً الأرض عن السماء، وخالط صوت الأذان هدير الريح.
توضاً الشيوخ يرافقهم الساعور وكاتب المحكمة، وحمل الحرس ماءً قليلاً
ليحيى، نقلوا عقدة أغلاله المشدودة وراء ظهره إلى أمام صدره؛ كي يتمكن من
غمس كفيه في الطاس؛ وتبليل وجهه بما يشبه الضوء المنقوص، ثم ترك برفقة
حارس وحيد في الحجرة، بينما لحق الحارسان الغائبان والسيف على الضوء

* ابن النبيه.

لحوقاً متعجلاً، واصطفوا متلاصقين وراء الرجال؛ يؤمهم العشاوي؛ يصلون
الفجر جماعة.

أطال القاضي سجوده؛ غير راغب في رفع رأسه عن الأرض، مثقلاً، غلبه
الإرهاق والوجل، وانقضت ركعات الصلاة؛ فما جاهر بتكبير أو آية أو دعاء، فقد
غل الصمت حناجرهم، وعقد ألسنتهم، فقاموا وقعدوا، ركعوا وسجدوا؛ زائعي
الفكر والروح، ثم تشهدوا بسباباتهم راعشين، وسلّموا يمينه ويسرة، قبل أن يقف
القاضي ويتناول بتباطؤ كتاب الوالي.

ربما خطر ببال أحد الشيوخ تعجب من سرعة استجابة الوالي لما خطوه، لم
يكونوا يظنون أن الجواب يصل في تلك السرعة المذهلة، ظنوا الليل يؤخره، أو
يحول دون وصول الخيالة ريح أو مطر، ولعلمهم تركوا هامشاً بسيطاً يرفض فيه
الوالي اقتراحهم فيأمر بحبس أو يعيد المجنون إلى مشفاه، لكن الكلمات واضحة
جلية، وكاتب المحكمة الذي أمسك بالكتاب بعد أن قرأه القاضي بناظره كان
مرغماً على القراءة جهراً، أضواء الفجر باهتة يعترئها غبش، تسلفت من صفحات
النوافذ الزجاجية ممتزجة بظلال ألوان النقوش والخطوط التي تداخلت فيها
شظايا الزجاج المعشق، ولم يكن في فضاء الحجرة نامة توحى بصوت أو حراك،
حتى النار انطفأت تماماً، حبس الحراس أنفاسهم، والسياف ينظر في الوجوه
الذاهلة يستجلي ذاك الوجوم، صفير الريح يعبر الباب بين الفينة والأخرى، ثم
حشجة الهواء يمر في صدر التاجي وهو يسحب نفساً عميقاً، وقد اختلجت
عضلات وجنتيه، واستجمع شجاعته قائلاً:

- سَوَدَ اللهُ وَجْهَهُ، لَمْ يَتْرِكْ لَنَا مَنفَذًا.

هتف الميداني بلهفة:

- كتاب الوالي لا ينفذ إلا إذا لم يتب الرجل، لقد أمهلناه حتى الصباح،
وحاشا الله أن نظلمه.

بدا لو أن هناك متسعاً لمحو الأمس واليوم معاً وعودة الحياة إلى إيقاعها،
تنفس الشيوخ الصعداء، وانهدم الساعور متعباً على الأريكة، في حين قال التاجي:
- إذا لم يتب صاحبكم ولم ينب، سيكون من الجهالة تطويفه، فيقع بين
أتباعه والجند خصومة ولد، عندما أمر الوالي بالتطويف والتشهير إنما
أراد به عبرة لسواه، لكنه لا يعرف أن الناس في الخارج أعوانه، وقد تزايدوا
بدلاً من أن يطردوهم الصقيع، فلا نفع بتلك الغلظة، نخرجه؛ فيتصرون له،
وقد يخلصونه من أيدي الجند، وتراق دماء كثيرة، لا أعتقد خروجه حياً
من مجلسنا هذا؛ صواباً.

تعوذ البوريني من الشيطان وتمتم:

- ذاك سابق لأوانه.. سابق لأوانه، تفترضون الأسوأ!
أشار القاضي بهزة رأس إلى السيف الواقف إلى يمين المجلس، وقال بتؤدته
المخيفة الجادة:

- إنما نحترز، وقد تجهزت بأسباب كل حل نصل إليه، فالسيف هنا، ولم
يفتني خطورة إخراج الرجل بين العوام والمريدين البلهاء، بل يهرق دمه في
هذا المجلس الشريف، سيكون الوالي لنا شاكراً، فلسنا في حمل فتنة تعم
دمشق، إذا لم يتب هذا الكركي؛ سار إلى حنقه بقدميه.

أُخرج يحيى من الحجرة الجانبية، وبالع الحارس في دفعه ليرضى الشيوخ ويفصح عن هيئته الخاصة، كان الحرس قد أعادوا غل ذراعيه وراء ظهره، إلا أن ماء الوضوء القليل جلا وجهه بالرضا، وعلقت قطرات منه في لبدة لحيته الكثة تبرق كحبات ماس، غاب عن عينيه وخم النعاس، بل فج من وجهه نور رائق لطيف، ألم السيف بالنور في نظرة خاطفة لم يُشها؛ غض بصره سريعا، وراح يتسلى بجر سيفه الأزرق الحاد المسنون من غمده وإعادته، كأن ما يدور في المكان لا يعنيه، وتكوم الساعور في مكانه فزعا؛ غير قادر على النظر إلى يحيى الذي وقف في منتصف القاعة.

لم يكن يسيرا سماع الكلمات التي تتردد بين شفاه الكركي، فهو يهمس بلطف، وتندغم الأحرف في تعالق، ويفوه مغمضا عينيه بكلام مأثور عن المتصوفة:

- اقعد في ثقب الإبرة ولا تبرح، إذا دخل الخيط في الإبرة، فلا تمسكه، وإذا خرج، فلا تمده، وافرح؛ فإني أحب الفرحان، وقل لهم: قَبَلْنِي وحدي، وردّكم، فإذا جاؤوا معك، قبلتُهم، ورددتُك، وإذا تخلفوا، عذرتهم، ولمتُك، فالناس كلهم براء*.

سكت الرجال إلا التاجي الذي تقدم عن قاضي القضاة بخطوة جانبية لا يلحظها الراؤون، قال:

- ما زلت على هذرك منذ الأمس!! أيّ إبرة وأي ثقب يا هذا؟ تحدث بما يفهم الناس ولا يضلّك الخيال، أما منحنك فرصة للتفكير بحالك ودنياك؟

ما وقع فيها وما يجد؛ لتعقل وتنظر ليوم جديد في حياتك؛ إن أردت لهذه الحياة أن تستمر.

تبسم يحيى ابتسامة عريضة أجفلت الشيوخ وقطعت إقدام قاضي القضاة،
فتراجع إلى الوراء يطلب كوباً من الماء، ويحيى يجيب ناظراً في وجه التاجي:

- الحياة التي أعرف تنقضي، لكنها تتجدد كل يوم، تولد بثوب قشيب، هي ذات الحياة التي كانت، وجوهها شتى، وأسماءها مغايرة، وجوهرها واحد.

ارتشف القاضي كوبه، ثم اعتدل في مواجهة الرجل، وإن تفادى تلاقي النظرات، قال:

- استيقظت فيلسوفاً، وقد تركناك بالألمس تخاصم السلطان وتحرض الهوام والعوام، وما قدرت عاقبة تعنتك، وقصاص ذاك الخصام، وهو خصام في الدين قبل الدنيا.

رد يحيى مستبشراً:

- في الدين نجته، في الله لا نخاصم، فالمحسوب لا يخاصم ولا يعارض.

احتد صوت القاضي وتحسرج:

- لكنك خاصمت وعاندت، وهما أنت ترجع للترهات، إذا كنت محباً لله هكذا، طائعاً، كيف لم تذكره قبل أن تطأ عتبات خلفائه من السلاطين؟ وكيف لم تطعه بطاعة من يستخلفه؟ اذكر الله ينفعك.

تدفق نور النهار من النوافذ، وتكسر الضوء على الرياش وبلاط الأرض في
مثلثات ومربعات تعكس زخارف النوافذ، ووقعت على وجه يحيى دائرة نور
ساطع زادت بهاء وجهه، وهو يردد شعر المتصوف الرذباري:

- الله يعلم أني لست أذكره... وكيف أذكره؟ إذلست أنساه؟

وقف الميداني شفوفاً هلوفاً وصاح:

- كيف لا تذكره يا هذا؟ ما دمت لست تنساه، دعك من خلا بيط الكلام،

واستقم، وقر بوضوح إسلامك، واعتذر عما صدر منك، خلص نفسك

وخلصنا، وإلا؛ فأنت جاهل بما ينتظرك من قصاص، ثكلتك أمك.

اتسعت ابتسامة يحيى في وجه الميداني، رأى في خوفه خيراً وضميراً حياً، وعلم

أن الرجل يمد يده يحول بينه وبين سوء العقاب، لكنه حين فتح شفثيه يدعو

بخشوع غاب عنه كل قصاص قد يكون:

- إلى الله أشكو، وهو متمقم، ظلاً أقام بأرض أتخنت بالأسية، وكفأ أرادت

غير ما يطلب الهدى.. وعيناً تعامت عن رشاد البرية... فيا رب، يا ذا

الانتقام، أبن لنا مقام خطانا في الطريق السوية.

التفت التاجي غاضباً إلى قاضي القضاة وصاح:

- أسمعت الرجل؟ يتظاهر أنه يناجي ربه وهو يضمّر الدعاء علينا، أسمعت؟

سعل قاضي القضاة ثم النقط أنفاسه، واقترب خطوة من الكرسي:

- يا رجل، تعرف أنك إذا لم تقدم اعتذاراً وتذلاً كما يجب؛ فإن الوالي وقع

بقصاص لا تنجو منه؛ أنت هالك.

تمتم يحيى:

- ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾، و«الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا».
- خرجت كلمات القاضي جافة راجفة:
- تخاصم ولا تتوب!
- لا أخاصم محبوبي، وأخاصم السلطان الظالم، وأتوب عن ضعفي وخوفي، ولا أتوب عن حق.
- صاح الميداني:
- أي شيء يستحق أن تتسبب في إزهاق روحك يا رجل؟
- تتمم يحيى:
- وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع*

رمي الميداني جسده جالساً في أسى إلى جوار البوريني، وسار التاجي بنزق جيئةً وذهاباً، والقاضي ينحني إلى أوراق الكاتب ويلقنه هامساً، ثم يتحرك لينقل همساً جديداً للسياف الذي انتصب عوده وتأهب، وفرد أطراف سلته فاستقامت متكورة على الأرض، بينما الساعور يضغط زنديه بكفيه ويطأطئ رأسه، إلى أن طلب قاضي القضاة من الحرس الالتفاف خلف يحيى والحرس على تثبته، ثنوا قدميه دون مشقة، فجثا جسده في منتصف القاعة، وتحرك بقية الحرس متوترين يرقبون، ووقف القاضي ينظر إلى يحيى جاثياً، ثم يقرأ ما خطه الكاتب:

- في مجلسنا هذا مجلس الشرع الشريف، وفي يومنا هذا، الثلاثاء، الثامن من ذي القعدة، سنة ثمانى عشرة بعد الألف، من تاريخنا الهجري، ويأجمع

* لبید بن ربیعہ.

الشيخ الحاضرين، والمينة أختامهم، وانصاعاً لترسيم صادر عن مولانا، والوالي، أحمد حافظ باشا، الوزير، نائب السلطان، وبعد أن تحقق لنا إصرار محكومنا يحيى الكركي على ضلاله وتحريفه، واحتكامه إلى كتب الضلالات عوضاً عن الاكتفاء بكتاب الله، وسنة نبيه، خالطاً البدع بالشرع، محرّضاً الغافلين من العوام، متمادياً على السلطان وحقوقه، جريئاً على الإفتاء دون حق، فإننا نقر؛ وقد استتبناه؛ فما تاب، أن يوقع به القصاص الذي حكم به مولانا والوالي، فيهرق دمه في باحثنا هذه، وفي ساعتنا تلك، ليظهر أن سيف الشريعة طائل الوقع لأهل الضلال والتحريف، كما أمرنا في كتابة الكريم: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، واحذرهم أن يفتنوك﴾، صدق الله العظيم.

تراجعت القلوب وجفت الحناجر، وتفادى المجتمعون النظر إلى المحكوم، وأشاح الميداني بوجهه عن المشهد متحاملاً على معدته تنذر بقذف ما فيها، في حين اتخذ السيف موقعه على يمين يحيى، وسحب سيفه كاملاً من غمده، رفع الشيخ إلا الميداني، رؤوسهم متمهلين مسترقين النظر، وظل السيف المدرب على إزهاق الروح دون تبعات، حريصاً على أن لا تلتقي عيناه بعيني ذبيحه؛ تشاغل بالتدقيق بنصل سيفه يقيم حدته، ويرقب تلامع بريقه، ثم يدفع بقدمه سلته على بعد أمتار من يحيى الجاثي على ركبته.

لمح يحيى على الأرض التماعات أسقطها الضوء من شفرة السيف الذي يتلاعب به السيف، فتراقت أمامه، تبسم متذكراً ولعه بلعبة الضوء والظل في طفولته، ثم فكر راضياً أنه في لحظاته الأخيرة، وأن الروح سيف الله، والبدن

المكثف غمده، فكأن اللعبة انكشفت له تماماً، وغمرته بهجة المعرفة؛ فألهته عن وجل الموت.

تمهل السيف رافعاً سلاحه الحديدي الثقيل في محاذاة كتفه، ناظراً إلى الخط الأفقي اللامع الذي رسمته مرآة نصل السيف ضوءاً على مؤخرة جيد المحكوم، ومقدراً أن السيف سيعرف مهواه بدقة، خاطب القاضي يحيى قبل أن يعطي أمره الأخير:

- هل تريد أن تقول شيئاً؟

فكر الميداني في إطراقته متمنياً، سيعتذر، سيعتذر.

وفكر الساعور مفجوعاً، سأعتزل مهنتي والحياة.

وفكر البوريني دائخاً، أي نهار مفجع طلع علينا!

وحدقت أعين الحراس وشنفت أذانهم، وصوت يحيى يردد:

- اللهم، ارحم ذلّي وتضرعي إليك، وآنس وحشي بين يديك، وارحمني

برحمتك، يا كريم.

اهتزّ السيف في يد السيف، فأخفضه واستشّق مزيداً من الهواء، تشاغل بالتلفت عن النظر إلى قاضي القضاة، لكن ذلك لم يطل، فقد رفع سيفه مجدداً، وتبع بناظره سطر الضوء الأفقي على جيد قتيله الذي حافظ على رأسه مرفوعاً، فما أحوج جلاده لنخزة ترفع الرأس وتكشف الجيد، بدا هادئاً لا ترتعش أوصاله ولا تهتز رموشه، ولا يحاصر ذبأحه بنظرات التحدي، كما لو أنه مسافر إلى البعيد، ترنم بكلمات عذبة مغمض العينين:

- إلهي.. مميت الحي.. مستأثر البقا.. أمت فيَّ يا ربي خطي أتلفت خطي...
وروحاً أطاحت بالذي كان والتي.. إلهي... مميت الشرف في كل ملة، أمت يا
إلهي الشرف في كل ملتي... أمت شر هذي النفس إن غرها الهوى... وعد لها
من نفسها برء نفسها.. فلا برء لولا أنت من كل علة... يا إلهي.. يا
مميت...

أراد الميداني الصراخ بأن تلك المناجاة توبة عن كل ذنب كان أو يكون، لكن
حلقة تيبس، وانحبس لسانه، ودمعت عيناه، وأراد الساعور إطلاق قدميه في
فرار مدعياً أنه وإن كان حكيماً تعود على رؤية الجراح، وشق جسد البشر في
قطع ورتق، إلا أن قلبه يخونه في رؤية مثل هذا القصاص، لكنه شل في
مطحه، وغامت موجودات المكان في ناظريه، وأغمض البوريني جفنيه،
يرمش بين الفينة والأخرى واجفًا، وحدث الحراس كأن لهم عيون أموات
مفتوحة على الفراغ، وهبطت كف قاضي القضاة في إشارة أخيرة للسياف
الذي شد عضل زنده، وأحكم قبضته على ممسك سيفه، وهوى بضربة
سريعة، متقنة، حاسمة.

وقعت أحداث ذلك اليوم المشؤوم، الثلاثاء، الثامن من ذي القعدة في
العام، ثمانية عشر بعد الألف، الموافق ستمائة وعشرة بعد الألف الميلادي،
انقضت آجال كل الحاضرين آنذاك، وإن عاشوا زمناً بعد ذلك التاريخ،
فمنهم من نسي، ومنهم من انطوى على حزنه، ومنهم من ظل يحدث بما
صار حتى توفاه الله، بعضهم حمل الجسد مقطوع الرأس إلى مقبرة قليط عند

الباب الصغير، فواروها التراب بعد أيام من وقوع الزلزلة، وإن لم يعثروا على أثر للرأس؛ رجحوا أن الأرض ابتلعتة، أو أن السيف حمله بسلته إلى حيث لا يدرون، وانقضى زمن طويل وتراكت أغبرة التاريخ وتقلبت أحوال. لم يكن الكركي مهماً في صيرورة الحياة، ولا ترك وراءه أقوالاً وأمثالاً، ولا أقيم له مقام أو زاوية، انتهى ذكره تماماً، إلا شذرات لا وزن لها، تمر خفيفة بين أرتال الكلام في كتب تاريخ منسية لا يقرؤها أحد، لكنه لسبب مجهول، اختارني وأغواني في بدايات القرن الحادي والعشرين، شدي من قلبي لتتعلق في حكاية مظلمة عجيبة، كان أقسى فصولها تلك المشاهد الموهلة التي حدثت في الثواني التي تلت قطع رأسه بضربة السيف الماهر المدرب، لم يفسح الكركي لي لأتحرر منه، أو أخط كلمة النهاية السعيدة في حكايته كما رغبت، ولا رحماني، ولا شفع لي العذاب الطويل الذي تجرعته وأنا أعيشه منذ عام الطاعون في جليجول، حتى عام الزلزلة في الفيحاء، لم يعتقني، بل أشهدني على تلك الثواني الهائلة بكل حذايرها، ثوان مرت كأنها الدهر.

بعدما قص نصل السيف عنقه، وطيّر رأسه، جذبني إليه، أدخلني في عينيه، رأيت بناظريه أو رأى بناظري، وجحطتُ، كما جفنيه اللذين استجابا للوجع، طار الرأس وهوى ثم تدرج وأنا فيه، وانقلب، فشاهدت قدم السيف تدفع بالسلة في تخبط مذعور، عليها تتلقف الكرة الطائرة ورشاش الدم، لكن الأرض مادت فجأة، فأزاحت السلة في اتجاه بعيد، ورششت الشرايين المقطوعة دماً كثيراً على الأرض، وتطايرت لطخات حمر على رداء السيف

وعبادة القاضي الذي نفر إلى الوراء، وصعد الألم مثل جيش نمل من أسفل الفك، منتشراً فيّ، وفي تجويف جمجمته، صاح لسان الرأس المقطوعة:

- إلهي... يا إلهي...

نظرتُ؛ ثم رأيت شيئاً عجيلاً.

شاهدت البوابة تنخلع وتطير في الهواء مع عصف كثير؛ اهتزت الحجرة ومالت وانبعث من جدرانها عواء صادر عن الشروخ التي تضربها من الأعلى، وتشربها إلى الأسفل أو العكس، وتطوح الحارس مفزوعاً عند البوابة، وقد زلت قدمه إثر انزياح العتبة، وانشقاق الأرض في ثلم عريض، وصار صراخ كثير وهوج، والقضاة ينقلبون ويتساقطون على ظهورهم ويتكلمون أكداً، لفّت الرأس، فشاهدت الناس في الخارج يتخابطون، يتعانقون، يتدافعون، ويرفعون أيديهم إلى السماء جاثحين مولولين، وقفت جمان بينهم بكامل بهائها وروائها، مثل زنبقة سوسن، تنظر إلى الأعلى غير عابئة بالأرض تتشقق في كل اتجاه، نظرتُ حيث تنظرُ، شاهدت نفثاً من أوراق وبتلات الورد الأحمر جلبته الريح وبعثرته؛ انهمر من البستان في أعلى الهضبة، منصّباً على الناس كأنه مطر غزير، انقلب الرأس في تدحرجه مرات؛ فغامت الرؤيا كالضباب، ثم شاهدت وجه الجلاد ينوح وبدنه يتطوح في المكان يبحث عن عمود يسنده، وكان جسد يحيى المذبوح جاثياً على بعد أمتار ينتفض، ثم ينهدم، وينهار مدفقا دماً غزيراً قانياً، وأقدام الشيخ تنهض من تكدسها؛ تراكض في القاعة، تتعثر بالجيب والعباءات، وترتطم بالجسد مقطوع

الرأس، نط المشخص من جيب القتيل، برم مثل مخروط الدوامة ولعبة
البلبل التي يحب، ثم انزلق في الفتحة المنشقة عند أرض العتبة، وغاب.
رأيت نوراً كثيراً، وسمعت هدهدة على مقام السيكا، وشممت عطراً كأنه
الياسمين، وتقدمت مني امرأة لم يسبق لي لقاءها، لكنني عرفتها، جاءتني نفل
في معمة الزلزلة، أنقذتني من الدهس بين أقدام الضائعين، وحملت الرأس
المقطوع مثل قمر بين كفيها يخر دماً، وتبسمت فتبسمت، ثم راحت تصعد
بي سلماً من ضياء، والعالم من تحتنا، يجوح، ينوح، يتجلل بالسواد والدم،
وقد صعقته الزلزلة.

خاتمة

عندما رفعت إصبعي عن مفتاح حروف الطباعة في جهاز الحاسوب، قلت؛ سأكتب كلمة النهاية، لكنني ترددت، لأنني على قناعة بأن النهاية مستحيلة في تلك الحكاية، كل ما مر يتجدد في كل عصر، لكنني اقترفت رواية على الورق، من أين جاءت؟ كيف سكن هذا الرجل عقلي لعامين!! وهل سيغادرن كما تفعل شخوص أعمالي دائماً؟ الأهم ماذا يهم القارئ من تلك الخاتمة المتعلقة بي؟

الرواية التي عاشت بين أصابعي وعيني وعقلي والورق، كانت عالماً ينداح مثل مسقط حجر في ماء، لكنني كنت أشرع للريح أشرة عقلي ونفسي، كما أنه مسحورة مستعدة من يملك شذرات يعينني عليها في غياب المراجع حول تلك الحقبة التي تلبستني، طالعت كتباً ومؤلفات، وتابعت مواقع على الإنترنت، كان العالم يتأمر معي في تأثيت زمان سكت عنه التاريخ، وتلقفته اهتمامات طفيفة متناثرة جهدت في لملمتها، ثم انصرفت إلى نصي الأدبي متصرفة بكل ذلك الإرث العظيم كما يقودني خيالي وخياري، مستعيرة لمحة أو نسمة عابرة، بدا كما لو أن تلك الكتب على يسير ما استحلبت منها؛ أرسلت قبساً من نور أضواء جنبات عالمي، وأرشدت طريقي في العتمة، ربما بشرارة أو فكرة، نافذة على عصر؛ لتكون الرواية، وجدت من حق الذين مضوا على درب المعرفة وتوقفوا ليوشوشوا بأذني بعض ما لديهم، أن أوثقهم مراجع أعانتني فشيدت عالمي كما لو كنت عشته، ذلك العالم الفسيح انبعث من مخيلتي التي صنعت الشخوص والأماكن والأحداث، لكنها ارتكزت على عالم حقيقي كان هنا قبل أربعمئة عام وما يزال، لهذا أذكر تلك المراجع التي تبدو منبثة عن الرواية، لكنها بعض لبناتها:

- القرآن الكريم.
- الإنجيل - العهد الجديد.
- التوراة - العهد القديم.
- «الكامل في التاريخ» لابن الأثير.
- «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»، المحبي - محمد الأمين فضل الله -.
- «التاريخ عند العرب في العصر العثماني»، د. مهند مبيضين.
- «الكرک ثلاثة الأثافي، تاريخاً وبوابة فتوح»، د. حسن محمد الربابعة.
- «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان»، محمد بن طولون.
- «تراجم الأعيان من أنباء الزمان»، البوريني.
- مخطوط «مجموع فتاوى - جواز عقد صلاة الجمعة للسلطان في ظل عسف جبة الضرائب وتعطل الناس عن الفلاحة والعمل الذي هو عبادة»، مكتبة الأسد - مجموع فتاوى رقم 221/4 ق 41-32.
- «القانون في الطب» لابن سينا.
- «عيون الحكمة» لابن سينا.
- «موجز تاريخ الموسيقى والغناء»، صبحي أنور رشيد.
- رسائل إخوان الصفا.
- «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية» للقرضاوي.
- «عيون الأبناء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيعة.
- «قديماً في البلد المقدس»، كلاوس بولكين.
- ديوان ابن النبيه.

- «السيرة الهلالية»، عبد الرحمن الأبنودي.
- «الأعلام» للزركلي.
- «إخبار العلماء بأخبار الحكماء وإنباه الرواة على أبنائه النحاة» للقفطي.
- «مروج الذهب» للمسعودي.
- «الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة»، لمحمد بن أبي السرور البكري.
- «المقدمة» لابن خلدون.
- «تاريخ الدولة العثمانية»، د. علي حسن.
- «العهد العثماني»، محمود شاكر.
- «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة»، أسد حيدر.
- «الفتوحات المكية» لابن عربي.
- رسائل ابن عربي.
- «فصوص الحكم» لابن عربي.
- أناشيد أبي مسلم البهلاني المتصوف العُماني الزنجباري بصوت الفنان لطفي بشناق.
- «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي»، محمد لوج.
- «أبو حامد الغزالي والتصوف»، عبد الرحمن دمشقية.
- «موقف ابن تيمية من التصوف والمتصوفة».
- «روائع من التاريخ العثماني»، أورهان محمد علي.
- «المختصر من الممتع زاد المستقنع»، للعلامة ابن عثيمين.
- «حقائق عن التصوف»، عبد القادر عيسى.

- «تاريخ العرب الحديث»، د. هند أبو الشعر.
- «حديث عيسى بن هشام»، محمد المويلحي.
- «إجماع المسلمين على احترام مذاهب الدين»، محمد سيد الطنطاوي.
- «الأردن في موروث الجغرافيين والرحالة العرب»، المهدي عيد الرواضية.
- «معجم المنسوبين إلى الديار الأردنية»، حنا حداد ونعمان جبران.
- «إحكام الأحكام الصادرة من شفتي سيد الإمام»، ابن النقاش المغربي المصري.
- «الشرعية السياسية في الإسلام»، عزام التيمي.
- «رحلة ابن خلدون»، حررها نوري الجراح.
- «رحلة المقدسي»، حررها شاكر لعيبي.
- «خطرة الطيف» للسان الدين بن الخطيب، حققه أحمد مختار العبادي.
- «الأغاني» لأبي فرج الأصفهاني.
- «ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح» لأحمد الدولة، تحقيق د. إبراهيم السامرائي.
- «حركات التمرد في مصر في بداية العهد العثماني» (1517-1524) والنتائج المترتبة عليها، د. أسامة محمد أبو نحل.
- شبكة الإنترنت في المعلومات التي تتناول طرق التصوف والأحكام الفقهية والمعلومات الجغرافية والتاريخية والعادات والتقاليد والفلكلور، والمهن المشروحة مثل النحال والنساج وطارق النحاس والعطار والوراد وصناعة الحرير.
- الأغاني الشعبية في فلكلور كل من جنوب الأردن وسيناء ومصر والشام.

- سيرة الهلالي في التراث الشعبي في مصر والبادية
- أساطير وميثولوجيا فرعونية وعربية.
- معلومات تاريخية في حوار شفاهي مع المؤرخ المعلم الشيخ د. عبد الكريم غرايبة.
- تاريخ سلاطين بني عثمان.. من أول نشأتهم حتى الآن، ليوسف أضاف- محمد زينهم و محمد عزب
- تاريخ الدولة العلية العثمانية -للمؤلف محمد فريد- المحقق إحسان حقي.
- سلاطين بني عثمان بين قتال الإخوة و فتنة الانكشارية- نزار قازان.
- وثيقة بائع أنتيكات ووثائق في السوق الشعبي بوسط البلد - عمّان.

صدر للمؤلفة

- في القصة القصيرة:
 1. مع الأرض، دار الأيام، الخرطوم، 1976.
 2. أوركسترا، دار الكندي، الأردن، 1996.
 3. دومينو، دار نارة، عمّان، 2009.
- في الرواية:
 1. رحلتي، دار الهيثم، بيروت، 1979.
 2. شجرة الفهود... تقاسيم الحياة، دار الكرمل، عمّان، ثم في خمس طبعات، عن كل من أمانة عمّان، ووزارة الثقافة الأردنية، ومكتبة الأسرة، ودار شرقيات، القاهرة، ودار نارة، عمّان، 1994.
 3. شجرة الفهود... تقاسيم العشق، منشورات أمانة عمّان، ثم في طبعتين عن كل من دار شرقيات، القاهرة ودار نارة، 1997.
 4. القرمية، أمانة عمّان، ثم صدرت في طبعتين عن كل من دار سنابل، القاهرة، ووزارة الثقافة الأردنية، 1999.
 5. خشخاش، الدار العربية للدراسات، بيروت، وحُوّلت إلى نص مسرحي من إعداد الكاتبة، وتم إخراجها على خشبة على يد المخرج حكيم حرب، 2000.
 6. نارة-إمبراطورية ورق، دار نارة، عمّان، 2005.
 7. الصحن، دار أزمنة، عمّان، 2003.

8. دفاتر الطوفان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ثم في طبعتين عن وزارة الثقافة الأردنية ودار نارة، 2007.
9. الرقص مع الشيطان، دار نارة، عمّان، 2008.
10. بابنوس، دار ضفاف، بيروت، ودار الاختلاف، الجزائر 2014.
11. خرايش الحرف على الروح، الآن ناشرون وموزعون، عمّان 2016.
12. فستق عبيد، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة كتاب عرب، مصر، 2016، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2018.
13. على جناح الطير سيرة المدائن، ط1، دار الحوار، دمشق، 2011، الآن ناشرون وموزعون، ط2، عمّان، 2019.
14. نحن، ط1، دار نارة، عمّان، 2009، الآن ناشرون وموزعون، ط2، عمّان، 2019.
15. بقعة عمياء، ط1، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2020.
16. يحيى، دار ثقافات، أبو ظبي، والدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2010، الآن ناشرون وموزعون، ط2، 2021.
17. المدّ، دار الشروق، عمّان، 1983، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، ط3، 2018، ط4، 2019، ط5، 2022.

khrais_samiha@yahoo.com

